جين اير

رواية

شارلوت برونتي

تقديم ومراجعة

د. سليم أبو المجد

الكتاب: جين اير.. (رواية)

الكاتب: شارلوت برونتي

ترجمة: د. سليم أبو المجد

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

برونتي ، شارلوت

جين اير.. (رواية) / شارلوت برونتي، ترجمة: د. سليم أبو المجد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٤٠٦ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ١١ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٢١٧٢١ / ٢٠١٩

جين اير
رواية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

شارلوت برونتي روائية وشاعرة إنجليزية، واحدة من ثلاثة شقيقات مارسن الكتابة الأدبية، تعتبر رواياتهن من كلاسيكيات الأدب الإنجليزي، ونشرن أعمالهن بأسماء رجال، وكانت شارلوت هي أكبرهن، وقد نشرت الطبعة الأولى من روايتها الأشهر "جين اير" تحت اسم مستعار لرجل هو "كيور بيل".

ولدت شارلوت في ٢١ ابريل ١٨١٦م وهي الثالثة من بين ستة أطفال لماريا برانويل وزوجها المهاجر الأيرلندي باتريك برونتي، وكان يعمل راعيا في الكنيسة الإنجليزية في هيوارث، وقد انتقلت الأسرة لتقيم معه في هيوارث في عام ١٨٢٠م وبعد عام واحد من الانتقال توفيت زوجته قبل أن تتم عام زواجها العاشر، تاركة بناتها الخمسة والابن الوحيد في رعاية شقيقتها اليزابيث برانويل ، وفي أغسطس عام ١٨٢٤م تم إرسال شارلوت مع شقيقاتها إلى مدرسة "كوان بريدج" وهي مدرسة داخلية خاصة ببنات القساوسة في لانكاشير (والتي تشبه كثيرا مدرسة لوود في روايتها جين آير) وقد أثرت الظروف المتردية للمدرسة على صحة الفتيات فأصيبت الأختان ماريا (مواليد ١٨١٤م) واليزابيث (مواليد ١٨١٥م) بمرض السل وتوفين نتيجة له في يونيو ١٨٢٥م بعد وقت قصير من إرسالهن إلى المدرسة، فأعاد الأب شارلوت إلى المنزل لكي تعيش مع العائلة.

وفي منزل الأب القسيس في هيوارث، بدأت شارلوت وشقيقتيها إيميلي وآن في تأليف حكايات عن سكان ممالك خيالية والتأريخ لحياتهم ، أكملت

شارلوت تعليمها خلال الفترة من عام ١٨٣١ م إلى عام ١٨٣٢م في رو هيد، مير فيلد .. وهناك كتبت روايتها "القزم الأخضر" عام ١٨٣٣ م تحت اسم مستعار هو ليسلي، وقد عادت شارلوت إلى هذه المدرسة فيما بعد كمعلمة لثلاث سنوات خلال الفترة من عام ١٨٣٥م إلى عام ١٨٣٩م ، ثم تركتها لتعمل كمربية خاصة لدى عدد من العائلات في يوركشاير، وفي عام ١٨٤٢م سافرت شارلوت واميلي إلى بروكسل للتسجيل في مدرسة داخلية يديرها قسطنطين هيجر وزوجته كلير زوي بارينت هيجر في محاولة لتسديد أقساط انتسابهم إلى المدرسة.

درست شارلوت اللغة الإنجليزية بينما درست ايملي الموسيقى ، وقد اضطرت الأختان إلى ترك المدرسة عام ١٨٤٢م عندما توفيت خالتهم اليزابيث برانويل ، فعادت عادت شارلوت وحدها إلى بروكسل مرة أخرى في يناير ١٨٤٣م لتقوم بالتدريس في المدرسة مرة أخرى ، ولكن إقامتها الثانية في المدرسة لم تكن سعيدة على الإطلاق، فشعرت بالوحدة وأصابها الحنين إلى الوطن وتعلقت بعمق بقسطنطين هيجر (يرى بعض دارسيها أن شخصية ادوارد رويشستر في روايتها جين آير كانت مستمدة من شخصية هيجر)، فعادت مرة أخرى إلى هيوراث في يناير عام ١٨٤٤ م

في مايو ١٨٤٦م نشرت شارلوت، ايميلي وشقيقتها آن مجموعة مشتركة من القصائد تحت أسماء مستعارة: كيور، إليس وأكت بيل ، وقد استخدمت شارلوت اسم كيور بيل – المستعار– عندما نشرت أول روايتين لها.

وكتبت شارلوت فيما بعد: "اخترنا هذه الأسماء الغامضة على ضوء رغبة في استخدام أسماء ذكورية مسيحية بشكل إيجابي، حيث لم نكن نود أن نعلن أننا نساء، لأنه في ذلك الوقت كان سيتم التعامل مع طريقة كتاباتنا وتفكيرنا على

أساس أنها أنثوية ، كان لدينا انطباع قوي أن مؤلفاتنا سينظر إليها باستعلاء، حيث لاحظنا كيف يستخدم النقاد أسلوب مهاجمة الشخصية كوسية عقاب، وأسلوب الغزل كمكافأة، وهو ليس بالمدح الحقيقي".

وفعلاً، حكم النقاد على روايتيها بأنها خشنة، وكانت هناك تساؤلات حول هوية كيور وعما إذا كان رجلاً أو امرأة.

وقد توفي شقيق شارلوت، برانويل، بسبب إفراطه في شرب الخمر في سبتمبر عام ١٨٤٨م على الرغم من اعتقاد شارلوت بأن وفاته كانت نتيجة لمرض السل. وهو المرض الذي قضى على شقيقتيها اميلي في ديسمبر عام ١٨٤٨م وآن في مايو عام ١٨٤٩م فبقيت شارلوت ووالدها فقط. ولم تغادر هيوورث أبداً لأكثر من بضعة أسابيع في وقت واحد حيث لم تكن ترغب في ترك والدها المسن الذي أصيب بالعمى، لكن في ظل النجاح الكبير لرواية "جين آير" أقنعها ناشر الرواية بزيارة لندن وهناك كشفت عن هويتها الحقيقية.

وفي يونيو ١٨٥٤، تزوجت شارلوت بآرثر بيل نيكولز، مساعد والدها، وحملت بعدها بوقت قصير. بدأت صحتها بالتدهور سريعاً خلال هذا الوقت، وتوفيت شارلوت، مع ابنها الذي لم يولد بعد، في ٣١ مارس ١٨٥٥، في سن الثامنة والثلاثين وأرجعت شهادة وفاتها السبب إلى مرض السل الذي سبق أن حصد أرواح أمها وشقيقاتها، ودفنت شارلوت في المدفن العائلي في كنيسة القديس مايكل وجميع الملائكة في هيوارث، غرب يوركشاير، إنجلترا.

تعد رواية جين اير من الأعمال المبكرة التي دعت إلى تحرر المرأة ، وهي كذلك من الروايات التي تبرز قوة الرومانسية ، ويمكن اعتبارها سيرية تتحدث عن وقائع حياة الكاتبة نفسها. نشرت رواية جين اير بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٨٤٧ في لندن بقلم اسم مستعار هو "كيور بيل"، وتتبع الرواية أحداث حياة

جين آير منذ طفولتها حيث عاشت لدى زوجة خالها مروراً بالظروف القاسية التي عاشتها في مدرسة لووود وصولاً إلى حياتها في قصر ثورنفيلد ، حيث تعمل مدرسة لابنة السيد روتشستر الذي تقع في حبه، وتعرض الرواية الظلم الاجتماعي مجسداً في أحداث حياة جين المأساوية، وتحمل قيم أخلاقية عالية،وتتوضح لدى جين حقائق كثيرة عن الدين والنظام الاجتماعي.

تدور أحداث الرواية بشكل عام حول حياة جين إير من الطفولة اليتيمة التي عاشتها في منزل خالها حيث الاضطهاد والرعب إلى المدرسة الداخلية في فترة المراهقة ، وصولا للعمل كمربية في منزل السيد إدوارد فايرفكس روشستر الذي تقع في حبه بجنون ، لكن مرجعياتها الأخلاقية تمنعها من الانجراف في علاقة غرامية معه لأنه مازال متزوجا من المرأة المجنونة التي تثير الغموض في القصر الكبير ، فتغادر جين المكان وتتشرد في أنحاء إنجلترا لفترة قبل أن تعود لحبيبها و تجده في حالة يرثى لها بعدما فقد بصره وإحدى ذراعيه ، على خلفية إحراق زوجته القصر وانتحارها في إحدى الليالي بإلقاء نفسها من أعلى السطح في نوبة جنون عنيفة ، ودون أي شفقة تنذر جين حياتها للحب و تتزوج إدوارد الذي يستعيد ما يكفي من بصره لرؤية ابنه الأول بفضل جين و إخلاصها.

جين إير رواية سبقت بها تشارلوت برونتي عصرها بمختلف المقاييس ، فهي تطرح فيها من جهة أفكاراً تقدمية عن المساواة بين الرجل و المرأة في عالم تسيده الرجال من بابه إلى محرابه بينما النساء فيه كائنات من الدرجة الثانية ، ومن جهة أخرى تقدم نموذجاً روائياً جديداً مختلفاً عن السائد في الأوساط الأدبية حينها وتحديداً في مجال الرواية الغرامية الرومانسية ، دون أن ننسى التنوع الهائل في النمط الأدبي المتبع بين الرومانسية والرعب والنقد الاجتماعي في خليط غير مألوف في مثل ذلك الوقت .

ما يلفت الأنظار في جين إير، ليس المرأة التي تشكل الشخصية الرئيسية فيها رغم أن ذلك كان قليلاً في تلك الأيام ، بل ما تميزت به تلك المرأة من استقلالية ونزوع نحو الحرية، ما جعل منها شخصية أنثوية تتحكم بمجرى أحداث الرواية وتفاصيلها، على عكس ما جرى عليه العرف الروائي في تلك الفترة ، إضافة للتحليل النفسي الدقيق والغوص عميقا في النفس الأنثوية وصولاً لمنابع الصراع الداخلي الذي تعيشه جين بين الحب و الأخلاق ، لتقدم برونتي في مجمل الرواية بيئة فلسفية خصبة وغنية ومتقدمة عن أفكار القرن التاسع عشر التقليدية البالية .

أجل ، كانت شخصية جين إير تعبيراً حقيقياً عن روح برونتي المتمردة على الواقع و المتعطشة لعالم تشرق عليه شمس الحرية و المساواة، وليس هناك من دليل على ذلك أكبر من تقمصها اسماً ذكوريا لتتمكن من الكتابة ونشر أفكارها على نطاق واسع ، و لم يكن ذلك مجرد طريقة للهروب من حصار الواقع بل كان طريقة ذكية للتسلل إليه دون أن يشعر بذلك أحد وتحدياً سافراً لذلك الواقع الذي يميز بين أبنائه ذكوراً و إناثاً ، ليتجلى كل ما سبق في عبارة برونتي الشهيرة : "لن أهجرك أيها القلم قبل أن تفارقني الروح، ولتكن أسماء الذكور قناعا نموه به أوراقنا ".

و هكذا ، مزجت شارلوت برونتي حياتها المليئة بالألم مع طموحها الذي لا يحده شيء بحياة أفضل لبنات جنسها ، وتكفلت عبقريتها الفذة بما تبقى، لتقدم للبشرية تحفة أدبية جعلت من صاحبتها واحدة من شهيرات النساء، وعلى الرغم من الإطار الرومانسى والطبيعة الغرامية للرواية ،فهي من الاعمال المبكرة التي دعت إلى تحرر المرأة وممارسة حريتها في النمط الذي تشاء، وأهمية العلم

والعمل لتكوين شخصية ناضجة واثقة من نفسها قادرة علي مواجهة المواقف، وتتخذ قراراتها طبقا لاهدافها.

تقول برونتي عن بطلتها، جملة على تماس مع سيرتها الذاتية: " إن الكتاب ليخطئون إذ يصرون على أن يجعلوا من بطلاتهم جميلات ، ويتخذوا من هذا قاعدة ولسوف أثبت أانهم مخطئون ،سأقدم بطلة خالية من الجمال ضئيلة الجسم مثلي تماما".

جين إير رواية سبقت بها تشارلوت برونتي عصرها بمختلف المقاييس، فهي تطرح فيها من جهة أفكاراً تقدمية عن المساواة بين الرجل والمرأة في عالم تسيده الرجال من بابه إلى محرابه بينما النساء فيه كائنات من الدرجة الثانية، ومن جهة أخرى تقدم نموذجاً روائياً جديداً مختلفاً عن السائد في الأوساط الأدبية حينها وتحديداً في مجال الرواية الغرامية الرومانسية، دون أن ننسى التنوع الهائل في النمط الأدبي المتبع بين الرومانسية والرعب والنقد الاجتماعي في خليط غير مألوف في مثل ذلك الوقت .

ما يلفت الأنظار في جين إير عما سواها، ليس المرأة التي تشكل الشخصية الرئيسية فيها رغم أن ذلك كان قليلاً في تلك الأيام ، بل ما تميزت به تلك المرأة من استقلالية ونزوع نحو الحرية، ما جعل منها شخصية أنثوية تتحكم بمجرى أحداث الرواية و تفاصيلها، على عكس ما جرى عليه العرف الروائي في تلك الفترة ، إضافة للتحليل النفسي الدقيق والغوص عميقا في النفس الأنثوية وصولا لمنابع الصراع الداخلي الذي تعيشه جين بين الحب والأخلاق، لتقدم برونتي في مجمل الرواية بيئة فلسفية خصبة وغنية ومتقدمة عن أفكار القرن التاسع عشر التقليدية البالية.

أجل ، كانت شخصية جين إير تعبيراً حقيقياً عن روح برونتي المتمردة على الواقع والمتعطشة لعالم تشرق عليه شمس الحرية والمساواة، وليس هناك من دليل على ذلك أكبر من تقمصها اسماً ذكوريا لتتمكن من الكتابة ونشر أفكارها على نطاق واسع، ولم يكن ذلك مجرد طريقة للهروب من حصار الواقع بل كان طريقة ذكية للتسلل إليه دون أن يشعر بذلك أحد وتحدياً سافراً لذلك الواقع الذي يميز بين أبنائه ذكوراً وإناثاً، ليتجلى كل ما سبق في عبارة برونتي الشهيرة: "لن أهجرك أيها القلم قبل أن تفارقني الروح، ولتكن أسماء الذكور قناعا نموه به قرطاسنا" .

وهكذا .. مزجت برونتي حياتها العاصفة بالألم مع طموحها الذي لا يحده شيء بحياة أفضل لبنات جنسها، وتكفلت عبقريتها الفذة بما تبقى ، لتقدم للبشرية تحفة أدبية جعلت من صاحبتها واحدة من ألمع النساء و علماً خالداً يرفرف بحرية في سماء الأدب العالمي .

جين إير رواية تجاوزت معنى الزمن، وتألقت في سماء الأدب، وارتقت بصاحبتها إلى قمة الشهرة و النجاح، لتبقى حتى يومنا هذا تثير جدلاً لا يقل عما أحدثته وقت صدورها الأول في منتصف القرن التاسع عشر .

منذ مطلع الألفية الجديدة وبتأثير تعاظم شأن تيارات ما بعد الحداثة وتيارات العبث، قيل كلام كثير حول انتهاء زمن الكلاسيكية الأدبية، وراجت تكهنات لا حصر لها بابتعاد القراء عن هذا النوع الأدبي، إلا أن جين إير أثبتت العكس وفاجأت العالم عام ٢٠٠٤ وهي في المرتبة العاشرة لأكثر الكتب شعبية وفي العالم حسب استطلاع للرأي قامت به هيئة الإذاعة البريطانية الـ BBC، لتؤكد مجدداً أهميتها ومكانتها التي لم ينتقص منها الزمن.

د. سليم أبو المجد

الفصل الأول

الفأرة اللعينة

لم نستطع ان نتنزه على أقدامنا بعد ظهر ذلك اليوم كما هي عادتنا؛ لأن رياح الشتاء الهوجاء غطت صفحة السماء بعد الغداء بسحب قاتمة لم تلبث أن صبت أمطاراً غزيرة ..

والحق أني فرحت لانقلاب الجو .. لأني لم أكن من أنصار المشي الطويل الذي يهد القوى في أيام الشتاء ولا سيما عندما تجنح الشمس إلى الغروب، فتلك النزهات المزعومة كانت تتكدر دائماً بملاحظات المربية طبيسي" التي لا تنقطع –في لهجة قاسية– فهي لا تعرف في خطابي أسلوباً غير أسلوب التقريع.

ويضاف إلى هذا العامل الظاهر، عامل آخر أشد منه خفاء .. ولكنه أبعد منه في نفسي أثراً، فقد كنت أشعر بالهوان لما تثبته تلك النزهات الطويلة الشاقة من هزالي بالقياس إلى أطفال "خالتي" الثلاثة: "اليزا" و"جون" و"جورجييانا".

وما أن نعود إلى القصر، حتى تبادر المربية الخبيثة طبيسي" برفع تقريرها المسموم إلى "خالتي مسز "ريد" وهي مستلقية علىأريكة وثيرة قرب المدفأة .. فتدنى "خالتي" أولادها المدللين منها، و تزجرني كي أبتعد عن هذه الجلسة العائلية السعيدة وانفرد في حجرة الأطفال، متوعدة أياي أنها لن ترضى عني وتقربني إليها إلا إذا أبلغتها "بيسي" أن سلوكي قد تحسن وطباعي صارت أكثر دماثة وطلاقة ولطفاً ..

وبعد ظهر ذلك اليوم أيضاً، تكررت شكوى طبيسي" .. وتكرر إقصاء "خالتي" لي، فلما حاولت الدفاع عن نفسي، وانكرت أنه بدر مني ما يستوجب

الملام .. عبست وأشاحت بوجهها عني قائلة: –هذه المكابرة في حد ذاتها خلق سيء .. فاذهبي عني إلى موضع آخر في القصر، بحيث لا يبدر منك صوت ولا يشعر بوجودك أحد، ما دمت لا تستطيعين الكلام بطريقة لائقة ..!

وكانت تتصل بقاعة الجلوس تلك، قاعة مائدة صغيرة ستخدم عادة للإفطار .. وبها مكتبة صغيرة، فانتقيت كتاباً كثير التصاوير والزخارف، ثم صعدت إلى إفريز النافذة وتربعت متوارية بالستار الأحمر السميك، ورحت أرقب من خلال الزجاج انهمار المطر وعصف الرياح بأشجار الحديقة .. وأنا معزولة تماماً عن عوادي ذلك الطقس، ومعزولة من جهة أخرى بطيات الستارة عن "خالتي" وأولادها والمربية والخدم الذين يضيقون بي كما أضيق بهم، ولا أمنية لي الآن أن أخلو إلى تأمل الجو حيناً، وتقليب صفحات الكتاب الذي في حجري حيناً آخر، وأن ينقضي الوقت هكذا وقد نسيت الناس ونسوني ..!

ولكن باب الحجرة فتح بعد وقت قصير، ودوى صوت "جون ريد" وهو يناديني باحثاً عني بذلك الاسم الساخر:

– أين أنت يا مدام "موب"؟

ولما لم تقع عيناه علي، صاح ينادي أختيه:

– خرجت "جين" في هذا الجو المطير من البيت! .. أسرعا بإخبار أمي أن هذه البهيمة التعسة خرجت تحت المطر!

وشعرت أنني أحسنت صنعاً بالتواري خلف الستارة .. ولكن "اليزا" اكتشفت مكاني، فاضطررت للظهور من مكمني، وسألت "جون" في ضيق:

– ماذا تريد مني؟ ..

– ينبغي أن تقولي لي يا مستر "ريد"! تعالى هنا! ..

واضطجع في مقعد ضخم، وأومأ لي بطرف أصبعه أن أمثل بين يديه!

وكانت سن "جون ريد" يومئذ أربعة عشر عاماً .. أي أكبر مني بأربع سنوات فقط؛ لأني كنت في العاشرة من عمري، ولكن "جون" كان فاره الجسم، يبدو أكبر من سنه بكثير .. داكن اللون، غليظ الملامح، شديد الاسراف في انفعالاته ونزواته .. فيه نهم للطعام سبب له الترهل المبكر، وشعف البصر، ومتاعب الكبد والأمعاء، وبسبب اضطراب صحته، احتجزته أمه شهرين من مدرسته الداخلية الراقية، وكانت أكبر هواياته في تلك العطلة المرضية المزعومة هي المزيد من بواعث سوء صحته: أعني الاكثار من الأكل، وفيما بين الوجبات الاكثار من تنغيص حياتي وإرضاء نزوعه إلى السيطرة على حسابي ..!

وكم حاول ناظر مدرسته أن يقنع "مسز ريد" أن ابنها "جون" لا يشكو من شيء في الواقع إلا الاسراف في تناول الفطائر والكعك والأطعمة الدسمة التي لا تكف أمه عن إرسالها إليه في المدرسة، ولكن قلب الأم أبى أن يصدق هذه الفرية القاسية عن ولدها .. وأصرت على أن سبب اعتلال لونه راجع إلى أعباء الدرس والتحصيل، وإلى حنينه إليها أيضاً! .. ولذا استقدمته ليقضي تحت رعايتها هذه الفترة من أسابيع الشتاء ..!

والحقيقة أن "جون" لم يكن يعرف العمق في أي عاطفة من عواطفه .. فهو عاجز عن حب أي إنسان سوى نفسه التي بين جنبيه، أما أمه وشقيقتاه فهو لا يحبهما إلا حباً سطحياً، في حين كان مقته لا يفتقر إلى العمق؛ لأن ذلك كان يغذي أنانيته وحبه للتسلط السهل .. فما كانت تنتقضي ساعة من غير ان يزجرني أويؤذي شعوري، فلا عجب أن كل خلية من خلايا جسدي كانت تقشعر كلما سمعت صوته أو أحسست به قربي ..

أنه أشبه بشعور القطة أمام كل من نوع "البولدوج" شعور بالفزع لا حد له مع اليقين بأنه ما من أحد قادر على حمايتي منه .. فأمه تتعامى عن كل ما يسببه لي من الأذى، وتتصامم عن كل شكاة أرفعها إليها، والخدم من باب أولى لا يجسرون على الوقوف في وجه مولاهم .. وهكذا نشأت على طاعته والامتثال لأوامره وأنا صاغرة ..

وبهذه الروح نفذت إشارته المتغطرسة، ومثلت أمامه وهو مضطجع في المقعد الكبير .. فظل يخرج لي لسانه بضع دقائق، ويأتي بسحنته من الحركات ما يحطم اعصابي .. لأني في كل لحظة كنت أتوقع أن يلطمني على حين غرة، ويبدو أن الكراهية انطبعت على ملامحي .. وفجأة من غير أن يتكلم لطمني لطمة شديدة جعلتني أترنح وتراجعت خطوة أو خطوتين بحركة لا إرادية لابتعد عن متناول يده .. وزمجر قائلاً:

– هذا عقاب لك على خبثك وتلصصك ووقاحتك مع أمي وتواريك وراء الستائر .. أيتها الجرذة!

ولم تكن هذه أول مرة يسبني فيها "جون ريد"، وقد تعودت ألا أرد على شتائمه .. وانصرف كل تفكيري إلى الاستعداد لتحمل اللطمة التي لم أشك لحظة في أنها ستنصب على وجهي في ختام الشتائم ..

وسألني:

– ما الذي كنت تفعلينه وراء الستارة؟

– كنت أطالع كتاباً ..

– أرني هذا الكتاب ..

وجئته بالكتاب من فوق النافذة، فقال:

– ليس من حقك أن تستعمل كتبنا .. فأنت، كما تقول والدتي عالة علينا، لم يترك لك أبوك شيئاً تعيشين منه، ومكانك الطبيعي هو الشارع مع أمثالك من المتسولين، لا أن تنشئ وتخالطي سادة من طرازنا تأكلين معنا من طعام واحد، وترتدين ثياباً نشتريها من أموالنا .. فهل وصل بك الأمر إلى العبث بكتب الخاصة؟ .. نعم كتبي الخاصة، أنها ملكي أنا، فهذا البيت بكل ما فيه ملكي أنا .. أو هكذا سيكون فعلاً وشرعاً بعد عدد قليل من السنين، والآن ففي هناك عند الباب .. بعيداً عن المرآة والنوافذ.

واطعته بلا تفكير .. ولكني لم ألبث أن أدركت نيته عندما ابصرته يزن المجلد في يده ويحكم تصويبه نحوي، ففزعت وقفزت بعيداً عن مرمى الكتاب، ولكن قفزتي جاءت متأخرة بعض الشيء فأصابني الكتاب الضخم ووقعت .. فاصطدم رأسي بمصراع الباب وسالت منه الدماء وأنا أصرخ:

– أيها الولد الشرير! .. يا لك من قاتل .. نخاس .. فظ القلب مثل ملوك الكفار وقياصرة الروم١ ..

فإني قبيل تلك الفترة كنت قد قرأت كتاب "جولد سميث" عن قياصرة روما، فرسخت في ذهني صورة أخاذة لـ "نيرون" و"كاليجولا" ومن إليهما من الطغاة القساة .. وكنت في سري أوزع تلك الأسماء والألقاب السرية في أي ظرف من الظروف .. وما أن سمع "جون ريد" ما رميته به من النعوت والأوصاف حتى صرخ:

– ماذا تقولين؟ .. هل لي أن تقولين هذا الكلام؟ .. هل سمعت يا "اليزا" و"جورجيانا" ماذا قالت الآن؟ .. يجب أن تعرف والدتنا كل شيء عن هذه الفأرة اللعينة، ولكني أولاً ..

وبإصرار اندفع نحوي وانقض علي وأنا على الأرض، فرفعني من شعري وكتفي .. ورأيت في عينيه عزائم القتلة، وكان الدم قد سال من رأسي إلى عني فزاد من شعوري بالفزع، وفقدت كل سيطرة على نفسي، فلا أعلم ماذا صنعت يداي في تلك اللحظة .. لأنه جعل يصرخ، فنزلت أمه والمربية "بيسي" والوصيفة "أبوت" وفرقن بيننا .. وهن يتبارين في التعوذ بالله من الشيطان الذي ركبني وجعلني "أعتدي" على السيد "جون" ..

ولما استرد مسز "ريد" أنفاسها، أصدرت قرارها الحاسم:

- أحملا هذه الملعونة إلى الغرفة الحمراء .. وأغلقا بابها عليها بالمفتاح، ولا تتركا لها بصيصاً من الضوء أو شمعة أو فحماً ..

ولم أشعر إلا والأيدي الأربع تنقض علي فتحملني حملاً إلى الطبقة العليا من القصر ..

ولم أكف عن المقاومة طول الطريق .. وتبين لي أن تمردي القصير الأجل لم يثمر سوى العقاب المريرة التي لم أتعود مثلها من قبل .. فقام برأسي أنه لا مناص من الثبات في الموقف الذي اتخذته لنفسي ..

وقالت "بيسي":

- اقبضي بقوة على ساعدي هذه القطة المتمردة ..

فأجابت الوصيفة "أبوت" وقد اكتسى وجهها بالامتعاض:

- هذا مخجل يا مس اير! .. كيف تتطاول يدك وتضربين فتى صغيراً تكفلك أمه، وهو بالنسبة لك بمثابة السيد للمسود؟! .. فألهب هذا التعبير مشاعري، فقلت بحدة:

– كيف تجرؤين على القول بأنه سيدي؟ .. هل أنا في منزلة الخدم في هذا البيت؟! ..

فاستدركت الوصيفة، وأرادت أن تخفف من حدة أسلوبها:

– لا أقصد أن أقول أنك خادمة، ولكنك لا تؤدين عملاً في هذا البيت الذي يكفلك ذووه .. تذرعي بشيء منن التروي وفكري فيما جنته يداك.

وفي هذه اللحظة، كنا قد أشرفنا على باب حجرة سجني التي أشارت "مسز ريد" بحبسي فيها .. فأشارت المربية والوصيفة إلى شيء يشبه الكرسي لكي أجلس عليه، وأجبرتاني على الجلوس .. وما أن تم لهما ذلك حتى تمردت وهممت أن أقوم، وإذا بهما يمسكان بي .. ثم صاحت "بيسي" بصوت ثاقب ولهجة صارمة:

– سنضطر إلى شد وثاقك إذا لم تخلدي إلى الهدوء ..

ثم وجهت حديثها إلى "ابوت":

– أن رباط ساقك أكثر متانة من رباطين هاته فهو كفيل بشل حركتها ..

وما أن رأيت معاملتها القاسية وتصميمهما على إتباعها معي –مع ما تنطوي عليه من مهانة وإذلال لي تأباهما عزتي– حتى قر في نفسي أن الهدوء أولى بي وأجدي، وقلت لهما أنني سأخلد إلى السكون والامتثال، وأنه لا داعي لشد وثاقي .. واقتنعت "بيسي" بعزمي على الرضوخ، بيد أنها عاودت تحذيري بعدم العودة إلى التمرد ..

وعندئذ رفعت يدها عني، ثم وقفتا –هي وأبوت– تتأملاني في شيء من الغموض وعدم الثقة، وأخيراً خاطبت "بيسي" زميلتها قائلة:

- تصرف عجيب! .. لم يسبق أن اقترفت مثل هذا الجرم .. فعلقت "أبوت" على ذلك بقولها:
- ولكني أعتقد أن ذلك من طبيعتها .. وكثيراً ما أظهرت مسز "ريد" على ما تنطوي عليه نفس هذه الفتاة –رغم حداثة سنها– من مكر وخبث وخداع!

وما لبثت أن سمعت "بيسي" توجه على بالكلام:

- لا يغيبن عن ذهنك أيتها الفتاة أن مسز "ريد" ولية نعمتك، ولولاها لكان الملجأ مأواك!

ولم أعلق على كلامها، فطالما ترددت أصداؤه على مسامعي، منذ فجر وجودي في هذا المنزل .. حتى صار وقعه من تكرار سمعه طابعاً يبعث ففي نفسي كوامن الألم والشعور بالإذلال واعتبريه أمراً محكوماً علي بسماعه في أي وقت ..

وما لبثت أن طرق سمعي صوت "أبوت" توجه إلى الكلام قائلة:

- أرجو أن يكون مفهوماً لديك أيتها الغريرة أنك لست في منزلة الآنستين أو السيد "ريد" لمجرد أن والدتهم شملتك بعطفها وتكفلت بتربيتك معهم .. أين أنت مما ينتظرهم من ثراء؟ .. وعليك أن تعرفي أن استمرار وجودك في هذا البيت يتوقف على طاعتك وحسن سلوكك حتى تحظى بعطف أصحابه ..

وأردفت "بيسي" بصوت كسته بنبرة حنان:

- لعل عقلك يهديك أن ذلك لفائدتك .. فاجتهدي أن تكوني مثالاً رائعاً للأخلاق الحميدة، كي تضمني بقاءك في هذا المنزل، وأعلمي ان الطرد عاقبة التمرد وسوء الخلق ..

وأضافت "أبوت" كأنما تزيدني إيضاحاً:

– هذا فضلاً عن غضب الله عليها، فقد يصيبها مرض من ثورتها، وقد تموت محرومة من رضوان الله.

ثم وجهت الحديث لزميلتها قائلة:

– لنتركها الآن يا "بيسي" لتتذرع بالتعقل والإيمان، ولتصلي إلى ربها نادمة مستغفرة خشية أن ينزل بها مكروه ..

وخرجنا ثم أغلقنا الباب بالمفتاح ..

وتلك الحجرة الحمراء لم تجر العادة باستخدامها للنوم إلا في حالات الضرورة القصوى عند ازدحام القصر بالنزلاء والضيوف، وليس معنى هذا أنها صغيرة أو حقيرة .. بل هي كبيرة فاخرة، وأثاثها من طراز أثري فخم، وستائرها ثقيلة قاتمة .. وجميع الرياش والأثاث والسجاجيد قرمزية اللون أو ذات حمرة داكنة .. اللهم إلا غطاء السرير الأبيض الناصع، ومقعد كبير قرب الفراش لونه أبيض أيضاً ..

وبسبب الإهمال الطويل، كانت هذه الحجرة لا تتمتع بالتدفئة في الأيام العادية .. ولوقوعها في طرف البيت يشملها السكون، وسر ما يكتنفها من التباعد والإهمال أن المستر "ريد" لفظ أنفاسه الأخيرة فيها منذ تسعة أعوام، فاقترنت في أذهان الجميع بالهيبة والمأساة معاً ..

والقتني "بيسي" ومسز "أبوت" فوق مقعد منخفض قريب من المدفأة الرخامية الخامدة عن يسار دولاب الملابس، وعن يمين النافذتين الكبيرتين المغلقتين اللتين تتوسطهما مرآة ضخمة تضاعف اتساع الحجرة ومناظر اثاثها الفخم، وما أن تركتاني وحدي، حتى أسرعت إلى الباب والأمل يخامرني في أن أجده غير موصد بالمفتاح من الخارج .. ولكن خاب فالي، وأخذت اجيل بصري

فيما حولي، فطالعني وجهي في المرآة الكيرة مخوفاً مشعثأن زائغ النظرات، شاحب الوجنات، قريب الشبه بالأشباح التي تصفها الأساطير ..

وتحسرت على نفسي لما صرت إليه من الظلم والمهانة .. وآلمني حظي العاثر، فالفشل حليفي كلما حاولت استمالة القلوب من غير ذنب جنيته، في حين تظفر طاليزا" الخبيثة الطوية باحترام الناس .. وتظفر "جورجيانا" الحقود السليطة اللسان الفاسدة الذمة بالمكانة والتقدير، وليس هذا كله لشيء طيب فيها سوى جمال وجهها وشعرها الذهبي! وأما "جون" فهو المدلل الذي يغضي الجميع عن قسوته وانانيته وحمقه: يعذب الطيور، ويتلف الزرع، ويسرق الفاكهة من أشجارها، ويبسط لسانه الوقح في حق أمه، ويعيرها بسمرة لونها وكبر سنها، او يتلف ثيابها عمداً .. ولكن مغفورة له جميع خطاياه في نظرها! ..

وأنا؟ .. ما الذي أفعله من الصباح إلى المساء سوى الاهتمام بواجباتي وتحري رضاء الجميع عني من غير أنانية أو طيش .. فلا أظفر في أي وقت إلا بالتبرم والتحامل واتهامي بأنني طالع نحس خبيثة الفؤاد!

وتجمع الإحساس بالظلم في داخلي، فأوشكت أن أصرخ محتجة .. وفكرت في حيلة للفرار، فإذا لم أستطع فلا أقل من الإضراب عن الطعام! .. أليس الموت أفضل لي من احتمال هذا العذاب والنكال! ..

كاد الجنون يعصف بعقلي بعد ظهر ذلك اليوم الأسيف! .. أن ثورة الغضب كانت تغلي كالبركان داخل قلبي! .. وعبثاً راجعت صفحة حياتي سطراً سطراً بحثاً عن سر هذا التعذيب الذي ينالني على الدوام .. فما من مبرر لتعقبهم إياي جميعاً بالإيذاء الظالم والاتهام الغاشم ..!

وقد ظلت هذه الحيرة المجنونة تستبد بعقلي ووجداني، فلا أجد لأحاجيها جواباً كافياً أو علاجاً شافياً إلى ان انقضت سنوات وسنوات، وها أنا الآن أعرف حقيقة ذلك السر الخفي ..كنت النعجة السوداء في القطيع الأبيض الذي يسكن قصر "جيتسهيد" .. كنت نغمة مختلفة تماماً لا توافق بينهما على الإطلاق وبين سائر النغمات الموجودة هناك .. فلم يكن هناك أي تفاهم بيني وبين مسز "ريد" وأولادها وأفراد حاشيتها المقربين ..

والإنصاف يدعوني إلى الاعتراف بأن حبي لهم لم يكن أوفر من حبهم لي .. فقد كنت أجزي على مقتهم بمقت، وعلى حقدهم بحقد .. كنت أشعر أنهم غرباء عني، يخالفونني في المعدن والمشرب والنزعة، فغير عجيب أن يشعروا هم أيضاً أني لست مثلهم في شيء، وأنني لا أصلح لإدخال السرور على نفوسهم الأنانية، ولا أشعر أن مهمتي في الحياة هي التسرية عنهم وتغذية أنانيتهم .. فكان استقلالي في الرأي بغيظهم، وكان ذكائي بمثابة تحد لهم .. وطباعي الجادة وشدة حساسيتي تثير كراهيتهم، فلو كنت طائشة حمقاء، أو ضحوكاً خفيفة الظل، أو جميلة الملامح، أو قليلة الاعتداد بكرامتي واستقلال رأيي، لكانوا جديرين أن يقربوني منهم ويمنحوني مودتهم، ولما شعروا بأنني فتاة جاحدة للجميل ثقيلة الظل متعجرفة مع أنها تعيش عالة على أهل القصر ..

وبدأ الظلام يتسلل إلى أرجاء الحجرة القرمزية، وقد طرق سمعي صوت المطر، وهو يصفح زجاج النوافذ بلا هوادة .. كما خرق سمعي صفير الرياح في الغابة المتاخمة للقصر .. وشيئاً فشيئاً أخذت البرودة تتسرب إلى جسدي وتشل حركاتي، وعندئذ وهنت عزيمتي، وعدت استشعر الإحساس بالمهانة .. وخبت ثقتي بنفسي، وأطبق على شعو بانقباض شديد الوطأة .. فكان أشبه بقطرات باردة تتساقط على لظى حقدي! .. لقد اجتمعت كلمتهم على أنني خبيثة

شريرة .. ودار بخلدي أنني كذلك، وإلا فلماذا وطنت العزم على الانتحار جوعاً؟!

أليس ذلك جريمة؟ .. وتساءلت: هل استحق أن أموت؟ أو هل كان المدفن تحت هيكل الكنيسة هدفاً يغريني بذلك؟.. أنني أعرف أن مستر "ريد" مدفون في ذلك القبو .. فقادني ذلك إلى التفكير فيه وفي ذكراه، واستغرقني التفكير وقد شملني شعور بالوجل، وكانت صورته في خيالي باهتة .. ولكن الواضح أمامي أنه خالي، وأنه كفلني بعد أن أصبحت يتيمة الأبوين .. وأنه أوصى زوجته برعايتي، وأخذ منها وعداً بأن تعتبرني كأحد أولادها، وقد خيل لـ "مسز ريد" أنها نفذت الوصية حين كانت تعاملني وفقاً لطبيعتها، ولكن أنى لها أن تستشعر الحب لطفلة لم تخرج من أحشائها .. تعتقد أن رابطتها بها انفصمت بموت زوجها، وقد وجدت نفسها تعاني من ارتباطها بوعد قطعته برعاية طفلة تعتبرها غريبة دخيلة .. بل ترى أن من الاستحالة أن تشعر بحب لهذه الطفلة ..

وجال بخاطري ان مستر "ريد" لو بقى في حياً، لعشت في رحاب عطفه وحنانه .. وبينما أنا جالسة تجول عيناي بين الفراش وبين الجدران —وهما حائرتان ترنو منهما لفتة إلى المرآة الكبيرة، وإذا بي أتخيل الموتى وكأنهم يستشعرون الضيق– وهم في قبورهم– لأن الأحياء لا ينفذون وصاياهم، فإذا هم يرتدون احياء ليؤاخذوا الحانثين وينتصروا للمظلمون، وتراءى لي أن روح مستر "ريد" استشعرت ما تقاسيه ابنة شقيقته، فإذا بتلك الروح تنفض عن نفسها وتخرج من مثواها، وإذا بي أتمثلها أمامي في الحجرة، فطفرت دموعي وعلا نشيجي، ولكني تمالكت ثم أحسست بشيء من العزاء والسلوى.

وعقدت العزم أن أظل ثابتة الجنان، فرفعت رأسي وجعلت أدور ببصري في أرجاء الغرفة المعتمة، وفي هذه اللحظة لمحت قبساً من الضوء على أحد

الجدران، فتساءلت: هل هو خيط من أشعة القمر تسلل من فتحة في أحدى النوافذ، ولكن الضوء كان يتحرك على غير عهدي بضوء القمر الساكن .. وبينما أنا في غمرة الخوف والدهشة إذا بالضوء يرتسم على السقف ويتلاعب فوقي، ولعله صادر من مصباح في يد شخص .. ولكن لأن أفكاري كانت مشحونة بأحاسيس الفزع خيل إلي أن ذلك الشعاع نذير برؤيا من عالم مجهول، فتلاحقت ضربات قلبي، ودارت راسي وعشت في دوامة .. فازداد ضيقي واحتسبت أنفاسي وشعرت بدوار، ورأيت نفسي أتجه نحو الباب ورحت أعالج فتحه في استماتة، وفي لحظة طرق سمعي وقع أقدام خارج الحجرة، ثم إذا بي أرى الباب يفتح لتطل منه "بيسي" و"أبوت" وخاطبتني "بيسي" متسائلة: "هل أنت مريضة؟" وأردفت "أبوت" معلقة بأن ما سمعته أشاع الاضطراب في كيانها ..

وفي هذه اللحظة لم أتمالك نفسين فصحت بكل ما في استطاعتي من قوة:

– اطلقي سراحي .. اذهبي بي إلى حجرة الأطفال!

فقالت "بيسي":

– لماذا؟ هل من سبب! هل تراءى لك شيء أو أصابك مكروه ..

فما كان مني إلا أن تشبث بذراع "بيسي" وصحت في يأس:

– شاهدت ضوءً أشاع الهلع في كياني! ..

فقانت "أبوت" بأنفة واشمئزاز، أنني أصرخ رياء وأتصنع الوجل، أنني لا أعاني أي ألم، وأن ذلك من أفانين حيلي الخبيثة ..!

وطالعني وجه مسز "ريد" وهي تسأل بصوت صارم:

– ما كل هذا؟! .. لماذا حضرتما رغم تنبيهي بإهمال هذه الفتاة إلى أن يطيب لي أن أحضر إليها! ..

فقالت "بيسي":

- سمعناها تطلق صرخة مدوية ..

فعادت مسز "ريد" توجه الكلام لي:

- ابتعدي عن "بيسي" واتركي ذراعها .. وثقي أن الخداع لن يصل بك إلى الخروج من هنا .. ستبقين مدة أخرى، ولن أعفو عنك إلا إذا أعلنت خضوعك وتمسكت بالهدوء ..

- الرحمة يا خالتي! .. سامحيني .. لا أستطيع احتمال كل هذا أن راق لك أن تعاقبيني فليكن ذلك بطريقة أخف وطأة، فأنني أكاد أموت ..

- تذرعي بالهدوء .. فالعنف لا يجدي، بل هو أدعي للاشمئزاز ومضاعفة العقاب ..

ولا شك أنها كانت تشعر بالاشمئزاز فعلاً؛ لأنها كانت تتصور أنني أموه عليها .. بل كانت تعتقد أنني شريرة ذات روح وضيعة ورياء ومكر وخداع ..

وعندما خرجت "بيسي" و"أبوت" كان صبر مسز "ريد" قد نفذ، وبرمت بآلامي المضنية وزفراتي المتلاحقة، فدفعتني بقسوة إلى الوراء وأغلقت الباب بالمفتاح، دون أن تنطق بكلمة .. وما أن سمعتها وهي تبتعد، حتى انتابتني نوبة من الإغماء ..

الفصل الثاني

صدمة عصبية

وأفقت بعد فترة لا أذكر مداها .. وأحسست وكأنني كنت تحت وطأة كابوس مزعج، وخيل إلي أنني أرى ضوءً يخطف الإبصار أحمر اللون، يشيع الرهبة في النفس، تتخلله خطوط كثيفة قاتمة .. وأنني أسمع أصواتاً لا أتبين كنهها أو أصحابها وكأنها تنبعث في جو عاصف .. فتملكني شعور بالفزع والخوف، وتأثرت حواسي بالغموض الذي يحيط بي، وتنبهت بعد لحظات لأرى شخصاً ما يشملني برعايته، فيحملني بحنان ثم يجلسني بعطف ورفق لم أعهدهما من قبل، وأسندت رأسي لا أدري على وسادة أو ذراع .. واستشعرت راحة وطمأنينة كنت منهما محرومة، وتبددت حيرتي بعد فترة وجيزة، حين تبين لي أني أرقد في فراشي، وأن الضوء الأحمر الذي تراءى لعيني كان منبعثاً من المدفأة في حجرة الأطفال .. وعلى المنضدة شمعدان صغير مضاء إذ كان الوقت ليلاً، "وبيسي" واقفة بجانب سريري تحمل حوضاً، وجلس بجانب رأسي شخص يحنو علي في عطف وحنان ..

وغمرتني فرحة لا عهد لي بها .. وشملني شعور بالراحة لا يوصف، وأحسست بالطمأنينة عندما عرفت أن الجالس إلى جانبي شخص ليس من أهل القصر، وليس من ذوي القربى لأصحابه، وغضضت النظر عن "بيسي" رغم أنني لا أحمل لها من الكره مثلما أشعر نحو "أبوت"، وجعلت أتفرس في وجه الجالس إلى جانبي واتفحصه حتى تذكرته، ولم يكن سوى مستر "لويد" الصيدلي

الذي كان يتردد على القصر في حالات مرض الخدم؛ لأن السيدة كان لها ولأولادهما طبيب خاص، وعندما فاجأني وأنا اتفحصه بادرني بالسؤال:

- هل تعرفين من أنا؟

فبسطت له يدي وأنا أذكر اسمه .. فأخذها بين راحتيه وابتسم وهو يقول:

- ستستعيدين صحتك بسرعة.

عاونني على الاستلقاء على الفراش ثم وجه الحديث إلى "بيسي" ليؤكد عليها أن تكون شديدة الحذر، وأن تحول دون كل ما يزعجني في الليل .. ثم خرج بعد أن وعد بمعاودة الزيارة، فاحتواني الحزن لخروجه، فقد اعتبرته ملاذاً لي وهو جالس إلى جانبي، واثقل الحزن قلبي، عندما أغلق باب الحجرة خلفه وتركني في ظلام شامل ..

وسألتني "بيسي" بلهجة عطف لم أعهدها فيها من قبل، عما إذا كنت أرغب في النوم، ووجدت نفسي أجيبها بقولي: "ربما .. سأحاول".

- أتريدين طعاماً أو شراباً؟ ..

- ما بي حاجة إلى شيء .. شكراً ..

- سأذهب إذن لأنام، فقد انتصف الليل .. وفي إمكانك أن تناديني في أي وقت ..

تطور غريب في المعاملة، بل تغير من نقيض إلى نقيض .. أنها دماثة ما كنت أتوقعها، وكأنما شجعني حنانها فسألتها:

- هل أنا مريضة يا "بيسي"؟ ماذا حدث لي؟ ..

- لقد تأثرت أعصابك بسبب الحجرة الحمراء .. ولكنك لن تلبثي أن تستعيدي صحتك حالاً ..

وتركتني وتوجهت إلى حجرة الخادم المشرفة على شئون القصر –وهي بجانب حجرتي– وسمعتها تطلب من "سارة" أن تنام معها في حجرة الأطفال لأنها لا تجرؤ على أن تنام معي بمفردها، فربما –على حد قولها– أموت! وقالت "سارة" أنها تعجب لإصابتي بتلك النوبة، وهل يا ترى تراءى لي شيء مزعج .. وأخيراً وصفت سيدتها بغلطة القلب لقسوتها في معاملتي ..

وعادت "بيسي" ومعها "سارة" لتناما معي، وسمعتهما تتهامسان، ثم استغرقنا في النوم .. واستطعت أن أعي شيئاً مما كانتا تتهامسان به، وضع أمامي خطوطاً واضحة الملامح منها مثلاً:

- ظهر أمامها شبح ملتح بالبياض ثم اختفى ..
- ووراءه كلب ضخم داكن اللون ..
- سمعت ثلاث طرقات شديدة على باب الحجرة ..
- لمحت ضوءً في بهو الكنيسة يعلو القبر ..

وخمدت النار، وانطفأ الشمعدان، ونامت الاثنتان .. أما أنا فلا يعلم سوى الله كيف مرت بي ساعات تلك الليلة .. لقد تقضت وأنا في يقظة قاتلة مروعة، فقد أصابني ارهاف في السمع والنظر والعقل معاً، وتوترت حواسي خوف لا أستطيع وصفه ..

ولم يتخلف عن هذا الحادث مرض عضوي شديد الوطأة أو طويل المدى .. ولكن الذي حدث أنه أصاب أعصابي بصدمة، ما زلت أشعر بوطأتها ورد فعلها حتى يومي هذا ..

لقد سببت لي مسز "ريد" آلاماً نفسية وعقلية مبرحة، ومع ذلك فأني لا أحمل لها حقداً لأنها لم تكن تدري ما تعمل، لقد كانت شديدة القسوة علي، في الوقت الذي كانت تظن أنها تستأصل مني النزعات الشريرة ..

وجاء ظهر اليوم التالي، فغادرت فراشي وجلست متلفعة بشال من الصوف بجوار المدفأة .. وقد تدهورت صحتي إلى ضعف وهزال في كل أعضاء جسمي الصغير، ولكن أسوأ ما كنت أعانيه، أحساسي بشقاء نفسي يجل عن الوصف، أخذ يستنزف مني الدموع في سكون وصمت .. وكلما مسحت دمعة فاضت أخرى، وبالرغم من ذلك، فقد دار بخلدي أنه جدير بي أن أكون سعيدة لاحتجاب أفراد أسرة "ريد"؛ لأنهم خرجوا في عربة والدتهم .. كما كانت "أبوت" مشغولة بالحياكة في حجرة نائية، أما "بيسي" فكانت –رغم انشغالها بالعمل وتنقلها من حجرة لأخرى– تحدثني بين الحين والحين .. وكان حديثها يتسم بالرقة واللطف، الأمر الذي يبدو لي وكأنني أرفل في جنة من السلام والنعيم، بعد حياة القسوة والاذلال الدائبين، وعدم سماع كلمة شكر على ما أقوم به من أعمال .. فقد بلغت أعصابي إذ ذاك حداً لا تجدي في تهدئتها طمأنينة ..

وأتتني "بيسي" بكعكة شهية في طبق مزخرف .. وكنت فيما مضى شديدة الأعجاب بنقوش هذا الطبق وزخارفه، وطالما رجوتهم أن يسمحوا لي بمجرد لمسه وتأمله عن قرب فكانوا يضنون على بتلك الأمنية، ولكن ها هو الطبق المرموق، وقد صار في حجري، كي آكل منه طائر الكعك، ولكن طول الضن، جعل هذا الاغداق يفقد قيمته في نظري .. فلم أجد في نفسي رغبة للأكل، ووضعت الطبق بما فيه من الكعك بعيداً عني، وعندئذ اقترحت "يسي" أن

تأتيني بكتاب "رحلات جليفر" الذي طالما آنس وحشتي وزخرف أحلامي .. ففي تلك الرحلات الخرافية كنت أجد الملاذ من مرارة الواقع الذي أحياه ..

والعجيب في الأمر أن ذلك الكتاب ما أن صار بين يدي –بسطوره ورسومه– حتى زهدت فيه نفسي .. فنحيته عني فاستقر فوق المنضدة إلى جوار طبق الكعك ..!

وفي تلك الأثناء كانت "بيسي" قد انتهت من تنظيف الحجرة على عجل، فغسلت يديها واستخرجت من أحد الأدراج قصاصات من الحرير اللامع وراحت تفصل منها ثوباً لدمية "جورجيانا" وهي تغني بصوتها الرخيم أغنية شائعة من أهازيج الغجر الرحل .. بيد أني أحسست في طريقة غنائها في ذلك اليوم رنة حزن صادق جعلت تتغلغل في نفسي حتى انفجرت باكية .. وعبثاً حاولت "بيسي" أن تضع حداً لبكائي، واستبدت بها الحيرة لأنها لم تستطع أن تدرك ما يحملني على البكاء بتلك الحرقة ..

ودعى الصيدلي مستر "لويد" ليفحص حالتي .. وحاولت "بيسي" أن تلازمنا وتتولى الجواب عني على أسئلته، إلى أن رن جرس المائدة .. فأمرها مستر "لويد" أن تنصرف، وعندئذ انتهزت الفرصة وفتحت للرجل العطوف مغاليق قلبي وقلت له:

– حبسوني في حجرة مسكونة إلى ما بعد الغروب .. لهذا فزعت ومرضت يا سيدي ..

فتنازع وجه مستر "لويد" العبوس والابتسام وقال مترفقاً:

– حجرة مسكونة، أنت شابة في التاسعة من عمرك على الأقل وتخافين العفاريت؟

- أوه نعم! .. أخاف من عفريت مستر "ريد" بالذات .. لأنه مات في تلك الحجرة التي حبسوني فيها ولم يتركوا لي شمعة استضيء بها ..

- هذا كله من قبيل الخرافة .. ثم أننا الآن في النهار، فماذا يخيفك؟ ..

- ولكن الليل سيأتي بعد قليل .. ومن جهة أخرى أشعر بالشقاء لأسباب كثيرة ..

- حدثيني عن هذه الأسباب ..

ولم أستطع أن أوضح له ما أعني .. فقد كنت طفلة تشعر شعوراً قوياً، ولكنها لا تستطيع أن تحلل شعورها أو تفصح عنه .. فقلت له بإيجاز:

- أنا شقية لأنني يتيمة الأبوين وليس لي أخوة وأخوات ..

- هذا صحيح .. ولكن هناك خالتك وأبناء خالتك ..

- أنهم يسيئون معاملتي ..

- ألا تقدرين حظك الحسن بالمقام في قصر جميل كهذا؟

- جميل .. ربما .. ولكنه ليس بيتي يا سيدي .. ثم أن "بوت" أفهمتني أن منزلتي هنا في مرتبة الخدم، وكم كنت أريد أن أرحل، ولكني لا أستطيع ذلك قبل أن أبلغ أشدي ..

- أليس لك أقارب سوى مسز "ريد"؟

- لا أعتقد يا سيدي ..

- ولا أقارب من جهة أبيك؟ ..

- لا أعلم .. وعندما استفسرت من "خالتي" ذات مرة عن هذا الأمر قالت أنه ربما كان لي أقارب من الهمل والرعاع من أفراد أسرة أبي الوضيعة الشأن .. ولكنها لا يمكن أن تدري عن هؤلاء الناس شيئاً! ..
- فكري جيداً يا "جين اير" .. هل إذا اكتشت وجود أقارب كهؤلاء تحبين أن تشدي الرحال للإقامة معهم؟

وبسرعة تبدت صورة الفقر مفزعة في خيالي فصحت:

- كلا .. لا أريد أن أتصل بالفقراء! ..
- حتى ولو أثبتوا جنانهم وتعلقهم بك؟ ..

وحيرني في سؤاله .. لأني لم أتصور الفقراء قادرين على بذل الحنان، ولم أتصور أي ميزة لحياة الفقر .. ولم أتردد غي الإعراب عن ذلك للمستر "لويد" .. فسألني:

- ولكن هل ترغبين في دخول المدرسة؟ ..

وكانت كل معلوماتي عن المدرسة، مما سمعته من أفواه المربيات ومن فم "جون" الذي كان يضيق بالذهاب إلى مدرسته، ولكن ما سمعته عن قسوة النظام في المدارس لم يزهدني فيها؛ لأنها فرصة حسنة للتخلص من جو القصر اللعين..!

وهز مستر "لويد" رأسه وطمأنني بكلمات غامضة .. وعندئذ دخلت "بيسي" فطلب إليها أن تقوده إلى حضرة سيدتها، ولا أدري ماذا تم في تلك المقابلة، ولكني أعلم أنه اقترح عليها إرسالي إلى المدرسة .. لأني سمعت "أبوت" و"بيسي" تتناقشان في الليل وقد حسبتاني نائمة، وتصفان فرح سيدتهما بالتخلص من فتاة ناكرة للجميل مثلي ..

ومن مناقشات "أبوت" و"بيسي" علمت أيضاً لأول مرة حقيقة نسبي .. وأن أبي كان قساً من أسرة فقيرة، أحبته أمي وتزوجته رغم إرادة أبيها الذي حرمها من الميراث، وبعد عام من الزواج، أصيب أبي بالتيفوس وهو يزور العمال الفقراء في فترة الوباء، ثم نقل العدوى إلى أمي، ومات الاثنان .. وتركاني وحيدة تماماً في هذه الدنيا .. ولا موئل لي إلا قصر جدي لأمي، وخالي، ثم زوجته من بعده .. تلك التي كنت أدعوها خالتي تأدباً ..

وبعث الحديث الذي دار بين مستر "لويد" وبيني .. وكذلك ما سمعته من "بيسي" و"أبوت" التفاؤل والأمل في نفسي والرغبة في الشفاء .. فقد بدا لي أن تغيراً ما سيطر على نظام حياتي، فبعث ذلك اللهفة في نفسي إلى معرفته في شيء من الطمأنينة والهدوء، واستعدت صحتي بعد بضعة أسابيع، ولم تظهر أي بادرة تنبيء عن التغير المرتقب الذي استحوذ على فكري .. وكنت ألمح النظرة الحادة التي ترشقني بها مسز "ريد" التي اقتصدت جداً في التحدث إلي، ورسمت نظاماً –منذ أن مرضت– يحول بيني وبين أولادها، فلا أختلط بهم كسابق العهد، فأفردت لي حجرة صغيرة لنومي، وفرضت على تناول طعامي بمفردي وقضاء وقتي وحيدة بحجرة الأطفال .. في الوقت الذي يمرح فيه أولادها معاً بحجرة الاستقبال، ولم ألمح أي بادرة تشير إلى التفكير في إرسالي إلى المدرسة، وكنت أحس في أعماقي أن وجودي في هذا القصر سيطول، وقد استشعرت ذلك لما لمسته من روح الكراهية نحوي في نظرات مسز "ريد" وتصرفاتها ..

ولاحظت أيضاً أن "اليزا" و"جورجيانا" كانتا لا تتبادلان الحديث معي إلا لماما تبعاً لأوامر أمهما طبعاً .. كما كان "جون" يتعمد إغاظتي بإخراج لسانه كلما وقعت عيناه علي، وذات مرة غلبت عليه نزعته الشريرة فأراد أن يضربني، ولكني لم أخنع بل ثرت في وجهه .. فلما رأى بوادر الحنق والتمرد، جرى من

أمامي وهو يمطرني بسيل من الشتائم، متهماً إياي بأنني أصبته في أنفه لأنني هويت بقبضتي بكل ما في استطاعتي من قوة على ذلك الأنف، ولما رأى أنه جبن على أثر تلك اللطمة، شعرت برغبة وميل شديدين إلى أتباعها بلطمات أشفى بها غليلي .. ولكن الفرصة لم تواتيني لأنه جرى نحو أمله، وسمعته يشكوني، وهو ينشج بالبكاء ويصفني بالهرة المتوحشة، وسمعت أمه تطلب منه ألا يحدثها عن "جين" هذه، كما سمعتها تؤنبه لأنها سبق أنه حذرته من عدم الاقتراب مني أو الاحتكاك بي؛ لأني –على حد قولها– مخلوق تافه يجب إهمال شأنه، وأنها تأبى أن ترفعني إلى مستوى أولادها ..

وما أن طرق سمعي هذا الحديث الجارح الذي أثار الألم والامتعاض معاً في نفسي، حتى صرخت دون تفكير بأعلى صوتي:

– بل هم غير جديرين بأن يكونوا لي رفاقاً ..

وعندئذ جرت مسز "ريد" ترقى الدرج حتى وصلت إلى .. ثم دفعتني بكل قوتها نحو حجرة الأطفال، ولطمتني لطمة شديدة، ثم أمرتني ألا أبرح مكاني أو انطق بكلمة ..

ولكني رغم ذلك وجدت نفسي أوجه إليها سؤالاً لم تكن تتوقع سماعه إطلاقاً:

– ماذا كان يقول خالي تجاه تصرفك هذا لو أنه كان حياً؟

ووقع سؤالي من نفسها موقع المباغتة التي لم تستعد لها .. فلم تتمالك نفسها، فشهقت شهقة كانت أبلغ من أي جواب وهي تقول:

– ماذا تقولين؟ ..

وران على نظراتها سحابة من الخوف والفزع، فأبعدت يدها عن ذراعي ورمقتني بنظرة عميقة، لعلها أرادت أن تستشف بها مكنون تلك "المخلوقة"، ولكني لم ألق اهتماماً بذلك بل استرسلت قائلة:

- عدالة السماء لا ريب فيها، وهي لا تهمل وأن أمهلت .. أن روح خالي تستشف من علياء ما تعتزمين وما تنتوين .. وكذلك أبي وأمي، فكلهم يعلمون أنك تتمنين ن أموت!

وما أن سمعت ذلك حتى استردت رباطة جأشها، فأخذت تجذبني بشدة .. وقرصتني من أذني، ثم تركتني وغادرت الحجرة دون أن تتفوه بكلمة واحدة، وجاءت "بيسي" فليست مسوح الوعاظ، وأخذت تمطرني بوابل من المواعظ، وأرادت أن تقنعني أنني شقية تعسة، بل أنني أشقى إنسانة على وجه الأرض .. بيد أنني لم ألق بالاً إلى كل ما قالته لأن جميع مشاعري واحساساتي كانت محصورة في الثورة المتأججة بين جنبي.

وخلال احتفالات أعياد الميلاد ورأس السنة التي جرت في القصر واشترك فيها الجميع من السادة والأتباع —ظللت معتكة لا أسهم في شيء من تلك الملذات والمباهج .. اللهم إلا إذا كان من فنون المتعة أن أرقب "ليزا" و"جورجيانا" وهما تتزينان كل يوم، وتتبختران هابطتين إلى قاعة الاستقبال الكبرى في ثياب هفهافة من الموسولوين مزخرفة بأشرطة وبنائق حمراء اللون، وشعرهما معقوص في تيجان محكمة التصفيف ..

ووحدي في الطاق العلوي كنت أبقى .. فأرهف السمع في الصمت المخيم لأنغام البيانو أو الصنج والجيتار تنبعث في قاعة الاستقبال، وبين الحين والحين، تصل إلى سمعي خطوات خادم أو ساق يحمل إلى السمار في المهرجان

أشربة مختلفة الألوان في أباريق مزخرفة وكؤوس مترفة تلتقط أذني صليلها حين تحتك بها في رفق خواتم الرجال وأساور ربات الجمال ..

وكان أنسب مكان لتلق تلك الأصوات هو رأس السلم الكبير حيث أقبع في الظلمة .. إلى أن أمل من الانصات فأعود إلى حجرة الأطفال المزوية التي لا يصل إليها صوت، ولا أعدو الحقيقة إذا قلت أني لم أكن أشعر بالندم أو الحسرة بسبب تلك العزلة .. لأن الاندماج في زمرة هؤلاء الناس لم يكن من الأماني المستحبة عندي.

وحينما أخلو إلى نفسي في تلك الحجرة البعيدة، لم أكن أطلب الأنس إلا عند دميتي.. فأضعها فوق حجري، وأظل شاخصة البصر إلى النيران في المدفأة، حتى إذا خمد لهيبها واستحالت إلى قطع من الجمر المتوقد في هدوء، جعلت انظر فيما حولي متوجسة من ظلال الأشياء.. ثم أخلع ثيابي وألوذ بفراشي محتمية بأغطيته الدافئة من برد الليل وبرد الوحشة معاً ..!

وكنت أحرص على أن أضع في حضني بين أغطية الفراش دميتي الصغيرة؛ لنه من طبيعة النفس البشرية أن تنشد الحب .. فإن أعوزها أن تجده في البشر أو الحيوان، نشدت لحاجتها إلى الحب موضوعاً تتعلق به من عوالم الجماد تخلع عليه الحياة ..

وكانت دميتي باهتة الألوان بادية القذراة والحقارة، حتى أني لا أكف عن العجب كلما تذكرت الآن مدى تعلقي –وأنا طفلة– بذلك الشيء الغث .. وكيف كنت افترض فيه الحياة والإحساس والنطق، فلا يخطر لي أن أنام إلا إذا ضممتها إلى صدري، ودثرتها بالأغطية لأطمئن على أنها لا تشكو قراً ولا وحدة .. فاطمئناني عليها انعكاس في الطمأنينة على نفسي وبري بها، وحناني عليها انعكاس لما كنت أحس افتقاري إليه من الرعاية والحنان ..

وكان الوقت يمر في بطء وتثاقل، وأنا أترقب انتهاء الحفل وانصراف الزوار .. وأسمع وقع خطوات "بيسي" وهي تروح وتغدو وتصعد وتهبط لتؤدي عملاً أو لتبحث عن شيء أو لتوافيني بطعام العشاء، ثم تجلس حتى انتهى من تناول الطعام واستلقى على سريري تقبلني وهي تقول: "ليلة سعيدة يا مس جين" .. وقد بدت لي –لما ألمسه من عطفها– أرحم وأجمل إنسانة في الوجود، فكنت أتمنى أن تستمر معاملتها لي على هذه الوتيرة: رقة وحنان وظرف وإيناس .. لا تزجرني ولا توبخني ولا تكلفني بعمل فوق طاقتي، كما كانت تفعل قبل ذلك، وأني أعتقد أنها على جانب كبير من الفطنة، ذات عقل راجح لأنها تتقن كل عمل يوكل إليها، وهي ماهرة بوجه خاص في رواية القصص، فكانت القصص التي ترويها لي قبيل نومي تؤثر في تأثيراً كبيراً، وقد أحببتها لكل ذلك، فبدت في نظري جميلة ذات شخصية؛ لأني أتذكرها فتاة في ريعان الشباب ذات قد ممشوق وخصر ملفوف وشعر فاحم وعينين سوداوين وبشرة ناعمة .. بيد أنها كانت مرهفة الأحاسيس، وسريعة الانفعال تتميز بطابع عدم الاكتراث، ومع ذلك فقد كانت أثيرة عندي على كل من عداها ..

وفي صبيحة يوم من أيام شهر فبراير، نزلت "بيسي" إلى الطابق الأرضي لتتناول إفطارها، وقد أخذت "ليزا" ترتدي معطفها وقبعتها لكي تذهب إلى الحديقة لرعاية دجاجها، وكان ذلك من الأعمال المحببة إلى نفسها، لا يقل ذلك عن غرامها ببيع البيض لمدبرة القصر، والاحتفاظ بالنقود التي تحصل عليها من ذلك .. لأنها كانت تهوى التجارة وتميل للادخار، وتجاوزت دائرة أعمالها التجارية البيض والدجاج إلى عقل الأشجار والبذور والشتلات تبيعها إلى بستاني القصر .. ولشدة تعلقها بالتجارة، فإنها لا تتورع عن بيع أي شيء لو حققت ربحاً يرضي نزعتها .. وكانت تخفي ما تجمعه من النقود، وذات مرة اكتشفت

أحد الخدم مخبأ كنزها .. فلم تر بداً من إيداع نقودها عند والدتها،و اشترطت عليها أن تحصل في مقابل ذلك على ربح قدرت هي مقداره بنسبة خيالية تصل إلى أكثر من ٥٠% كانت تتقاضاه من والدتها وتقيد حسابها وأرباحها في دفتر خاص ..

وشغلت "جورجيانا" في ذلك الصباح بتصفيف شعرها أمام المرآة، وجعلت تزين خصلاته ببعض الزهور وريش الطيور ..

أما أنا فكنت أقوم بترتيب فراشي بناء على تعليمات "بيسي" إذ كانت تحتم على أن أفعل ذلك وأتمه قبل حضورها .. فكنت والحالة هذه مساعدة خادم مختصه بحجرة الأطفال، أقوم على تنظيفها وترتيبها وإعادة كل شيء إلى مكانه فيها ..

وحدث وأنا منهمكة في العمل الموكل إلى أن فاجأتني "جورجيانا" تأمرني إلا أمس أدوات لعبها من مقاعد صغيرة وصحاف وأكواب .. فتوقفت عن العمل، وأخذت أشم الأزهار التي كانت على النافذة، وأخذت أتطلع من زجاجها إلى الخلاء المترامي الجامد بفعل الصقيع ..

وكانت هذه النافذة تطل على بيت البواب وطريق العربات، وما أن أزحت حبات الصقيع التي تغطي زجاج النافذة لكي أطل منه، حتى رأيت البوابة تفتح وعربة تسير في طريقها إلى الداخل، فأخذت أرقبها في غير اكتراث .. فكم من عربات كانت تأتي دون أن يكملون بها ما يهمني.

ثم وقفت العربة أمام باب القصر، وما لبثت أن سمعت رنات الجرس تدوي .. وشغلني عن ذلك في هذه اللحظة طائر صغير جائع أخذ يشقشق فوق أغصان شجرة الكرز .. وكان ما تبقى من إفطاري لا يزال على المائدة، فأخذت قطعة من الخبز وفركتها بين يدي، وأردت أن أفتح النافذة لأضع الفتات على إفريز

النافذة للطائر .. وإذا بي أرى "بيسي" تهرول نحوي، وتطلب مني أن أخلع مريلتي، وتسألني عما أفعل وعما إذا كنت قد غسلت وجهي ..

وفتحت النافذة قبل أن أجيب لأضمن الطائر الصغير خبزه .. ونثرت الفتات على الأفريز، ولم أنس أن أنثر بعضه على أغصان الشجرة .. ثم أغلقت النافذة والتفت إلى "بيسي" وأجبتها:

– كلا يا "بيسي" .. لقد فرغت لتوي من ترتيب الحجرة ..

فأردفت "بيسي" قائلة:

– حقاً أنك مهملة متعبة .. وما الذي تفعلينه الآن؟ أن وجهك في حمرة الورد كأنك تقومين بأعمال شاقة .. ما الذي دعاك إلى فتح النافذة؟ ..

على أنها وفرت علي عناء الرد، فقد كانت في عجلة من أمرها منعتها من الانتظار للإصغاء لما سأقول .. ثم جذبتني لكي أغتسل، وقامت بتدليك وجهي ويدي في شيء من العنف آلمني، ثم جففت وجهي بفوطة خشنة، وبعد ذلك صفت "بيسي" شعري بفرشاة رديئة، وخلعت عني مريلتي، ثم قادتني إلى قمة الدرج، وأمرتني أن أهبط في الحال إلى حجرة الإفطار لأنهم في انتظاري .. وأردت أن أستفهم منها عمن يريدني وعما إذا كانت مسز "ريد" هناك، ولكن "بيسي" لم تترك لي الفرصة، بل خرجت وأغلقت خلفي باب حجرة الأطفال .. فوقفت لحظة وقد تضاعفت دقات قلبي من الهلع وأخذت ارتعد. فيالي من طفلة بائسة رعديدة، تحت تأثير ما أناله من عقوبات متعددة قاسية، وتسمرت في مكاني، لا أعود إلى حجرة الأطفال ولا أتقدم إلى حجرة الاستقبال، وظللت هكذا فترة في تردد وانفعال، حتى نبهني رنين جرس دوى في غرفة الإفطار في قوة وعنف بالغين يدعوني إلى الدخول .. وأخذت أتساءل وأنا أدير مقبض الباب بكلتا يدي، وكاد يستعصي على فتحه: "ترى من ذا يريدني؟ ومن عساه أن يطالعني في الغرفة غير خالتي "ريد" هل هو رجل أو امرأة"

الفصل الثالث

معركة

وأخيراً أذعن المقبض لضغط يدي فانتح الباب، وتقدمت في خطوات متئدة .. وإذا بي أرى نفسي وجهاً لوجه أمام رجل نحيل يتشح برداء أسود، وقد وقف منتصب لقامة يحمل فوق كتفيه رأساً ذات وجه غامض، أما مسز "ريد" فكانت جالسة على مقعد بجوار المدفأة، وما أن رأتني حتى أومأت لي أن اقترب، ثم قدمتني إلى المدفأة، وما أن رأتني حتى أومأت لي أنم أقترب، ثم قدمتني إلى الرجل وهي تقول له: "هذه هي الفتاة التي بعثت لك رسالة بشأنها".

وأدار الرجل رأسه نحوي، وأخذ يرمقني بنظرات فضولية من عينين سوداوين يعلوهما حاجبان كثيفان، وأخيراً انفرجت شفتاه في صوت هادئ ونبرات بطيئة قائلاً: "أنها ضئيلة الجسم ... ترى كم تكون سنها؟"، فأجابت مسز "ريد" على الفور: "عشر سنوات" وكأنه لم يصدق ما سمعه فقد ظهرت على ملامحه دلائل شك، فعاد يتفرس في ويتفحصني، ثم قال:

– أنك تبالغين .. لا يمكن أن تكون سنها كما ذكرت.

وبعد ذلك وجه الكلام إلي قائلاً:

– هل يمكن أن أعرف اسمك أيتها الصغيرة؟

– اسمي "جين اير" يا سيدي ..

وإذ كنت لم أدقق فيه النظر منذ دخولي، فقد رفعت إليه بصري وأنا أذكر له اسمي.. فبدا لي فاره الطول بالنسبة لجسمي الصغير، وبانت لي ملامحه ضخمة تنم عن غلظة وفظاظة ورزانة متكلفة.. ثم عاد يقول:

- جميل يا "جين".. هل أنت طفلة دمثة الخلق، طيبة المعشر؟ وكان من العسير أن أجيب عن سؤال كهذا بالإيجاب؛ لأن الجو المحيط كان يرى في غير ذلك، فلذت بالصمت .. وأعفتني مسز "ريد" من الإجابة بإيماءة معبرة من رأسها، وأردفت إيماءتها بقولها: "لعله من الأفضل عدم الحديث في ذلك يا مستر "بروكلهيرست"! وأعترض السيد على تعليقها قائلاً: "لست على هذا الرأي مع الأسف .. ويهمني أن نتحدث معاً: أنا وهي".

فأجبته على الفور: "جهنم وبئس المصير! .. الجحيم يا سيدي!"

- وهل تعرفين ما هو الجحيم؟ ..

- أنه هاوية ملأى بالنار! ..

- وهل يطيب لك السقوط في تلك الهاوية حيث تتلظين بنارها أبد الدهر؟ ..

- ومن يرضى بذلك؟ ..

- إذن ما هو السبيل الذي ينبغي أن تتبعيه لكي تتجنبي هذا العذاب؟

ففكرت قليلاً، ثم أسعفتني قريحتي برد غير مقنع إذ قلت:

- أحافظ على صحتي لكي لا أهلك ..

- ألا تعلمين أن أطفالاً صغاراً يموتون وهم أصغر منك سناً .. لقد مات طفل منذ يومين وكان أصغر منك ودفنته بنفسي، كان طفلاً رقيقاً صعدت روحه إلى السماء .. فهل تستبعدين ذلك بالنسبة لك؟

ولم تسعفني القدرة على تبديد شكه هذا، فأرخيت نظري نحو الأرض، ثم تنهدت متمنية أن أخرج من هذه الحجرة .. فعلق على تنهدي بقوله: أرجو أن

تكون هذه الزفرة نابضة من أعماق قلبك، وأن تكوني قد استشعرت الندم على أنك كنت مصدر مضايقة لولية نعمتك الماثلة أمامك.

فردد ذهني قوله "ولية نعمتي" .. أن الجميع يعتبرون مسز "ريد" ولية نعمتي، فإذا كان الأمر كذلك فإن ولية النعمة شيء بغيض بلا شك! ..

ثم عاد إلى استجوابه كأنني في حضرة محقق:

– وهل من عادتك أن تصلي في الصباح وفي المساء؟ ..

– طبعاً يا سيدي ..

– وهل تطالعين الانجيل؟ ..

– في بعض الأحيان ..

– عن رغبة وبشغف؟ ..

– أنني أميل إلى قراءة سفر الرؤيا، وسفر التكوين، وبعض من سفر الخروج وسفر الملوك وأخبار الأيام، وقصتي أيوب ويونان ..

– ولماذا لا تحبين المزامير؟ .. أنها عظيمة ..

– مع الأسف يا سيدي ..

– أن لي ولداً يحفظ كثيراً منها، ويفضلها عن أي نوع من اللذائذ؛ لأن الملائكة

– على حد قوله– تترنم وتسبح بها، ويتمنى أن يكون أحد الملائكة الصغار..

– ليس في المزامير ما يشوق الإنسان وبدفعه إلى قراءتها ..

– أفهم من ذلك أنك تحملين قلباً شريراً، لذا ينبغي أن تضرعي إلى الله أن يمنحك قلباً نظيفاً مؤمناً بدلاً من قلبكالمتحجر ..!

ودار بذهني أن أسأله عن كيفية إمكان تغير القلب .. ولكن مسز "ريد" صارت طرفاً ثالثاً في الحديث، وأشارت إلى أن أجلس .. ثم وجهت الحديث إلى السيد قائلة: "أذكر أنني ألمحت في خطابي الذي أرسلته إليك أن هذه الفتاة الصغيرة ليست كما أحب من الناحية الخلفية والنزعات، وإذا وافقت على إلحاقها بالمدرسة فأرجو أن تكون تحت رقابة يقظة .. وأن ينزع عنها أسوأ رذائلها، وهي الخديعة والنزوع إلى الغش .. أنني أقرر ذلك أمامك يا "جين" حتى لا يكون السيد أحد ضحايا .. ألاعيبك"

وليس بعجيب بعد ذلك أن أشعر بالكراهية لمسز "ريد" فقد دأبت على جرح إحساسي في قسوة .. بل أذكر أنني لم أتذوق طعماً لهناء أو سعادة خلال إقامتي عندها، مع حرصي الشديد على طاعتها وإرضائها، فأقابل بالنكران وبأمثال ما نعتتني به من أوصاف وخصال، وقد دب اليأس في نفسي لتنويهها بضعف الأكل في لمرحلة الجديدة لحياتي، المرحلة التي شاءت أرادتها أن أنتقل إليها .. وشعرت دون أن أفصح أنها توعز بمعاملتي بقسوة وكراهية، بعد أن صورتني طفلة مخادعة مؤذية، فماذا في مقدوري أن أفعل!

وكظمت شهقة مؤسية، وتساقطت من عيني عبرات ترجمت عن مبلغ آلامي ..

وعلق السيد بقوله أن المكر كغيره من الرذائل وأن النار عقاب أصحابها، ثم أردف بأنه سيوصي المعلمات بأحكام الرقابة ..

وعادت مسز "ريد" تقول أنها تتمنى لي مستقبلاً مرموقاً لا غدو نافعة، أما عن الاجازات فسيتحسن قضاؤها بالمدرسة، فأمن السيد على إرشاداتها واصفاً إياها بالحكمة .. وطلبت مسز "ريد" ضرورة أخذي بالشدة في كل صغيرة وكبيرة فأجابها السيد:

- الحزم يا سيدتي أهم دعائم الرجل المتدين، وهو في الوقت نفسه طابع المدرسة الذي تتسم به ..

- حسناً يا سيدي .. لقد اتفقنا إذن، وأرجو أن اطمئن إلى أنها ستتعلم ما يتفق مع ما نرجوه لها ..

- اطمئني يا سيدتي، فسألحقها بالفصل الممتاز ..

- سأبعث بها إليك في أقرب وقت، فقد ضقت ذرعاً بتبعة تنشئتها ..

ونهض السيد لينصرف بعد أن قال أنه سيبعث إلى المشرفة مس "تمبل" ليبلغها نبأ قدوم فنانة جديدة ليتسنى استقبالها ..

وودعته مسز "ريد" قائلة:

- مع السلامة يا مستر بروكلهيرست، ولا تنس أن تبلغ تحياتي إلى زوجتك وابنتك وإلى الجميع ..

- حسناً يا سيدتي وشكراً ..

ثم نظر إليَّ وقال:

- جين .. هذا كتاب اسمه رفيق الطفل، اقرئيه مع صلواتك .. لا سيما الباب الذي يتعلق بالوفاة المفاجئة المؤسية التي تحدث للأطفال الأشرار الذين ينغمسون في المكر والخداع ..

وألقى إلي بالكتاب، ثم دق الجرس لاستدعاء عربته، ورحل تاركاً إياي مع مسز "ريد".

ومضت بضع دقائق في صمت لم ينبس أحدنا فيها بكلمة، كانت مسز "ريد" مشغولة بإبرتها وأنا أرقبها ..

ومسز "ريد" امرأة متينة البنية، ليست فارعة الطول ممتلئة في غير بدانة، ذات وجه كبير، يتميز فكها الأسفل بالبروز وكذلك ذقنها .. أما عيناها فكانتا تنمان عن قسوة وشراسة، وجلدها يميل إلى الدكنة .. لم يصبها مرض في يوم من الأيام، وكانت دقيقة في إدارة شئون منزلها ويشمل نفوذها كل فردفيه، بل أيضاً متأجري المزرعة، ولا يستثني من ذلك سوى أولادها، فهم الذين كانوا يستهينون بغطرستها ولا يأبهون بها .. وقد اشتهرت بأناقة ملبسها وبقوامها المشوق ..

وأخذت أتأملها وأنا جالسة .. أتأمل قوامها، وأتفحص قسمات وجهها وأنا ممسكة بالكتاب الذي يحوي قصة الموت المفاجئ، وقد أراد السيد بإعطائي إياه أن يكون بمثابة إنذار لي قبل فوات الفرصة .. وقد استعدت كل ما مر بي في هذه المقابلة، وشعرت بكل كلمة وكأنها خنجر يطعنني .. فجاشت نفسي بفورة من الحقد والامتعاض، وفي هذه اللحظة نظرت مسز "ريد" إليَّ وأمرتني بالخروج والذهاب إلى حجرة الأطفال ..

ولا شك في أن نظراتي ضايقتها، فقد ظهر ذلك جلياً على صفحة وجهها .. إذ كانت تأمرني في انفعال حاولت كظمه وإخفاؤه، فنهضت متجهة نحو الباب، ولكني عدت لأرد لها الكيل جزاء ما رمتني به، ولكن ماذا في مقدوري أن أقول، وأنا الفتاة التي لا حول لها ولا قوة .. على أنني لم أتمالك أن قلت لها: "لو قلت لك أنني أحبك لكنت فتاة مخادعة كما تصفينني، ولكني أقرر لك في جرأة وصراحة أنني أمقتك أكثر مما أمقت أي إنسان آخر .. باستثناء "جون ريد" فأنه يستأثر بالمرتبة الأولى من مقتي .. وأما عن هذ لكتاب، فالأجدر أن يهدى لابنتك "جورجيانا" لأنها هي ولست أنا لامتفننة في صناعة الأكاذيب!

وبهتت مسز "ريد" لما أقول، ووتشنجت يداها، وثبتت عيناها كقطعتين من الثلج، ثم خاطبتني وكأنني ند لها: "ماذا عندك أكثر من ذلك؟" فزادت لهجتها

من موجة غضبي وفورة كراهيتي، فأخذت أوصالي تهتز في عصبية، واستولى على هياج عجزت عن كبحه وصفعتها بقولي:

- من حسن حظي أنني لا تربطني بك صلة قرابة .. وخذيه عهداً علي أنني لن أدعوك خالتي ما حييت ولن تري وجهي بعد الآن، وإذا ما سئلت يوماً عما كنت أحمله من شعوري نحوك وعن ومعاملتك لي، لما ترددت في القول بأن مجرد مرور خيالك بذهني يسقمني لأنك استمرأت القسوة الدنيئة في معاملتي..

- كيف تجرئين على هذا القول يا "جين"؟! ..

- تسألينني كيف أجرؤ؟ .. أنه الحق الذي لا شك فيه!.. هل تظنينني بلا مشاعر أو إحساسات كأنني جماد أو دون الجماد، وهل تحسبين أنني أستطيع الحياة من غير بصيص من الحب والعطف والحنان، أن هذا ليس في استطاعتي، وقلبك مفتقر إلى الرحمة والشفقة.. ولن أنسى حتى ألفظ النفس الأخير إنك دفعت بي في قسوة وشراسة إلى الحجرة الحمراء وأغلقت على الباب، وكنت أتلظى من الألم وأصرخ وأكاد أختنق بالضيق والأسى! لقد فعلت بي هذا وجعلتني أقاسي العذاب المرير لأن ابنك الشرير ضربني وأمعن في ضربي لغير ما سبب.. سأجعل ذلك قصة أرويها لكل إنسان؛ لأن المجتمع يظن فيك الطيبة، بيد أنك جلادة قاسية شريرة متحجرة القلب.. إنك مخادعة غشاشة!!

وشعرت بعد أن فرغت من إلقاء كل ما في جعبتي أن روحي قد انطلقت ترفرف منتشية بالإحساس بالحرية والانتصار، وكأنما تحطم دوني قيد لا أراه فانطلقت نحو الحرية .. أحسست بذلك لما تجلى من لاذكر على قسمات مسز "ريد" فسقط شغل الإبرة على الأرض، وقد رفعت يديها وأخذت تنتفض

كالعصفور المذبوح وهي تترنح يمنة ويسرة .. وتقلصت أسارير وجهها وكأنها ستنجر في البكاء، وسمعتها تقول:

- ليس صواباً ما تقولين يا "جين" .. ماذا ألم بك؟ فأني أراك ترتعدين بشدة، اشربي قليلاً من الماء! ..

- كلا يا مسز "ريد" ..

- هل ترغبين في شيء آخر يا "جين" .. أؤكد لك أنني أرغب مخلصة أن أكون صديقة لك! ..

- هذا غير الحقيقة.. لقد دمغتني بسوء الخلق أمام السيد، وأنني مخادعة بالسليقة.. ولكنني سوف أروي الحقيقة في المدرسة، وأتحدث عما فعلته بي..

- جين .. أن صغر سنك يحجب عنك إدراك الأمور .. فمن أصول التربية إصلاح عيوب الأطفال! ..

فافجرت فيها، وصرخت صرخة مدوية:

- الخداع ليس من خصالي! ..

- أن أعصابك مرهقة يا "جين"، وأنت سريعة الاندفاع والانفعال، أليس ذلك صحيحاً؟ .. هيا عودي إلى حجرة الأطفال وارقدي على فراشك كي تهدئي يا عزيزتي!

- أنني لست "عزيزتك"، وليس بي رغبة في الرقاد .. ابعثي بي إلى المدرسة الآن يا مسز "ريد" لأنني لا أطيق الحياة هنا!

وسمعتها تغمغم في همس "أنها على حق، يج أن أعجل بإرسالها" ثم غادرت الغرفة.

وأصبحت وحدي في الحجرة .. وأحست أنني ربحت المعركة، لقد كانت عنيفة حقاً هذه المعركة التي خضتها، وغمرني الإحساس بالزهو لأنه أول نصر ظفرت به .. فلبثت برهة أنعم بخلوة الظافر، وارتسمت على شفتي ابتسامة .. ولكن سرعان ما تبدد كل ذلك لأن الفارق بيني وبين مسز "ريد" واندفاعي وإفلات زمام مشاعري جعلني أشعر بوخز الندم ورعشة رد الفعل .. فقد كنت أشبه بالبركان في نورتي في وجهها وتوعدها، على أنني ما لبثت أن أحسست هدوءً في أعصابي، وتبين لي بمرور الوقت أن تصرفي كان شائناً، وشعرت ببشاعة ما اقترفت ..!

لقد بدا لي الانتقام شيئاً باعثاً على الغبطة .. وبعد قليل تبدد ذلك الشعور، وأحسست أني أتيت أمراً فظيعاً حتى أن نفسي حدثتني أن أهرول إلى مسز "ريد" واستغفرها والتمس صفحها .. بيد أني كنت أعرف النتيجة سلفاً، وأنها ستطردني وتحتقرني، وبذلك تستثيرني بعد أن هدأت .. فاجتهدت أن أحول أفكاري إلى ناحية أخرى، وتناولت كتاباً لأقرأ، ولكن عقلي لم يكن في حالة تسمح باستيعاب ما اقرأ، فقد كانت أكاري مشغولة بما حدث، ويممت شطر الباب المفضي إلى الحديقة، وأجلت فيها النظر فإذا بي أرى الصقيع يكسو المزارع وقد تبدت لي أغصان الأشجار باعثة على الانقباض فلم استشعر أي بهجة بعد أن فعل الخزي فعله فتجمعت أوراق الأشجار اليابسة في أكوام .. ورحت أسرح النظر، وكأنني انظر إلى صحراء خاوية لا زرع فيها ولا غنم، وتبدت لي السماء معتمة وقد غطى الجليد كل شبر من الأرض .. وسرعان ما أخذ البرد يتساقط دون أن يذوب فعث كل ذلك في نفسي الإحساس بأنني فتاة تعسة، وأخذت أتساءل ماذا عسى أن أفعل ..

وما هي إلا دقائق، وعلى غير انتظار، طرق سمعي صوت يناديني: "أين أنت يا جين؟، لقد حان موعد الغداء فتعالى لتتناوليه" وعرفت أن "بيسي" هي التي تناديني، ولكني لم أتحرك .. فاقتربت مني وقالت: "لماذا لا تطيعين؟" وخيل إلي أن وجود "بيسي" يؤنسني على الرغم مما هي مطبوعة عليه من عوس، والحقيقة أنني بعد أن انتصرت في معركتي مع مسز "ريد" لم أعد أأبه بغيرها، ووجدتني أطوق "بيسي" بذراعي وأطلب منها ألا توبخني .. فأرضاها تصرفي، وأخذت تتأملني وتقول: "ما أعجبك أيتها الطفلة! هل راقت لك حياة الوحدة والعزلة .. هل عرفت أنك ستذهبين إلى المدرسة؟" فأجبتها بإيماءة من رأسي .. وسمعتها تقول:

- ألا تشعرين بالوحشة حين تتركين "بيسي"؟ ..
- وهل يهم "بيسي" أمري، وهي تصر دوماً على تأنيبي وزجري؟
- لأنك غريبة الأطوار، شديدة الوجل والحياء .. يجمل بك أن تكوني أكثر جرأة وأشد إقداماً ..
- ماذا تقولين؟ هل تريدين أن أغدو أكثر جرأة لكي ألقي نصيباً أفدح من الضرب والإيذاء؟
- هراء في هراء .. أنك تتحدثين بعقلية مقلوبة، على أنك في موقف لا تحسدين عليه .. ولكن دعينا من كل ذلك فإن لدي لك أنباء سارة!
- لا أصدق يا "بيسي"! ..
- أنك لا تدركين شيئاً لأنك طفلة .. لماذا تنظرين إلي نظرات زائغة حزينة تشوبها الكآبة؟ .. سيخلو القصر، فستبرحه السيدة وأولادها لتناول الشاي في الخارج، أما أنت فستتناولينه معي، وستعد لك الطاهية كعكة لذيذة ..

وبعد ذلك نشترك في ترتيب حقائبك وأعدادها لأن أوامر سيدتي تقضي برحيلك بعد يومين، وسيكون لك حرية أخذ اللعب التي تروق لك.

- دعينا من ذلك .. عدين أولاً ألا تسلطي لسانك علي حتى أرحل ..

- لك ما تريدين .. وتذكري جيداً أنك فتاة طيبة، ولا تشعري بالخوف أن لمست حدة في بعض كلامي .. فأن ذلك يؤلمني جداً!

- لا أظن أنني سأشعر بشيء من ذلك بعد الآن؛ لأن محبتي لك زادت ألفة وتوثقاً .. وقريباً سأكون بين أناس آخرين أخافهم وأخشاهم!

- إذا وقفت موقف الخوف منهم فسيبغضونك ..

- كما تفعلين يا "بيسي"؟! ..

- أنا لا أحمل لك كرهاً أو حقداً .. بل على العكس أنني أحبك أكثر مما أحب الآخرين! ..

- ولكني لا أرى منك ما يثبت ذلك! ..

- يا لك من لاذعة في المحاجاة .. لقد رسمت لنفسك نمطاً جديداً في الحديث، ترى ما الذي بعث في نفسك هذه الجرأة؟!

- ذلك لأن بقائي هنا موقوت، وسوف أرحل وأفارقكم ... هذا فضلاً عن ...

- وهممت أن أقضي إليها ببعض ما حدث اليوم بيني وبين مسز "ريد" ولكني آثرت التريث، وقدرت أنه من الأفضل أن أخلد إلى الصمت فيما يتعلق بهذا الموضوع ..

ورأيتها تعود وتقول لي:

- إذن فأنت غير آسفة لفراقنا؟ ..

- على العكس تماماً ... أنني أشعر بكثير من الآسي ..!
- لعله الآن فقط .. فأن الفتور يغلب على لهجتك، ولعلني لو طلبت منك قبلة لضننت بها!
- لا تقولي هذا يا "بيسي" بل أقبلك عن طيب خاطر، قربي رأسك من وجهي..

فحنت "بيسي" قامتها، وأدنت رأسها، ولفها عناق جميل ..

وما لبثت أن تبعتها إلى القصر، وأنا أشعر بالسعادة تغمرني، وبإحساس بالرضا لا عهد لي به، ومر عصر ذلك اليوم في هدوء نفس وانشراح قلب وانسجام مع "بيسي" التي سردت على مسامعي بعض قصصها المحببة، وغنت بعض أغنياتها الحلوة ..

وهكذا منحتني الحياة بعض ومضات من الهناء ..

الفصل الرابع

رحلة شاقة

في الساعة الخامسة من صبيحة اليوم الذي تقرر رحيلي، وقد أعدت لي عربة لهذا الغرض، حضرت "بيسي" إلى حجرتي فوجدتني قد استيقظت وغسلت وجهي وبدلت ثيابي. ولم يستيقظ في هذه الساعة المبكرة أحد سوى "بيسي" وسواي، ثم أشعلت نار المدفأة وشرعت في إعداد فطوري. ومن كان في مثل حالتي مزمعًا على السفر في رحلة غامضة، يقع فريسة للانفعال ولا يجد شهية لطعام.. فعافت نفسي تناول شيء من فطوري، وعبثًا حاولت "بيسي" إقناعي بتناول شيء. فوضعت قليلاً من البسكويت في حقيبتي، ثم عاونتني على ارتداء معطفي وخرجنا. وحين وصلنا في سيرنا إلى مخدع مسز "ريد" التفتت إلى "بيسي" وقالت:

– كم يكون جميلاً لو دخلت وودعت السيدة؟..

– لا داعي لذلك يا "بيسي" فقد حضرت إلي السيدة أمس بعد انصرافك، وأخبرتني أنه لا داعي لأن أقلق راحتها في الصباح أو أن أقلق أحدًا من أبنائها وطلبت إلي أن أذكرها دائمًا بالخير، ولا أنكر الاعتراف بجميلها وأنها كانت مخلصة لي...

– وماذا كان ردك؟..

– لذت بالصمت، وحجبت وجهي بالغطاء، وأعرضت عنها مولية وجهي صوب الحائط!..

– لم تحسني التصرف يا "جين"..

– بل هذا ما ينبغي أن أفعله، فسيدتك كانت عدوة لي وليست صديقة كما تزعم..!

– ليس من الكياسة أن تقولي هذا يا "جين"..

وكنا قد اجتزنا البهو ووصلنا إلى الباب الخارجي، ولم أنس أن أؤدي التحية الواجبة، فصحت بأعلى صوتي:

– وداعًا يا جيتسهيد..

وإذ كنا في الشتاء اللاذع الزمهرير، وقد احتجب القمر في برجه، واشتملنا الظلام.. حملت "بيسي" مصباحًا رأينا على ضوئه درجات مبتلة، واجتزنا طريقًا يخلصه الماء.. فأخذت أسناني تصطك، وأنا أجتاز الممر المفضي إلى الخارج. ولمحت بصيصًا من نور في غرفة الحارس، وكنا قد بلغناها.. فرأيت حقيبة ثيابي التي سبقتني. وطرق سمعي ضجيج عجلات العربة التي ستقلني، وأخذت أرقب مصباحيها يقتربان.. ثم سمعت زوجة البواب تسأل "بيسي":

– هل سيرافقها أحد في رحلتها؟..

– كلا.. بل سترحل بمفردها..

– أظنها رحلة طويلة!..

– لا تقل عن خمسين ميلاً..

– أواه: هل يطاوع مسز "ريد" قلبها أن تطمئن عليها، وهي تقطع هذه المسافة الطويلة بمفردها؟!..

وفي هذه اللحظة، كانت العربة قد وقفت أمام الباب بجيادها الأربعة مزدحمة بالركاب.. وأخذ الحارس والحوذي يستحثانني أنا و"بيسي" إذ كنت قد تشبثت بعنق "بيسي" ورحت أمطرها بقبلاتي. وبعد أن استقرت الحقيبة في العربة، صاحت "بيسي" في الحارس وهي ترفعني إلى داخل العربة:

– أحسن رعايتها، واعتن بها ووفر لها أسباب الراحة..

– بلا ريب يا سيدتي..

وانطلقت بنا العربة.. وهكذا قدر لي أن أفترق عن "بيسي" وعن "جيتسهيد".. وهكذا طوح بي القدر إل الغامض المجهول!

***

ولم يعلق بذهني عن الرحلة إلا النزر اليسير.. وكل ما وعيته أن اليوم لاح لي طويلاً، وأن لا نهاية للأميال التي تطويها. ووقفت العربة بإحدى المدن المتعددة التي مررنا بها، لتنال الجياد قسطًا من الراحة، وليتناول الركاب الغداء.. فذهب بي الحارس إلى فندق متواضع لأتناول شيئًا من الطعام، فأبيت لعزوفي عن الأكل.. وتركني في حجرة فسيحة الأركان، فأخذت أروح وأغدو وأنا أشعر بوحشة طاغية، واستبد بي هاجس أن أحدًا سيخطفني. وقد تركز هذا الخاطر في ذهني لما كانت ترويه على مسامعي "بيسي" من الأقاصيص.. وأخيرًا عاد بي الحارس إلى العربة التي انطلقت تستأنف سيرها..

وعند الأصيل.. وكان مشبعًا بالرطوبة ويشيع فيه الضباب.. كنا قد ابتعدنا كثيرًا عن "جيتسهيد"، ولم تصادفنا مدن بعد ذلك، بل لاحت لنا تلال سمراء. ولما اشتد الغسق، هبطنا واديًا يلفه الظلام لازدحامه بأشجار الغابة.

وأخذت الرياح العاصفة تطرق سمعي خلال الأشجار، وقد استحالت الرؤية لشدة الظلام، فما لبث كل ذلك أن أسلمني إلى النوم..

واستقر بنا الأمر بعد طول المطاف، وفتح باب العربة ليطالعني هيكل امرأة أخذت أتأمل وجهها وملابسها على ضوء مصباحي العربة، وسمعتها تتساءل:

– أين الصغيرة التي تدعى "جين إير"؟..

فأجبتها لتوي:

– أنا..

وأنزلوني من العربة كما أنزلوا حقيبتي، ثم عاودت العربة سيرها. وكنت في حالة غير طبيعية نفسيًا وجسمانيًا من أثر الرحلة، فقد تشتت حواسي وتيبست أطرافي. وأخذت أجيل النظر فيما حولي.. فإذا المطر يتساقط، والريح تصفر، والظلمة تلف الكون. ورغم ذلك تراءى لي جدار، فيه باب مفتوح.. دلفت منه مع رفيقتي الجديدة التي أغلقت الباب خلفنا وأحكمت رتاجه. وتبينت أنه منزل أم ربما منازل، لأن المبنى يقوم على مسافة طويلة وله نوافذ متعددة يطل الضوء من بعضها. واجتزنا ممرًا مرصوفًا كانت مياه المطر لا تزال تبلله. ووصلنا إلى باب دلفنا منه، ثم سارت بي الخادم عبر ردهة إلى حجرة يشيع فيها الدفء من مدفأتها، وخلفتني وحيدة.. فرحت أدفيء أطرافي التي شلها البرد على وهج نار المدفأة. ولم ألمح شمعة تضيء، ومع ذلك قد تبين لي على الضوء المنبعث من المدفأة حول جدران الحجرة وقد اكتست بالأوراق، كما تبينت الستائر وقطع الأثاث الفاخر اللامع.. فقد كانت حجرة استقبال لا تقل كثيرًا عن حجرة

استقبال "جيتسهيد" من حيث الفخامة، ولكنها مريحة على كل حال. وفي هذه اللحظة فتح الباب، ودلفت منه امرأة في يدها شمعة وفي عقبيها امرأة أخرى..

وكانت أولى السيدتين فارعة الطول، فاحمة الشعر، ذات عينين سواداوين، وجبين شاحب، اتسمت قسماتها بالمهابة، ذات قوام منتصب.. ووضعت الشمعة على خوان، ثم قالت:

– يا لها من طفلة صغيرة، كيف سمحوا بإرسالها وحيدة في رحلة طويلة كهذه؟

ثم تفحصتني بشيء من الاهتمام لحظة، ثم عادت تقول:

– ينبغي أن تأوى إلى الفراش على عجل.. فقد أنهكها التعب بلا ريب، ألا تشعرين بالتعب أيتها الصغيرة؟..

– أحس ببعض التعب يا سيدتي..

– ومعدتك خاوية بلا شك!..

ثم وجهت الكلام إلى السيدة الأخرى قائلة:

– قدمي لها العشاء قبل أن تأوي إلى فراشها يا "مس ميلر".. ثم عادت تسألني:

– أهذه هي المرة الأولى التي تفترقين فيها عن أبويك لتلتحقي بالمدرسة يا صغيرتي؟..

وكان طبيعيًا أن أذكر لها أن أبوي قد رحلا عن هذه الدنيا، وتلاحقت أسئلتها عن الوقت الذي انقضى منذ وفاتهما وعن سني واسمي، وهل لي إلمام بالقراءة والكتابة.. فأجبتها عن كل هذا، وزدت أنني أعرف بعض أعمال

الحياكة.. فربتت بأصبعيها في لطف وعطف على خدي، ثم قالت أنها تأمل أن أكون فتاة طيبة، وأشارت بأن أنصرف مع مس "ميلر"..

***

وقد قدرت أن السيدة التي كانت تحدثني قاربت نهاية العقد الثاني من العمر، إذ بدا لي أنها في نحو الثامنة والعشرين. أما السيدة التي انصرفت معي، فلاح لي أنها تصغرها ببضع سنوات. وقد سحرتني الأولى بصوتها الشجي، وبهرتني بمظهرها المتزن.. وبالجو الذي تحيط نفسها به، وتضفي عليه طابعًا من المهابة والاحترام. أما مس "ميلر" فقد كان مظهرها ينبي عن امرأة عادية، تصطبغ بشرتها بالاحمرار، وتبدو على محياها خطوط من الأسى الدفين، تتسم بالسرعة في حركاتها وتصرفاتها.. شان من يوكل إليه أعمال متشعبة كثيرة. واتضح لي كما توقعت أنها مساعدة مدرسة.. واجتزنا – هي تتقدمني وأنا في أثرها – قسمًا بعد قسم، وردهة بعد ردهة، في مبنى ضخم غير منسق، حتى إذا انتهينا من السير في هذه الردهات الصامتة القابضة، إذا بنا نقترب من همهمة أصوات تدل على وجود حشد.. ودخلنا حجرة واسعة الأرجاء طويلة، وقد ازدحمت بالموائد التي صفت بها. وفي كل من صدرها ونهايتها، وضعت مائدتان تعلو كل مائدة شمعة. وقد جلس على المقاعد الخشبية المستطيلة حول حشد كبير من الفتيات، ظننت أن من العسير حصر عددهن.. ولكنهن لم يتجاوزن في الواقع الثمانين فتاة، تتراوح أعمارهن بين التاسعة والعاشرة والخامسة عشرة والعشرين. وتبينت على البصيص المنبعث من ضوء الشموع، أنهن يرتدين زيًا خاصًا بني اللون غريب الطراز، ومريلة من قماش قطني.. ورأيتهن يستذكرن دروسهن، وقد استغرقن في أداء واجباتهن. ولم تكن الهمهمة التي سمعتها إلا همساتهن وهن يقرأن ليحفظن دروسهن عن ظهر قلب..

وأشارت إلي مس "ميلر" أن أجلس على مقعد قريب من الباب.. ثم أخذت طريقها إلى صدر الحجرة، وصاحت بصوت مرتفع: "على رئيسات الطالبات أن يجمعن الكتب." ورأيت أربع فتيات طويلات ينهضن، كل عن مائدة، وطفن بالطالبات لتنفيذ ما أمرت به مس "ميلر"، التي عادت تصيح بصوت مجلجل آمر: "احضرن صحائف العشاء أيتها الرئيسات". فهرولت الفتيات الأربع وغادرن الحجرة.. وما هي إلا ببرهة حتى عدن وقد حملت كل منهن صفحة كبيرة عليها شطائر لم أتبين ما كان فيها، وكانت منسقة على الصفحة يتوسطها دورق ماء وكوب. وقمن بتوزيع الشطائر على الفتيات في سرعة ونظام، أما الماء فكان متاحًا لمن تشاء منهن.. وإذ وقفت أمامي إحدى الرئيسات، بادرت بارتشاف كوب من الماء لأني كنت ظمآى. ولم تمتد يدي لشيء من الطعام لعزوفي عنه تحت تأثير الانفعال والتعب.. وكانت تلك الشطائر مصنوعة من دقيق الشوفان..

وانتهت الفتيات من تناول العشاء، وحان موعد الصلاة، فتولت مس "ميلر" تلاوتها، ثم انصرف الفتيات في صفوف وصعدن إلى الطابق العلوي. وعندئذ أخذ مني التعب وغلبني الإرهاق، فلم أتبين في وضوح معالم المكان الذي أعد للنوم، على أنني وجدت أنه مستطيل يشبه إلى حد كبير حجرة الاستذكار.. ولأنها كانت الليلة الأولى في مقامي الجديد، فقد كان لي أن أشارك مس "ميلر" فراشها، فرأيتها تعاونني في خلع ثيابي. وحين استلقيت على السرير، سرحت البصر في ذلك الصف الممتد الطويل من الأسرة، فإذا كل سرير قد احتوى فتاتين. وبعد دقائق أطفئ النور، فاستسلمت للنوم وسط السكون، وقد لفنا ظلام شامل..

***

وكان من الطبيعي أن يمر الليل سريعًا، فقد كنت في حالة من التعب لا تسمح لي بالأرق أثناء الليل، وكذلك لم تواتني أحلام. وتمكن الريح العاصف في عنف من إيقاظي مرة واحدة حيث سمعت المطر يهطل مدرارًا. وشعرت بمس "ميلر" وهي نائمة بجانبي.. وعندما فتحت عيني، طرق سمعي صوت جرس ثاقب، نهضت الفتيات إثر سماعه وارتدين على عجل ثيابهن. ولم تكن خيوط الفجر الفضية قد شاعت، فأضيئت شمعة أو شمعتان. ونهضت بدوري في تثاقل وعدم رغبة، فقد كان البرد قاسيًا وغسلت وجهي.. وكل شيء هنا في نظام رتيب، فلكل ست من الفتيات حوض يغتسلن فيه. وبعد ذلك عاد الجرس إلى رنينه يدق ثانية إيذانًا للفتيات أن يقفن في صفوف كل اثنتين متجاورتين.. ثم هبطن السلم في نظام دقيق، ودلفن إلى حجرة الدرس التي تشيع فيها البرودة ويضيئها نور خافت لا تكاد العين تتبين به شيئًا. وشرعت مس "ميلر" تتلو عليهن الصلاة.. وما أن انتهت من تلاوتها حتى صاحت: "انتظمن في مجموعات!" فتعالت أصداء جلبة صاخبة لبضع دقائق، كانت تصيح أثنائها مس "ميلر" بأعلى صوتها: "الصمت.. الهدوء.. النظام!" فخفتت الضوضاء ورأيت الفتيات جميعًا، وقد انتظمن في أربع دوائر غير مكتملة أمام أربع مناضد.. وقد أمسكت كل فتاة كتابًا في يدها، كما وضع كتاب ضخم كالتوراة على كل منضدة تجاه المقاعد الخالية.. وران على المكان صمت لبضع ثوان، تخلله همهمات من هنا أو من هناك، كانت مس "ميلر" تتجه صوب مصدر تلك الهمهمات لتخنقها وتسكت صاحباتها..

ومن مكان غير قريب انبعثت رنات جرس ثاقبة، فدلفت الحجرة أثرها ثلاث سيدات اتجهت كل واحدة منهن نحو منضدة.. وجلست على المقعد الذي أمامها، وشغلت مس "ميلر" المقعد الرابع الخالي الذي كان أكثر لمقاعد

قربًا للباب، وقد اجتمعت حوله أصغر الفتيات سنًا وكنت أنا إحدى تلميذات هذا الفصل الصغير. وتحدد مكاني في أقصاه، وبدأ العمل المدرسي.. فكانت كل فتاة تلقي ما وعته من دروس اليوم السابق، ثم أعقب ذلك تلاوة فصول من الإنجيل. كما قامت كل فتاة بقراءة فصل من التوراة.. استغرق كل ذلك أكثر من ساعة. وعندئذ انتهت فترة الدرس هذه، وكانت الشمس قد أرسلت أشعتها الذهبية فأشرق النهار..

وما لبثنا أن سمعنا ذلك الجرس الثاقب يعاود الرنين للمرة الرابعة، وكأنه دائب على عمله في إصرار وعدم تراخ.. فتحركت الفصول وسارت في نظام إلى حجرة أخرى معدة للإفطار. وهنا شعرت بموجة من السرور تطغى علي، إذ سنحت لي الفرصة بعد طول وقت وفرط تعب أن أصيب شيئًا من الطعام.. فقد كانت معدتي خاوية تتلوى من الجوع، لأنني في اليوم السابق لم أتناول إلا القليل من الطعام.

***

وكانت صدمة لي أن أجد ما أطلقوا عليه كلمة "مطعم" لم يكن إلا حجرة فسيحة معتمة يكاد سقفها يطبق على أرضها، امتدت منها مائدتان طويلتان صفت فوقها أوان فيها طعام يتصاعد منه البخار يزكم الأنفاس. وما أن نفذت رائحته إلى أنفي حتى تلاشت شهيتي للأكل. ولم أكن وحدي من أحست ذلك الإحساس، فقد لمحت استياء جماعيًا يصدر عن الفتيات كبيرات السن ما لبث أن أفصحن عنه بهمهمات وهمسات أخذت تزداد وضوحًا.. فسمعتهن يقلن: "هذا طعام مقزز.. الطعام محترق.." وعلى الفور سمعنا صوتًا ينطلق في صرخة مدوية: "الصمت أيتها الفتيات" من مدرسة ذات قدر مرموق من المكانة، يخشى بأسها ويعمل حسابها، وتتمتع بقسط كبير من الاحترام.. وهي

سيدة سمراء البشرة أنيقة في ملبسها تكتسي طلعتها بطابع من الكآبة والعبوس. وقد وقفت على رأس المائدة سيدة أخرى ذات صدر ناهد.. ولم يقع بصري على السيدة التي استقبلتني في الليلة السابقة. ووقفت مس "ميلر" في طرف المائدة التي جلست إليها، وفي الطرف الآخر وقفت سيدة أجنبية المظهر عرفت فيما بعد أنها مدرسة اللغة الفرنسية. وقد تليت صلاة طويلة وأنشدت بعض الترانيم، ثم جيء بالشاي للمدرسات، وبدأ تناول الفطور.

ولما كان الجوع قد أخذ مني كل مأخذ، فقد تناولت معلقتين مما وضع أمامي.. وسرعان ما تبينت أنه يثير الغثيان، واشمأزت نفسي فلم أتناول ملعقة أخرى. ورأيت الفتيات وقد تراخين في الأكل، يحاولنه فلا تطاوعهن الشهية. وانتهت فترة الإفطار دون تناوله.. وتلونا صلاة شكر تقليدي وخرجنا من المطعم إلى حجرة الدرس. ولفت نظري أن وجدت إحدى المدرسات تتذوق طعامنا وتنظر إلى زميلاتها وقد بدا عليها الاستياء، وسمعت مدرسة أخرى تهمس: "طعام مقزز.. يا له من عار".

وتناوبت تعليقات الفتيات في مطلع الدرس عن الفطور الذي لم يتناولنه، وكأنهن كن يعزين أنفسهن بهذه التعليقات. وكانت مس "ميلر" هي مدرسة الفصل، فالتفت الفتيات حولها يمطرنها باحتجاجاتهن.. وسمعت اسم مستر "بروكلهيرست" يتردد على الأفواه، وحاولت مس "ميلر" أن تهدئ الخواطر وتمسك زمام الموقف، رغم أنها كانت تشارك الفتيات شعورهن، وانتهت فترة الدرس فتوقفت مس "ميلر" تطلب إلى الفتيات أن يخلدن إلى السكون ويعدن إلى أماكنهن.

وبعد فترة وجيزة، ساد النظام وانتهت موجة الاستياء، واتخذت المدرسات مجالسهن وران على الجميع طابع الانتظار. كان منظرًا فريدًا حيث جلس جميع

الفتيات دون حراك، وقد صففن شعورهن في غير تجمل أو زخرف.. وكلهن يرتدين ثيابًا بنية ترتفع إلى الرقبة وعلقن على صدورهن أكياس التطريز، وكانت جواربهن من الصوف وأحذيتهن رديئة الصنع.

***

وكنت أتأمل كل ذلك، وأنقل بصري بين المدرسات.. وقد بدا أنه لم ترق لي واحدة منهن، فكانت صاحبة الصدر الناهد يغلب عليها طابع الفظاظة، والأخرى النحيلة في ملامحها معالم الشراسة.. أما الأجنبية فكانت غليظة الطباع عجيبة الأطوار. واستثني من ذلك مس "ميلر" فقد كان واضحًا عليها احتقان اللون، وأنها تعاني من كل شيء فضلاً عن ضغط العمل المرهق.

وفجأة، وكأنما يسحر ساحر، رأيت المدرسة كلها تنهض دفعة واحدة.. وتساءلت ماذا عساه قد حدث، فلم أكن قد سمعت تنبيهًا أو إشارة أو أمرًا. وبعد لحظة أخرى رأيت الجميع وقد عدن إلى الجلوس، وأخذت الأبصار تتجه نحو جهة واحدة.. فشخصت إليها وإذا بي أرى السيدة التي استقبلتني بالأمس، وقد وقفت تتأملنا في صمت وهيبة ووقار. ثم تحدثت مع مس "ميلر" التي نادت رئيسة الفصل الأول، وطلبت منها أن تحضر الكرات الأرضية. وأخذت السيدة الوقور تروح وتجيء في تؤدة، فشعرت بروح التقدير والإعجاب والاحترام لها.. وقد ظهرت لي ملامحها واضحة، فوجدتها ممشوقة القوام ناصعة البياض تتمتع بطول فارع، ذات عينين واسعتين عسليتين تلمعان بوميض أخاذ تحيطهما أهداب منظمة. أما جبينها، فكان عريضًا كصفحة بيضاء وقد تهدل شعرها الكستنائي على فوديها في خصلات ملتفة. وكان ثوبها قرمزي اللون أنيقًا في بساطة، وتوسطت خاصرتها ساعة ذهبية. وبالجملة كانت بشرتها صافيًا كالغدير

وقسماتها حادة دقيقة، ومظرها ينبي عن رصانة ومهابة. ولعلي رسمت بذلك صورة حقيقية لمس "تمبل".. "ماريا تمبل"..

***

ومس "تمبل" هي ناظرة مدرسة "لوود" فلا عب أن تتمتع بهذا القدر من المهابة والاحترام. وجلست السيدة أمام زوج من الكرات الأرضية وضعتا على منضدة.. وبإشارة منها أحاط بها تلميذات الفصل الأول، فأخذت تشرح لهن درسًا في علم الجغرافيا وتولت المدرسات الفصول الصغرى في دروس التاريخ والحساب وتعليم الكتابة. وتولت مس "تمبل" تلقين الكبيرات من الفتيات فنون الموسيقى وكل درس له وقت محدد..

وما وافت الساعة الثانية عشرة حتى نهضت مس "تمبل" ناظرة المدرسة، وكان الضجيج الذي يعلو عقب انتهاء كل درس قد توقف عندما سمع التلميذات الناظرة تقول: "لدي كلمة أريد أن أقولها.. وصل إلى علمي أنكن لم تستطعن تناول طعام الفطور الذي قدم إليكن في هذا الصباح. ومن الطبيعي أنكن تشعرن بالجوع.. لهذا أصدرت الأمر بأن تقدم إليكن جميعًا وجبة من الخبز والجبن".

فظهرت الدهشة على وجوه المدرسات، وعندئذ عادت تقول: "وهذا الذي أمرت به على مسئوليتي أنا".. وما أن انتهت من كلامها حتى غادرت الحجرة على الفور. ولم تنقض بضع دقائق حتى وزع علينا خبز وجبن، فظهرت البهجة على أسارير المدرسات.. ثم صدر إلينا الأمر بالاستعداد للتوجه إلى الحديقة، فارتدينا قبعات من القش وأوشحة من المخمل، وأخذنا طريقنا نحو الهواء الطلق..

وسرحت النظر في الحديقة، فإذا هي مترامية الأطراف تحيط بها أسوار عالية جدًا تعزلها عزلاً كليًا عن الخارج، وتمتد على أحد جوانبها شرفة طويلة ذات سقف. وكانت ثمة ممرات واسعة تتوسط جزءًا من الحديقة، خططت فيها أحواض كثيرة.. لكل تلميذة حوض تقوم بزراعته. ولو أنها كانت ملأى بالزهور لكانت أبعث على البهجة والسرور، ولكننا كنا في مستهل الخريف فكان كل شيء يابسًا ذابلاً. وكان اليوم زمهريرًا لا يتفق معه العمل بالحديقة، والأرض تخضلها مياه سيول اليوم السابق. وأخذت الكبيرات من الفتيات يمارسن أنواعًا شتى من النشاط، أما الصغيرات الضعيفات فقد لذن بالشرفة التماسًا للدفء، وكثيرًا ما كان يصدر من بعضهن سعال حاد أجوف بتأثير الضباب الكثيف في أجسادهن النحيلة المرتجفة.

ولاحظت أن واحدة من التلميذات لم تحفل بوجودي، فإنني حتى الآن لم أتبادل حديثًا مع إحداهن، فظللت في شبه وحدة.. بيد أنني كنت قد تمرست على هذه العزلة، فلم أشعر بشيء من الألم أو الضيق..

وفي هذا الجو الجديد الذي اندمجت فيه، اتكأت على أحد أعمدة الشرفة ولففت عباءتي اتقاء للبرد والتماسًا لنسيان الجوع.. رأيت أفكاري تسبح في معالم وعوالم غير محددة، وقفزت إلى مخيلتي حياتي السابقة في "جيتسهيد"، ولم أتبين حاضري فبدا لي مبهمًا غامضًا. أما المستقبل فلم يكن في مقدوري أن أتكهن به. وأخذت أنقل البصر بين الحديقة المترامية والدار الكبيرة الضخمة البناء، وقد بدا نصفه قديمًا عفا عليه الزمن والنصف الآخر في رونق الجدة. وفي هذا الجزء الجديد، تقوم قاعة الدرس وقاعة النوم، ونوافذه ذات قضبان حديدية كنوافذ الكنائس، وعلى بابه ثبت لوحة حجرية مكتوبًا عليها:

"نعهد لوود".. أنشأت "ناعومي بروكلهيرست" سيدة قصر بروكلهيرست هذا القسم في هذه المقاطعة عام ... الميلادي"

ونقش تحت هذه العبارة على اللوحة آية من إنجيل متى إصحاح ١٦:

"دع نورك يشرق على الملأ كي يروا أعمالك الجليلة فيمجدوك ويمجدوا أباك الذي في السموات".

***

واستغرقت في تفكير عميق وأنا أكرر تلاوة هذه الكلمات، وأيقنت أن وراءها مغزى.. بيد أنني لم أستطع أن أفهم أو أفسر تمامًا ما كانت تحمله بين ثناياها. وأخذت أواصل التفكير محاولة أن أعثر عل رباطة بين المكتوب في صدر اللوحة وبين الآية من الإنجيل، وإذا بي أسمع صوت سعال خلفي، فحولت نظري ناحية الصوت.. فرأيت فتاة جالسة على مقعد حجري، مكبة على كتاب وقد بدا عليها الاهتمام بمطالعته، ودققت النظر في اسم الكتاب، فوجدته "راسيلاس".. وقد لاح لي مشوقًا لغرابته. ثم وجدتني أسألها: "هل كتابك ممتع مشوق؟" وفكرت أن أرجوها أن تعيرني إياه في أي وقت يروق لها. فأجابتني وقد أخذت تتأملني: "إنه حبيب إلى نفسي" وعدت أسألها: "وما موضوعه؟"... ولا أدري بالضبط كيف واتتني الجرأة على التحدث إلى فتاة غريبة عني، فقد كان ذلك على النقيض لطبعي وما درجت عليه، ولكني استشعرت أن ما شغلت الفتاة به نفسها أثار اهتمامي ومس وترًا حنونًا في قلبي.. لأنني أنا أيضًا كنت مشغوفة بالقراءة لا أقوى – لصغر سني – على هضم الكتب ذات القيمة.

وأجابتني الفتاة على سؤالي بقولها: "في استطاعتك أن تلقي عليه نظرة" فلم أتردد وفعلت، وكان تفحصي للكتاب سريعًا.. فخيل إلي أن مادته أقل

إغراءً من اسمه. وبدا لي تافهًا ليس فيه شيء من حوريات الأساطير أو شيء من الموضوعات التي تبعث البهجة في النفس.. فأعدته إلى الفتاة، فأخذته دون أن تتكلم، وهمت أن تعاود القراءة.. ولكني عدت أسألها: "هل يمكن أن تحدثيني بما تعنيه الكتابة المنقوشة على اللوحة المثبتة عند باب المدرسة؟.. ما هو معهد لوود؟"

- هي المؤسسة التي تقيمين فيها الآن..

- ولماذا يسمونها معهدًا؟ هل هناك فارق بينها وبين المدارس؟

- إنها تتسم بطابع الخير إلى حد ما.. أي مدرسة خيرية، فأنت وأنا وجميع الفتيات نعيش في كنف برها، وأغلب الظن أنك يتيمة.. ألم يمت والدك أو والدتك؟

- رحلا عن هذا العالم، وأنا طفلة لا أعي..

- أرأيت إذن؟! كل الفتيات اللواتي يجمعهن هذا المعهد رزئن في أحد الوالدين أو فيهما معًا.. وهذه الدار معهد لرعاية اليتيمات وتعليمهن.

- ألا نؤدي أجرًا عن ذلك؟.. هل يرعوننا دون مقابل؟

- نحن لا ندفع، ولكن أصدقاءنا يقومون بالدفع، فالمعهد يأخذ خمسة عشر جنيهًا في العام عن كل فتاة..

- لماذا إذن يطلقون علينا "أولاد المبرات"؟

- لأن هذا المبلغ الزهيد الذي لا يكفي لطعامنا وملبسنا وإقامتنا وتعليمنا.. وباقي التكاليف يتوفر للمعهد من تبرعات أهل الخير.

- ومن هم المتبرعون؟..

- سيدات مجتمع كثيرات، وسادة من أهل المناطق المجاورة ومن لندن، جبلوا جميعًا على فعل الخير والبر باليتامى والفقراء والمساكين..

- ومن تلك التي نقش اسمها ""ناعومي بروكهليرست ؟

- إنها السيدة التي أنشأت القسم الحديث من الدار، كما هو منقوش على اللوحة، وابنها هو الذي يشرف على المؤسسة ويدير شئونها..

- لماذا؟..

- لأنه مدير المؤسسة وأمين صندوقها..

- ليست هذه الدار إذن ملكًا للسيدة التي تحلي صدرها بساعة ذهبية، وابتي أمرت لنا بوجبة الخبز والجبن؟

- تقصدين مس "تمبل"..! لا.. ليت الأمر كذلك!.. إنها مسئولة أمام مستر "بروكلهيرست" عن جميع تصرفاتها وأعمالها، وهو الذي يقوم بشراء غذائنا وثيابنا..

- وهل يقيم معنا في الدار؟ ..

- لا.. ينعم بالعيش في قصر منيف يبعد بمقدار ميلين من هنا..

- وهل هو رجل ورع طيب؟..

- إنه من رجال الكنيسة، ويقال أن أعماله تتسم بطابع الخير..

- قلت أن اسم السيدة الطويلة مس "تمبل"؟

– نعم..

– وما أسماء المدرسات الأخريات؟

– ذات الخدين المنتفختين الموردتين اسمها مس "سميث" وتشرف على الحياكة والتفصيل، ولعلك لا تعلمين أننا نقوم بصنع ثيابنا وزينا المدرسي. وذات الجسم الضئيل والشعر الفاحم هي مس "سكاتشيرد"، وتعطي دروس التاريخ والنحو وتقوم بتسميع الدروس لتلميذات الفصل الثاني. أما المدرسة التي تتشح بشال وتحمل منديلاً مشدودًا إلى جانبها بشريط فهي مدام "بييرو" وهي فرنسية وتدرس لغة بلادها..

– هل تشعرين بالحب نحو المدرسات؟..

– إلى حد ما..

– بصفة خاصة هل تميلين إلى الصغيرة القد، السمراء.. ومدام...؟ إنني أتعثر في نطق اسمها..

– مس "سكاتشيرد" عصبية سريعة الانفعال والغضب، فينبغي أن تحرصي وتتجنبي إثارتها، أما مدام "بييرو" فدمثة الطبع..

– إنني أعتقد أن مس "تمبل" تفضلهن جميعًا.. ألا توافقينني؟

– حقًا.. إن مس "تمبل" طيبة جدًا.. وماهرة جدًا.. وهي تتقن عملها وتؤديه على أكمل وجه، ولذلك فهي تفوق الأخريات لأنها أوسع منهن معرفة وإطلاعًا وأقدر منهن على أداء الأعمال..

– منذ متى وأنت في هذه الدار؟..

- منذ عامين..

- هل أنت يتيمة؟..

- ماتت أمي..

- هل تشعرين بالسعادة في هذا المكان؟..

- إنك كثيرة الأسئلة.. لقد أزجيت إليك إجابات تكفيك الآن، والآن أريد أن أقرأ..

وفي هذه اللحظة، انطلق الجرس معلنًا دعوتنا للغداء.. فهرولت الفتيات جميعًا عائدات إلى الدار، وكانت رائحة الطعام التي شاعت في جو المطعم لا تكاد تكون أكثر إثارة للشهية من تلك التي شممناها وزكمت أنوفنا في الإفطار. وكان الغذاء في وعائين كبيرين من الصاج تصاعد منهما بخار كثير مشبع برائحة الدهن المغلي. وتبين لي أن الوجبة من البطاطس رديئة الطهو، ومن شرائح لها منظر منفر من لحم قاتم طبخت مع البطاطس. وأصابت كل فتاة مقدارًا كبيرًا.. فأكلت بملء حريتي بقدر ما وسعني، وتساءلت في نفسي عما إذا كان الطعام سيقدم إلينا بهذا القدر يوميًا.. وبعد أن انتهينا من تناول الغداء ذهبنا مباشرة إلى قاعة الدرس، لنستأنف دروسنا التي استمرت حتى الساعة الخامسة..

ولفت نظري بعد الظهر، وأثار اهتمامي في الوقت نفسه أنني رأيت الفتاة التي تبادلت وإياها حديثًا طويلاً في الشرفة وقد أقصتها مس "سكاتشيرد" من درس التاريخ، وأمرتها بأن تقف في وسط حجرة الدرس. ولاح لي العقاب مستهجنًا إلى درجة شديدة بالنسبة لفتاة كبيرة تجاوزت الثالثة عشرة. وتوقعت أن يعتري الفتاة خزي وأسى.. ولكنها – لعجبي – لم يتضرج وجهها ولم تبك، بل وقفت ثابتة، ولكنها عابسة لأن العيون تحولت إليها. وتساءلت: "كيف

تحتمل ذلك برباطة جأش.. في هدوء ورزانة، وأنني لو كنت في مكانها لتمنيت أن تنشق الأرض فتبتلعني، ولاحت لي شاردة تفكر في غير عقابها، في شيء ليس حولها.. إن نظراتها تتجه نحو الأرض، ولكني أعتقد أنها زائغة كأنما غاص بصرها في قلبها.. إنها تسبح بذاكرتها. ترى أي نوع من البنات هي؟ أهي طيبة أم شريرة؟..

وتناولنا وجبة أخرى بعد الساعة الخامسة، فأعطيت كل فتاة قدحًا من القهوة وكسرة من الخبز، والتهمتهما في نهم.. وكنت أتمنى مزيدًا لأنني كنت جائعة، ثم أخلدنا إلى فترة راحة لنصف ساعة أعقبها استذكار، ثم كوب من الماء وقطعة من فطير الشوفان. وختمنا بالصلاة وأوينا إلى الفراش..

هكذا قضيت أول يوم لي في "لوود".

الفصل الخامس

الصديقة الحكيمة

استيقظنا في صبيحة اليوم التالي، وارتدينا الثياب على ضوء الشموع الخافت المتأرجح. ولم نغتسل لأن المياه تجمدت في الأباريق لتغير مفاجئ في الجو، وهبوب عاصفة رياح صقيع، أقلقتنا بصفيرها طوال الليل، وجعلتنا نرتعد في فراشنا.. حتى كدت أهلك قبيل انتهاء الصلاة. ثم حانت ساعة الإفطار، فوجدنا العصيدة مستساغة لم تحترق.. على أننا لاحظنا ضآلة الكميات التي قدمت لنا، فتمنيت المزيد.

وأسندت إلي أعمال رتيبة، ومهام أقوم بها بعد أن سجل اسمي في الفرقة الرابعة. وكانت الفترة السابقة فترة إطلاع على النظم التي يسير عليها معهد "لوود" وأصبحت الآن عضوًا عاملاً، عليه واجبات والتزامات.. وبدت لي الدروس مملة في البداية لأنني لم أتعود الاستذكار، كما أربكني الانتقال من عمل إلى آخر. وفرحت جدًا عندما ألقت إلي مس "سميث" قطعة قماش حريرية، وإبرة، ووقاء أصبع، وخيطًا، وطلبت مني أن أعمل على تنسيق القماش. وانشغلت أخريات بالحياكة، ووقف غيرهن أمام إحدى المدرسات يطالعن. وكنت أسمعهن وأسمع نصائح المدرسة وإرشاداتها.. ولمحت بين القارئات الفتاة التي تحدثت إليها ونحن في الشرفة، وكانت في المقدمة، فأعيدت إلى نهاية الصف لخطأ في قراءتها. ولم تكتف مس "سكاتشيرد" المدرسة بذلك، بل جعلتها هذه التعليقات بقصد السخرية منها. وبعد الانتهاء من القراءة، أمرت المدرسة بإلقاء الكتب جانبًا وأخذت في اختيار الفتيات اللواتي عجزن عن الإجابة. أما محدثتي

في الشرفة واسمها "بيرنز" فكان من نصيبها كل سؤال مستعص، بيد أنها كانت تجيب عنه إجابة صحيحة تدل على استيعاب كامل. وتوقعت أن تطريها المدرسة، وكلن خاب ظني حين رأيتها تصيح فيها بغتة لماذا: "أنت فتاة حمقاء منفرة قذرة، لم تنظفي أظافرك!" فلاذت "بيرنز" بالصمت. وعجبت من أمر هذه الفتاة، وتساءلت لماذا لم توضح السبب وتخبرها بأن الماء كان متجمدًا. وأخذت مس "سميث" وأنا أعمل معها تحدثني وتسألني عما إذا كنت التحقت بمدرسة أخرى من قبل، وهل لدي إلمام بفنون الحياكة والرفو وما إليها.. فشغلني ذلك عن متابعة مس "سكاتشيرد" إلى أن أعفتني مس "سميث" من معونتها. فعدت إلى مقعدي ورأيت بيرنز تغادر الحجرة لتعود بعد لحظة حاملة حزمة من فروع الشجرة معقودة من أحد طرفيها، قدمتها إلى مس "سكاتشيرد" في تأدب، ورأيتها تخلع مريلتها من تلقاء نفسها وأخذت المدرسة تضربها بالحزمة على عنقها ضربات متتالية، وبيرنز صامدة لا تطفر منها دمعة!.. فتملكتني فورة من الغضب الجائح، وأخذت أصابعي ترتعش فتوقفت عن أعمال الحياكة. ولما رأت مس "سكاتشيرد" جمود الفتاة صاحت فيها: "يا لك من عنيدة هل يستعصى تقويمك؟.. ارغبي عن وجهي!".. وأطاعت "بيرنز" صاغرة وتفرست فيها حينما مرت بجانبي، فإذا بها تعيد منديلاً إلى جيبها.. وقد لاح على خديها الناحل أثر لامع لدمعة طفرت من عينيها في صمت واستسلام..

***

وخلال هذا الجو المرهق الذي يرين على المعهد، كانت ساعة الراحة واللهو في المساء هي أبهج الفترات – بعد تناول قدح القهوة وشريحة الخبز – فتنتعش نفوسنا. وتخف وطأة إرهاق عمل النهار، وغرفة الدرس أكثر دفئًا

لتوهج نيران المدفأة.. فتتراءى الظلمة المشوبة بحمرة الوه، والصخب المباح واختلاط الأصوات.. كل ذلك يبعث فينا شعورًا بالحرية حبيبًا إلى النفس..

وفي مساء ذلك اليوم الذي ضربت فيه "بيرنز" أخذت أهيم كعادتي بين الفرق والجماعات الضاحكة بمفردي، ودون أن أحس بالعزلة. وكنت حين أمر بالنوافذ وأزيح ستارها الخشبي وأنظر إلى الخارج، أرى الصقيع يتساقط فيتجمع بعضه خارج الألواح الزجاجية.. فكنت أدنى من النوافذ فأسمع عويل الرياح خلال الصخب المشابه لهدير الأمواج..

ولعل هذه الساعة هي الحرية بأن تذكي نفسي بلوعة الفراق في مرارة قاتلة، لو أنني خلفت بيتًا طيبًا وأهلاً كرماء! .. لأهاجت تلك الرياح في الشجن، وكانت تلك الظلمة المقبضة خليقة أن تعكر صفوي. أما وأنا على العكس من ذلك، فقد استلهمت الريح والظلمة أحاسيس أخرى انفعالات غريبة محمومة.. فوددت لو أن الريح اشتدت في عوائلها وقست، والظلمة تفاقمت، والاضطراب استحال إلى ثورة وهياج!.. وأخذت طريقي قافزة فوق المقاعد إلى أحدى المدافئ، حيث كانت "بيرنز" متكئة على حاز من السلك، وقد استغرقها صمت عميق، لا تحس بما حولها، تقلت الوقت في قراءة كتاب.. فسألتها حين اقتربت منها: "أهو نفس الكتاب الذي كان معك.. راسيلاس؟" فردت بالإيجاب، وبأنها أوشكت أن تفرغ منه.. وعد فترة أغلقته، فسرني ذلك وقلت لنفسي: "لعلي مستطيعة حثها على الكلام" وجلست إلى جانبها على الأرض ثم سألتها:

– ما اسمك الذي يسبق بيرنز؟..

– هيلين..

- هل وفدت من مكان قصي؟..
- جئت من الشمال، من مكان بعيد، على حدود أسكوتلندا..
- وهل تنوين العودة إليه في يوم من الأيام؟..
- أتمنى ذلك.. ولكن أحدًا لا يملك الاطمئنان للمستقبل..
- إذن فأنت تتحرقين شوقًا للرحيل عن "لوود"؟..
- ولماذا أتمنى ذلك؟.. لقد جيء بي إلى هنا لأتعلم.. ولن يكون لرحيلي نفع إذا لم أبلغ تلك الغاية..
- وتلك المدرسة.. مس "سكاتشيرد" أليست قاسية في معاملتك؟
- قاسية؟ ليست قاسية.. إنما هي حازمة تكره أخطائي..
- لا أظنك تفعلين أمرًا كهذا.. وإذا فرض وتجاسرت فسيكون مصيرك الفصل من المدرسة. ولن يرضي ذلك أهلك، فمن الخير أن يحتمل المرء بصبر عقابًا لن يتعداه إلى سواه.. عن أن يسلك سلوكًا يمتد أثره إلى من له به صلة. وفضلاً عن ذلك فقد لقنونا: "من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر"..
- ولكن أليس مخزيًا أن يضرب المرء، وأن يقف موقفًا يكون فيه هدفًا لسخرية الغير.. وأنت فتاة شابة؟.. إنني أصغرك ومع ذلك لا أطيق معاملة كهذه..
- إذا لم يكن في مقدورك تفاديها، فإنها تغدو أمرًا لا مفر منه.. وهراء ما تقولين من أنك لا تطيقين احتماله..

وأخذتني الدهشة لكلامها.. وكان في نظري وكأنه أحاج أو ألغاز، وكنت لا أستسيغ تسامحها نحو معذبتها ومع ذلك فقد بدت لي "هيلين" بعيدة النظر وأنها ربما كانت على صواب. وآثرت أن أقف عند هذا الحد في هذا الموضوع، وعدت أسألها:

– سمعتك تقولين أن لك أخطاء.. هل يمكن أن أعرفها. أنك تبدين لي طيبة دمثة الخلق – نصيحتي لك ألا تأخذي بالمظاهر، فإنني حقًا كما تقول مس "سكاتشيرد" أميل إلى القذارة، ثم أنني مهملة لا أرعى نظامًا.. لا تعلق القواعد بذاكرتي. وأشغل نفسي بقراءة الكتب وقد الاستذكار، وليس لي طابع مميز.. ولا أستطيع أن أرضخ لنظم محددة. كل هذا يثير مس "سكا تشيرد" لأنها بطبيعتها نظيفة، دقيقة تعشق النظام..

فقلت لها وكأني أتم أوصاف المدرسة:

– ولكنها قاسية.. سريعة الغضب..

ولم تقرني هيلين على ذلك، ولاذت بالصمت.. فعدت أسألها؟

– هل تقسو عليك مس "تمبل" كذلك؟..

فشاعت ابتسامة ناعمة بوجهها عند سماع اسم مس "تمبل" وأجابت:

– إن مس "تمبل" نموذج رائع للطيبة، ويؤلمها أن تقسو على أحد ولو كان يستحق القسوة.. إنها تبصرني في لين، وتمنحني حقي من الإطراء حين أستحقه.. ولو أن إطراءها لا يحفزني على التقدم المستمر والعناية وبعد النظر..

– يدهشني ذلك.. إن الاعتناء أمر سهل..

- هو كذلك بالنسبة لك، فقد لاحظت أنك شديدة الانتباه لا يشرد تفكيرك وقت الشرح.. أما أنا فعقلي دائمًا هائم، لا ألقي بالاً لما أسمع، كأنني في حلم فأسرح بأفكاري ولا أعي شيئًا من الدروس التي تشرح..

- عجيب ما تقولين!.. لقد كنت موفقة في إجاباتك اليوم!..

- مجرد مصادفة، لأن الموضوع الذي كانا نطالعه راق لي..

وأخذت "هيلين" تحدث نفسها في موضوع الدرس الذي راق لها عن الملك "تشارلس".. ونسيت أنني كنت لا أفهمها جيدًا. وأنني كنت جاهلة بذلك الموضوع.. وعدت أسألها:

- وهل تشرد أفكارك أثناء درس مس "تمبل"؟..

- طبعًا لا.. لأن مس "تمبل" لها طابع خاص يستحوذ على تأملاتي، وأسلوبها يروق لي.. وأنا أميل بطبعي إلى المادة التي تلقنها..

- إذن فأنت فتاة طيبة في نظر مس "تمبل"؟

- نعم.. بطريقة ما، فأنا لا أبذل جهدًا وأنا أتبع ميلاً يهديني.. وليس لي فضل في ذلك..

- بل على العكس لك فضل عظيم، لأنك تكونين طيبة مع من يبدون طيبة في معاملتك.. وهذا ما أتمناه. أما لو ظل الناس مستكينين للقساة الظالمين، لسدر اللئام في غيهم، ولما شعروا بخوف.. فلا تتبدل حالهم بل تزداد سوءًا فإذا عوملنا بقسوة دون مبرر فلا يجب أن نستكين، بل ينبغي أن نتمرد ونكيل الصاع صاعين حتى يعدل من يصفعنا عن ذلك..

- آمل أنك ستغيرين رأيك هذا عندما يتقدم بك العمر، فما أنت إلا فتاة صغيرة لا تعلم من أمور الدنيا شيئًا..

- هذا شعوري يا "هيلين".. يجب أن أكره من يكرهني، مهما فعلت لإرضائه.. يجب أن أقاوم الظلم.. هذا أمر طبيعي أما الذين يشملونني بحبهم وعطفهم، فيجب أن أحبهم وأتقبل عقابهم عندما أستحقه.

- الوثنيون يؤمنون بهذا الرأي.. أما غير الوثنيين والأمم المتمدينة فينكرونه ولا يعترفون به..

- كيف؟.. إنني لا أفهم سر ذلك؟..

- ليس العنف خير ما يغلب الكراهية.. وليس الانتقام خير ما يمحو الإساءة..

- ماذا إذن؟..

- الجواب في التوراة.. اقرئيه.. واعملي بتعاليم المسيح.. وتأملي كيف يرشدنا أن نتصرف.. واجعلي كلمته نبراسًا لك، ومسلكه مثالاً تقتدين به.

- اسمعيني طرفًا من ذلك..

- أحبوا أعداءكم، وباركوا لأعيكم، وافعلوا الخير لمن يكرهونكم ويسيئون إليكم..

- إذن، علي أن أحب مسز "ريد" وهو ما لا أطيقه أو أستطيعه.. وعلي أن أبارك ابنها "جون".. هذا أمر مستحيل..

واستفسرتني "هيلين" عما أعني، فأفضيت إليها بقصة آلامي وأحقادي، وأثارتني المرارة فطفقت أتكلم بدافع من شعوري دون تحفظ، و"هيلين" تنصت

لما أقول. وتوقعت أن تعلق على كلامي، ولكنها لاذت بالصمت، فسألتها وقد نفد صبري:

- الآن وقد سمعت قصتي.. أليست مسز "ريد" امرأة قاسية القلب شريرة؟!

- كل ما في الأمر أنها لم تكن رحيمة بك، لأنها تكره الخلق الذي فطرت عليه تمامًا كموقف مس "سكاتشيرد" بالنسبة لي ولكنك تمتازين بذاكرة قوية لسردك دقائق قصتك وتصرفات السيدة معك. وما أعمق الأثر الذي خلفه ظلمها في نفسك وفي فؤادك. أما أنا فعلى العكس، لا تترك الإساءة طابعًا كهذا على مشاعري.. ألا تكونين أكثر سعادة لو أنك نسيت قسوتها. إن الحياة أقصر من أن نضيعها في تنمية البغضاء، إننا مثقلون بالأخطاء في هذه الحياة.. ولكننا لن نلبث في وقت أن نتخلص من خطايانا عندما نتخلص من أجسادنا المثقلة بالفساد.. ستذهب عنا كل خطيئة وكل دنس مع هذا البدن الفاني، وستبقى الروح الخالدة، جوهر الحياة والفكر نقية كما كانت حين أودعها الخالق في المخلوق، ولسوف تعود إلى عليائها، وربما انتقلت في مدارج المجد من النفس البشرية لتشرق في ملاك... ولكن ألا يمكن أن تتعرض لعكس هذا فتنحدر إلى الجن.. إنني لا أؤمن بهذا بل أؤمن بعقيدة أخرى.. لم يلقنها لي أحد ونادرًا ما أكشف عنها لأحد، أجد فيها نشوة وغبطة وأتمسك بها، لأنها تنشر الأمل للجميع.. فهي تجعل من الحياة الأخرى راحة وطمأنينة وليست موطن فزع أو هوة. وبهذه العقيدة أستطيع ألا أخلط بين المذنب وذنبه، فيتسع صدري وأغفر للأول في صدق وإخلاص بينما أستنكر الذنب. بهذه العقيدة لا يتسلل الانتقام إلى نفسي، ولا يمكن للإهانة أن تثيرني.. وبالتالي لا يمكن للظلم أن يقضي علي، وإنما أعيش في هدوء وطمأنينة نفس ارتقابًا للنهاية..

وازداد انحناء رأس "هيلين" وهي تنهي كلامها، وأدركت أنها لم تعد راغبة في متابعة الحديث.. أنها تؤثر أن تخلو إلى نفسها وإلى أفكارها. وحضرت في هذه اللحظة إحدى الرئيسات، وصاحت في لهجة قاسية:

– إذا لم تذهبي يا "هيلين" لتنظمي درجك، وتجمعي شغل الإبرة الآن، فإنني سأدعو مس "سكاتشيرد" لترى إهمالك!

وتنهدت "هيلين" ونهضت لتوها منصاعة لتحذير الرئيسة دون أن تلفظ كلمة.

***

انقضت ثلاثة أشهر على وجودي في "لوود" وكأنها دهر اشتملت على كفاح مضن، أروض فيها نفسي على النظم غير المألوفة لي. وكان توجسي من الفشل أقسى على نفسي من الإرهاق البدني الشاق.. وتميز المكان بجليده الذي يشل حركة الأطراف، فكان خروجنا لا يتعدى الذهاب إلى الكنيسة. كما كان علينا أن نقضي ساعة كل يوم في الهواء الذي يلفحنا ببرودته لأن ملابسنا لا تكفي لدرء البرودة عن أجسادنا النحيلة، وكانت أحذيتنا قصيرة يتسلل الثلج منها إلى أقدامنا ويذوب. فكانت هذه الحال مصدر ألم دائم لي.. ولا أنسى ما أعانيه من عذاب وأنا أدس أصابع قدمي المتورمة المتجمدة داخل حذائي كل صباح..

وللطعام قصة تبعث في النفس الأسى، فقد كانت كمياته المقررة ضئيلة.. فكنا لا نصيب منه إلا القليل. وليت الأمر يقتصر على ذلك، فقد سببت ضآلة كميات الطعام تفشي عادة سيئة، فكانت الفتيات الكبيرات – وقد أمسك الجوع بتلابيبهن – يجرن على طعام الصغيرات ويحرمنهن من نصيبهن،

تارة بالإغراء وتارة بالوعيد كلما سنحت لهن فرصة. وكم من مرة اقتسمت مع اثنتين من المغتصبات شريحة الخبز الشهية، وأضطر إلى أن أقسم قدح القهوة إلى نصفين، ثم أقسم النصف الذي سيخصني إلى نصفين أيضًا.. فكنت أتناول الطعام والدموع تتساقط من عيني!..

وتبعد الكنيسة بمقدار ميلين.. فكنا نكره أيام الأحد التي كان علينا أن نذهب فيها إلى الكنيسة سيرًا على الأقدام، فتشتد علينا وطأة البرد. وإذا كنا لا نتمكن من العودة قبل موعد وجبة الغداء، كانت توزع علينا بين الطقوس وجبة الطعام بنفس التقتير. وما زلت أذكر مس "تمبل" وهي تسير في خطى رشيقة بجوارنا، وقد ضمت عباءتها التي يعبث بها الريح.. وهي تشجعنا وتضرب لنا أروع المثل لكي نحتفظ بروحنا المعنوية ونسير قدمًا كالجنود البواسل على حد قولها..!

وحين نعود كنا نتلهف إلى حرارة نيران المدافئ.. ولكن الكبيرات من الفتيات كن يستأثرن بها دوننا نحن الصغيرات، فكن يلتففن حول المدافئ، وننكمش نحن خلفهن نحاول الحصول على الدفء بجذب أطراف ثيابنا حول أذرعنا العجفاء. وكان موعد الشاي يبعث فينا قبسًا من الأمل لأننا كنا نحصل على نصيب مضاعف من الخبز عليه طبقة خفيفة لذيذة من الزبد. وهذه منحة تصرف لنا أيام الأحد فقط.. ومع ذلك كنت أضطر قسرًا إلى اقتسامها مع غيري. وكانت دروس الأحد كلها دينية تتخللها ترنيمة تنشدها مس "ميلر" فلا تكاد تنتهي حتى يظهر الإعياء على محياها.. كما كان يتخللها أحيانًا تمثيل جزء من "يوتيكس" تؤديه فتيات صغيرات، وكان النعاس يغلبهن فيسقطن ويحملن وهن في غيبوبة، فيدفع بهن وسط الحجرة ويجبرن على الوقوف حتى تنتهي

الصلاة.. فتخونهن أقدامهن ويتهالكن على الأرض، وعندئذ تخف الرئيسات إلى حثهن على النهوض..!

***

وكان مستر بروكلهيرست لا يزور المعهد إلا قليلاً، فكان ذلك مبعث راحة لي. ولست بحاجة إلى سرد أسباب إجفالي من مقدمه. وبعد ظهر ذات يوم — بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على وجودي — وكنت مشغولة.. بمحاولة حل مسألة حسابية، اتجه بصري في شرود نحو النافذة.. فإذا بي ألمح شخصًا عرفت بالغريزة من هو بقوامه الفارغ النحيل.. ثم وجدت أن الجميع، بما في ذلك المدرسات، قد نهضن تحية له.. وسرعان ما وقف إلى جوار مس "تمبل" فنهضت أيضًا، فإذا به نفس المارد الأسود الذي أطل علي في نذير بحجرة الإفطار في "جيتسهيد". فرمقته بنظرات مختلفة.. إنه هو نفسه مستر "بروكلهيرست" بشحمه ولحمه، وقد تدثر بمعطف سميك، وبدا أطول قامة وأصلب عودًا من ذي قبل..

ولست بحاجة إلى إيضاح أسباب استيائي من هذه الزيارة، فقد تواردت في ذهني على الفور الملاحظات الجائرة التي افترت بها مسز "ريد" نحو أخلاقي. وجال بخاطري ذلك الوعد الذي قطعه السيد على نفسه بأنه سينقل ذلك إلى مس "تمبل" والمدرسات ويظهرهن على خبث طويتي. فخشيت أن يكون قدحان الوقت لتنفيذ هذا الوعد الذي كان كفيلاً بأن يصمني إلى الأبد بأنني فتاة سيئة الخلق. وها هو ذا قد جاء ووقف إلى جوار مس "تمبل" وراح يهمس في أذنها فرحت أرقب عينيها في قلق، وأنا أتوقع أن ترمقني بنظرة ازدراء.. فأخذت أنصت إذ كنت قريبة من مكانهما، وسرعان ما انفثأت هواجسي، فقد سمعته يتكلم عن الخيط الذي ابتاعه، وعن الإبر وأنه نسي إبر الرفو على أنها سترد بعد أيام، وأشار بأن لا يعطى لكل فتاة أكثر من إبرة واحدة وإلا كان ذلك

دفعًا لهن على الإهمال.. كما أبدى ملاحظة عن الجوارب الصوفية وأن بعضها في حاجة إلى الرتق الجيد بين حين وآخر. ثم توقف عن الكلام. وسمعت مس "تمبل" ترد عليه: "سأعني بتوجيهاتك يا سيدي": وسمعته يستأنف الكلام فيقول: "وصل إلى علمي أن بعض البنات يحصلن على ثوبين نظيفين في الأسبوع، وهذا كثير.. فضلاً عن أن التعليمات تحدد ذلك بثوب واحد فقط". فأوضحت له السبب الطارئ الذي استدعى ذلك. فهز السيد رأسه وقال: "يمكن التجاوز هذه المرة وأرجو ألا تتكرر" ثم أردف يقول: "لفتت نظري ملاحظة أدهشتني، فقد وجدت عند مراجعة الحسابات وتسويتها مع المديرة أن إحدى الوجبات قدمت مرتين.. فكيف أعلل ذلك!؟ واللوائح تحظر تصرفًا كهذا، من صاحب الفكرة ومن أمر بها" فأجابته مس "تمبل" قائلة: "سيدي أنا المسئولة عن هذا التصرف لأن التلميذات أحجمن عن تناول الإفطار لأنه كان سيء الطهو، فكان من المتعذر أن يبقين جائعات حتى يحين موعد الغداء."

ملاحظة هامة أزجيها إليك سيدتي: "أرجو أن تدركي الفكرة الأساسية في تنشئة هؤلاء الفتيات، وأنها تقوم على ترويضهن على الخشونة والجلد وإنكار الذات وعدم تعويدهن على الترف. فإذا حدث طارئ مثل ما تقولين، فلا يستبدل الطعام بآخر مرفه وإلا حدنا عن هدف المعهد وهو تقوية البنيان الروحي وترويض البنات على تحمل الحرمان الموقوت بصبر وجلد. وفي رأيي أن محاضرة صغيرة تكفي لذلك.. حديث عن عذاب الشهداء ونصائح للسيد المسيح وإلى قوله "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله".. إنك يا سيدتي تعالجين الموضوع بمنطق مقلوب، فإنك تغذين أجسادهن الفانية وتجيعين نفوسهن الخالدة!.."

وصمت السيد.. ولعله كان في صراع مع مشاعره، وغضت مس "تمبل" بصرها عندما كان يتحدث، ثم أخذت تحدق فيما أمامها بنظرة هادئة ووجه شاحب. وأخذ السيد يتأمل المدرسة في اعتداد وكبرياء، واختلجت أهدابه فجأة وكأن شيئًا بهر عينيه أو صدم نفسه، فالتفت يقول في كلمات متلاحقة:

– مس "تمبل".. ما هذا؟ من هذه الفتاة ذات الشعر المجعد؟ شعر أحمر ومجعد أيضًا!.

وكانت يده ترتجف وهو يمد عصاه مشيرًا إلى إحدى الفتيات فأجابت مس "تمبل" في منتهى الهدوء:

– إنها جوليا سيفيرين..

– ولماذا تسمحون لها أو لسواها بذلك؟ لماذا تتمسك بأهداب الدنيا وزخرفها؟ مع معارضة ذلك لمبادئ الدار وهي إنجيلية خيرية؟!

وبنفس الهدوء أجابت مس "تمبل"!

– إن شعر جوليا مجعد بطبيعته!..

– يجب ألا ترضخ للطبيعة.. أريد تنشئتهن تنشئة دينية، ينبغي أن ينسق الشعر في استرسال وبساطة دون زخرف.. يجب أن يقص شعرها عن آخره، سأرسل حلاقًا لهذا الغرض ويقص شعر الفتيات النامي أكثر من اللازم.. دعي الفرقة تنهض وتولي وجهها شطر الحائط..

وأخفت مس "تمبل" بمنديل ابتسامة لاحت على شفتيها وأصدرت الأمر.. فأطاعت الفتيات وتبادلن الغمزات الساخرة التي لم يرها السيد، وراح يتفحص ظهور الفتيات حتى انفجر يقول:

- يجب أن تقص جميع الفتيات تلك الخصلات العليا..

ثم استطرد يقول وكأنه يلقي عظة:

- إنني أخدم سيدًا مملكته في السموات، ورسالتي أن أقتل شهوات الجسد في هؤلاء الفتيات، وأن أجعلهن يكسين أجسادهن في حشمة وبساطة فلا يظهرون بشعور منمقة وثياب فخمة.. أن الغرور يدفعهن إلى التزين، فكري يا سيدتي في الوقت الذي صرفنه في ذلك..

وفي هذه اللحظة، دخلت ثلاث زائرات، ترتدي اثنتان ثيابًا ثمينة من المخمل والحرير والفراء.. وفوق رأسيهما قبعتان يزينهما ريش يداعبه النسيم، وتطل من تحتهما خصلات من شعر ناعم مجعد في عناية ومنسق في إبداع. أما ثالثتهن، فكانت مسنة متشحة بشال ثمين من المخمل زركشت أطرافه وارتدت قلنسوة من شعر مستعار..

***

ولم تكن الزائرات سوى مسز "بروكلهيرست" وابنتيها.. فاستقبلتهن مس "تمبل" بمظاهر الاحترام ورافقتهن إلى مقاعد مخصصة لكبار الزائرين في صدر الحجرة.. وكن قد جئن مع السيد، وأخذن يجلن في أرجاء المدرسة ويبدين ملاحظاتهن. وانكمشت في مقعدي حتى لا أثير انتباه السيد، وتظاهرت بالانهماك في المسألة الحسابية التي كنت أعالجها ووجهي إلى أسفل. ثم وقع من يدي شيء أحدث صوتًا لفت الأنظار، فغاص قلبي وانحنيت ألتقط ما وقع وكان قد كسر. وتوقعت ما سينالني.. وصدق ظني حين سمعت السيد يقول: "يا لها من فتاة مهملة!" ثم استطرد يقول: "إنها التلميذة الجديدة!" وهنا لم أتمالك نفسي حين سمعته يقول: "إن لدي كلمة بشأنها". وأخيرًا قال بصوت عال:

- تعالي هنا أيتها الطفلة..

وشعرت وكأنني عاجزة عن الحركة، كأنما أصابني شلل مفاجئ.. وإذا بالفتاتين المجاورتين لي تستنهضاني وتدفعاني نحو ذلك الجلاد الرهيب. وخفف من توتر أعصابي وهلعي أن مس "تمبل" عاونتني في رفق وعطف لأقف أمامه وهمست في أذني مسرية "لا تخافي يا "جين".. لن تعاقبي لأن اللوح وقع عفوًا" وجرت في أوصالي موجة من الحقد نحو "ريد" و"بروكلهيرست" وحدثت نفسي أنني لا أدين بمبادئ "هيلين بيرنز". ورأيت السيد يشير إلى مقعد مرتفع بلا ظهر أو مساند فجيء به.. ثم قال.. أجلسي الطفلة فوقه.. فرفعت إليه وأنا لا أعي، وأحسست فقط أنني مرتفعة إلى مستوى أنف السيد، وأنه على قيد بوصات مني، وأمامي الزائرات الثلاث.. وقال السيد وهو يلتفت إليهن:

- أيتها السيدات.. مس "تمبل" أيتها المدرسات والتلميذات.. ترين جميعًا هذه البنت؟

وكانت أبصارهن بطبيعة الحال تشخص إلي، إذ كنت أرى عيونهن وكأن شررًا يتطاير منها.. ثم استطرد السيد يقول:

- إنها صغيرة كما ترين.. تتمتع بمظهر الطفولة شأن غيرها.. ولكن هل يدور بخلدكم أن الشر كامن في نفسها.. يحز في نفسي إذ أقرر أن هذا هو الواقع..

وشعرت كأنني في غيبوبة، أتحسس نبضي وأنا أقول لنفسي، لقد أتت اللحظة الحاسمة وإن الواجب أن أصمد.. فعاد رجل الدين يقول في حماسة:

- أيتها الفتيات.. إن هذا لمحزن، وأرى من واجبي أن أحذركن من هذه الفتاة التي كان من الممكن أن تكون عضوًا نافعًا وصالحًا في المجتمع.. فإذا هي

شريرة ومارقة صغيرة ليست من الرعية التقية، بل هي دخيلة.. فاحذرنها وتجنبنها، فصحبتها نذير خطر.. ولا تشركنها في ألعابكن وحديثكن.. وعلى المدرسات أن يراقبنها بعيون يقظة، وأن يعاقبن جسدها لإنقاذ روحها، ولو أنني أشك إمكان ذلك، لأنها أسوأ مما تتصورون.. إنها كذابة..

وشمل المكان صمت لدقائق.. استعدت فيها حواسي، فرحت أتأمل إناث أسرة السيد، ورأيتهن يخرجن مناديلهن ويرفعنها إلى عيونهن، وسمعت الفتاتين تتهامسان مستنكرتين ما سمعتاه..

ثم استأنف السيد محاضرته عني:

- إن السيدة التقية - ولية نعمة هذه البنت - التي كفلتها بعد تيتمها، واعتبرتها كإحدى بناتها، هي التي أخبرتني بذلك. ومن الأسف أن الفتاة قابلت الكرم بعقوق بلغ حدًا من البشاعة لم يعد في الاحتمال، فاضطرت إلى إقصائها عن أبنائها لتتلافى أن يلوث فسادها طهرهم..

وختم السيد محاضرته الرائعة، ثم أصلح هندامه وهمس بضع كلمات لأسرته فنهضن، فحيين مس "تمبل" وخرج الجميع في تعاظم والتفت السيد عندما وصل إلى الباب وقال:

- اتركنها على هذه الحال نصف ساعة، لا تحدثنها بقية النهار..

***

وهكذا قدر لي أن أبقى في هذا الوضع الشاذ، محط أنظار الجميع.. على منصة الخزي! وتسألونني عن مشاعري، وما كان يعتمل في نفسي من انفعالات، فأجيب بأن لا قبل لأسلوب، مهما بلغ، إلى وصفه.. بينما جاشت هذه الأحاسيس تخنق أنفاسي، ومرت بي فتاة ثم رفعت عينيها، ولمحتهما تبرقان

بوميض غريب بعث في أعماقي شعورًا جديدًا عاليًا.. كأنما مر شهيد بضحية فبث فيها عزيمة وجلدًا. وإذا بي أسيطر على مشاعري وأتغلب على انفعالاتي.. ثم أرفع رأسي وأعتدل فوق المقعد. وانتحلت "هيلين" عذرًا لتغادر مقاعدها للمرور أمامي، فلم يسمح لها.. ورأيتها تبتسم لي.. إنني ما زلت أذكر تلك الابتسامة، لقد كانت فيض إدراك مرهف وشجاعة صادقة.. ابتسامة أضاءت ملامحها الدقيقة ووجهها الشاحب وعينيها الصغيرتين الغائرتين، وكأنها ملاك ماثل أمامي. وسمعت مس "سكاتشيرد" وهي تقضي بعقابها أن يكون غداؤها خبزًا وماءً لأنها مهملة سقط منها مدادًا على الكراسة..

حقًا ما أعجب طبيعة البشر.. إنها طبيعة ناقصة.. إن توافه العيوب أشبه بالبقع على أنصع الكواكب صفاء. أما عينا مس "سكاتشيرد" فلا تريان سوى الظاهر التافه ولا تنفذان إلى الباطن الثمين..

وفي الساعة الخامسة، انفضت الفصول وتوجه الكل إلى قاعة الطعام لتناول الوجبة الخفيفة.. فانتهزت فرصة خلوتي بنفسي وإطباق بوادر الظلام على المكان، ولذت بأحد الأركان وقد فارقني كل ما كنت أتشبث به من مقاومة وتجلد.. فإذا بي أنطلق مجهشة بالبكاء، وارتميت على الأرض خائرة القوى..

وساعدني على إرخاء العنان لنفسي أن "هيلين بيرنز" لم تكن جانبي.. ولو أنها كانت موجودة لاضطررت إلى شيء من التماسك مهما كلفني من مشقة وعناء. أما وأنا وحيدة تحت رحمة الظلام، فليس ثمة ما يدعوني إلى احتباس دموعي واحتجاز تأوهاتي ونشيجي. وهكذا بللت عبراتي الأرضية الخشبية الملوثة من مواقع الأقدام.. وملأني شعور واحد قوي أخذ على منافذ نفسي جميعًا:

أن يدركني الموت فينقذني من موقف المذلة والهوان..

بل إنني كدت أرفع صوتي إلى الله ضارعة أن يغيثني فيرفعني إليه.. وإذا بي أشعر أن شخصًا يقترب مني، فتمالكت نفسي ودخلني الاضطراب والتوجس.. ثم تبينت في بصيص النور المنبعث من بقايا النار في المدفأة شبح "هيلين بيرنز" وهي تقترب مني حاملة بين يديها من الطعام اليسير.. قدمته إلي وهي تدعوني أن آكل.. ولكني دفعت ذلك الزاد الدنيوي عني، وقد خيل إلي من فرط كآبتي وقنوطي أنني لو تبلغت بلقيمة واحدة جافة من ذلك الخبز الذي تقدمه لي "هيلين" لغصصت به، وأدركني من ذلك ألم لا يطاق.. فكل خالجة في بدني كانت تعاف الحياة وأسبابها..

وأخذت "هيلين" ترمقني بنظرات الدهشة.. فقد تركتني متماسكة، فكيف انقلبت من النقيض إلى النقيض. وثقلت علي نظرتها، فلم أستطع كبح دموعي، وعدت إلى النشيج غير مستحيية منها.. وجلست "هيلين" بجانبي وطوقت كتفي لحظة، ثم اعتدلت في مجلسها، ووضعت رأسها فوق ركبتيها المضمومتين إلى صدرها كأنها تمثال مما تحفل به معابد الأصنام في بلاد الهند!

وظلت "هيلين" صامتة إلى أن هدأ جأشي قليلاً فسألتها:

- فيم بقاؤك يا "هيلين" مع فتاة في نظر كل إنسان مخادعة؟

- شد ما أنت واهمة يا "جين إير"! أكاد أعتقد أن المدرسة كلها ليس فيها قلب واحد يكن لك الاحتقار أو البغضاء.. بل أنا واثقة أن الكثيرات منا يولينك عطفهن..

- وأنى يكون هذا ممكنًا بعد الذي فاه به مستر "بروكلهيرست"؟

- وماذا تظنين مستر "بروكلهيرست" عساه يكون؟ ما هو بإله!. إن هو إلا بشر.. بشر كسائر البشر، لا يكن له الناس هنا إعزازًا ولا إكبارًا.. بل إنه

على العكس موضع الزراية والسخط لسماجته وقسوته علينا، فليس يضرك أن يتحامل عليك هذا الرجل.. بل الأمر بالعكس، فلو أنه أشاد بك أو عاملك معاملة حسنة لأساء ذلك إلى موقفك بين الطالبات، وكان سببًا في استهدافك لكراهيتهن أو تباعدهن عنك. ولذا أؤكد لك أن ما أبداه هذا الرجل نحوك من الإساءة سيكون سببًا في استجلاب العطف عليك من أفئدة السواد الأعظم من الطالبات والمدرسات على السواء وليس عليك إلا أن تصبري يومًا أو يومين حتى يحدث رد الفعل.. وسترين الفتور الوقتي الذي يحيط بك الآن، وقد تكشف عن مودة حقيقية.. ثم أن راحة ضميرك ينبغي أن تدخل الثقة إلى نفسك مهما أساء الناس من حولك بك الظن..

وكانت "هيلين" قد أخذت يدي بين يديها وهي تتكلم، وراحت تدلك أصابعي في رفق ليسري الدم فيها.. لأنها لاحظت أن يدي باردتان ترتجفان. وجذبت يدي من يدها عندما وصلت في كلامها عند هذا الحد وقلت لها:

- لا تقولي هذا الكلام يا "هيلين" فأنا لا أستطيع أن أكتفي بنفسي.. بل لا أستطيع أن أعيش إذا لم أجد بجواري أشخاصًا يحبونني ويحسنون الظن بي. كلا يا "هيلين"! أنا لا يمكن أن أعيش إلا على أمل اكتساب محبة الناس ومودتهم. وفي سبيل محبة وثقة شخص عزيز عندي مثلك أو مثل مس "تمبل" أنا على استعداد أن أتعرض لأنواع الآلام والأخطار.. حتى ولو اقتضاني ذلك أن أواجه الموت نفسه!

- ما هذا الذي تقولين يا "جين إير"! كيف تهتمين كل هذا الاهتمام عواطف البشر؟ كيف تنسين أن هناك إرادة أهم من إرادة البشر كلهم مجتمعين.. وتلك هي إرادة الله الذي خلقك فسواك! فالله لم يجعل أجسامنا البشرية ودنيانا هي كل ما في العالم. كلا.. بل هناك عالم علوي لا تعيش فيه

الأجسام، لأنه عالم روحاني تقيم فيه الأرواح الصالحة التي أرضت ربها ولم تحفل كثيرًا برضى الناس. ومن هذا العالم الروحي تطل أرواح الصالحين من الموتى والقديسين والملائكة لترى أعمالنا وتسجلها علينا.. فثقي أن كل من يتعذب في هذه الدنيا، بغير وجه حق، يسجل له ثواب ضخم في ذلك العالم العلوي. وأنا أشعر في قرارة نفسي – بمجرد النظر إلى عينيك المتألقتين – أن ذاك الكلام الذي ردده مستر "بروكلهيرست" نقلاً عن مسز "ريد" محض افتراء.. فاعلمي أنك كنت بريئة حقًا – كما أعتقد أنا – فسيعد الله لك إكليلاً سماويًا، لأنه ما أقصر حياتنا على الأرض.. وسرعان ما تنطلق الروح من أسار الجسد لتستقبل في عالم الأرواح ما أعد لها من مجد ليس له انقضاء..

وكنت أصغي لكل ما تقوله "هيلين" وأنا ساكتة.. ساكتة اللسان، وساكنة النفس، في آن واحد.. لأن كلمة "هيلين" استطاعت أن تتغلغل إلى قلبي وتمحو الكآبة والقنوط.. ولكن الطمأنينة التي أشاعتها كلمة "هيلين" في نفسي كانت مشوبة بحزن لطيف كأنه غلالة شفافة.. حزن من نوع لم آلفه في حياتي، أحسست به وإن لم أدرك مصدره.

وما أن أتمت "هيلين" عباراتها المعزية التي فتحت أمامي جوًا جديدًا من التأمل والتفكير حتى لاحظت أن أنفاسها تتسارع.. ثم سعلت عدة مرات، فداخلني الهم من أجلها ونسيت كل متاعبي الخاصة وطوقت كتفها بذراعي، وضممتها إلى صدري في حنان وسعادة لم أشعر بهما من قبل..

ولا أدري كم طالت جلستنا هذه.. لأن تلك الحالات النادرة من السعادة لا يشعر الإنسان معها بمرور الوقت، إلى أن نبهنا من نشوتنا النفسية اقتراب

شخص في عتمة القاعة فتباعدنا. ولما ازداد دنو القادم عرفنا فيه مس "تمبل" التي قالت لي:

- أتيت إليك يا "جين إير" لآخذك معي إلى حجرتي الخاصة.. وربما أن "هيلين بيرنز" في رفقتك فلا بأس من قدومها هي أيضًا معك..

وتبعنا ناظرتنا إلى حجرتها التي كان الدفء يشيع فيها من النيران المتراقصة في المدفأة بصورة تبعث السرور في النفس. ولما دخلنا أشارت مس "تمبل" إلى "هيلين" أن تجلس في مقعد قريب من مقعدها.. وحملقت في وجهي ثم سألتني بلطف:

- كيف حالك الآن؟ هل اجتزت النوبة بسلام.. وتركت دموعك تغسل عن نفسك أحزانها؟

- أخشى يا سيدتي ألا تكفي الدموع مهما بلغت غزارتها لغسل نفس من أحزانها!..

- لماذا؟..

- لأنني بريئة مظلومة.. ولكن بعد الذي قيل ستظنين أنت يا سيدتي، وسيظن الجميع بأنني فتاة سيئة..

- لا يمكن أن نحكم عليك بما يقال يا بنيتي.. بل بما تثبتينه أنت عن نفسك بأفعالك وأقوالك، فلو أنك واظبت على حسن الخلق لما كان رأينا فيك إلا طيبًا..

- هل تعتقدين هذا حقًا يا مس "تمبل"؟

فربتت علي، وهي تطوقني بذراعها، وأخذت تؤكد لي أن هذا صحيح بحذافيره.. ثم سألتني برفق:

- ومن هي تلك السيدة التي أشار إليها مستر "بروكلهيرست" على أنها "ربة نعمتك" يا "جين إير"؟

- إنها مسز "ريد" زوجة خالي مستر "ريد".. وكلن خالي مات منذ مدة وتركني في كفالتها..

- إذن هي لا ترعاك متفضلة؟!.

- كلا يا سيدتي.. بل هي ترعاني على مضض.. وما كانت لتفعل ذلك لولا أن المرحوم خالي – كما بلغني من ألسنة الخدم مرارًا – جعلها تقسم له أغلظ الأيمان وهو على فراش الموت أن تتكفل بي كفالة كاملة ما حييت.

وصمتت مس "تمبل" قليلاً ثم قالت لي:

- ينبغي أن تعلمي يا "جين إير" أن مبادئ العدالة تجعل من حق أي متهم يواجه بالاتهام أن يدافع عن نفسه. وأنت تعتقدين أن الاتهامات التي وجهت إليك كاذبة من أساسها، فمن حقك الآن أن تدفعي عن نفسك هذه التهم بقدر استطاعتك.. وأن تذكري لي بالتفصيل كل ما يسعفك به ذهنك من الحقائق. ولكن أريد منك في الوقت نفسه، وأنت تسردين علي ذكريات ماضيك ألا تزيدي على الواقع شيئًا من عندك.. وألا تعمدي إلى المبالغة لتجسيم آلامك..

وأسرتني رقة مس "تمبل" فقررت بيني وبين نفسي أن ألزم جانب الاعتدال في روايتي. لذا صمت قليلاً لأسترد رباطة جأشي وأرتب أفكاري لأعرف من أين أبدأ، ثم شرعت ألقي على مسامعها ومسامع "هيلين بيرنز" خلاصة وافية رزينة

لحياتي الحزينة. وكنت ألاحظ أن لهجتي المعتدلة تكسبني ثقة مس "تمبل" التي كانت تنصت لكل حرف أقوله بغاية الاهتمام..

وفي ثنايا قصتي ذكرت مستر "لويد" الصيدلي وكيف دعي لزيارتي بعد النوبة التي أصابتني إثر حبسي في الحجرة الحمراء تلك الليلة الفظيعة.. فقالت لي مس "تمبل" بعد أن فرغت من قصتي:

- أنا لا اجهل من هو مستر "لويد". وأنا أثق بأخلاقه وذمته ولذا سأكتب إليه مستوضحة.. فإذا جاءني رده مطابقًا لمضمون روايتك في جملتها، فسوف أتكفل أنا بإعلان براءتك من كل تهمة أمام الجميع. وسكون خطاب مستر "لويد" هو المستند الذي أقنعهم بواسطته.. أما أنا شخصيًا فلست بحاجة منذ الآن إلى دليل على براءتك، لأن لهجتك كافية لإقناعي..

وضممتني إلى صدرها وقبلتني.. وأنا مأخوذة ببساطتها وإشراق محياها ووميض عينيها الصافيتين الذكيتين.. ثم التفتت نحو "هيلين" وسألتها:

- وأنت كيف صحتك اليوم؟ هل أزعجك السعال كثيرًا؟

- ليس كثيرًا جدًا يا سيدتي..

- وآلام صدرك؟..

- تحسنت بعض الشيء..

وعندئذ غادرت مس "تمبل" مقعدها وذهبت إلى حيث تجلس "هيلين" فتناولت معصمها بين أصابعها وأخذت تعد نبضها وهي صامتة.. ثم غادرت إلى موضعها، ولاحظت أنها لم تستطع أن تحتجز آهة مكتومة كأنها تتحسر على

شيء جميل.. وأطرقت بضع لحظات ثم اصطنعت الحبور فجأة وهي تنشط للقيام قائلة:

- أنتما الليلة ضيفتاي.. فلأعاملكما معاملة الضيوف!

وجذبت حبل الجرس للخادم "بربارا" وقالت لها:

- الشاي يا "بربارا". وهات قدحين للآنستين..

وجاءت "بربارا" بالشاي في آنية لامعة نظيفة.. وإلى جوار الإبريق الجميل شطائر من "التوست" لم تكن كافية ولا شبه كافية.. والحق أنني كنت قد شعرت بجوعٍ شديد، فدعت مس "تمبل" الخادم وقالت لها:

- هات مزيدًا من التوست والزبد من فضلك.. فما جئت به لا يكفي لثلاثة أشخاص..

وبعد لحظات عادت الخادم لتقول:

- إن مسز "هارون" رفضت أن تعطيني كمية إضافية، وقالت أنها أرسلت معي الكمية المعتادة بأكملها.. ولا سبيل إلى زيادتها.

وكنا كلنا نعلم أن مسز "هارون" المديرة المستبدة هي صورة "مؤنثة" من مستر "بروكلهيرست" في قسوته وفظاظته.. فقالت مس "تمبل" للخادمة:

- وهو كذلك يا "بربارا".. لا بد مما ليس منه بد..

وما أن انصرفت "بربارا" حتى افتر فم مس "تمبل" عن ابتسامة لطيفة وقالت:

- في استطاعتي لحسن الحظ أن أسد الثغرة..

وفتحت درجًا أخرجت منه كعكة كبيرة ملفوفة في ورق، فأخذت تقطع منها شطائر كبيرة وتعطي كلانا.. ورحنا نأكل بشهية وسرور، لأن ابتسامة مضيفتنا اللطيفة حولت هذا الطعام اليسير إلى مأدبة حافلة..

وبعد الفراغ من الطعام جلسنا معها حول المدفأة. وأخذت مس "تمبل" تتحدث إلى "هيلين" حديثًا رقيقًا أنعش نفسي سماعه. وتبينت في هذه الجلسة مدى ما تتمتع به مس "تمبل" من وقار وهيبة، ومدى ما تتمتع به عينا "هيلين بيرنز" من بريق متوهج.. ولا سيما بعد أن سرت حرارة المدفأة إلى وجنتيها الشاحبتين في العادة، فتوهجتا بحمرة شديدة..

وأذهلني أن أسمع لأول مرة حديثًا في مستوى ذلك الحديث جرى بين ناظرتي وصديقتي، فقد خاضتا في فنون من المعرفة حول بلاد لم أسمع بها من قبل، وعصور من التاريخ لم تخطر لي ببال. وتحدثتا عن مؤلفين فرنسيين تمنيت عندئذ لو أتيح لي تعلم الفرنسية لأتعرف إليهم في لغتهم الأصلية..

ثم بلغت دهشتي ذروتها عندما سألت الناظرة صديقتي "هيلين" عن اللغة اللاتينية وهل تختطف من وقتها لحظات بين الحين والحين لتجدد المعلومات الثمينة في تلك اللغة التي علمها إياها أبوها..

ولما أجابتها "هيلين" بالإيجاب، نهضت مس "تمبل" إلى أرفف كتبها، وأتت بمجموعة أعمال الشاعر اللاتيني العظيم "فرجيل". وفتحت إحدى صفحات الإينيادة وطلبت إلى "هيلين" أن تقرأ وتترجم لها إلى الإنجليزية ما تقرأ..

وأدهشني إلى درجة الروعة أن أرى "هيلين" تقرأ بثقة وثبات لغة لا أفقه منها حرفًا، ثم تترجم بدقة وطلاقة إلى لغة إنجليزية متينة ذلك الشعر الرائع.. فأحسست "لهيلين" في نفسي بمكانة تقرب من القداسة..

وقطع علينا هذه النشوة رنين الجرس المؤذن بالنوم.. وموعد النوم شعيرة مقدسة لا سبيل إلى خرقها. فأخذتنا مس "تمبل" إلى الباب، واحتضنتنا في حنان مودعة وهي تدعو لنا بالبركة واليمن.. عانقتني أنا أولاً غير متعجلة، ولكنها عندما عانقت "هيلين بيرنز" خيل إلي أنها تتمنى لو لم تفلتها من بين أحضانها. ولما أطلقتها كارهة ظلت تتابعها بعينيها، ثم سمعتها تصدر زفرة مكتومة أخرى وترفع طرف منديلها إلى وجنتيها لتجفف دمعة فرت من بين جفنيها.

وما أن دخلنا حجرة النوم حتى وجدنا المشرفة تتأكد من نظام الإدراج. فلما وقع نظرها على درج "هيلين" المشعث، وبختها توبيخًا مؤلمًا وتوعدتها بالعقاب في اليوم التالي.. وأدهشني من هيلين أنها لم تسخط بل اعترفت بذنبها..!

وفي الصباح كتبت المشرفة على ورقة كبيرة كلمة مهملة، بحروف ضخمة، وطوقت بالورقة جبين "هيلين" العالي المشرق بالذكاء والرقة. ورضخت "هيلين" لعقاب تعلم أنها تستحقه من غير تذمر إلى نهاية اليوم المدرسي، حتى إذا دق جرس الانصراف تملكني الغضب وانتزعت الورقة من فوق رأسها وألقيت بها إلى النار والدموع الحارة تنهمر مني، لأن رضوخها الوديع للظلم حز في نفسي..!

***

وبعد بضعة أيام، ورد من مستر "لويد" خطاب ردًا على رسالة مس "تمبل".. ويبدو أن رده كان في صفي تمامًا، لأن مس "تمبل" بادرت بإعلان براءتي من كل ما أسند إلي من التهم.. ففتحت لي جميع المدرسات صدروهن.. واخذت زميلاتي في الاعتذار ألي وتطييب خاطري، وشعرت أن عبئًا ثقيلاً أزيح عن كاهلي.. وتركزت اهتماماتي كلها للدرس والتحصيل..

وساعد خلو بالي من الحسرة والتذمر على تحسين ذاكرتي.. فكنت أحصل من الدرس على ثمرات سريعة لا أتوقعها. فلم يمض شهر حتى رأت المدرسة أنني استحق النقل إلى الصف التالي.. وبعد شهرين آخرين قررت مس "تمبل" أنني صرت جديرة بدراسة اللغة الفرنسية وأصول فن الرسم..

ولست أنكر أن رسومي الأولى كانت بعيدة عن الدقة كل البعد.. وكلنها مع ذلك كانت تبدو في نظري آيات من النبوغ..

وحدث تحول عميق في أحلام يقظتي، فلم أعد حين آوي إلى فراشي في الليل أجتهد في تخيل ألوان من صحاف العشاء أشبع بها جوعي البدني.. بل صرت احلم الآن بمناظر خيالية ملونة، كلها مما أبدعته ريشتي العبقرية. فلا أتصور الدجاج محمرًا، بل أتصور طيورًا ذات ريش براق تمرح في الخلاء الأخضر أو بين الصخور المغطاة بالعشب.. والفراشات الجميلة الألوان تحوم وتحلق فوق الأزهار البرية والرياحين.

وبعد قليل، دخل عنصر جديد إلى عالم أحلامي الذي كنت أتعزى به عن جهامة واقعي.. وهو عنصر الثقافة، فكنت أتخيل نفسي وقد وفقت إلى ترجمة نص أدبي ممتاز من تلك النصوص الفرنسية التي أرتني إياها معلمة اللغة الفرنسية مدام "بييرو".

وهكذا صرت في غنى بآمالي وأخلاقي الروحية والعقلية والفنية، وتفتحت أمامي أبواب السعادة بفضل حنان مس "تمبل" و"هيلين" والمدرسات والزميلات.. بحيث كنت أفضل شظف العيش في مدرسة "لوود" على كل نعيم الحياة الفخمة التي يهيؤها قصر "جيتسهيد" لأهليه المترفين.

الفصل السادس

الوباء...

هلت طلائع الربيع بجوه المعتدل، وثوبه الساحر الذي يكسو به الطبيعة حين يتلاشى برد الشتاء القارس، وتذوب ثلوجه، وتخف حدة رياحه العاتية.. وتحل محل ذلك خضرة تزينها الزهور والورود بعبيقها الذي يملأ الجو، فيضفي ذلك على الحياة روحًا مرحة ونضرة فلا عجب أن تتضاءل متاعبي، وتخف وطأة الحرمان في "لوود". وبعد أن كنا نبرم بالفترة التي كان علينا أن نقضيها في الحديقة تحت وطأة صقيع الشتاء، صارت هذه الساعة فترة ترويح ممتعة تشيع في نفوسنا البهجة..

وانقضى شهر أبريل، وطالعنا شهر مايو بأيامه المشرقة وسمائه الزرقاء الصافية، وشمسه الساطعة ترسل أشعتها الذهبية فتبعث فينا الدفء والنشاط، ورياحه الخفيفة المنعشة. ولكن المنبسط الذي تتاخمه الغابة، الذي أقيمت فيه "وود" كان مسرحًا للضباب ومرتعًا للأوبئة التي يغذيها ذلك الضباب.. فزحف علينا وباء من تلك الأوبئة الفتاكة هو التيفوس، فتحول ملجأ اليتيمات إلى مستشفى.. وتحالف الجوع والحرمان ونزلات البرد مع الوباء فاستشرى حتى شمل أكثر من نصف الفتيات صرعهن فرقدن في وقت واحد.. فعمت الفوضى، وصرف النظر عن كثير من القواعد المرسومة للمعهد. وأتيحت الحرية لمن لم يصبهن المرض، حيث أشار الطبيب بذلك حفاظًا على صحتهن، ولانشغال المسئولين عن مراقبتهن. فقد ولت مس "تمبل" كل عنايتها نحو المريضات، ولازمت الحجرة التي خصصت لهن لا تبرحها إلا لفترة أثناء الليل تلتمس فيها

بعض الراحة.. وشغلت المدرسات باتخاذ الإجراءات لترحيل من لم يصبن من الفتيات اللاتي رغب أقرباؤهن في ذلك.. كما غادر المعهد كثير ممن اشتدت عليهن وطأة المرض ليلفظن أنفاسهن بين أهليهن.. أما من مات منهن في المدرسة، فقد دفن في عجلة دون جلبة لأن طبيعة الوباء كانت لا تستدعي التراخي..

وأخذنا، نحن المحظوظات، نستمتع بمفاتن الطبيعة في فصل الربيع.. وأطلق لنا العنان نمرح في الغابة، ونهيم فيها كأننا من حوريات الجنة منذ أن تشرق الشمس حتى تأذن إلى مغيب، نفعل كل ما يروق لنا ونعيش حياة راضية. ويرجع ذلك إلى أن مستر "بروكلهيرست" أو واحدًا من أسرته لم تعد تطأ قدمه "لوود"، وضرب باللوائح عرض الحائط فلا مراجعة حسابات أو تعليمات، وقد آثرت مديرة الدار المقترة أن تلوذ بالفرار خشية أن تصيبها العدوى.. فخلفتها أخرى تجهل نظام العمل لأنها لم تمارسه من قبل، إذ كانت رئيسة ممرضات في مستوصف. فكان لها بعض الحرية.. ولما كان عددنا نحن الصحيحات أقل من النصف، ولم تكن لدى المريضات شهية للأكل، فقد ترتب على ذلك أن كميات وجباتنا تضاعفت. وكانت المديرة إذا لم يسعفها الوقت لإعداد الغداء، تقدم لنا قطعًا من الفطير كبيرة أو شرائح من الخبز والجبن، نذهب بها إلى الغابة فنجلس ونتناول هذا الغداء الفاخر. وكان يحلو لي أن أتخذ مكاني فوق قطعة من الحجر ملساء، أصل إليها بالخوض في ماء جدول صغير فكنت أخلع حذائي لأعبر الجدول. وكانت قطعة الحجر تتسع لجلوس شخصين.. وكنت قد اصطفيت لي من الفتيات واحدة اتخذتها صديقة اسمها "ماري ويلسون".. كانت على جانب كبير من الحصافة والطيبة والتقى قربها من نفسي. وكانت أخلاقها تلائمني، ولها طابع مميز هو حضور البديهة. ولما كانت تكبرني، فقد كانت أكثر

مني سعة وإطلاعًا بشئون الدنيا، وكان يروق لي جدًا الموضوعات المشوقة التي كانت تخوضها في حديثها معي.. فكنت أشبع فضولي بصحبتها، كانت من السماحة فتغمض عن أخطائي فلا تلومني أو تراجعني. وهبها الله قدرة خارقة على رواية القصص، فكانت هي تروي وأنا أسأل وأحلل. ومن ثم تولد بيننا نوع من الانسجام، فكانت أحاديثنا مصدر نفع وتسلية في آن واحد.

وساءلت نفسي وأنا غارقة في بحار أفكاري: ترى أين "هيلين" الآن؟.. ولماذا لا تكون رفيقتي في فترة الحرية هذه؟.. هل ذهبت صورتي من قلبي فنسيتها؟ أو هل أنا خبيثة الطوية فأتنكر لها وأسأم عشرتها الطيبة؟.." لقد أنشب المرض مخالبه في جسد "هيلين" الناحل.. فعزلت في حجرة لا أعرف مكانها. ولم تكن مع مريضات الوباء كما قيل لي، فإن ما ألم بها كان أشد فتكًا، فقد كانت مصابة بالتدرن الرئوي. وكنت أقدر – لجهلي – أنه مرض عابر، وأنها لن تلبث أن تبرأ منه.. وشجعني على هذا الاعتقاد أنني رأيتها تهبط من حجرتها بضع مرات حينما تتوسط الشمس كبد السماء فتقوى حرارة أشعتها. وكنت ألمح مس "تمبل" أو أتحدث إليها. فقد كان نظري يقع عليها من نافذة حجرة الدرس، وكنت أراها متدثرة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، جالسة في هدوء واستسلام في شرفة بعيدة..

***

وودعنا شهر مايو، وأطل علينا شهر يونيه بفجره.. وجلست ذات مساء في الغابة مع "ماري ويلسون" إلى ساعة متأخرة حيث مر بنا الوقت دون أن نشعر. وكنا وحيدتين في مكان منعزل بعيدًا عن الأخريات فقد كنا نوغل في السير ونهيم.. وإذا بنا نضل الطريق فلجأنا إلى كوخ لمحناه عن كثب منا، يسكنه رجل وزوجته يديران مزرعة للخنازير تتغذى على أعشاب الغابة.. فأنهينا إليهما

أننا ضللنا، وسألناهما إرشادنا عن الطريق. وحين عدنا إلى المعهد، كان القمر قد بزغ.. فلمحنا جوادًا، رابضًا أمام مدخل الحديقة عرفنا أنه جواد الطبيب.. فتكهنت "ماري" بأن المرض لا بد قد برح بإحدى الفتيات، وإلا فماذا يعنيه استدعاء الطبيب في مثل هذه الساعة المتأخرة. وسبقتني هي في الدخول، بينما تخلفت أنا لأغرس في الحديقة بضع شتلات أتيت بها معي من الغابة فرغبت أن أتعجل غرسها حتى لا تذبل إذا انتظرت حتى الصباح. ثم تلكأت وأخذت أسير الهوينا بعد أن انتهيت من غرس شتلاتي، وأنا نشوى بعبيق الزهور من حولي، وقد أخذ الطل يتساقط فكانت الليلة ساحرة تشيع البهجة، بديعة تبعث الدفء، وكل ما حولي يبشر بيوم صاف جميل في الغد. وظل القمر في ورعة تأخذ بالمجامع.. وفيما أنا أسبح هائمة فيما حولي، إذا بفكرة تقفز إلى خيالي لم تخطر لي من قبل: "أليس من القسوة الممعنة الاستسلام للمرض والرقاد، وأن يحوم الموت فوق الرءوس!.. كم هي بهيجة تلك الدنيا وممتعة، فما أقسى وما أفظع أن ينتزع الإنسان منها، ويذهب به إلى المجهول؟." في هذه اللحظة أدركت أن عقلي قد نشط، وبذل طاقة من الجهد عميقة لتفهم كنه الجنة والجحيم!.. وكانت هذه أول تجربة وقف فيها عقلي جامدًا يقلب الأمر من كافة نواحيه، فلا يرى إلا خضمًا لا يستطيع له فهمًا، وأحاجي غامضة لا يجد لها تفسيرًا.. فيقف حائرًا في النقطة التي هو فيها ولا يشعر بغير الحاضر الذي هو فيه، ماعدا ذلك فسحب باهتة وصور غير واضحة وأغوار مستعصية!..

وشعرت بعقلي يتململ ويرتجف في تخبط وسط جو من الفوضى.. وفيما أنا مستغرقة في التفكير، إذا بي أسمع الباب يفتح، وبرز منه الطبيب تصحبه إحدى الممرضات. واعتلى الطبيب جواده ليرحل.. فهمت الممرضة أن تغلق الباب، فهرولت نحوها وابتدرتها بالسؤال:

– كيف حال "هيلين"؟..

– إنها تعاني أسوأ حال..

– أمن اجلها حضر الطبيب؟..

– نعم..

– ماذا فعل؟..

– قال أنا أيامها هنا معدودة..

ولو أن هذا الجواب الأخير طرق سمعي بالأمس، لجال بذهني أن "هيلين" سترحل إلى موطنها.. وما دار بخلدي قط أن الفتاة في طريقها إلى الآخرة وأنها تحتضر. أما الآن – بعد تفكيري في الكون وغموض مكنونه – فقد تفتح إدراكي أن "هيلين" كانت تعلم بقرب نهايتها، وتحصي أيامها الباقية في الحياة، وأنها عما قريب ستنتقل. فشعرت رجفة هلع، وغمرتني موجة قاسية من الأسى، ثم تملكتني إلى عالم الخلود، عالم الأرواح، إذا كان هناك هذا العالم حقًا.. رغبة ملحة في أن أراها. ولما أبديت رغبتي هذه للمرضة قالت لي:

– هي الآن في حجرة مس "تمبل"..

– أريد أن أصعد لأتحدث إليها؟؟..

– أخشى أن أقول أن هذا غير مستطاع، وغير مستحب.. ادخلي يا فتاتي وإلا أصابتك الحمى إذا ما وقفت هكذا في الليل..

ودخلت من الباب الجانبي الذي يفضي إلى حجرة الدرس في الوقت المناسب المحدد للصعود إلى المخادع.

جافاني النوم، وبعث السكون الذي شمل الحجرة الضيق في نفسي، كما أثارني استسلام زميلاتي للنوم. وكنا نقترب من منتصف الليل، ولا أدري كيف مر بي الوقت فنهضت وارتديت ثوبي، وتسللت حافية القدمين أحث السير نحو حجرة مس "تمبل"، وكان السكون شاملاً وعرفت طريقي على ضوء القمر، ومررت بحجرة فيها فتيات مريضات.. وعرفتها من رائحة الكافور المنبعث منها، فابتعدت حتى لأتفطن إلى الممرضة الساهرة فأرد إلى مخدعي، لأنني وطدت العزم أن أرى "هيلين" وأن أحتضنها وأقبلها قبلة الوداع وأتبادل معها كلمة تشجيع..

واجتزت ممرًا في الطابق الأرضي بعد أن هبطت سلمًا طويلاً، وتمكنت من معالجة فتح بابين دون أن احدث صوتًا ينم عني. ووصلت إلى سلم آخر ارتقيت درجاته. وإذا بي أمام حجرة مس "تمبل"، ولمحت ضوءًا من ثقب الباب الذي كان مواربًا غير محكم الإغلاق ليسمح بدخول بعض الهواء لأن المنافذ كانت مقفلة. ولم أسمح لنفسي بالتردد لأن روحي كانت متحفزة وحواسي تشتعل بالقلق وتنبض بالأسى، فأرسلت بصري عبر الباب بحثًا عن "هيلين"، وخشيت أن تكون قد انتهت، فرأيت سريرًا صغيرًا إلى جوار فراش مس "تمبل". وشت أغطيته أن تحت طياتها هيكلاً بشريًا، احتجب عني وجهه وراء الستائر. ووجدت الممرضة التي قابلتها في الحديقة جالسة يغالبها النعاس.. وشمعة على منضدة ترسل ضوءًا خافتًا متراقصًا. ولم المح مس "تمبل" التي عرفت فيما بعد أنها استدعيت لرؤية مريضة اشتدت عليها وطأة الحمى.. فتقدمت نحو السرير الملائكي الصغير، ثم وقفت ووضعت يدي على الستار وأنا أتوجس من أن أراها جثة باردة فارقتها الحياة. فهمست في حنان: "هيلين" حبيبتي.. أنائمة أنت أم مستيقظة؟ ولمحتها تتحرك في بطء وتزيح الستار بيد نال منها الضعف فطالعني

وجه شاحب هزيل، ولكنه كان سموحًا منبسط الأسارير.. وقد بدا لي أنها تغيرت قليلاً. وسرعان ما تبدد خوفي وحل محله إحساس بالطمأنينة إذ سمعت صوتها الهادئ اللطيف ينساب إلى مسامعي كدغدغة مياه غدير وهي تتساءل: "أحقًا أرى أمامي "جين" فلم أتمالك أن هتفت: "إنها لن تموت.. لقد أخطأوا التقدير، ولو انها على غير ذلك لما تكلمت ولا نظرت إلي بهذا الهدوء القدسي!"

وانحنيت فوقها، وطبعت على جبينها قبلة ضمنتها كل مشاعري وإحساساتي وأحسست جبينها وقد شاعت فيه البرودة، كذلك خدها كان باردًا ونحيلاً وقد سرت البرودة إلى كافة أعضاء جسدها ولكن وجهها مع ذلك كان باسمًا كسابق العهد بها، وعادت تسألني:

- ما الذي أتى بك يا "جين"؟ تقول دقات الساعة أننا في منتصف الليل.

- تسألينني لماذا جئت؟!.. لكي أراك يا "هيلين".. اخبروني أنك مريضة فلم يواتني النوم قبل أن أتحدث إليك..

- إذن فهي زيارة الوداع! وأحسب أنك جئت في الوقت المناسب.

- هل أزمعت السفر يا "هيلين"؟ هل ستعودين إلى أهلك وبلدك؟

- أجل.. إنني سأرحل إلى الموطن الذي سأقيم فيه أبد الدهر.. إلى مثواي ومقري الأخير..

فشهقت في يأس وجزع:

- لا.. لا تقولي هذا يا حبيبتي "هيلين".

وجاهدت يائسة أن أكبح دموعي.. وفي هذه اللحظة انتابت "هيلين" نوبة سعال، ولكنها لم تكن من الحدة بحيث توقظ الممرضة.. ثم زايلتها النوبة، ولكنها خلفتها خائرة القوى. وما لبثت أن سمعتها تهمس:

– قدماك حافيتان يا "جين".. شاركيني فراشي وتدثري بغطائي حتى لا يصيبك البرد..

فطاوعتها واستلقيت على الفراش.. فوضعت ذراعها فوقي، فازددت بها التصاقًا. وبعد فترة صمت استأنفت حديثها في همس:

– كم أشعر بالسعادة يا "جين".. إذا بلغك أنني قضيت، فلا تجزعي ولا تحزني.. فليس ثمة ما يدعو إلى الأسى، سنموت جميعًا يومًا ما. ومما يخفف عني أن دائي ليس مؤلمًا، وإنما يسير بي في هوادة وتدرج إلى مثواي. وسأذهب مرتاحة البال فلن يأسف أحد كثيرًا لفراقي.. فليس لي في الدنيا سوى أبي، وهو تزوج بعد وفاة أمي. فهو في شغل بدنياه ولن يفتقدني. وإذ أموت وأنا صغيرة، فإن ذلك سيحميني من آلام قاسية.. كما أنني أفتقر إلى المواهب التي تكفل لي عيشًا ناعمًا..

– إلى أين تذهبين يا "هيلين"؟ هل تعرفين الطريق.. وهل ترينه؟

– إنني فتاة يملؤها الإيمان.. سأذهب إلى خالق الكون.. الله!

– ومن هو الله؟.. وأين هو؟

– إنه خالق الكون ومبدعه، وخالقي وخالقك، وخالق كل إنسان وكل شيء.. وهو ﷻ لا يهلك خلقه.. جلت قدرته. وأنا أؤمن بفيض كرمه، وأعتمد

عليه، وأتعجل الدقائق ريثما يحين الوقت الذي يردني إليه ويكشفه لبصيرتي!..

- إذن فأنت تعتقدين أن أرواحنا تصعد إلى السماء حينما نموت؟

- هناك عالم آخر لا يتزعزع يقيني في وجوده.. وأنا أؤمن أن الله رحيم، فأنا أستودعه الجزء الخالد من كياني دون أن أشعر بخوف.. الله أبي وحبيبي وصديقي.. إنني أحبه وأؤمن أيضًا أنه يحبني!

- وهل أيضًا سنلتقي بعد ذلك يا "هيلين"، عندما أموت؟

- ستأتين إلى فردوس السعادة الذي سأذهب إليه، وستنعمين بلقاء الله.. لا شك في ذلك يا "جين"..

وتحيرت في تصور مكان ذلك اللقاء السعيد.. بيد أني لم أفض إليها بما يدور في خلدي.. بل ضممتها إلى صدري ضمًا قويًا، وقد زاد إحساسي بمكانتها في قلبي.. فكيف يمكن أن ادعها تغادرني وحدي ولو إلى ذلك المكان السعيد؟

كان وجهي ملتصقًا بأصل عنقها وأنا راقدة بجوارها، وبعد هنيهة سمعتها تقول بصوت رخيم الجرس:

- ها قد عاودتني الراحة بعد ذلك السعال المضني..

وأحس بالنوم يدب في جفوني.. سأنام يا "جين"، ولكني أريدك جواري.. لا تتركيني.

- سأبقى بجوارك يا عزيزتي "هيلين".. لن يفرق بيننا أحد..

- هل تنعمين بالدفء يا عزيزتي؟..

– نعم..

– طابت ليلتك يا "جين"..

– طابت ليلتك يا "هيلين"..

وتبادلنا قبلة قريرة، ولم يلبث أن طوانا النعاس معًا..

***

ولم أستيقظ إلا وقد طلعت الشمس، فإذا بي بين ذراعي الممرضة تحملني إلى حجرة نومي..

وعبثًا حاولت في ذلك اليوم أن أعرف ماذا حدث.. ولكن بعد يومين قيل لي أن مس "تمبل" وجدتني في أحضان "هيلين" عندما دخلت عليها قبيل الصبح.. وكانت "هيلين" جثة هامدة..

ودفنت "هيلين" في ساحة الكنيسة..

ولم ينقض وباء التيفوس إلا بعد أن أطاح بعدد لا يستهان به من أرواح التلميذات، مما أيقظ الرأي العام.. فخاضت الصحف في الموضوع، وتألفت لجنة للتحقيق أثبتت تحرياتها أن موقع المعهد غير صحي، وأن حالة التلميذات يرثى لها ماديًا ومعنويًا.. ولحق مستر "بروكلهيرست" من ذلك خزي شديد..

ولكن رب ضارة نافعة.. فقد أدت هذه الفضيحة إلى جمع اكتتابات كثيرة من ذوي الخير والثراء، وشيدت أبنية للعهد أكثر ملائمة للصحة، في موقع أفضل، وسنت لوائح جديدة للدراسة ومعيشة الطالبات، وبدلت حالهن بعد عسر يسرًا..

وقد ظل مستر "بروكلهيرست" أمينًا لصندوق اللجنة التي تجير المعهد، إبقاءً على كرماته وسمعة أسرته التي قامت بالإنشاء والتأسيس.. ولكن اللجنة نفسها كانت هيئة جديدة مستنيرة. وكان أعضاؤها يولون المعهد كل عناية، ولا يتركون التصرف لذلك الرجل الضيق الأفق..

وفي هذا المعهد الجديد، قضيت ثمانية أعوام أفدت منها فائدة جليلة بلا شك. ومن هذه الأعوام الثمانية سنة كنت فيها تلميذة جادة مجدة، وسنتين معلمة للصفوف الصغرى.. لأنني حافظت طوال سنوات تلمذتي الست على مكان الأولوية بين التلميذات، مما زكاني للعمل بناء على توصية مس "تمبل" التي ظلت لحسن حظي ناظرة جليلة قادرة عطوفًا لذلك المعهد بعد تجديده..

والحق أن عطف مس "تمبل" السابغ، كان هو مصدر النور والدفء الوحيد في حياتي على مدى تلك الأعوام.. إذ كانت لي بمثابة الأم والمعلمة والصديقة في آن واحد..

وقد ظللت مؤتنسة بصحبتها وحنانها، مكتفية بهما إلى أن وجدت مس "تمبل" رجلاً فاضلاً من رجال الكنيسة.. قدر فيها كنوز جمالها الروحي والعقلي فتزوجها، وسافر بها إلى مقر أبروشيته في مكان ناء.. وشغلتها حياة الزوجية، ومهامها الاجتماعية الجديدة، فانقطعت عني رسائلها، وثقلت الوحدة الموحشة على نفسي في "لوود" منذ توارت عن عيني داخل العربة التي أقلتها مع زوجها الكريم..

ولم أستطع أن أقنع نفسي بعد ذلك اليوم بأن المقام في "لوود" مستطاع.. مع أني كنت قبل ذلك اليوم لا أفكر في أن يكون لي موطن آخر سوى ذلك المعهد. فقد رتبت ذهني على الحياة به مدرسة في كنف مس "تمبل".. وصرت

لشدة إعجابي بها أحاكيها في تصرفاتها. فبدوت للناس هادئة الأسارير، رزينة، دائمة الابتسام والعطف على الصغار..

وكنت أعتقد – كما اعتقد الجميع من حولي – أن هذه الصفات سارت طبعًا ثابتًا لي. ولكن الزمن أثبت عكس ذلك الاعتقاد: أثبت أن الهدوء لم يكن إلا تطبعًا بطباع مثلي الأعلى مس "تمبل"، ومددًا من هدوئها الأصيل.. فما أن غاب عني مصدر هدوئي حتى عاد طبعي إلى سالف قلقه ووجومه وانقباضه..

إني فتاة نشأت محرومة من الحب والحنان والثقة. فلما وجدت ذلك كله في مس "تمبل" هدأت وثبت إلي الاستقرار والطمأنينة.. حتى إذا رحلت من أثق بها وأجد لديها الحنان والحماية، عدت إلى سيرتي الأولى فتاة قلقة لا تجد عمادًا تركن إليه وتطمئن إلى ثباته وثقته..

وهكذا دب الضيق إلى نفسي.. ومللت الإقامة المحدودة في ذلك المكان المنعزل. وبدأت أشعر أني مدفونة وأنا حية، مع أن الدنيا عريضة حافلة بأسباب النشاط والأمل..

أجل إنه أمل محفوف بالمغامرات والمخاطر.. ولكن ما أحلى المغامرة والخطر لمن كانت مثلي تشكو الركود والموت!

وذات ليلة استبد بي الأرق.. فجلست في فراشي. وكان الجو شديد البرودة، فتعثرت ورحت أفكر في حالي ومآلي:

– ماذا يقض مضجعي في هذا المعهد؟ وما الذي أنشده من الرحيل عنه؟ وإذا رحلت عنه فإلى أين أذهب وعلى أي صورة أعيش؟ ومن أي شيء أرتزق..؟

ووجدت الجواب بغير كثير عناء: وجدت أن الركود والرتابة هما سر ضيقي بمعهدي.. وإنني أنشد من الرحيل تجديدًا وتغييرًا..

أما إلى أين أذهب، فليس في وسعي أن أعلم.. إنه مكان آخر وكفى، ولكني كنت في الوقت نفسه أعلم أنه سيكون مكانًا شبيهًا بالمعهد. أما مدرسة أخرى.. بل كلا! لقد سئمت المدارس!.. إني أريد دارًا.. بيتًا به أسرة ما..!

ولكن تلك الأسرة كيف تراها ستكون؟ لست ادري بالضبط.. وكل ما أدريه أن مكاني سيكون مكان المربية أو معلمة الأطفال في بيت قوم أثرياء مثل بيت آل "ريد"..

وكان هذا الخاطر كفيلاً بإشاعة النفور في نفسي، لولا أنني تعلمت في هذه السنوات الثماني ألا أيأس من رحمة الله.. فكم من شباب مثلي لا سند لهم في الحياة، والله يتولاهم برحمته. وما عليهم إلا أن يكافحوا في سبيل الرزق الحلال، فإن أخطأهم التوفيق مرة أو مرات فهو خليق أن يحالفهم يومًا ما.. فعليهم أن يقنعوا بالاستكانة وألا يقعدوا عن المسعى..

وانتهى بي الأمر إلى ضرورة السعي لإيجاد عمل جديد لي أرتزق منه.. في بيت به أطفال أعلمهم. ولئن كان هذا ضربًا جديدًا من العبودية، إلا أن الثقة بالله هي التي تنير الطريق لجميع الكادحين. ولكن أعجزني أن أهتدي إلى وسيلة للحصول على منصب من هذا النوع.

وضقت ذرعًا بالتفكير، فغادرت الفراش ورحت أتمشى في الحجرة الباردة. وأزحت جانب الستار عن النافذة، وحملقت في الليل المظلم والسماء الملبدة بالغيوم.. فلم تبد من نجومها إلا بارقة أو بارقتان. ولكن هذا الوميض كان كافيًا لإشاعة الأمل في نفسي، فعدت إلى فراشي وأنا أكثر هدوءًا واستبشارًا..

ولم أكد أستلقي في مضجعي حتى ألهمت الحل، فقد تذكرت تلك الإعلانات الشخصية الصغيرة التي تنشرها الصحف تحت باب "طلب وظائف

وموظفين" وفي رأس الصفحة في الجريدة تسعيرة النشر عن كل سطر.. فليس علي إلا أن أكتب الصيغة الواضحة الموجزة، وأرسل معها حوالة بريدية تكفي لتغطية أجر النشر.. مع توضيح العنوان الذي تصل إليه الردود المحتملة عن ذلك الإعلان..

وسرني هذا الحل الذي اهتديت إليه، فنمت قريرة العين. وفي الصباح التالي، استيقظت قبل الموعد المعتاد نشيطة، وكتبت الإعلان مع بيان المواد الأساسية التي أدرسها. واشترطت أن يكون تلاميذي دون الرابعة عشرة، لأن سني لم تكن قد تجاوزت الثامنة عشرة يومئذ. وجعلت عنوان الرج بشباك البريد في أقرب قرية.. وبحروفي الأولى "ج. أ."

وصبرت على مضض حتى انتهى اليوم المدرسي، وتناولت الشاي مع الناظرة والمدرسات واستأذنت الناظرة في الذهاب إلى القرية متعللة بشراء شيء من متجرها.. وفي مكتب البريد ألقيت خطابي، وبداخله حوالة اشتريتها. ورجعت ففاجئني المطر، ولكني كنت خفيفة النفس قريرة العين بما فعلت.

ولا أدري كيف صبرت الأسبوع بطوله قبل أن أذهب إلى القرية مرة أخرى، وأسأل وكيلة المكتب العجوز عن رسائل باسم "ج. أ." محفوظة بشباك البريد. وكان قلبي يدق بشدة، وهي تفرز الخطابات، إلى أن سلمت إلي مظروفًا واحدًا..

وخجلت أن أفض الخطاب أمام أهل القرية، فواريته في صدري إلى أن خلوت إلى نفسي في المخدع.. فلما قرأته وجديته من سيدة تدعى "مسز فيرفاكس" بقصر "ثورنفيلد" بناحية "ميلكوت". تفيدني أن تلميذتي المقبلة سنها أقل من عشر سنوات. وأن مرتبي سيكون ثلاثين جنيهًا في السنة أي ضعف

مرتبي الحالي. وطلبت مني أن أرسل إليها شهاداتي، وخطابات التوصية التي تزكي سيرتي وسلوكي.

ودلني الخط بطرازه العتيق على أن مسز "فيرفاكس" سيدة عجز أرمل هادئة وقور. ولم أجد في هذه الصورة ما ينفرني، وإن تخيلت قصر "ثورنفيلد" عتيقًا منعزلاً فخم الأثاث بارد الحجرات.

وبالرجوع إلى معلوماتي الجغرافية، عرفت أن قرية "ميلكوت" أقرب إلى مدينة لندن بمقدار سبعين ميلاً. وكان هذا تزكية كافية لها.. ولا سيما أن حولها مصانع كثيرة تبشر بالحركة والنشاط..

وهكذا أسلمني ذلك الحلم الجديد إلى النعاس في تلك الليلة.

***

وكان من الطبيعي أن أتخذ خطوات أخرى في اليوم التالي، فلم يعد في طاقتي إبقاء خططي في طي الكتمان.. بل أن التوفيق في تنفيذها يقتضي الإفصاح عنها. وتساءلت من عساه أجدر بأن أبوح له، فوجدت أنه ليس أولى بذلك من الناظرة.. وانتهزت فسحة الغداء، فسعيت إلى مس "تمبل" وأفضيت إليها بأنني ربما أوفق في الحصول على عمل جديد يتضاعف به دخلي، وكان مرتبي في "لوود" لا يتعدى خمسة عشر جنيهًا. ورجوتها أن تفضي بذلك إلى مستر "بروكلهيرست" أو من ينوب عنه. والاستعلام عما إذا كان في الإمكان أن أعتبرهم مصدرًا يستطيع المخدوم الجديد أن يحصل منهم على معلومات عني؟ وسرني أن الناظرة قبلت راضية أن تتوسط في الأمر. وطرح الموضوع في اليوم التالي على مستر "بروكلهيرست"، فأشار بأنه ينبغي أن تحاط مسز "ريد" علمًا بذلك ويؤخذ رأيها. فوجهت إليها رسالة باعتبارها وصية علي.. وجاء الرد بأن

لي مطلق الحرية أن أفعل ما أشاء، لأنها – على حد قولها – نفضت يدها مني، ومن ثم فليس لها أن تتدخل في شئوني! وعرضت الرسالة على أعضاء لجنة المدرسة، فصدر قرار بأن لي أن أعمل على الوصول إلى ما ينهض بحالي ما استطعت إليه سبيلاً. وأضافت اللجنة إلى ذلك، بأني كنت على الدوام مثلاً أعلى لحسن السلوك وطيب المعشر والتصرف بحكمة، سواء كمدرسة أو كتلميذة، وأنني سأحمل معي شهادة عن أخلاقي الطيبة وكفاءتي الممتازة، يوقع عليها المفتشون وتختم بخاتم المعهد.. وقد تسلمت الشهادة فعلاً، فبادرت بإرسال نسخة منها إلى مسز "فيرفاكس". وجاءني الرد باطمئنانها لكفاءتي، واقتناعها بحسن خلقي وصلاحيتي، وحددت لي يومًا قريبًا عينته لأتسلم عملي كمربية في دارها..

وما أن وصلت إلى ذلك حتى شرعت في اتخاذ أهبتي.. وكان لدي ما يكفيني من الثياب رغم قلتها. وقضيت اليوم الأخير في ترتيب حقيبتي، نفس الحقيبة التي رافقتني عند رحيلي عن "جيتسهيد" منذ عدة سنوات.. فحزمتها وثبت عليها بطاقة باسمي. ولم يبق على موعد رحيلي سوى ساعة أو بعض ساعة، فيحضر الحمال لينقلها إلى "لوتون".. وكان علي أن أذهب لأنتظر عربة السفر لألحق بالحقيبة في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي.

وأعددت ثوب السفر ونظفته، كما أعددت الملفحة والقفاز والقبعة. ولم أنس أن أفتش أدراجي لأستوثق من أنني لم أترك شيئًا يخصني. ولما انتهيت من كل ذلك، جلست ألتمس بعض الراحة.. ولكني لم أستطع إلى ذلك سبيلاً، رغم المجهود الذي أرهقني طول النهار.. لأنني كنت في حالة انفعال وتوتر، فإنني سأطوي صفحة من حياتي في تلك الليلة، لأستقبل صفحة جديدة في اليوم التالي. فكيف تهدأ مشاعري فيما بين الفترتين؟ لقد استعصى علي الإخلاد إلى

النوم، فقضيت الليلة يقظة كالمحمومة أسرح بفكري في الماضي وأرقب المستقبل بعين الأمل.

وجعلت أسير في البهو هائمة كروح أقضها القلق، فالتقيت بخادم قالت لي: "في الطابق الأول شخص يسأل عنك يا آنسة ويرغب أن يراك". فخمنت أنه الحمال، وهبطت درجات السلم.. وفيما أنا أجتاز حجرة المدرسات، وكان بابها نصف مفتوح وأنا أسير نحو المطبخ، إذا بي أرى امرأة تخرج من الحجرة وأخذت تصيح وتمسك يدي وقد اعترضت طريقي: "هي بعينها.. إنني على يقين أن عيني لا تخطئ". وتفحصت المرأة فإذا هي في ثياب مما تلبسنه رئيسات الخدم، وقد بدت لي شابة جميلة ذات بشرة ناعمة وشعر فاحم وعينين سوداوين. وأخذت تهتف وهي تبتسم، وقد خيل إلي أنني أذكر هذا الصوت وتلك الابتسامة حين قالت: "والآن هل عرفت من أنا؟ ما أحسبك نسيتني يا مس "جين"؟

في هذه اللحظة طوقتها بذراعي، وجعلت أعانقها عناقًا حارًا، وأقبلها في شوق ولهفة ودهشة وأنا أردد: "بيسي..! بيسي..! بيسي..! وظللت فترة أردد هذا الاسم، فاختلط عليها الأمر فرأيتها نصف ضاحكة ونصف باكية، ثم مضيت بها إلى حجرة الجلوس، فرأيت طفلاً لا يتجاوز الثالثة من عمره وقد ارتدى قميصًا وبنطلونًا، فهتفت "بيسي" على الفور: "هذا ابني يا مس "جين".

- لقد تزوجت إذن؟..

- نعم.. منذ سنوات خمس.. وزوجي "روبرت ليفن".. الحوذي أنجبت منه بنتًا أخرى أخت "بوبي" هذا، أسميتها "جين"!

- ألا زلت تقيمين في "جيتسهيد"؟..

– نعم.. وأنا أقيم في منزل البواب، لأن البواب السابق رحل عن الدار.

– كيف حال الجميع؟... خبريني بربك بكل صغيرة وكبيرة عنهم يا "بيسي".. استريحي أولاً.. اجلسي.. أما أنت يا "بوبي" فاجلس على ركبتي.. هل تتمنع؟!..

ولكن "بوبي" اقترب من أمه وأخذ يلوذ بها، وعادت مسز "ليفن" تقول:

– إنك لم تتغيري كثيرًا يا مس "جين"، فلم يزدد طولك ولم تسمني بشكل ملحوظ.. لعلك لم تصيبي غذاءً كافيًا.. إن مسز "ريد" تفوقك طولاً، ومس "جورجيانا" أعرض منك..

– لعل "جوجيانا" على جانب كبير من الجمال الآن يا "بيسي"؟

– إلى حد يفوق الوصف.. لقد زارت لندن مع أمها فكانت محط الأنظار، وأسر جمالها لوردًا شابًا.. ولكن عدم التكافؤ كان عقبة في طريق علاقتهما. فدبر الشاب الأمر مع مس "جورجيانا" على أن يفرا.. واكتشف الأمر، فحال ذلك دون فرارهما. ومسز "ريد" هي التي كشفت أمر الفرار، ولعلها كانت تحسدهما! وتعيش الآن هي وأختها كما يعيش قط مع كلب، فهما دائمًا تتشاحنان..

– لم تحدثيني عن "جون ريد".. ما أنباؤه؟

– لقد خاب أمل أمه فيه.. رسب في دراسته، ورغب أخواله في أن يغدو محاميًا، وكلنه شاب فاسد جدًا لا يرجى منه نجاح.

– وما شكله الآن؟..

– يتميز بطول فارع، وله شفتان غليظتان، ومع ذلك يقول البعض أنه جميل..

- ومسز "ريد".. ما أخبارها؟

- صارت بدينة، ولكنها لا تزال تحتفظ بملامحها.. على أنني أصبحت أشك في رزانة عقلها. وتضايقها تصرفات مستر "جون" فهو ينفق ببذخ..

- وهل هي التي أوعزت إليك بالحضور؟

- لا.. أن الذي رغبت أن أراك، وسمعت أن رسالة وصلت تتعلق بك، وأنك ستغادرين هذا المكان.. فأحببت أن أراك قبل أن تذهبي إلى مكان لا أعرفه، فيتعذر وصولي إليك.

- ما أحسب أن أملك قد خاب يا بيسي؟

قلت ذلك وأنا أضحك، وقد لاحظت أن نظراتها تعبر عن احترام وإن لم تنم عن شيء من الإعجاب، فهتفت تقول:

- ليس تمامًا ما تقولين يا مس "جين".. إنك الآن مرموقة يكسوك الاحترام، وهذا ما كنت أتوقعه لك.. فإنك لم تكوني جميلة وأنت صغيرة..

ورسمت إجابتها الصريحة ابتسامة على شفتي، لأنها كانت صريحة. ولكني تلقيت كلامها بشيء من الاهتمام، لأن غالبية الناس يرغبون في أن يروقوا للغير، فإذا لم يحقق منظرهم شيئًا من هذه الرغبة، فإنه لا يبعث في نفوسهم روح الرضا.. واستطردت "بيسي" تقول:

- إنني أعتقد أنك ماهرة.. ماذا تتقنين؟ هل تجيدين العزف؟

- إلى حد ما..

فطلبت إلي أن أتقدم إلى البيانو وأعزف، فأجبتها إلى طلبها. وبدا عليها الإعجاب ممزوجًا بالنشوة فقالت:

- إن فتاتي مسز "ريد" لا تتقنان العزف مثلك.. وهل تجيدين الرسم؟

فأشرت إلى رسم من رسومي فوق المدفأة وكان منظرًا طبيعيًا أهديته للناظرة تقديرًا مني لوساطتها لدى اللجنة، فأولته اعتزازها ووضعته في إطار.. فقالت "بيسي":

- كم هو جميل يا مس "جين".. ليس في استطاعة الآنستين أن ترسما مثله. وهل درست اللغة الفرنسية وتعلمتها؟..

- جيدًا يا بيسي.. ويمكنني أن أتحدث بها بسهولة وطلاقة..

- وفن التطريز.. هل تعلمته؟

- نعم..

- إذن فأنت سيدة كاملة مثقفة.. كنت أتوسم ذلك. ستشقين طريقك في الحياة بنجاح دون أن تلقي بالاً إلى رعاية أحد من أقاربك.. مس "جين" يتردد على لساني سؤال طالما وددت أن أسأله.. ألم يصل إلى سمعك شيء عن أسرة أبيك.. آل إير؟

- كلا يا "بيسي".. لم يصل إلى علمي أي شيء عنهم..

- لعلك تذكرين أن السيدة كانت تقول أنهم فقراء، جديرون بالازدراء. فقد يكونون فقراء حقًا، ومع ذلك أعتقد أنهم لا يقلون عراقة أصل عن آل "ريد". وإني لأذكر أن سيدًا من آل "إير" حضر إلى جيتسهيد منذ سبع سنوات لكي يراك، فأنبأته السيدة أنك في مدرسة بعيدة جدًا، فبدا عليه الامتعاض.. لأن ظروفه لم تكن تسمح له بأن يطيل إقامته في إنجلترا حتى

يتمكن من أن يراك لأنه كان مزمعًا للسفر إلى الخارج.. وكان مظهره يدل على أنه من السادة، وأرجح أنه عمك..

- هل تعرفين اسم الدولة التي رحل إليها؟..

- إنها جزيرة بعيدة جدًا تشتهر بصنع النبيذ..

فسألتها قائلة:

- هل تذكرين أن اسمها "ماديرا"؟

- نعم.. نعم.. هذا نفس اللفظ الذي ذكر أمامي.

- وقد رحل طبعًا!..

- إنه لم يمكث بالدار سوى دقائق، فقد لاحظ أن السيدة تتعالى عليه وتكلمه بكبرياء. وتحدثت عنه بعد ذلك، فقالت أنه "تاجر حقير"، بيد أن زوجي "روبرت" قال أنه تاجر كبير من تجار النبيذ..

- قد يكون كذلك.. أو لعله كان وكيلاً لأحد تجار هذه السلعة.

وطال الحديث بيني وبين "بيسي" عن الماضي وأيامه وأحداثه ساعة اخرى. واستأذنت هي في الانصراف.. بيد أنني طالعت وجهها في صباح اليوم التالي في "لوتون" لبضع دقائق، وأنا واقفة أنتظر وصول عربة السفر. وأخيرًا افترقنا أمام باب فندق "بروكلهيرست"، وسار كل منا في طريق غير طريق صاحبه، فذهبت هي لتنتظر العربة التي تقلها إلى "جيتسهيد". أما أنا، فقد وصلت العربة التي ستقلني إلى مقر عملي الجديد وحياتي الجديدة، في مكان لم تقع عيناي عليه من قبل، قريبًا من "ميلكوت"، فصعدت إلى العربة وأخذت مجلسي بها تحدوني أحلام وآمال.

الفصل السابع

حياة جديدة

لما كان كل أمر جديد يولد في النفس جوًا خاصًا.. فقد أحسست بذلك عند انتقالي من عملي السابق – مدرسة بمعهد "لوود" – إلى عملي الجديد – مربية بدار مسز "فيرفاكس" – وجلست ملتمسة وسائل الدفء من البرد الذي تعرضت له طوال رحلتي من "لوتون" حتى بلغت "ميلكوت" بعد ست عشرة ساعة..

وقد يتبادر إلى الذهن أنني كنت أنعم بالراحة، والواقع أن بالي كان مبلبلاً وأفكار مشتتة. وكان في ظني أن أجد أحدًا في انتظاري، ولكن خاب ظني.. فعند وصولي لم أسمع أحدًا ينادي باسمي، ولما استفسرت عما إذا كان أحد قد سأل عن مس "إير" أجبت بالنفي. فلم أر بدًا من اللجوء إلى حجرة خاصة، وقد ازدحمت الأفكار في رأسي، وتقاذفتني الهواجس والشكوك. وطغى علي إحساس قوي بالخوف عندما انقضت نصف ساعة وأنا وحيدة في جلستي.. ثم هممت أدق الجرس، فحضر إلي خادم فسألته:

– هل "نورثفيلد" قريبة من هنا أم هي بعيدة؟.

– لا أعرف يا سيدتي.. سأسأل ثم أعود لأخبرك..

وذهب ثم عاد بعد دقائق ليقول:

– هل اسم الآنسة.. مس "إير"؟

– نعم..

– في انتظارك هنا شخص يا سيدتي..

فانتصبت واقفة، وجمعت فرائي ومظلتي، ويممت شطر دهليز الفندق حيث رأيت رجلاً يقف عند باب مفتوح، كما لمحت على ضوء مصباح الطريق عربة ذات جواد واحد. وأشار الرجل إلى حقيبة في الدهليز وقال:

– أحسب أن هذا متاع الآنسة؟..

– إنه هو يا سيدي..

وركبت العربة بعد أن حمل الحقيبة إليها، واستفسرت منه عن المسافة إلى "نورثفيلد" قبل أن يغلق باب العربة، فقال أنها لا تتجاوز ستة أميال..

– وبعد كم من الزمن نصل إلى هناك؟.

– بعد ساعتين تقريبًا..

ثم أغلق الباب وصعد، فجلس في المقعد الخارجي للعربة، وانطلق بها في هوادة شديدة، فكان ذلك باعثًا لي على التكفير والتأمل.. فقد شعرت بالراحة في مبدأ الرحلة لاقترابي من نهاية السفر. واضطجعت في العربة، وأخذت أسترسل في تأملاتي. وقلت أحدث نفسي أنني قد أعرف من الخدم أن مسز "فيرفاكس" ليست من الثراء إلى حد كبير.. وأنا أفضل ذلك، لأنني عشت ردحًا من حياتي بين أناس أثرياء، فكنت أعاني من البؤس والشقاء! ثم ساءلت نفسي: "ترى هل يعيش مع مسز "فيرفاكس" أحدًا آخر غير ابنتها، فإن صح ذلك وكانت الفتاة لطيفة فإن ذلك سيشجعني على الحياة معها، وسأتفانى في عملي بإخلاص وأمانة.. وإن كان يحز في النفس ألا يكون التوفيق إلى جانبي. وقد استقر رأيي على ذلك في "لوود" فكان التوفيق حليفي وفزت برضى الجميع! أما من ناحية مسز "ريد" فإنني على يقين أني بذلت جهد طاقتي

فجوزيت بالزراية والمهانة. ولذلك أتمنى من قلبي ألا تكون مسز "فيرفاكس" صورة مكررة لمسز "ريد". ولو أنها كانت كذلك، فما حاجتي إلى العمل عندها؟.. ويمكنني أن ألجأ إلى نفس الوسيلة فأنشر إعلانًا جديدًا، ثم تساءلت: ترى كم قطعنا من الطريق؟..

وامتلأ الليل بالضباب، فأرخى الحوذي العنان للجواد، فأخذ يسير على مهل.. وامتدت الساعتان بمقدار نصف ساعة. وأخيرًا استدار الحوذي نحوي وقال:

– لقد صارت "ثورنفيلد" في مرمى العين..

وتطلعت بعيني، فوجدت أننا نمر بكنيسة، عرفتها ببرجها العريض وبدقات جرسها التي ترامت إلى مسمعي. ولمحت أضواء على جانب التل تنبي أن هناك قرية. ومرت دقائق، هبط بعدها الحوذي وفتح ضلفتي بوابة اجتزناها. ثم أخذنا نصعد ببطء في طريق منحدر حتى وصلنا إلى واجهة مترفعة لمنزل أسدلت الستائر على نوافذه، تراءى لنا من إحداها ضوء شمعة، أما بقية النوافذ فكانت معتمة. واستقرت العربة أما باب خارجي، فتحته خادمة.. فنزلت من العربة، ودخلت تتقدمني الخادمة إلى بهو واسع مربع أبوابه مرتفعة. ثم دلفت إلى حجرة بهرتني بأضوائها المنبعثة من النيران والشموع، وكانت عيناي قد ظلتا أكثر من ساعتين في ظلام دامس. وحينما استطعت أن أتبين الأشياء، وجدت أنها حجرة صغيرة تتوفر فيها أسباب الراحة، بها موقد تشتعل فيه النار.. وبجانبه مائدة مستديرة ومقعد بمسندين من طراز قديم، جلست فوقه سيدة مثالية، ضئيلة الجسم، تقدمت بها السن، على رأسها قبعة وترتدي عباءة من الحرير الأسود ومريلة بيضاء ناصعة... وقد تبادر إلى ذهني أنها نفس الصورة التي انطبعت في

مخيلتي من قبل لمسز "فيرفاكس".. وإن كانت أقل جمالاً وروعة. وهي تشغل نفسها بأعمال الإبرة، وعند قدميها جلست طقة كبيرة في هدوء واستسلام..

وإذ رأتني السيدة، نهضت لتستقبلني في حنان بالغ وهي تقول:

– كيف حالك يا عزيزتي؟ أخشى أن تكون الرحلة قد أرهقتك، فإن من طبيعة "جون" أن يقود العربة في بطء بالغ.. لا بد أنك تقاسين البرد، اقتربي من المدفأة..

فكان أول ما قلت لها:

– مسز "فيرفاكس" طبعًا؟..

– نعم.. هو ذلك.. اجلسي يا بنيتي..

ثم سارت بي إلى مقعدها، وأخذت تخلع عني شالي وقبعتي، فقلت لها:

– أرجوك.. لا تجشمي نفسك هذا العناء يا سيدتي..

– لا تعب في ذلك ولا عناء.. لعل يديك قد تجمدتا من البرودة

ثم التفتت على الخادمة وقالت:

– أعدي عشاءً خفيفًا يا "ليا".. خذي مفاتيح مخزن المئونة

وأخرجت من جيبها حلقة كبيرة ملآى بالمفاتيح وناولتها للخادمة، ثم عادت تحدثني:

– طبعًا جئت بمتاعك يا عزيزتي.. أليس كذلك؟ اقتربي من النيران لتصيبي شيئًا من الدفء..

– نعم يا سيدتي، أحضرته معي..

- سأصدر الأوامر بنقله إلى غرفتك..

ورأيتها تنطلق من الحجرة في جلبة، فحدثت نفسي:

- إنها تعاملني كأنني إحدى الزائرات.. إن استقبالها لي حار، وكنت أتوقع أن يشوبه الفتور والخشونة! وكنت أسمع أن المربيات لا يعاملن هكذا، ومع ذلك يجد ربي أن أتريث وألا أبتهج بسرعة لما رأيت..

ثم عادت السيدة بعد قليل، فجمعت أدوات أشغال الإبرة، ونقلت كتابًا وضعته فوق المنضدة لتفسح مكانًا لصينية أتت بها "ليا".. وقدمت لي بنفسها نوعًا من الشراب، فشعرت بارتباك لما أراه من مبالغتها في الحفاوة بي، في الوقت الذي أعتبرها أنا رئيستي ومخدومتي.. ولكني عدت ووجدت أن الأجدر بي أن أتقبل لطفها ومجاملتها في هدوء. وسألتها بعد أن تناولت الشراب الذي قدمته لي:

- هل سأرى مس "فايرفاكس" الليلة؟..

ولدهشتي رأيت السيدة، وقد اقتربت بأذنيها من فمي، وتقول:

- ماذا تقولين يا عزيزتي؟.. إن سمعي ضعيف..

فأعدت سؤالي بصوت مرتفع واضح النبرات، فقالت:

- آه.. تعنين مس "فارنس".. فهذا اسم تلميذتك.

- أليست هي ابنتك إذن؟..

- كلا يا عزيزتي.. فأنا معدومة العائلة.

وكان في الإمكان أن أكون أكثر فضولاً، فسلتها عن الصلة التي تربطها بمس "فارنس"، ولكني رأيت أن من اللياقة ألا أكثر من الأسئلة، تاركة معرفة ذلك بمرور الوقت..

وجلست في مواجهتي، وأشارت إلى القطة فقفزت إلى ركبتها واستقرت عليها، ثم استأنفت الحديث قائلة:

- إن حضورك يبعث البهجة إلى نفسي.. إن الحياة هنا ممتعة لي، خاصة إذا كان معي رفيق يؤنسني.. ثورنفيلد قصر قديم جميل لا يزال محتفظًا برونقه. وأيام الشتاء تنفث في النفس شعورًا بالوحشة، حتى في قصر منيف. وليس معنى هذا أنني أطعن في "ليا" أو في "جون" وزوجته.. فطباعهم على خير ما يرام، وكلنهم بعد كل شيء خدم لا نستطيع أن نتخذ منهم أصدقاء أو نرفع الحواجز بيننا وبينهم وألا أستعصي علينا قيادهم. وصدقيني أن المنطقة موحشة جدًا في الشتاء عندما تغمر الثلوج كل شيء.. فلا نكاد نظفر بأحد يدق علينا الباب طيلة ذلك الفصل بشهوره الأربعة، اللهم إلا مورد اللحوم وساعي البريد.. فكانت الليالي تنقضي طويلة ثقيلة، وأنا جالسة بمفردي، أصغي إلى "ليا" وهي تطالع لي في كتاب ساعات متوالية. وكان يثقل على إحساسي أن تلك الفتاة تخفي في نفسها التذمر من هذا التكليف القاسي. ولكن عندما ينتهي الشتاء، ويهل علينا الربيع ثم يحل الصيف، يمكننا الخروج إلى البستان والحقول للتمتع بأشعة الشمس. وأحمد الله أن "آديلا فرانس" جاءت هي وحاضنتها في أوائل هذا الخريف، فملأت هذه الصغيرة جو البيت نورًا وحبورًا.. أما وقد وصلت أنت أيضًا، فقد اكتمل حظي..

وقد أسرني لطف هذه السيدة، فشكرت لها حسن لقائها، وأعربت لها عن أملي في أن يكون وجودي معها مصدرًا لرضاها وتسليتها. فقالت:

– هذا أمر لا شك فيه.. ولكني لا أريد الليلة أن أرهقك بالسهر معي، لأن الليل قد ولى نصفه. ولا شك أن رحلة القدوم سببت لك عناء.. فهيا بنا إلى الحجرة التي أعددتها لك بجوار حجرتي، وستجدينها رغم صغرها لطيفة.

ونهضت واقفة لأتبعها.. فحملت الشمعة، ومشت أمامي في أبهاء طويلة ودهاليز، ثم صعدت سلمًا فاخرًا من الخشب المنقوش على الطراز العتيق حتى لقد داخلتني الرهبة. ولكني حمدت الله عندما دخلت حجرتي، فوجدتها معقولة الاتساع، ومفروشة بأثاث عصري من الطراز المعتاد..

وعد أن ألقت علي مسز "فيرفاكس" تحية المساء بكل رقة، وعدتها إلى الباب وأغلقته، ثم انصرفت إلى إعادة النظر في مكاني الجديد.. فازداد شعوري بالراحة والطمأنينة والأمان والاستقرار. وفاض قلبي بشكر الله على نعمائه.. فسجدت بجوار فراشي الذي لم أنم فيه بعد، ورفعت إلى الله صلاة شكر حارة على ما أولاه من رعاية، وما سدد إليه خطاي من الهداية. وتوسلت إليه سبحانه أن تتولى عنايته إرشادي وإلهامي في أيامي المستقبلة، وأن يجعلني موضع حب من عشرائي الجدد.. فإنه وحده سندي في هذه الدنيا، أنا الوحيدة الضعيفة.

وقد شعرت بعد هذه الصلاة بهدوء نفسي.. فما كدت أرقد في فراشي الجديد الدافئ حتى استولى علي النوم. ولم انتبه من رقادي إلا وقد ملأت أشعة الشمس حجرتي الجديدة.. فبدت لي أجمل وأرق بستائرها اللطيفة، وحوائطها المكسوة بالورق المزخرف، وأرضها المغطاة بالأبسطة. فهي فردوس بالقياس إلى مقامي الحقير السابق في معهد "لوود". وآمنت أنني بدأت حياة جديدة مفروشة بالورد، وليس مجرد مجموعة من الأشواك والحرمان.

ونهضت فصليت مرة أخرى من أعماق قلبي.. ثم وجدتني مدفوعة إلى العناية بهندامي حتى لا تبدو قلة أناقتي نغمة شاذة وسط هذا الجمال.. هذا مع أن ثيابي كلها كانت من النوع البسيط.

ومع أني لم أكن يومًا من الأيام جميلة الملامح وسيمة المحيا، إلا أنني كنت أحترم نفسي وأسعى إلى تعويض ما ينقصني من الجمال عن طريق نظافة الهندام. وبعد أن تأكدت من النظر إلى المرآة أن ثيابي لائقة بقدر ما يسمح قدي القصير الهزيل، ووجهي الشاحب، وملامحي غير المتناسقة، نزلت فاخترقت الردهات إلى الشرفة الأمامية... وجعلت أتجول في الحديقة وأتأمل المناظر المحيطة بي، فوجدتها أكثر ألفة مما توقعت. وشرعت أملأ صدري الضيق من الهواء الطلق، وقلبي يبتهج بتغريد الطيور التي تحفل بها الحديقة الجميلة..

وفجأة برزت عند الباب الكبير للقصر طلعة مسز "فيرفاكس" الباشة، فألقت علي تحية لطيفة.. فذهبت إليها وتلقيت منها قبلة زادت قلبي سرورًا وتفاؤلاً بالحياة. وسألتني:

– ما رأيك في "ثورنفيلد" في ضوء النهار؟..

– بديعة للغاية..

– إنها فعلاً ضيعة جميلة الموقع، وإن كنت أخشى أن تتدهور أحوالها ما لم يرض مستر "روشستر" نفسه على الإقامة هنا بعض الوقت بين الحين والحين.. فالضياع تخرب ما لم يقم فيها أصحابها.

– ومن هو مستر "روشستر"؟..

– صاحب ضيعة وقصر "ثورنفيلد"..

– وه! كنت أظنك أنت صاحبتهما!..

– هاها!.. كيف خطرت لك هذه الفكرة؟ أنا مجرد مديرة لشئون القصر.. ولي بصاحب القصر صلة من جهة والدتي. وزوجي كان من أقاربه أيضًا، وكان رحمه الله راعي الكنيسة التي ترينها فوق ذلك التل. ولكني لا أعطي لنفسي أكثر من حقوق ومنزلة مدبرة بيت ومستخدمة.

– و"آديلا"؟.. من تكون؟..

– مستر "روشستر" هو الوصي عليها بعد وفاة أبويها. وهو ينوي أن يربيها ويعلمها في هذا القصر، ولذا وكل إلي البحث عن معلمة تصلح لذلك الغرض.. وها هي على كل حال قادمة مع حاضنتها الفرنسية.

وشعرت بارتياح لأن مس "فيرفاكس مستخدمة مثلي وليست ربة القصر.. فهذا أدعى أن أكون معها على سجيتي لأنها تشعر بمثل شعوري..

ونظرت إلى حيث تقبل تلميذتي، فإذا طفلة في نحو الثامنة من عمرها ناحلة العود، صغيرة التقاطيع، غزيرة الشعر.. تتدلى غدائرها خلف ظهرها إلى خصرها، خاطبتها مسز "فيرفاكس" قائلة:

– سلمي على هذه السيدة، فهي معلمتك الجديدة يا مس "آديلا"..

فنظرت الصغيرة إلى حاضنتها وسألتها بالفرنسية:

– هل هذه معلمتي الجديدة؟..

فأجابتها الحاضنة بالفرنسية أيضًا:

– طبعًا..

واستفسرت في دهشة من مسز "فيرفاكس" عن سر استخدام الطفلة للغة الفرنسية، فعرفت منها أن الحاضنة فرنسية وأن "آديلا" ولدت في فرنسا، وظلت فيها إلى شهور قليلة.. فلما أحضرها مستر "روشستر" من هناك، لم تكن تعرف حرفًا واحدًا من اللغة الإنجليزية. وهي إلى الآن لا تتكلم الإنجليزية إلا مخلوطة بكثير من الفرنسية وعندئذ حمدت الله على أنني أتقن اللغة الفرنسية إتقانًا كاملاً لكسب مودة واحترام هذه الطفلة.

وفي الطريق إلى حجرة الطعام لتناول طعام الإفطار، وجهت إلى "آديلا" الكلام بلغتها. وسرعان ما زالت الحواجز بيننا لهذا السبب.. وانطلقت تثرثر وتصف لي حياتها في باريس مع والدتها التي صعدت إلى السماء حيث السيدة العذراء على حد تعبيرها.. ووصفت لي صالون أمها العامر بأهل الذوق. وكيف كانت تغني لهم "آديلا" وترقص. ونهضت عن المائدة وراحت تعرض نماذج من غنائها.. فإذا هي مشاهد كاملة من الأوبرات المشهورة تؤديها بإتقان، وإن كانت معانيها الضخمة تتجاوز فهمها القاصر. ولكن لهجة الطفولة كانت تزيد غناءها سحرًا.. وبراعة الأداء كانت جديرة بإضعاف سنها. وهكذا توثقت الصداقة بيني وبين تلميذتي الفرنسية الحسناء..

ومع "آديلا" توجهت بعد تناول الفطور إلى مكتبة القصر. وكانت دواليب المكتب موصدة إلا واحدًا، وجدت به ما قد أحتاج إليه من كتب في الأدب والشعر والسير والروايات. ولعل مستر "روشستر" اعتقد أن في ذلك الكفاية للمطالعة الخاصة. والواقع أنني قنعت بذلك بالمقارنة بما كان في متناول يدي في "لوود". وأيقنت أن أمامي مادة غزيرة تكفي للتسلية والمعرفة. ورأيت في حجرة المكتبة بيانو كبيرًا من نوع فاخر وحمالة للرسم، ومجموعة من الوسائل العلمية كالكرات الأرضية وما إليها..

ومنذ الدرس الأول، أدركت أن "آديلا" لطيفة مطيعة، وكلنها لم تتعود التنظيم قبل ذلك.. فهي سريعة الملل. ولذلك آثرت ألا أثقل عليها بالتشدد في النظام منذ البداية، فقضيت معها ساعتين فقط في معلومات تمهيدية، ثم تركتها تذهب إلى حاضنتها.. وفكرت أن أحضر الأوراق والأقلام من حجرتي لأرسم لها بعض المناظر التي تفيد في دروس الطبيعة ريثما تحين ساعة الغداء..

وفي طريقي إلى الطابق العلوي، سمعت صوت مسز "فيرفاكس" تناديني فذهبت إليها، فإذا هي في قاعة مترامية الأرجاء حافلة بالأثاث الفخم والرياش الشرقية والنقوش البديعة.. فوقفت كالمذهولة أحملق فيما حولي، وكانت مسز "فيرفاكس" تقوم بنفسها بنفض التراب عن التحف الثمينة. فقالت لي:

- هذه قاعة المائدة.. ولا بد من تهويتها وتنظيفها كل يوم حتى لا تتلفها الرطوبة. أما الحجرة التي هناك فحجرة الاستقبال..

وكانت الحجرتان متصلتين بعقد من البناء انسدلت فوقه ستارة فدخلت لأجد فخامة لا تقل عن فخامة قاعدة المائدة.. تقضي في طرفها الآخر إلى حجرة نوم رب القصر. وكل شيء في هذه الحجرة - حتى الأبسطة - أبيض اللون.. أما أدوات الزينة فحمراء قانية، يكاد جمالها يخطف الأبصار..

وقالت لي مسز "فايرفاكس":

- لا بد من تنظيف هذه الحجرات الثلاث يوميًا، لأن مستر "روشستر" قد يحضر في أي لحظة بغير إنذار.. وإن كان العام يمضي أحيانًا من غير أن يحضر على الإطلاق. ولكنه متى حضر يجب أن يجد جناحه في أحسن نسق كأنه قضى فيه ليلته السابقة.

- وهل مستر "روشستر" خشن الطباع؟..

- ليس هذا وصفه بالضبط، ولكنه كجميع أبناء العلية مرفه الطباع يجب أن يجد كل شيء دائمًا على هواه..

- وهل تحبونه؟.. أعني أهو قريب إلى نفوسكم؟..

- أوه طبعًا.. فأسرته تملك كل هذه المنطقة..

- ما عن أملاكه سألتك، بل عن صفاته الشخصية!

- أوه.. ولماذا لا أحبه؟ جميع فلاحيه يلقون منه معاملة عادلة.

- أليس في طباعه شذوذ؟..

- شذوذ؟ ليس بالضبط.. ولكنه قليل الكلام، ولا سيما بعد أن سافر كثيرًا وتنقل بين البلاد والعباد. وكل ما آخذه عليه بعض الشيء أن الإنسان يعرف وهو يكلمه أهو جاد أم مازح، وهل هو مسرور أم ساخط.. ولكني لا أشغل نفسي بالتخمين وأؤدي واجباتي في صمت..

وأدركت أن مسز "فيرفاكس" لا تهتم بسخص مستر "روشستر".. فكل ما يعنيها منه أنه مالك ثري، ومخدوم يؤدي لها أجرها من غير غبن..

وكانت مسز "فيرفاكس" قد فرغت من تنظيف تلك الحجرات، فاقترحت على أن تطوف بي أرجاء القصر العتيق.. فحسبنا بين دهاليزه وممراته والسلالم الضيقة المؤدية إلى أبراجه وسطحه. وكانت الحجرات العليا ملآنة بأثاث فخم ضخم عتيق يرجع إلى أكثر من مائة سنة. وظننت أن الخدم يقيمون في ذلك الطابق العلوي، ولكنها أكدت لي أن الحجرات خالية وأن الخدم يقيمون في حجرات خلف القصر. وأضافت:

- ويقال أن هذا الطابق العلوي المهجور هو أنسب مكان لسكنى الأشباح.. لو كان في قصر "ثورنفيلد" كائنات من هذا القبيل!.

- وهل ليست لديكم هنا أشباح حقًا؟

- أوه.. لم تقع عيني على شبح واحد!..

- قصركم إذن شاذ بين القصور التاريخية!..

- لعل مرجع هذا إلى آل "روشستر" أنفسهم.. فهم يستوفون في مدة حياتهم كل ما لديهم من طاقات النشاط والشيطنة، فمتى ماتوا رقدت أرواحهم في قبورهم واستغرقت في سبات عميق، ولم تفكر في الخروج إلى وجه الدنيا!

وضحكت وتبعتها إلى السطح العلوي حيث تمتعت بمنظر المنطقة كلها وما فيه من تغير على مدى البصر. وعند النزول شعرت أن عتمة السلم الضيق شديدة، بعد أن كنا في ضوء السطح الباهر.. فكنت أتحسس طريقي بصعوبة خطوة بخطوة، ولاسيما في الدهليز الضيق الطويل المعتم الذي يفصل ين الحجرات في الطابق العلوي وكلها مغلقة الأبواب. وفي منتصفه سمعت ضحكة حادة عصبية أشبه بضحكات الشياطين لولا ما فيها من رنة حزن خفي.. فارتعدت فرائصي وهتفت:

- ما هذا يا مسز "فيرفاكس"؟..

- لا بد أنها ضحكة الخادمة "جريس".. وهي كثيرًا ما تضحك هكذا، وخصوصًا عندما تجلس معها "ليا" لحياكة الثياب في إحدى تلك الغرف..

وعندئذ ارتفعت الضحكة مرة أخرى.. فصاحت مسز "فيرفاكس":

- "جريس بول"!..

وكم كانت دهشتي عندما انفتح الباب، وأطلت منه امرأة في العقد الرابع من العمر، ذات شعر احمر وملامح تنم عن شيء، ونظرات زائغة، فنهرتها مسز "فيرفاكس"، فأدهشني أن أراها تنحني في احترام وأدب وتدخل وتغلق الباب. والتفتت إلي مسز "فيرفاكس" قائلة:

– هذه المرأة تساعد "ليا" في أعمال البيت.. وهي قائمة بعملها على خير وجه، وهذا ما يحملنا على التغاضي عن ضحكتها غير المألوفة..!

ثم غيرت موضوع الحديث فسألتني عن "آديلا".. وظللنا نتحدث عن تلميذتي إلى أن وصلنا إلى الطابق الأرضي حيث قابلت الطفلة وهتفت بالفرنسية في جذل:

– الطعام على المائدة.. وقد جعت جدًا..

وكانت المائدة في انتظارنا فعلاً في حجرة مسز "فيرفاكس"..

***

مرت بي الأيام رتيبة في قصر "ثورنفيلد"، فلم أجد ما يناقض ما طالعتني به – في مستهل حضوري – من هدوء واستقرار وإيناس العمل. وكانت مسز "فيرفاكس" كعهدي بها، لم يتغير في طباعها أو معاملتها شيء، سمحة القلب واسعة الاطلاع والمعرفة، موهوبة الذكاء. أما تلميذاتي فكانت طفلة مدللة مرحة، وكان لتدليلها أثر ملحوظ في أنها كانت تتشبث برأيها، لا تلين بسهولة.. ولكن لما كان أمر تعليمها منوطًا بي دون سواي، بحيث لا تتلقى توجيهًا من غيري قد يتعارض مع أصول التربية.. فإنني لم أجد صعوبة في ترويضها وصقلها، وأمكنني في سهولة أن أجعلها تتخلى عن نزواتها الطفلية، وغرست في نفسها الرغبة في التعليم. وأثمر ذلك إذ رأيتها تسير قدمًا في

دراستها، ولمست فيها حبًا نحوي واحترامًا لي، وكانت تلجأ في سذاجة إلى الثرثرة المرحة لكسب مودتي، ونجحت في ذلك إذ وجدت نفسي راضية عنها كل الرضا..

وكثيرًا ما كانت تتناهى إلى أذهاني ضحكات "جريس بول" ذات الرنين الحاد التي أزعجتني عند سماعها لأول مرة. وكانت هذه الخادمة شاذة في أحوالها، ففي أحيان كانت تغمغم بكلمات غريبة غير مفهومة، وفي أحيان أخرى تثقب آذاننا بضحكاتها الرنانة، وفي أحيان غيرها كانت تلجأ إلى الصمت المطبق وكأنها خرساء. وكثيرًا ما كنت أراها تروح وتغدو، صاعدة هابطة، تحمل الأواني وتأتي بالطعام. ومن عجب أنها تتسم بالرزانة.. وكم حاولت أن أغريها بمحادثتي، فكنت أرى منها عزوفًا عن الكلام، أو تجيب بإيجاز عما أسألها عنه. وكانت السماحة ولين الجانب سمة خدم الدار من الحوذي وزوجته إلى "ليا" إلى المربية الفرنسية "صوفي" التي اعتدت أن أتجاذب معها الحديث بالفرنسية.

***

وطلبت مني مسز "فيرفاكس" في يوم من أيام يناير، وكان قد انف\قضى على حضوري ثلاثة شهور، أن أعفي "آديلا" من الدروس لأنه تشكو من البرد. وتحمست "آديلا" لهذا الرجاء، فذكرني ذلك بشغفي بالأجازات في طفولتي.. فلم أمانع، مؤثرة جانب اللين، وكان اليوم صحوًا رغم برودته. وأضجرني من ناحية أخرى المكث الطويل بحجرة المكتبة في ذلك اليوم. ورغبت أن أخرج لأمشي بعض الوقت، فارتديت معطفي وقبعتي، ورأيت مس "فيرفاكس" تحرر خطابًا، فأبديت لها الرغبة في أن أحمله معي إلى القرية، فغنها فرصة لنزهة لطيفة ورياضة.. ولم أنس قبل خروجي أن أزود "آديلا" ببعض الدمى، وبكتيب به أقاصيص مشوقة، ثم قبلتها حين قالت لي:

– لا تتأخري طويلاً يا عزيزتي الحنون.. أيتها الحبيبة "جين".

وخرجت من القصر، وكان الطريق موحشًا، والأرض جافة صلبة مكسوة بالجليد، فأسرعت الخطى لأبعث الدفء في أوصالي.. ثم عدت فتراخيت في السير على مهل كي أستمتع بالنزهة، وأستشعر النشوة التي تخالجني. ووافت الساعة الثالثة، وسمعت دقات جرس الكنيسة من فوقي.. وكنت ساعتئذ أمامها. وبهرني غسق النهار في تلك اللحظة.. وإذ وصلت إلى مكاني هذا، فقد أصبحت على مسافة ميل من "ثورنفيلد"، وكنت أسير في طريق تزينها في فصل الصيف الزهور البرية وفي الشتاء ثمار الجوز، على أن سحرها الحقيقي كامن في وحشتها وسكون أشجارها حتى لتسمع للنسيم حفيفًا إذا هب، وتمتد على جانبيها حقول مترامية تضاعف من روعة المنظر..

وبينما يلفني ذلك السكون الشامل، إذا بي أسمع ضجة عالية تتناهى إلى سمعي من بعيد، ولم يحل بعدها دون معرفتها.. فقد كانت طرقعة حوافر جياد، وأصوات اصطفاق معادن، شتت أفكاري وطمستها، كأن سدًا منيعًا حجبها عن رأسي. وخلال الأفق المضيء والسح المختلطة بالألوان، تبين لي أن الضوضاء عند الجسر وأن جواد يقترب.. بيد أن المنعرجات كانت تحجبه عن نظري، وإذ كنت أشعر باقترابه أخذت في مغادرة المكان والابتعاد عنه..

وأصبح الجواد وشيك القرب مني، بيد انه لم يصل إلى مدى النظر.. وإلى جانب وقع حوافر الجواد سمعت حفيفًا بين الحشائش، فإذا كلب ضخم يظهر من بين الأشجار، يخيل إلى الناظر أنه أسد فقد كان ضخم الرأس غزير الشعر طويله. ولدهشتي رأيت الكلب لا يأبه بوجودي، ولم يكلف نفسه عناء النظر إلي كما كنت أخشى، بل مر بي مر الكرام، والجواد في أثره.

وما أن مضت هذه "القافلة" بضع خطوات أخرى حتى سمعت صوت سقوط شيء، وسمعت شخصًا يصيح:

- والآن ما العمل؟!..

واسترعى انتباهي صوت كبوة، فقد تعثر الجواد فكبا وسقط براكبه، على الأرض التي يغطيها الجليد. وسمعت الكب الضخم وقد أخذ ينبح في إلحاح حتى رددت أرجاء الوادي أصداءه. ولمحته يقترب من الجسدين، جسد الجواد وراكبه، ثم رأيته يهرع صوب مكاني. فقد كنت الملاذ الوحيد الذي دلته غريزته أن ينشد مساعدته.. فتبعته وسرت نحو الرجل، الذي رأيته يحاول أن يتحرر من جواده في جهد وإصرار. فسألته:

- هل أصابك سوء يا سيدي؟..

ولم يجب على سؤالي في الحال، ولعله كان في شغل بالنقمة مما حدث، فعدت أسأله:

- هل أستطيع أن أعاونك؟

فنهض من عثرته في مشقة وتثاقل، ثم قال:

- الزمي مكانك يا فتاة!..

فلم أتحرك.. ورأيت الجواد يلهث ويدق الأرض بقدميه، وفجأة يهدأ ثم ينهض. وسكت الكلب عن النباح عندما صاح فيه سيده:

- اسكت يا بايلوت!

وأخذ الرجل يتحسس ساقه وقدمه ليرى هل أصابهما أذى. ولعل شيئًا آلمه، فقد رأيته يتوقف في مكاني الذي كنت قد ابتعدت عنه ثم يجلس. وكنت

أتمنى لو أن في مقدوري خدمة أقوم بها، ولو بدافع من الإنسانية، فدنوت من الرجل وسألته:

- إنني على استعداد يا سيدي لأن أقدم أي عون تكون في حاجة إليه، وفي وسعي أن أستدعي من ترغب في حضوره من "ثورنفيلد" أو من غيرها.

- شكرًا يا فتاتي.. لم يصب عظامي أذى، وسأتغلب على الألم، الإصابة لا تعدو التواء في القدم..

ونهض واقفًا من جديد، وحاول تحريك قدمه، فصدرت عنه آهة ألم!..

وكان النهار يلفظ أنفاسه.. وأخذت أشعة القمر الفضية تنتشر في الأرجاء.. فاستطعت أن أتبين بعض ملامح الرجل وهيئته، فوجدته يتدثر بمعطف من الصوف السميك يحيط ياقته فراء ثمين. ولم أميز تفاصيل تقاطيعه في وضوح، على أنه في الجملة كان طويل القامة عريض المنكبين ذا وجه مشرب بسمرة، يعلوه حاجبان كثيفان، تنم ملامحه عن إمارات الجد. وقد تشابك حاجباه، وومضت عيناه ببريق ينم عن حنق وتجهم. ولم يتقدم به العمر كثيرًا، وإن كان قد جاوز سن المراهقة.. فلم يبعث في نفسي رهبة وإن كان قد احتواني شعور بالحياء والخفر. وما كنت أتصرف معه بمثل ما تصرفت، لو انه كان شابًا وسيمًا جريئًا..

وكان من الجائز أن أعرض عنه ولا أبدي رغبتي في خدمته، لو أنه عاملني بلطف وبش في وجهي عندما بادرته بالحديث، أو لو أنه شفع

وخلال الأفق المضي والسحب المختلطة بالألوان تبين لي أن الضوضاء عند الجسر وأن جوادًا يقترباعتذاره عن تقبل خدماتي بالشكر والامتنان. ولكني

وجدت في حدة نظراته وخشونة رده حافزًا لي على معاودة سؤاله.. ولزمت مكاني عندما لوح لي أن أنصرف، وقلت له في تشبث:

- لا يمكن أن أتركك أيها السيد في هذا الوقت المتأخر، وأنت في مكان مقفر.. إلا إذا رأيتك مستطيعًا امتطاء جوادك.

ولم يكن حتى هذه اللحظة قد كلف نفسه عناء التطلع ناحيتي أو النظر إلي.. وإذ سمع مني ذلك أخذ يرمقني في تأمل، ثم قال:

- إذا كان لك منزل في هذه الناحية النائية، فمن الأجدر أن تكوني به في مثل هذه الساعة.. من أين جئت يا فتاة؟

- إن إقامتي ليست بعيدًا عن هنا، كما أنني لا أهاب الخروج في مثل هذا الوقت ما دام القمر يؤنسني.. إنني في خدمتك أيها السيد، ومستعدة أن أحث الخطى من أجلك عن طيب خاطر إلى "هاي" لأنني في طريقي إلى هناك في مهمة أخرى، هي إلقاء خطاب معي في صندوق البريد.

- تقولين انك تقيمين عن كثب من هنا!؟ لعله ذلك المنزل ذو الشرفات المطلة علينا هناك..؟

واتجهت نظراته وأشار بيده إلى قصر "ثور نفيلد" الذي بدا واضحًا للعين خلال أشعة القمر. فقلت على الفور:

- تمامًا يا سيدي..

- هل تعرفين صاحب هذا القصر؟

- نعم يا سيدي.. إنه مستر "روشستر"

- وهل تعرفين مستر "روشستر" هذا؟

- مع الأسف.. لم أره حتى الآن؟

- ألا يقيم في قصره؟

- كلا يا سيدي..

- وهل تستطيعين أن تدليني على مكانه؟

- للأسف.. لا أعلم ولا أستطيع..

- أغلب الظن أنك لست إحدى خادمات القصر.. أنت..

وتبدت عليه الحيرة، وراح يتأملني ويتأمل زيي الذي كان أنيقًا رغم بساطته، فلما استبدت به الحيرة أوضحت له اللغز الذي خيل إلي أنه استعصى عليه فقلت:

- إنني المعلمة أيها السيد..

وبدا كأنه تذكر أمرًا غاب عن ذهنه فقال:

- بالله كيف غاب عن بالي؟.. المعلمة!..

وإذ قال ذلك أخذ يتفحصني من جديد ويرشق ثيابي بنظراته، ثم عالج النهوض وقال:

- ليس من اللائق أن أجشمك مشقة وأبعث بك لتأتيني بمن أحتاج إليه لمساعدتي.. أرجوك مشكورة أن تعاونيني أنت بنفسك.

- مر يا سيدي.. تغمرني الغبطة أن أؤدي لك خدمة..

- ألديك ما أستطيع أن أتوكأ عليه؟..

- للأسف يا سيدي..

- هل تستطيعين أن تأتيني بالجواد بعد أن تمسكي بعنانه.. لا تخافي منه يا فتاتي..

ولم أكن قد جربت عملاً كهذا، فكان خليقًا بي أن أشعر بالخوف طبعًا.. ولكن لا مفر من القيام بهذا العمل ما دام قد طلبه مني.. فخلعت قفازي ويممت شطر الجواد، وأردت أن أمسك بعنانه، ولكنه كان أسرع مني حركة.. فلم يدعني أدنو من رأسه المشرئب، وبذلت في ذلك جهدًا دون جدوى.. وكنت أتوجس من قدميه وهما تضربان في الأرض، وأخشى أن تصيبني منهما ضربة هوجاء تقضي علي. وكان السيد يراقبني من مكانه، ورأيته يضحك ويقول:

- إنه يأبى الإذعان.. لذا أرجو أن تساعديني على الوصول إليه أنا.

فعدت إلى السيد الذي استطرد يقول:

- أرجو المعذرة يا فتاتي، ما كان ينبغي أن أجشمك كل هذا التعب.. ولكن الضرورات تبيح المحظورات..

وألقى بيده الثقيلة على كتفي، محاولاً قدر استطاعته أن تكون خفيفة. وكان يعرج وهو يسير إلى جانبي.. حتى إذا وصلنا إلى الجواد أمسك بعنانه وجعله تحت سيطرته. ثم وثب إلى السرج في جهد وألم بالغين من أثر التواء قدمه.. وقال بعد أن استوى على ظهر الجواد:

- إن سوطي تحت السياج.. هلا ناولتني إياه مشكورة..

وعندما جئته به قال:

– شكرًا لك من أعماق قلبي يا آنسة.. يمكنك الآن أن تسرعي بالخطاب، وأروج أن تعودي بسرعة.

وبلمسة من المهماز، تحرك الجواد إلى الأمام، ثم استدار إلى الخلف وانطلق كالسهم، واندفع الكلب في أثره.. وما هي إلا لحظات حتى اختفى الفرسان الثلاثة عن ناظري.

شعرت برغبة ملحة في عدم العودة إلى "ثورنفيلد" لأن الحياة في ذلك القصر تمثلت لي في مثل ركود الماء الآسن.. فحجراته التي يريم عليها السكون، ودرجه المعتم عتمة القبور، وحجرتي المنعزلة في أحد أركانه، ولقاء مسز "فيرفاكس" الرزينة الهادئة، مع قضاء أمسيات الشتاء في رفقتها دون سواها، كان كفيلاً بأن يمحو من نفسي ذلك الأثر الجميل وتلك الأحاسيس التي أيقظتها نزهتي، وكفيلاً كذلك بأن يعود بي إلى ذلك النظام الرتيب لحياتي الجديدة كمعلمة في قصر له تقاليده العتيقة، وإلى الجو الساكن الذي خلته يبعث الملل، متناسية ما فيه من مزايا.. غير مقدرة أن الحياة ربما طوحت بي في ناحية عاصفة ليس فيها طمأنينة أو استقرار، فتدفع بي إذ ذاك إلى التلهف على الهدوء الذي أضجر منه وأبرم به الآن.. مثلي في ذلك مثل شخص ينعم بمجلس وثير، سئمه فهب إلى نزهة طويلة ومتعبة. فرغبت الحراك طبيعية في النفس البشرية تأبى الركود والاستكانة..

***

وعندما بلغت أبواب القصر الخارجية تلكأت في السير.. كما تلكأت فوق المروج، فرحت أذرع الممشى جيئة وذهابًا. وإذ كان مصرعا الباب الزجاجي مغلقين، فقد تعذر علي أن أرى ما في الداخل. فلجأت إلى باب جانبي، فتحته ثم دلفت منه.. وكان يضيء البهو نور ضعيف من مصباح مدلى من السقف.

ولكن الدفء كان يغمر البهو وبعضًا من درجات السلم، يتسلل هذا الدفء من حجرة المائدة التي كان مصراعا بابها مفتوحين، فأمكن رؤية ميزان الموقد والرياش في تنسيق جميل ينم عن عراقة في الذوق وعظم في الثراء. وتبينت في داخل الحجرة جمعًا يجلس حول الموقد التماسًا للدفء الذي يفيئه. عرفت من بين هذا الجمع صوت "آديلا"، ثم رأيت الباب يغلق.

ويممت صوب حجرة مسز "فيرفكاس"، فوجدت نارًا موقدة، ولم تكن بها شمعة، كما لم تكن مسز "فيرفاكس" داخل الحجرة، بيد أنني رأيت كلبًا ضخمًا طويل الشعر رابضًا في الحجرة، يشبه إلى حد كبير الكلب الذي صادفته في طريقي بصحبة السيد. ما أن ناديته باسم "بايلوت" حتى نهض ودنا مني وأخذ يتشممني، فأخذت ألاطفه وأربت على رأسه، وإذا به يبصبص بذيله الطويل دلالة الإيناس كأنه يعرفني من قبل.. على أنه بدا لي حيوانًا مرعبًا لا يؤمن الانفراد به. وما أن جال هذا الخاطر بذهني حتى قرعت الجرس طلبًا لشمعة تضيء الحجرة، ولأنني كذلك كنت متشوقة إلى أن أعرف قصة هذا الضيف العجيب.. فجاءت إلي "ليا" وسألتها:

- ما هذا الكلب يا "ليا"؟!..

- إنه كلب سيدي.. جاء معه..

- تقولين مع من جاء؟..

- مع سيدي.. مستر "روشستر" الذي وصل منذ لحظات.

- أحقًا ما تقولين؟! وهل مسز "فيرفاكس" برفقته الآن؟

- نعم.. وكذلك مس "آديلا". والجميع الآن بحجرة الطعام.

على أن السيد أرسل "جون" لاستدعاء الطبيب، فقد أصيب مستر "روشستر" في حادث.. كبا جواده فالتوت قدمه.

- وهل كان سقوط الجواد في الطريق الممتدة إلى "هاي"؟

- نعم.. فقد انزلقت حوافره بسبب الجليد أثناء هبوطه التل.

- أوه.. إلي بشمعة يا "ليا".. أرجوك..

وخرجت "ليا" من الحجرة، ثم عادت بعد لحظة تحمل شمعة، وأقبلت في أثرها مسز "فيرفاكس" وألقت على مسامعي ما سبق أن سمعته من "ليا"، وزادت عليه أن الطبيب قد حضر، وأنه في ذلك الوقت مع مستر "روشستر".. ثم رأيتها تغادر الحجرة على عجل لتصدر الآمر بإعداد الشاي، فصعدت إلى حجرتي لأغير ثيابي..

الفصل الثامن

دعوة

لما كانت الحركة قد دبت في القصر بسبب حضور مستر "روشستر"، اضطررت أنا و"آديلا" أن نتنحى عن حجرة المكتبة، لاستعمالها في استقبال الزائرين ممن أخذوا يفدون إلى القصر.. فأعدت لنا حجرة أخرى بالطابق العلوي، زودت بوسائل الراحة وأشعلت النار بمدفأتها.. واستقر عزمي على تخصيصها واستخدامها للدراسة بصفة دائمة، فنقلت إليها الكتب اللازمة.

ومع ضوء الصباح تبين لي أن قصر "ثورنفيلد" قد أصبح غير ما كان عليه، فقد زايله السكون الذي كان يلفه.. فبين الحين والحين كانت تتجاوب أرجاؤه أصداء طرقات على الأبواب، كما كان رنين الأجراس يكاد يكون مستمرًا.. ودب النشاط فكان وقع الأقدام متلاحقًا وهي تذرع أرجاء البهو جيئة وذهابًا. وسرني أن تنتعش الحياة في القصر، فقد أخذ العشرات من الزائرين يفدون لتحية سيده والترحيب به.

أما "آديلا" فقد أخذت بدورها تنتقل كالفراشة من مكان إلى مكان، تجري من هنا وتطل من هناك، وكل أملها أن تحظى برؤية مستر "روشستر" لذلك تعذر تلقينها الدرس في هذا اليوم. وكانت تنتحل شتى المعاذير؟ تبرر بها الرغبة في الهبوط إلى الطابق الأرضي. وعندما أضيق بها وأشدد عليها وأمنعها من الاستهانة بوقت الدرس، وأقنعها بضرورة تحصيله، أراها تتحول إلى ثرثارة تندفع في الحديث بلا هوادة أو توقف عن مستر "أدوار روشستر" وتقرن اسمه بكلمات الإعزاز متسائلة ترى ماذا يحمل إليها من هدايا ثمينة.

وكالعادة تناولت طعام الغداء مع "آديلا" في حجرة مسز "فيرفاكس"، وقضينا بعد ظهر ذلك اليوم في حجرة الدراسة فقد كان الجو عاصفًا ثلجيًا. وما أن زحف الظلام حتى أنهيت الدرس، وأسرعت "آديلا" تهبط إلى الطابق الأرضي، ودار بذهنها أن مستر "روشستر" لا بد قد فرغ من استقبال زائريه لأنها لم تعد تسمع وقع أقدام أو رنين أجراس. وإذ تركتني أخلو إلى نفسي، مضيت إلى النافذة فلم أتبين شيئًا خلالها بسبب الغسق وتساقط ندف الثلج. وقطعت مسز "فيرفاكس" على خلوتي بدخولها فجأة، فبددت الأفكار التي كانت قد بدأت تناوشني وسمعتها تقول لي:

– من دواعي الغبطة لمستر "روشستر" أن يدعوك لتناول الشاي – أنت و"آديلا" – معه في هذا المساء بحجرة الاستقبال. حيث حالت مشاغله طيلة النهار دن تحقيق رغبته في مقابلتك..

– ومتى يكون ذلك؟..

– في الساعة السادسة، لأن التبكير من عادته حينما يكون في الريف.. فهيا لتغيري ثيابك وسأعاونك في ذلك.

– وهل من الضروري أن أبدل ثيابي؟

– طبعًا.. إن ذلك أفضل. وأنا أواظب على خلع ثياب العمل وإبدالها بثياب أنيقة طالما كان السيد في القصر.

ثم استطردت مسز "فيرفاكس" تقول:

– كم تبدين جذابة لو تحليت بقلادة!

وكانت مس "تمبل" قد أهدتني قلادة على سبيل التذكار عند رحيلي عن "لوود".. فتزينت بها ثم هبطنا الدرج. ولما لم يكن من عادتي أن أقابل شخصًا غريبًا عني، فقد شعرت بتوتر إحساساتي وسرت خلف مسز "فيرفاكس" وهي تتقدمني إلى حجرة المائدة. فاجتزنا تلك الحجرة ومررنا تحت قوس ستائره مسدلة، ثم دلفنا إلى حجرة فاخرة الرياش خلفها، تضيئها شمعتان على المائدة وشمعتان عند المدفأة. ثم رأيت الكلب "بايلوت" وقد رقد يستمتع بالدفء في سكون واستسلام، وإلى جانبه رأيت "آديلا". أما مستر "روشستر" فكان مضطجعًا على أريكة، وقد بسط ساقيه على خشبة وراح ينظر في تأمل إلى "آديلا" و"بايلوت".. فتبينت فيه نفس الشخص الذي قابلته في الطريق.. بحاجبيه وجبينه وشعره وأنفه الذي يضفي عليه لونًا من الجمال، وذقنه الذي ينم عن صلابة في الرأي، وكانت جميع قسماته جامدة متجهمة. أما قوامه فكان متناسقًا رياضيًا متوسط الطول.

ويبدو أن مستر "روشستر" كان مشغول التفكير، فلم يفطن إلى دخولنا إلا بعد أن سمع مسز "فيرفاكس"

– مس "إير" يا سيدي..

ولم يحول مستر "روشستر" وجهه عن النظر إلى "بايلوت" و"آديلا" واكتفى بأن قال:

– فلتجلس!..

ولم أجفل أمام ذلك الجفاف في الاستقبال، بل أحسبني كنت أضطرب لو أنه قابلني بتودد. أما هذا الجفاء فيترك لي حريتي، ولا يلزمني بتكلف أي شيء مما درج الناس عليه على سبيل المجاملة وجلست صامتة أترقب خطوته التالية

باستطلاع هادئ. ولكنه ظل جامدًا صامتًا، فاضطرت مسز "فيرفاكس" إلى القيام بمهمة الحديث.. فكان حديثًا مما تعود الناس أن يلغطوا به في المناسبات الاجتماعية. وراحت تتقرب إليه بالحديث عن إرهاقه نفسه طول النهار، وعن إصابة ساقه التي لا شك تسبب له آلامًا يتحملها بجلد وشجاعة. ولكن مستر "روشستر" تلقى كلامها بتجاهل تام، ولم يفتح فمه إلا كي يطلب الشاي.

وشرب الشاي وهو صامت.. وكان بين الحين والحين يحدجني بنظرة فاحصة يغلب عليها التجهم والصرامة. ولما انتهى من احتساء الشاي، ورفعت الخادمة الأدوات، قال لي بإيجاز:

- اجلسي قريبًا مني..

وفعلت ما طلبه مني وأنا صامتة. وتبعتني "آديلا" لتجلس في حجري كعادتها، بيد أنه زجرها وطلب منها أن تلعب مع الكلب. فلم يسع الصغيرة إلا أن تطيعه كما عودها. وأما مسز "فيرفاس" فكانت جالسة في ركن بعيد منصرفة إلى حبك الصوف.

وبدأ مستر "روشستر" الحديث:

- كم مكثت هنا؟..

- نحو ثلاثة أشهر يا سيدي..

- ومن أين أتيت؟..

- من معهد "لوود"..

- ذلك المعهد الخيري؟..

- هو بعينه يا سيدي..

- وكم سنة أقمت هناك؟..

- ثمانية أعوام يا سيدي..

- يا لها من مدة مديدة في ذلك المكان المنقطع عن الحياة! أليس لك أهل؟..

- لا أهل لي..

- ووالداك؟..

- ماتا عني وأنا في سن لا تسمح لي بتذكر شيء عنهما..

- ولكن أليس لك أقارب آخرون من العمومة أو الخئولة؟..

- ليس لي أحد..

- ولا دار؟..

- ولا دار لي..

- وأخوتك؟..

- أنا منقطعة لا أخوة لي..

- كيف التحقت بالعمل هنا؟

- نشرت إعلانًا في الصحيفة فجاءني رد من مسز "فيرفاكس".

- ألم تكن لك صلة بالمجتمع من قبل؟..

- لم تكن لي صلة إلا بمن في "لوود" من تلميذات ومعلمات، ثم بمن في "ثورنفيلد".

- وقراءاتك؟..

- لم تضع الظروف في طريقي إلا القليل المحدود الجوانب من ألوان الثقافة والمعرفة.

- ما أشبه حياتك بحياة الراهبات، وأخالك تعرفين من شئون الدين الشيء الكثير فإن "بروكلهيرست" المشرف على "لوود" من رجال الدين.

- إنه من رجال الدين فعلاً يا سيدي..

- وأحسبكن هناك شديدات الإعجاب بهذا الراعي الصالح، شأن جميع الراهبات اللواتي لا يعرفن من الرجال إلا راعيهن!

- بالعكس يا سيدي!

- عجبًا! هذه أول مرة أسمع براهبة ليست متيمة براعيها!

- الحق أنني كنت أبغض مستر "بروكلهيرست". ولم يكن هذا البغض استثناء من القاعدة العامة بين الفتيات في "لوود". فهو رجل متغطرس قاس كان يسومنا العذاب، ويقتر علينا تقتيرًا يفوق التصور.. فكنا فريسات للجوع – معظم الوقت – وللبرد وسوء الكساء. ويفرض علينا مواعظه المملة كل أسبوع، ويفرض علينا قراءات ليلية في مؤلفات يختارها بنفسه لا تتحدث إلا عن الموت والجحيم والأبالسة.. بحيث صار النوم بالنسبة لنا مخاطرة وعذابًا:

- وكم كانت سنك عندما دخلت ذلك المعهد الخيري؟

- كنت في العاشرة..

- وقضيت هناك ثمانية أعوام.. فمعنى ذلك أنك الآن في الثامنة عشرة؟

- هذا صحيح يا سيدي!

- وهذا فائدة أخرى لعلم الحساب! فلولا ذلك العلم الجليل ما استطعت معرفة حقيقة عمرك. فوجهك من النوع الذي يصعب معه تخمين العمر الحقيقي. ولكن ماذا علموك هناك؟ هل علموك العزف؟

- إلى حد ما!

- مرحى! هذا رد حصيف لأنه يلتزم الجانب المأمون! ستجدين في قاعة المكتبة معزفًا.. فخذي معك شمعة واجلسي إليه ولا تغلقي الباب، ثم اعزفي أي شيء مما تعلمته هناك.

ولبيت رغبته.. ولكني لم أعزف إلا بضعة أنغام حتى سمعته يصيح:

- حسبك! مستواك في العزف أقل مما يجب.. شانك في ذلك شأن سائر من تعلمن في مدارس إنجليزية!

وعدت إليه من غير أن أعلق على رأيه بشيء، فقال لي:

- أطلعتني "آديلا" على رسوم زعمت أنها من صنعك. فهل هي من صنعك وحدك حقًا، أم عاونك فيها احد ممن تولوا تعليمك؟!

فقتل بشيء من الحدة:

- طبعًا لم يساعدني فيها أحد!

- آه! هذه مسألة حساسة بالنسبة لك! أريني على كل حال تلك الرسوم. ولكني أنبهك قبل أن تأتيني بها إلى أنني خبير بدرجة تسمح لي بتمييز أثر الأيدي المختلفة في رسم الخطوط.

– سترى وتحكم بنفسك يا سيدي..

ولما أحضرت مجموعة من الرسوم أخذ يمعن النظر في كل رسم منها على حدة. وقال:

– الآن أستطيع أن أقول أن هذه الرسوم جميعًا من صنع يد واحدة حقًا ولكن يبقى أن نعرف أن هذه اليد هي يدك أنت!

– هي يدي فعلاً..

– ولكنها صور لم توسم عفوًا، بل كان لا بد فيها من الروية وإعادة النظر.. فمتى اتسع أمامك الوقت لهذا التفرع؟

– لم يكن عندي عمل أثناء الأجازات في "لوود". فكنت أملأ فراغ وقتي بالرسم..

– ومن أين استوحيت هذه الرسوم؟

– من ذهني..

فعاد إلى الأوراق يقلب النظر في الرسوم واحدًا بعد الآخر. ثم سألني فجأة:

– هل كان انصرافك إلى رسم هذه اللوحات مصدرًا لشعورك بشيء من السعادة؟

– بل كانت مصدرًا أضخم سعادة شعرت به في حياتي!

- أميل إلى تصديقك، لأني أحسب أنك لم تعرفي من السعادة إلا جوانب محدودة جدًا. ولكن ألم تعري بشيء من الضيق لتفاوت بين ما في نفسك من الإحساسات والتصورات وبين ما تستطيعه يدك؟

- بل كان هذا مصدر عذاب شديدي لي.. ولكنه عذاب لا يخلو من لذة لاقترانه بالمجاهدة والمحاولة المرة بعد المرة في سبيل تحقيق جمال غير محسوس.

- هذا واضح ولا سيما في صورة واحدة على الأقل أعجب كيف وفقت إلى رسمها تلميذة صغيرة بادئة في ذلك الفن.

وفجأة أيضًا تغيرت لهجته ونظر في الساعة وقال بخشونة:

- لقد تأخرت "آديلا" عن نومها!

وأومأ بيده شأن من يطلب منا الانصراف بلا إبطاء لأن صدره ضاق بوجودنا، ولم تعد له طاقة بالتحدث إلينا.. فجمعت أوراقي، وانحنيت له عن بعد أنا ومسز "فيرفاكس". وقبلته "آديلا" قبلة بدا عليه أنه يستسلم لها على مضض وخرجنا. فلما أوت "آديلا" إلى فراشها ذهبت كعادتي كل ليلة إلى حجرة مسز "فيرفاكس" وتحدثنا مليًا حول طباع مستر "روشستر". وصارحتها بدهشتي من فظاظته وتقلب مزاجه. ولكن السيدة الطيبة العجوز أخذت تلتمس له المعاذير بصورة مبهمة وتشير من طرف خفي إلى ذكريات عائلية مؤلمة تثقل وجدانه. فقلت لها متعجبة:

- ولكني فهمت أنه يعيش وحيدًا وليست لها عائلة..

- إنه هكذا فعلاً في الوقت الحاضر. ولكن في الماضي كان له أقرباء.. وكان له أخ أكبر مات منذ سنوات. وهذا الأخ الأكبر كان هو سيد "ثورنفيلد" إلى تسع سنوات، فلما مات ورث عنه كل شيء.

- أتعنين أن تعلقه بهذا الأخ الأكبر من الشدة بحيث لم يطق فراقه، ولم تستطع السنوات التسع أن تتغلب على فداحة المصاب؟

- لا أعتقد أن هذا هو الوضع بالضبط.. بل لعل العكس هو الأصح، فالمرحوم مستر "رولاند" كان شديد التحامل على أخيه الأصغر "إدوارد". فغبنه في جانب كبير من ميراثه، كما كان سببًا في إيغار صدر أبيه عليه قبل مماته.. فأدى هذا إلى قطع الأسباب بين الأخوين. وظل مستر "إدوارد" يجوب البلاد، وهو في حالة غضب وحقد. إلى أن مات أخوه فجأة بلا وصية.. فآلت الثروة كلها إليه، ومع ذلك لا تطاوعه نفسه على البقاء هنا طويلاً لأن البيت القديم يذكره بكل أشجان الماضي.

وأحسست أن مسز "فيرفاكس" لا تتكلم بصراحة كافية عن المآسي الخفية في حياة مستر "إدوارد روشستر". وأحسست أيضًا أنها تتحرج من الإفصاح أكثر مما فعلت. فرأيت من اللياقة ألا أحرجها بمزيد من الاستفسار.

***

وكان لقائي بمستر "روشستر" في الأيام التي تلت ذلك قليلاً، لأنه كان في الصباح يستغرق في أعماله. وبعد الظهر كان يفد إلى القصر بعض الزائرين، ويتناولون مع مستر "روشستر" العشاء في كثير من الأحيان. ولما زال أثر التواء قدمه في ذلك الحادث، وأصبح قادرًا على امتطاء جواده، صار يخرج في أوقات كثيرة ولا يعود إلا في وقت متأخر من الليل..

وبطبيعة الحال، لم يكن يستدعي أحدًا لمقابلته، حتى "آديلا".. فكنت لا أراه إلا مصادفة في إحدى الردهات أو على الدرج. فكان لا يعيرني التفاتًا، أو يكتفي بإيماءة خفيفة، أو نظرة خاطفة.. وإذا تلطف رسم على شفتيه نصف

ابتسامة. بيد أن ما تبدى لي أنه جفوة لم يترك أثرًا ولم يحز في نفسي، لأنني أعلم أن لا شأن لي في ذلك...

ودعاني ذات ليلة إلى لقائه، بعد أن فرغ من تناول العشاء مع جماعة من ضيوفه لم يخرج معهم عند انصرافهم مبكرين لحضور اجتماع هام. وقد تخلف عن الخروج لأن الليلة كانت مطيرة.. وقبل استدعائي لمقالته، كان قد طلب حافظة أوراقي.. ولعله كان يرغب في استعراض محتوياتها.

وكان عند دخولي جالسًا على مقعد فخم.. وقد بدا مستر "روشستر" أكثر بشاشة وأقل تجهمًا عما رأيته في المقابلة السابقة، فكانت تحلي شفتيه ابتسامة، وتتألق عيناه ببريق جذاب ينم عن صفاء وانشراح.. بيد أن خيوطًا من العبوس الطفيف بدت عليه في جلسته. وكان لا يأبه لوهج النار وهو يلفح صفحة وجهه، وكأنه لا يؤثر في عينيه الواسعتين البديعتين ينعكس من أعماقهما شعور يوحي باللطف. وظل شاخصًا للنار بضع لحظات، استدار بعدها والتفت إلي بغتة فرآني أنظر إليه فقال:

- مس "إير" أراك تمعنين النظر في!.. أترينني جميل المحيا وسيمًا؟

وكان الأجدر بي تجاه هذا السؤال أن أجيب إجابة مهذبة، غير شافية، شأن ما يقال عند المجاملة. ولكني أجبت وأنا لا أدري كيف خرجت الكلمات من فمي:

- لا أحسب الأمر كذلك يا سيدي!..

ثم رأيته يقول:

- آه.. إنك نمط شاذ.. فمثلك مثل الراهبة اليافعة في رزانتها وغرابة أحوالها، إذ أراك تجلسين وقد بسطت يديك إلى الأمام، وأخذت عيناك تنظران إلى

البساط لا تتحولان عنه، فإذا تطلعت إلي انبعث منهما بريق ثاقب. وقد ظهر ذلك جليًا منذ لحظة. وإذا سئلت يكون ردك قاسيًا أو جافًا.. ماذا تعنين بما قلت؟

– معذرة يا سيدي.. إنني صريحة.. وكان في الإمكان أن أتهرب بطريقة ما من الإجابة، أو أن أرد بجواب أيًا كان.. كأن أقول: "غني عن التعريف أن الأذواق تتباين".. أو "أن الجمال أمر غير ذي بال"..

– إنك بذلك تسددين إلي طعنة أشد إيلامًا من ردك الأول، وأن كنت تتوخين التخفيف عن نفسي.. أرجو أن توضحي لي ما ترينه في من عيوب.. ألست كأي رجل آخر مكتمل الأعضاء؟

– أرجو أن تسمح لي أن أسحب ردي الأول يا سيدي، فقد أفلت لساني ولم أقصد الإساءة إليك أو إيلامك..

– وهو كذلك.. إنني أقبل اعتذارك هذا.. ولكن أرجو أن تحدثيني في صراحة.. ألا يعجبك جبيني؟

وأزاح بيده شعره المتموج، فكشف عن جبين ينم عن التوقد والذكاء وإن لاح فيه أنه لا ينبئ عن حب الخير. وعاد يسألني:

– هل أنا ساذج إلى حد البلاهة؟

– لا تقل هذا أيها السيد.. ولعلك تنعتني بالقسوة إذا سألتك مثلاً: هل تميل إلى حب الخير؟

– لقد وقعت فيما وقعت فيه أولاً.. طعنة أخرى أتلقاها منك! كلا يا مس "إير".. إنني لا أميل إلى حب البشر أو الإنسانية. ولكن بين جنبي ضميرًا،

وكان لي فيما مضى قلب عطوف. وعندما كنت في مثل سنك كنت مرهف الحس، أعطف على الصغير أو المحروم الذي ليس له من يعوله ويرعاه أو من تعثر به الحظ. ولكن القدر وقف لي بالمرصاد فطعنني وسحقني، وإني لأفخر الآن بأني غدوت صلد القلب متحجرًا..!

***

وما أن انتهى من كلامه حتى نهض واقفًا واتكأ على رخام الموقد، فصار أكثر وضوحًا أمامي بوجهه وصدره العريض.. وأنه خليق بان يصفه الناس بالدمامة. على أن هيئته كانت تنم عن كبرياء متأصلة، وعدم اكتراث بالمظهر، واعتداد يوحي إلى الناس بالثقة فيه. وسمعته يقول:

– أميل الليلة إلى أن أكون ودودًا محبًا للاندماج مع الناس، ولهذا طلبت حضورك.. لأنني لم أجد فيما حولي بالحجرة ما يؤنسني أو يشبع رغبتي هذه، حتى ولا في كلبي الأثير "باليلوت"، لأنها جميعها لا تتكلم.. وحتى "آديلا" وهي طبعًا تفضل هؤلاء إلا أنها لم تصل إلى الدرجة التي تبعث الإيناس وتمتع في المسامرة.. وبالمثل مسز "فيرفاكس"! أما أنت فأنني أشعر أن في مقدورك لو أردت أن تكوني رفيقة طيبة، ولو أنك كنت كاللغز في نظري عندما دعوتك في أول ليلة. وقد غبت عن بالي لانهماك أفكاري بمشاغل أخرى. وقد قر عزمي في ليلتي هذه أن اطرح جانبًا كل ما من شانه أن يضايقني ويبعث الملل أو السآمة، وأن أسعى إلى ما يدخل البهجة على نفسي. والآن حدثيني لتزداد معرفتي بك توثقًا...!

فابتسمت دون أن تتحرك شفتاي بكلمة.. فعاد يستحثني:

– لماذا تلوذين بالصمت؟.. تكلمي!

- فيم يا سيدي؟..

- فيما يعجبك من ضروب الحديث.. إنني أترك لك اختيار الموضوع..

وللمرة الثانية لذت بالصمت، ورحت احدث نفسي أنه إذا كان يريد أن أتحدث لمجرد الحديث، فإن ذلك شيء تافه..

- هل أصابك البكم يا آنسة؟

ولم أرد.. فمال برأسه نحوي، ونفذ إلى أعماق عيني بنظرة ثاقبة وقال:

- لعلك متضايقة، وتتعمدين عدم الكلام، لأنني طلبت إليك ذلك بطريقة غير مهذبة.. سمجة. لذلك أستمحيك العذر يا مس "إير". إنني أريد أن أزيل الكلفة، ولا أحب أن اعتبرك أقل مني منزلة.. لذا أنكر في نفسي صفة التعالي عليك، إلا بما يقتضيه الفارق الكبير بين عمرينا.. مما يجعلني ذا خبرة أوسع وأكبر..

- كم أتمنى لو استطعت تسليتك يا سيدي.. وأنى لي أعرف أي الموضوعات يسرك الحديث فيها.. افتح لي الباب وسأجتهد في الرد..

- أرجو أن تخبريني، في صدق وصراحة: ألست معي في أن الحق في أن أحس أن هناك فارقًا بينك وبيني.. لأنني من ناحية في سن والدك، ومن ناحية أخرى صقلتني التجارب واندمجت مع أناس من شعوب مختلفة.. وقطعت نصف الدنيا في الرحلات، بينما ركنت أنت إلى الاستقرار والهدوء مع أناس قلائل في مكان واحد!

- هو كذلك يا سيدي.. كما تشاء..

- إنه جواب أحرى بالإثارة، فأنت تراوغين.. هلا أجبت بطريقة محددة صريحة؟

فلم يسعني إلا أن أبتسم، وأنا أقول في نفسي أن مستر "روشستر" رجل غريب الأطوار، فقد غاب عن ذهنه أنه ينقدني أجري الباهظ، فيجب علي أن أمتثل لأوامره. وحينا رأى ابتسامتي قال على الفور:

- جميل جدًا أن تطالعيني بابتسامة عذبة.. اقرنيها بالكلام..

- جال بخاطري يا مستر "روشستر" أن قليلين من العلية يجشمون أنفسهم عناء التساؤل عما إذا كان أتباعهم يتضايقون من تلقي أوامرهم!

- هل توافقين على رفع الكلفة والتجاوز عن بعض العبارات دون أن تري في ذلك نوعًا من جرح الشعور؟

- إن قدر المعرفة الذي حصلت عليه يجعلني لا أخطئ التمييز بين رفع الكلفة وبين الوقاحة. ومن البديهي أنني أفضل الأولى، أما الثانية فيأباها الحر الأبي وإن تقاضى بسببها أجرًا باهظًا!

- هذه مغالطة.. لأن الناس، حتى من يكونون منهم أحرارًا يتقبلون أي شيء مقابل أجر! أرجو أن تقصري حديثك عن نفسك فقط، وتتجنبي الكلام على المجموع الذي لا لعم لك له.. بيد أنني أهنئك على جوابك هذا رغم عدم دقته، لأن المادة التي تخيرتها تنطوي على الصراحة والجرأة والصدق. وهذه الخصال نادرة، لأن الغالب الأعم هو المداراة والتملق أو الغباء بسبب ضيق أفق العقل.. وواحدة في كل ألف لديها ما لديك من جرأة وصراحة..

- ربما كنت على صواب في ذلك..

ورأيت من الأفضل عندئذ أن أنهض، فقمت وقد استقر في رأيي أن من الحماقة أن أسترسل في حديث لاح لي أنني أتخبط فيه. وتراءى لي مستر

"روشستر" شخصية عميقة يتعذر النفاذ إلى أغوارها، وانتابني شعور غامض بالقلق. وسمعته يقول:

- أذاهبة أنت؟..

- نعم.. لقد تأخرت "أديلا" عن موعد نومها، وأريدها أن تنام الآن..

- هل رأيت في حديثي غموضًا يستعصى عليك، فخشيت من ذلك؟

- إنني لست خائفة.. والحقيقة أنني في حيرة لأن أسلوبك مبهم يا سيدي.

- لا تراوغي.. قولي لي أنك خائفة لأن إيثارك لنفسك يوحي إليك بالخشية من الزلل!..

- من هذه الناحية أنت على حق، وكلن ليست بي رغبة في حديث تافه!

- إنك رغم ما تقولين جد خائفة، وكنت قد حسبتك جريئة فلم أفطن إلى شعورك بالخوف لأن رزانتك وثباتك وهدوءك حالت دون الكشف عن مكنون شعورك!.. إنني لا أراك تضحكين وإن كانت أسباب ذلك متاحة لك، وأنت لست جادة أو عابسة بطبعك بأكثر مما أنا فظ أو قاس بطبعي.. ويبدو أنك ما زلت متمسكة بتقاليد "لوود" وأنها تركت في نفسك أثرًا إلى حد جعلها تظهر في قسمات وجهك، وغرست فيك خفوت الصوت وسكون الأطراف، وجعلتك تستشعرين الرهبة من شخص يمكن أن تضعيه في مركز الأخ أو الأب.. فأنت تحت تأثير هذه الرهبة لا تضحكين وتتكلمين بقدر ولا تتحركين في حرية، بيد أنك في وقت قريب ستكونين على سجيتك معي. في ذلك الوقت ستتغير نظراتك وحركاتك التي تحبسينها الآن.. وستسيرين حياتك على نمط جديد لا عهد لك به، فإنني ألمح في أعماق عينيك بين الحين والحين نظرة طائر عجيب حبيس في قفص.. فهو أسير يساوره القلق، ولكن عزيمته قوية. ولو أطلق من سجنه حلق في عليين.. فإذا تركت نفسك على سجيتها خلقت من نفسك شخصًا آخر أعظم وأجل شأنًا..

الفصل التاسع

الزوجة الخائنة

وتصادف أن قابلني روشستر بعد ظهر أحد الأيام في الحقل مع "آديلا" التي كانت تمرح وتداعب "بايلوت"، فطلب مني في لطف أن نسير معًا بعض الوقت في طريق تقوم على جانبيه أشجار باسقة، أضفت عليه سحرًا يغري الإنسان بالنزهة فيه.. ورأيته يفضي إلي بسر من أدق خصوصياته:

– إن "آديلا" يا مس "إير" ابنة "سيلين فرنس" راقصة الأوبرا الفرنسية ذائعة الصيت، عشقتها في تفرة ما من حياتي وأحببتها حبًا ملك علي كل مشاعري، وقد بادلتني نفس العاطفة بنفس العنف، حتى خيل إلي رغم عدم تناسق شكلي أنها عشقت في القوام الرياضي دون نظر إلى جمال أو رشاقة...!

وتوقف عن الكلام قليلاً، ثم استطرد يقول:

– وقد أخذني الغرور لهذا الإيثار الذي حظيت به من فاتنتي، فجعلتها تقيم في قصر، ووضعت تحت أمرتها حاشية من الأتباع والخدم، وأهديتها عربة وأغدقت عليها ثمين المجوهرات وفاخر الثياب. وبدت الحياة في نظري ممتعة.. وشيئًا فشيئًا سارت بي الأمور نحو الإفلاس، فكان من الطبيعي أن أصل إلى المصير المحتوم الذي يستحقه حمقى العاشقين! وقصدت "سيلين" في إحدى الأمسيات الحارة ولم تكن تتوقع أن أزورها، فوجدتها غائبة عن القصر. وكان قد أنهكني التعب من طول التجوال في باريس، كعبة الفن والجمال، فلذت بمخدعها أنتشي بهوائها المشبع بعبيق أنفاسها. وكان بي ولع شديد بالحلوى في تلك الأيام الخوالي، فرحت أستطيب التهام قطع الشيكولاتة في نهم حينًا،

وأتسلى بإشعال سيجارة وتدخينها حينًا آخر.. وأنا أراقب الرائحين والغادين المتجهين إلى الأوبرا. وما هي إلا لحظات حتى لمحت عربة أنيقة يجرها جوادان أصيلان، ولم أجد عناء في أن أتبين فيها العربة التي أهديتها "لسيلين". ودار بخلدي أنها كانت في طريق عودتها إلى القصر، فاشتد خفقان قلبي وقد نفد مني الصبر وأضجرني طول الانتظار وأنا متكئ على الشرفة.. وكما توقعت وقفت العربة أمام باب القصر، ثم هبطت فاتنتي في معطفها الفاخر رغم حرارة الأمسية، وقد عرفتها من قدمها الصغيرة وهي تضعها في رشاقة وخفة على سلم العربة. وهالني أن أرى شخصًا يهبط من العربة خلفها يرتدي معطفًا أيضًا.. وكان لهبوطه من العربة صوت مسموع، وفي لحظة دخل من باب القصر.

ثم رأيت مستر "روشستر" يصرف على أسنانه، ويلوذ بالصمت.. ويتوقف عن السير، وقد أخذ يضرب الأرض بقدميه في عصبية، كما لو كان قد استبد به أمر بغيض شل حركته فلم يتقدم خطوة. وكنا حينئذ أمام القصر، وسرح ببصره في شرفاته ورمقها بنظرة لم يغب عن ذهني مغزاها.. نظرة مفعمة بالألم والخزي والغضب والكراهية التي كانت تضطرم في أغوار عينيه. وكان صراعه مع نفسه رهيبًا، وسرعان ما انبثق شعور آخر ينم عن إرادة وحزم وصلابة، فإذا به يستكين وقد هدأت مشاعره الثائرة، وتغيرت أسارير وجهه.

وفي هذه اللحظة، أقبلت "آديلا" تجري أمامه، فنهرها في خشونة وصاح:

– ابتعدي عن هنا يا "آديلا"... أو ادخلي القصر...

ثم استأنف السير وقد لاذ بالصمت.. فدفعني الفضول إلى أن أذكره بالنقطة التي توقف حديثه عندها:

– وماذا فعلت يا سيدي عندما دلفت "سيلين فارنس" من باب القصر.. هل غادرت الشرفة؟

ومر بذهني أنني تسرعت، وأن الوقت لم يكن مناسبًا لمثل هذا السؤال، وأنه سيقذفني برد يجرح شعوري.. بيد أنه أدهشني أن أراه ينتبه من ذهوله وعبوسه، ويشخص إلي بعينيه، ثم يقول:

– آه.. إنني نسيت "سيلين".. حسنًا.. سأقص عليك ما تلا ذلك من أحداث..

وبعد فترة تفكير قصيرة، كأنه كان يستجمع فيها شتات ذكرياته، عاد يقول:

– عندما وجدتها تدخل القصر وبرفقتها ضابط شاب، دارت بي الدنيا.. واستشعرت غيرة قاتلة، تمثلت في صورة حية رقطاء تنهش قلبي وتهصره.

ثم عاد وتوقف عن الاسترسال في الحديث، وقد ارتسمت على وجهه أمارات العجب.. ثم استطرد قائلاً:

– إنني لا عجب من نفسي، كيف اصطفيتك دون أي إنسان آخر لأفضي إليك بهذه الأسرار الدقيقة!؟ وأدعي للعجب من ذلك أن أراك تصغين إلي في هدوء كأنني أروي لك أخبارًا عابرة.. بيد أن عجبي يتضاءل حين أذكر أنك جلبت علي الرزانة والحذر لتستمعي إلى خفايا الأسرار..

وصمت هنيهة، ثم استأنف الرواية:

– خطر لي أن أبقى في الشرفة مختفيًا إلى أن يدخلا حجرة نومها.. فأسدلت الستائر على باب الشرفة، وتركت فرجة بينها تسمح بإلقاء النظر. وأغلقت مصراعي باب الشرفة إلا من فرجة أخرى أسترق منها السمع.. لأني

صممت على أن أسمع بأذني ما يتهامسان به من النجوى في خلوة غرامهما، وأن أرى بعيني ذهابهما في سقطتهما إلى آخر الشوط.. ولم يخب ظني، فقد دخل العاشقان مباشرة إلى حجرة النوم دخول من تعودا الأقدام على تلك الخطوة.. فنضبا عنها معطفيهما، وتجلت "سيلين" في اوج زينتها وبهرجها.. رافلة في الدمقس الذي اقتنيه لها، مختالة في الأحجار الكريمة التي استنزفت كل ثروتي في سبيل إتحافها بها. أما صاحبها فتكشف المعطف حين نضاه عن ضابط ممشوق القوام فيه نعومة ورخاوة. وهو أحد أبناء النبلاء المشهورين بانحلالهم وخلوهم من مزايا الرجولة ومزايا الشرف.. حتى أنني كنت إذا جمعتني به ظروف المجتمع، أستنكف من مخالطته ولا أقتصد في إظهار احتقاري له. فما أن عرفت في ذلك الفتى الخرع غريمي في حبها حتى خمدت جذوة الغيرة في قلبي، وحل محلها شعور شديد بالتقزز والاحتقار.. فما قيمة صيد تطع فيه الجرذان؟ وما الذي يغري بهذا الصيد الأسد وهو ملك الغاب!؟ ولكني لم اخل مع الاشمئزاز من الغضب الشديد لأنها باعت هواي بهذا الثمن البخس، وغررت بي ذلك التغرير الكبير.. وكتمت ما بي لأرى وأسمع، فإذا حديث غث ليس فيه صدق ولا أصالة. وإنما هو من نوع العبارات المحفوظة السطحية التي يتبادلها الرقعاء وليست لها جذور في نفوسهم. ثم جرى ذكري على لسنهما فتباريا بأسلوبهما السوقي في رميي بأقبح النعوت والألفاظ. وكانت "سيلين" أكثر اندفاعًا في اختلاق ما أسمته نقائصي. ولم تقتصد في نعتي بالدمامة والقبح، وكان عهدي بها من قبل أن تطري جمالي ولا تناديني إلا برجلها الوسيمّ ولذا لفت نظري فيك أنني عندما سألتك عن رأيك في شكلي لم تترددي في مصارحتي بأنك تجدينني بعيدًا عن الجمال والوسامة.. فارتاحت نفسي لإحساسي بأنني أمام امرأة لا تكذب ولا تخدع..

وفي هذه اللحظة أقبلت "آديلا" تجري نحونا، وقالت:

– إن ناظر الزراعة يلتمس الإذن في المقابلة..

فصرفها ثم قال لي:

– باختصار.. لم أطق صبرًا ودفعت باب الشرفة وضبطتهما متلبسين. وأعلنت "سيلين" بالقطيعة.. وألقيت في وجهها بحافظة نقودي على أن تخلي القصر في اليوم التالي مباشرة.. فبكت واسترحمت، ولكني كنت قد شفيت من حبها فلم أكترث للضجة التي أثارتها بل التفت إلى شريكها في الخيانة وحددت معه موعدًا للمبارزة في بكرة الصباح. ولم يكن في وسع ذلك الضابط الفيكونت أن يتراجع عن مبارزتي. وتم اللقاء في غابة بولونيا، وأصبته برصاصة في ذراعه، ونفضت من أمر الخائنين يدي.. أو هكذا خيل إلي، ولكن القدر رأى رأيًا آخر في أمري، لأن "آديلا" كانت قد ولدت قبل ذلك اليوم بنحو ستة أشهر، وفي وقت كانت علاقتي بأمها "سيلين" في ذروتها.. أو ل كان تقولي أن غفلتي كانت في ذروتها. وعند مولدها أقسمت لي "سيلين" أنها من صلبي، ولكن الحقيقة لا يعلمها إلا الله. ولا أستطيع أن أقطع في هذه المسألة برأي يستريح إليه عقلي وضميري، رغم أنني لا أتوسم في ملامحها شبه واحد بي!.. وفوجئت بهذه الغادرة بعد سنوات من هجري لها تترك هذه الصغيرة وحدها وتفر إلى إيطاليا مع عشيق جديد من أهل الفن. وترامى إلى سمعي أن حالة الفتاة في منتهى السوء، فرق لها قلبي وجئت بها من باريس لتتربى هنا في ريف إنجلترا تربية نقية بعيدة عن الانحلال. وأنت تعلمين ما حدث بعد ذلك من حضورك للإشراف على تعليمها، ولكني رأيت من واجبي نحوك وأنت الصريحة المستقيمة أن أصارحك بجميع الظروف. ومن حقك طبعًا وقد عرفت أنها طفلة لم تولد في فراش الزوجية الشرعي، وأن أمها راقصة باريسية.. أن تحددي موقفك من قبول العمل أو

التنحي عنه.. ولست أستغرب أن تطالعيني بعد فترة وجيزة بأنك وجدت عملاً آخر.

– وما ذنب "آديلا" فيما اقترفته أمها أو تورطت فيه أنت؟!.

ثم أني لا أخفي عليك أن هذه الظروف قد زادت من جدارتها بعطفي وحناني، لأنها حرمت من حق كل طفلة في حنان الأم ورعاية الأب.. إن "آديلا" لعمري لهي أحرى بعنايتي من أي فتاة مدللة، من بنات الثراة، تحتقر كل جميل وتكره العلم والمعلمة!

– إن كانت هذه هي نظرتك إلى الأمور فليس عندي ما أقوله لك.. وأنت حرة في اختيارك، والآن ينبغي أن أسرع بالذهاب..

وبقيت بعد انصرافه، فقضيت برهة ألاعب "آديلا".. وأجلستها في حجري، ورحت أبدالها الحديث.. فقد أحسست بقلبي يتفتح لها. ورحت دون أن ادري أتأمل ملامحها، وهي تتكلم في خفة وسطحية لا بد أنها ورثتهما عن أمها.. فلم أجد فيها شيئًا يمكن أن يثبت بنوتها لمستر "إدوارد روشستر"!

***

واستبد بي الأرق في تلك الليلة، فلم أستطع النوم بعد أن أويت إلى فراشي وأطفأت الشمعة.. بل راح فكري يسبح، كما راح خيالي يستعرض كل حركة وكل إشارة بدرت منه.. وأطلت التفكير في نظرته الغامضة حينما توقف عن السير ليقول لي أنه يتمنى أن يحظى براحة البال والطمأنينة في "ثورنفيلد".

ورحت أتساءل وقد استبدت بي الحيرة في أطوار ذلك الرجل الغامض:

– لماذا لا تتوفر له أسباب السعادة؟.. ترى ماذا يحول دون ترتيب حياته بالإقامة في قصره؟!.. وهل سيرحل عنه إن عاجلاً أو آجلاً؟

لقد سمعت مسز "فيرفاكس" تقول لي في معرض الحديث أن مستر "روشستر" قلما يطيل المكث في القصر إلى أكثر من عشرة أيام، يصرف فيها شئون المزرعة وما إلى ذلك. وانقضى على بقائه حتى الآن ما يقرب من شهرين، وقد أضفى وجوده جوًا مستطابًا.. فلو أنه رحل لكان ذلك مبعث كآبة وملل، ويخيل إلي أن الأيام خاوية والحياة تافهة..

وبعد هذه الخواطر التي عشت فيها ردحًا من الوقت – لا أعلم إن كان طويلاً أم قصيرًا – لست أدري هل ظللت مستيقظة أم غلبني النعاس. وكل ما أذكره أنني تنبهت مفزوعة عندما تناهت إلى سمعي همهمة غامضة تبادر إلى ذهني أنها صادرة من الحجرة التي تعلو حجرتي.. فندمت لأنني أطفأت الشمعة، فقد كان الظلام مطبقًا.. وتحالفت على الهواجس فضعضعت طاقتي المعنوية. فهببت من فراشي أرهف السمع، بيد أن أصوات الهمهمة قد تلاشت، فرحت أعالج النوم. ولكني أحسست دقات قلبي تتلاحق في قلق، فزايلتني الطمأنينة.. وتناهى إلى سمعي رنين دقات الساعة الكبيرة تعلن الثانية. وسمعت في هذه اللحظة حفيفًا بباب غرفتي، كأن شبحًا يتحسس طريقه في ظلام الردهة.. فسالت بصوت مسموع:

– من بالخارج؟..

فلم أسمع سوى صدى سؤالي، فانتابتني رعشة خوف شملت كل كياني. وهدأ جأشي حين جال بخاطري أن "بايلوت" ربما أحدث هذا الصوت وهو في طريقه إلى باب غرفة سيده، وكثيرًا ما رأيته رابضًا هناك. فعاودت الرقاد، وساعد الصمت على تهدئة أعصابي.. وبدأت أشعر بالنعاس يداعب أجفاني. بيد أنني لم أذق طعم النوم في تلك الليلة، وطاف بي حلم ما لبث أن تبدد من أثر حادث أشاع الرعب في أوصالي، تمثل في ضحكة مكبوتة عميقة جهنمية، خلتها تنفذ

من ثقب باب غرفتي. وكان سريري قائمًا بحيث كان رأسه ناحية الباب وليس بعيدًا عنه، وأحسست كأن الضحكة بجانب السرير وأنها استقرت عند الوسادة، فنهضت مذعورة كمن أصابها مس من جنون.. وجعلت أتلفت حولي أجيل النظر هنا وهناك، وضاعف من هلعي أنني لم أر أثرًا لشيء، وبينما أنا على هذه الحال، انطلقت الضحكة الرهيبة فأدركت في هذه المرة أنها صادرة من خارج الألواح الزجاجية. ففكرت أن انهض عن الفراش واحكم رتاج الباب. ولكن خاطرًا آخر دفعني أن أصيح في عصبية لتوتر أعصابي:

– من هناك؟؟..

وسمعت صوت أنين.. وبعد لحظات طرق سمعي صوت خطوات في الردهة تتجه إلى سلم الطابق الثالث.. وكان قد أقيم باب يمنع الوصول إلى ذلك السلم، سمعته يفتح ثم ينصفق. وأعقب ذلك سكون شامل، وخمنت في نفسي:

– أهي "جريس بول".. تقمصها الشيطان؟!

وإزاء هذه الأحداث، صار من المستحيل أن أظل بمفردي... وتحتم علي أن أقصد مسز "فيرفاكس".. فالتفتت بمعطفي وشالي، وفتحت الباب بيد مرتعشة. ورأيت شمعة تضيء بالبهو بجانب الباب فوق البساط فأخذتني الدهشة، وزاد عجبي حين وجدت المكان امتلأ بالدخان.. فحاولت أن أعرف مصدره، وما لبثت أن تنبهت إلى رائحة حريق نفاذة تزكم الأنف..

وسمعت صوتًا ينبعث من باب حجرة مستر "روشستر" – وكان مواربًا – فلمحت الدخان يندفع منه في سحابات متدافعة.. فتبخرت من ذهني أفكاري، ونسيت أنني كنت في طريقي إلى مسز "فيرفاكس" وزالت من خيالي "جريس بول" والضحكة الجهنمية... ورأيت نفسي اندفع في سرعة وعنف إلى غرفة

مستر "روشستر"، فإذا بي أرى ألسنة من اللهب تتصاعد حول الفراش والستائر وقد أتت عليها النار. وفي وسط هذا اللهيب المستعر، رأيت مستر "روشستر" وقد استغرق في نوم عميق لا تبدر منه حركة وكأنه جسد مسجى.. فرحت أهزه بعنف وأصيح:

– قم يا سيدي.. استيقظ.. أفق.. !

وهالني أن كل ما بدر منه أنه تقلب في فراشه ثم غمغم.. إذ كان الدخان فقد أفقده الوعي فراح في غيبوبة..

ولم تكن أمامي فسحة من الوقت أضيعها، فالموقف جد خطير.. فقد امتدت النار إلى فراش السيد تتهدده بهلاك محقق. فأسرعت إلى الإبريق وإلى الحوض، وكانا مملوءين بالماء، فرفعتهما وصببت ما فيهما من الماء على الفراش والسيد. وهرولت إلى حجرتي، وعدت أحمل إبريقي فأفرغته هو الآخر... وتمكنت من إخماد النار..

وبعد قليل، أخذ مستر "روشستر" يسترد وعيه ويفيق شيئًا فشيئًا.. وطن في أذنه أزيز النار حين يطفئها الماء، وسمع صوت تحطم الإبريق الذي طوحت به، وأحس بقطرات الماء تبلله وقد صببته عليه عن قصد.. فأدركت على الفور أنه عاد إلى رشده وأفاق واستيقظ، فقد سمعته يتذكر عندما وجد نفسه مبللاً بالماء..

وخرجت من الحجرة على عجل، ثم عدت أحمل شمعة رأيتها في الردهة، ورأيته يجيل النظر فيما حوله في دهشة ويكاد لا يصدق ما يرى، وراح ينظر إلى الفراش الذي احترق وإلى الأغطية المبتلة.

– ماذا أرى؟.. من فعل ذلك؟..

فسردت على مسامعه في اقتضاب كل ما تراءى لي وتناهى إلى سمعي منذ أن أويت إلى فراشي: الضحكة الشيطانية التي سمعتها في البهو، وقع الأقدام الصاعدة إلى الطابق الثالث، الحفيف الذي مس باب حجرتي. وأخيرًا الدخان الذي ملأ الجو ورائحة النار التي قادتني إلى مخدعه.. ثم ما فعلته بعد ذلك من إطفاء النار وابتلال البساط والفراش.

ورأيته ينصت إلى كل كلمة وكل حرف قلته باهتمام ورزانة. وكلما ذكرت شيئًا، أرى أمارات القلق مقرونة بالدهشة تنطبع على محياه.

وظل صامتًا بعد أن أنهيت إليه بما في جعبتي.. فتكلمت أنا وقلت له:

– أتريد أن توافيك مسز "فيرفاكس"؟..

– وما الذي يمكن أن تفعل مسز "فيرفاكس"؟.. كلا.. دعيها تنعم بنومها..

– أنادي "ليا" إذن.. وأوقظ "جون" وزوجته؟

– لا تفعلي شيئًا من هذا.. اعتصمي بالهدوء. استعيني بعباءتي، لأنني أحسب الشال لا يوفر لك الدفء. واجلسي على هذا المقعد، وارفعي قدميك لتبعديهما عن البلل.. سأخرج لبضع لحظات ومعي الشمعة. انتظريني هنا حتى أعود، ولذي بالصمت.. سأصعد إلى الطابق الثالث فلا تستدعي أحدًا..

وخرج فاجتاز الردهة في خفة، وفتح الباب بحذر حتى لا يحدث صوتًا ثم أغلقه. وتركني وقد لفني الظلام، وأرهفت السمع فلم أسمع أي صوت. وانقضى وقت غير قصير، فبدأ السأم يتسلل إلي وشعرت بلفحات البرد. وخطر لي أن لا جدوى من بقائي، فهممت أن أنهض لأخرج ضاربة بأوامره عرض الحائط، وإذا بي أسمع وقع خطواته في الردهة وقلت لنفسي:

– أرجو أن يكون هو..

وكان هو فعلاً.. عاد شاحب الوجه، طبعت الكآبة على وجهه خطوطًا واضحة، ثم وضع الشمعة على المنضدة وقال:

– لقد عرفت كل شيء.. تمامًا كما قدرت..

– هل يمكن أن توضح لي الأمر؟..

فلم يرد على سؤالي.. بل وقف وقد عقد يديه، واطرق برأسه إلى الأرض. ومرت على ذلك دقائق، ثم قال في نبرة غريبة:

– غاب عن ذهني بعض ما ذكرتي لي.. هل ذكرت أنك رأيت شيئًا عندما فتحت باب حجرتك؟

– كلا يا سيدي.. رأيت الشمعة فقط على الأرض.

– قلت أنك سمعت ضحكة شيطانية عجيبة.. وأحسب أنك سمعت مثل هذه الضحكة من قبل؟..

– نعم يا مستر "روشستر".. سمعت ضحكة كهذه من قبل، وأخبرتني مسز "فيرفاكس" أنها ضحكة "جريس بول"، وقد وصفتها يومئذ بأنها إنسانة شاذة.

– هو هذا بالضبط.. لقد صدق ظنك. إنها فعلاً شاذة، بل غاية في الشذوذ.. سأتدبر الأمر. ومن حسن الحظ أن أحدًا سوانا لا يعلم بتفاصيل ما حدث الليلة. وعهدي بك انك رزينة، فلا تذكري شيئًا مما حدث لأحد على الإطلاق.

وبعد قليل عاد يقول:

- في وسعك أن تعودي إلى حجرتك.. وسألتمس أنا الراحة على إحدى الأرائك بحجرة المكتبة. الفجر على الأبواب، وسوف يصحو الخدم بعد ساعة أو ساعتين.

- طبت مساء يا سيدي..

وهممت أن أنهض لأرحل، فأخذته الدهشة لذلك وكأنه نسي أنه أشار علي منذ لحظة أن أعود إلى مخدعي، وقال:

- أهكذا بسرعة؟..

- ألم تقل يا سيدي أن في إمكاني الآن أن أعود؟

- أدون استئذان؟.. أو سماع كلمة تقدير وشكر وعرفان! ومد يده، فناولته يدي.. فامسك بها بإحدى يديه ثم أطبق عليها براحتيه، وقال:

- أنت صاحبة الفضل في إنقاذ حياتي.. وأنه لمما يبعث الشعور بالغبطة والامتنان أن أعترف لك بهذا الفضل العظيم، ولا يسعفني لساني أن أقول أكثر من ذلك. وما كنت أقبل أن يكون لأحد مهما كان فضل علي.. ولكن الأمر ليس هكذا بالنسبة لك، فإن ما طوقتني به عبء ضخم أنوء به يا "جين"..

وسكت بعد ذلك، وأخذ يتأملني بنظرات تجمع شتى المعاني، والكلمات تكاد تفلت من شفتيه. ولكنه بذل جهدًا ليحول دون ذلك فقلت له:

- طابت ليلتك يا سيدي.. وليس هذا فضلاً أستحق عليه شكرانًا..

الفصل العاشر

نزوة طارئة

كان الخوف مقرونًا بتلهفي إلى لقاء مستر "روشستر" يملأ نفسي في اليوم التالي لتلك الليلة الساهدة المفعمة بالأحداث.. وطغت علي رغبة ملحة في أن يحدثني، بيد أنني كنت أشفق إذا ما التقت عيوننا.. وكنت أظن أنه سيصحو مبكرًا، كما كنت أتوقع ظهوره ونشاطه بين لحظة وأخرى. ولم تكن حجرة الدراسة من الحجرات التي يرتادها، إذ لم يكن ثمة ما يدعو إلى ذلك. ولا أدري كيف مر بخاطري هاتف إنه سيجيء إلى تلك الحجرة في ذلك اليوم.. وكالعادة رحت أتناول فطوري، وما كدت أنتهي منه حتى تناهى إلى سمعي لفظ بالقرب من حجرة مستر "روشستر". ويبدو أن مسز "فيرفاكس" و"ليا" والطاهية أخذن يلغطن بحادث الحريق المشئوم، وتخلل الحديث ابتهالات إلى الله وشكرًا لرحمته وعنايته إذ حفظ السيد من الأذى، وإطراء لذكائه وحسن تصرفه حتى كتبت له السلامة والنجاة.. ومما سمعته أيضًا تمنيات بألا يصاب السيد ببرد أو مضاعفات من أثر الحادث ونومه بحجرة المكتبة.

وانتهى اللغط فسمعت حركة ناشطة بمخدع السيد، هي ولا شك عملية تنظيف المخدع وإزالة آثار الحريق، ثم إعادة تنسيقه. وعند الظهر كان المخدع قد استعاد مظهره السابق ونظامه المألوف فيما عدا القليل. وقد رأيت ذلك عندما مررت بالمخدع، وكان الباب مفتوحًا. وكانت "ليا" منهمكة في تنظيف زجاج النافذة الذي بدا من أثر الدخان كأنه كسي بطلاء قاتم. وأردت أن أسألها

عما تظنه سببًا لهذا الحادث، ولكني لمحت وجود "جريس بول" بالحجرة، وقد جلست تحيك حلقات ستائر جديدة..!

وكان مظهر "جريس بول" ينم عن جمود غامض، ينبي عنه ذلك الوجوم الذي اتسمت به.. رأيتها منهمكة في الحياكة، وأفكارها تدور حول هذا العمل، ولا شيء آخر يشغل بالها. ولم ينم مظهرها قط عن أثر لخبيئة نفسها الخبيثة.. خبيئة شخص يدبر جريمة قتل، فإذا بالمجني عليه يكشف المستور، ويفصح لها عن اتهامه – كما توهمت – ورغم ذلك فها أنذا أراها على سجيتها الجامدة، حتى لقد أخذتني الدهشة واستبدت بي الحيرة من أمر هذه المرأة. وفي اللحظة التي كنت أرمقها فيها بنظرة تأمل، توقفت عن الحياكة، ورفعت رأسها ونظرت إلى دون أن يظهر على وجهها أي انفعال أو إحساس بالإثم أو خوف من افتضاح أمرها.. بل على العكس رأيتها تقول لي بلهجة عادية جدًا:

– صباح الخير يا مس "جين"..

وعادت تستأنف الحياكة.. وقلت لنفسي فلأستدرجها، لأن هذا التكتم غير مستطاع، فأجبت على تحيتها بقولي:

– صباح الخير يا "جريس".. يبدو أنني سمعت الخدم يلغطون في حديث عجيب منذ لحظات.. فهل حدث شيء؟

– يظهر أن مستر "روشستر" كان يقرأ وهو مضطجع في الفراش، فغلبه النعاس ونام دون أن يطفئ الشمعة، فاتصلت النار بالستائر. ومن حسن الطالع أنه تنبه في الوقت المناسب، فأخمد النار قبل أن تمتد إلى الفراش أو الأبواب. ونجا السيد والحمد لله..

فقلت بصوت لا يكاد يسمع:

– إن هذا لعجيب!

ورمقتها بنظرات ثابتة ق\ثم قلت:

– هل أيقظ السيد أحد؟.. ألم يشعر أحد بما حدث؟

فرفعت إلي عينين زائغتين في هذه المرة، انعكس عليهما الشعور باقتراف جرم يخشى صاحبهما افتضاح أمره فاختلط في نظراتها مزيج من الشك والتوجس والذعر، وأخذت تنظر إلي في حذر وقالت:

– يغلب على الظن أن أحدًا لم يسمع، لأن الخدم ينامون في ركن بعيد من القصر. وتقول مسز "فيرفاكس" أنها لم تسمع شيئًا رغم أن حجرتها قريبة من حجرة السيد مثل حجرتك. ولعل ثقل السمع يصيب أولئك الذين يتقدم بهم العمر، ومسز "فيرفاكس" مسنة كما تعلمين..!

وتوقفت لحظة ثم استطرت تقول:

– إنها تتظاهر بعدم الاكتراث رغم أن كلامها ولهجتها كان لهما مغزى لا يغيب عن الفطنة.. إنك لا تزالين شابة يا "جين"، فأنت في خفة الطائر، فلعلك شعرت بما جرى أو سمعت شيئًا..

فقلت بصوت خافت جدًا حتى لا تسمعه "ليا":

– أصدقك القول أنني سمعت، وظننت في أول الأمر أنه "بايلوت"... ولكن بايلوت كما تعلمين لا يستطيع أن.. يضحك.. وأنا موقنة تمامًا أنني سمعت ضحكة.. بل ضحكة شاذة غير مألوفة أو عادية..!

ولم يبد عليها أثر ما، بل ظلت رابطة الجأش، وأخذت خيطًا لتضعه في ثقب الإبرة، ثم قالت:

– لا يعقل أن يضحك مستر "روشيستر" والخطر محدق به.. أحسب أنك تنعمين بحلم فيه ضحكات!..

وأثارتني ببرودها المتناهي وثباتها البالغ، فقلت بانفعال:

– هذا هراء.. لم أكن أحلم يا "جريس"..

فعادت تتفحصني بنظرات ثاقبة، ثم سألتني بلهفة:

– هل قلت لمستر "روشستر" أنك سمعت ضحكة؟..

– لم أتشرف بلقاء السيد أو التحدث إليه في هذا الصباح..

– هلا فكرت أن تنهضي وتفتحي باب حجرتك وتلقي نظرة على الردهة؟

وبدا أنها تستدرجني لتنتزع معلوماتي دون أن أفطن.. وتوجست إن هي عرفت أن شكوكي تحوم حولها وأنني أرتاب في أنها آثمة، أن يصيبني ضر من أفاعيلها الخبيثة.. ففضلت أن أقف منها موقف الحذر، فقلت:

– بل إنني شددت رتاج الباب فأغلقته..

– ألم يكن من عادتك أن تغلقيه بالمزلاج حينما تأوين إلى فراشك كل ليلة؟..

يا لدهاء هذه المرأة.. إنها تحاول أن تكشف عاداتي لتدبر أمرها على ضوئها.. فغاظني ذلك منها، وأجبتها بحدة قاسية:

– كثيرًا ما كنت أهمل إغلاق الباب قبل ذلك.. فلم يخطر ببالي أن ثمة ما يدعو إلى إغلاق الباب. ولم يدر بخلدي أن ثمة خطرًا يتهددني أو أمرًا أخشاه في هذا القصر العتيد..

وسكت لحظة، ثم استطردت أقول بلهجة ذات مغزى:

– ومنذ الآن سأتخذ كافة وسائل الحيطة لضمان سلامتي في الليل..

– هذا عين الحكمة.. إننا حقًا في مكان يسوده الهدوء، في قصر عريق يضم بين جدرانه تحفًا وأواني فضية ثمينة، وخدم القصر قليلون لأن سيده أعزب ولا يقيم فيه إلا أيامًا في كل سنة، فمن الجائز جدًا أن يكون مطمعًا للصوص ومحطًا لأنظارهم. لذلك أوافقك على رأيك هذا، وكما قيل: إن الوقاية خير من العلاج، كذلك فإن الحيطة ضمان للأمان. فإن ذلك يحول بين الإنسان وبين ما يراد به من شر. وقد يكل الناس نفوسهم وأمورهم إلى عناية الله، ولكني أرى أن ذلك لا يتعارض مع أتباع الحيطة في مصائرنا وأمورنا، والله يرعانا جميعًا إذا تصرفنا بحكمة..

وانتهت من لقاء هذه المحاضرة البليغة، الطويلة بالنسبة لما هو معهود فيها من الميل إلى الصمت والاقتصاد في الكلام. وقد لبست مسوح الوعاظ في إلقائها، وهي في قرارة نفسها تعلم مبلغ ما هي عليه من دجل وخداع.. ألقت العظة برزانة تبعث الدهشة. ووقفت أنا مأخوذة بما رأيته من رابطة جأشها وخداعها وريائها. ودخلت الطاهية وقالت لي:

– مسز "فيرفاكس" ترجو أن توافيها يا آنسة.. إنها في انتظارك الآن..

فغادرت الحجرة.. وذهبت إلى مسز "فيرفاكس"، ولم أع شيئًا من حديثها عن حادث الحريق ونحن نتناول طعامنا، لأن كل أفكاري كانت محصورة في دائرة واحدة: "جريس بول" التي بدت لي لغزًا استغلق علي حل رموزه، فكنت نهبًا لحيرة مضنية.. وضاعف من شعوري بالعجز والضيق محاولة تعرف مركزها في "ثورنفيلد".. فكنت أقول لنفسي:

– ترى لماذا لم يلق بها في السجن، أو على أقل تقدير لماذا لم تطرد من القصر. لقد أفصح السيد بما يشبه اليقين أنها الآثمة، فأي سر يكمن وراء إعلان اتهامها؟ ولماذا شدد علي بالتزام الصمت وتكتم الأمر؟ إنه لما يحير العقل أن يستكين هذا السيد الجريء الكبير المقام والذي بيده سلاح الانتقام.. وتبسط خادمة وضيعة من خدمه نفوذها عليه، فلا يجرؤ أن يجابهها بالاتهام.. وقد شرعت في القضاء عليه، فلم يتحرك حتى لعقابها..!

وزاد من حيرتي أن جريس ليس في سنها وشكلها ما يغريني بالاعتقاد في أن رابطة عاطفية هي التي تشد مستر "روشستر" إلى هذه الكهلة الدميمة.. ثم وسوس لي سوء ظني أنها كانت في يوم من الأيام ناضرة الشباب. ولعلها كانت تتمتع بقوة في الطبع، أو تأثير شخصي عارض، على ذلك السيد وهو في حداثة عمره.. فتورط تحت تأثير نزوة عارضة، وانزلق معها إلى خطأ من تلك الأخطاء التي يلتزم الشبان بالتكفير عنها ردحًا طويلاً من أعمارهم.. ولا سيما إذا كان الطرف الآخر في تلك السقطة امرأة داهية تعرف كيف تستغل موقفها، إما بالتهديد أو باستدرار عواطف الرحمة والطيبة والضعف.

ولم أستبعد الخاطر كل الاستبعاد، لأن من كان على غرار مستر "روشستر" سريع الانفعال شديد الاندفاع مع تقلب أحواله.. لا يبعد أن تستولي عليه أنواع غريبة من الرغبات والمغريات لا يستسيغها العقل في الظروف العادية.

وراجعت تفكيري بما أراه أمامي من دمامة تلك المرأة، وما في طباعها وحديثها من سوقية وابتذال.. فتمردت على هذا الخاطر، وإذا بصوت من داخلي يسخر من هذا الاستنكار ويحدثني:

– كيف تستبعدين على مستر "روشستر" أن يلين قلبه لامرأة عاطلة من الجمال؟.. هل نسيت أنك شخصيًا لا تتصفين بالحسن والوسامة.. ومع ذلك

لا أحسبك تنكرين أن مستر "روشستر" أبدى بعض الميل إليك. وعلى الأقل كانت نظراته ونبرة صوته ليلة الأمس دليلاً لا يجحد على هذا الميل!

وقفزت إلى ذهني بالفعل صورة مستر "روشستر" وهو يصافحني بكلتا يديه، ويرمقني بتلك النظرات التي لا أدري كيف أصفها.. كنت في تلك اللحظة أشرف على دروسي في الرسم، وأصحح لأديل طريقة إمساكها بالقلم، فإذا بالصغيرة تقول لي بلهجتها الفرنسية اللطيفة:

– ماذا أصابك يا آنسة؟.. إن يدك ترتجف.. وخديك حمرتهما شديدة مثل ثمار الكرز!..

– أوه.. إنه الحر!..

وبعد هنيهة، رأيتني لا أكد أحول نظري عن النافذة.. لأن الليل أوشك أن يرخي سدوله. فها هو اليوم قد أوشك على نهايته من غير أن يصافح سمعي صوت مستر "روشستر" أو وقع خطواته رائحًا وغاديًا في القصر. ولكني منيت نفسي بأن شواغل النهار التي حجبته عني قد انتهت بانتهائه، وإنني لا بد سأراه وأسمع صوته في ساعات الليل الأولى..

ومن عجب أن الخوف الذي اقترن بفكرة لقائي به، في صدر النهار، قد تلاشى. وأصبح تلهفي على لقائه نوعًا من الشوق الخالص الذي لا تعكر صفوه نوازع القلق والتوجس.. كنت أريد أن أراه، ولا أخشى مغبة لذلك اللقاء.. بل إني أتعجله ولا أكاد أجد في نفسي صبرًا على مزيد من الانتظار.

وازدادت وطأة الوقت عندما انتهت ساعات الدرس بحلول الليل.. وعادت "آديلا" إلى حاضنتها "صوفي"، وبقيت وحدي معلقة الحواس بجرس

الباب.. فأتخيل أنه سيرن بين لحظة وأخرى.. أو بصوت "بايلوت" ينبح في الحديقة مؤذنًا بقدوم مولاه..

وكنت أقول لنفسي طوال الوقت أن تلهفي على لقائه، مرجعه إلى موضوع "جريس بول" الذي أريد أن أفاتحه فيه. وقد عولت على أن أسأله سؤالاً واضحًا مستقيمًا:

– هل تظن يا سيدي أن "جريس بول" هي التي أقدمت حقًا على فعلة الأمس الدنيئة؟..

فإذا كان جوابه بالإيجاب، سألته:

– ما دمت تعتقد ذلك، فلماذا تكتم أمرها وتحرص على بقائها في خدمتك بعد ذلك؟..

ولم يخالجني الخوف من ثورة غضبه، لأنني وثقت من تأثيري عليه وقدرتي على استلال ثورته وانفعاله. وأحس في مزاولة هذا التأثير بمتعة لا شك فيها.. أحسبها تشبه متعة الفارس وهو يروض حصانًا جموحًا..!

وبعد طول انتظار، سمعت أقدامًا على الدرج فأرهفت أذني. ودخلت "ليا" فحسبتها جاءت تدعوني لمقابلة السيد كعادته في إرسالها إلي.. ولكنها لم تأت هذه المرة إلا لتقول لي أن الشاي في حجرة مسز "فيرفاكس".. فوجدت في النزول إلى حجرتها بعض الراحة، لأنني هناك سأكون أقرب إلى استقباله حين يعود إلى القصر..

وما أن دخلت على مسز "فيرفاكس" حجرتها، حتى استقبلتني بحماستها المعهودة، وأشارت إلى أدوات الشاي قائلة:

– إنك لم تأكلي شيئًا يذكر في الغداء.. فاشربي على الأقل فنجانًا من الشاي ينعشك. فإني أراك اليوم على غير عادتك.. ما لوجهك شديد الاحمرار؟ على تشعرين بتعب؟..

– كلا.. إطلاقًا.. إني بخير حال..

إذن يجب أن تأكلي وتشربي بطريقة تبعث الاطمئنان على صحتك.

وبعد أن صببنا الشاي، ألقت مسز "فيرفاكس" بنظرها خلال النافذة، وتأملت صفحة السماء التي حجبت غيومها أنوار النجوم، وقالت:

– كان الجو اليوم لا بأس به.. وهذا من حسن حظ مستر "روشستر".. فلا شك أنه ينعم اليوم برحلته..

– هل مستر "روشستر" مسافر؟..

– طبعًا..

– لم أكن أعلم أنه غادر القصر أو الضيعة..

– بل خرج في ساعة مبكرة عقب الانتهاء من الإفطار، متوجهًا إلى قصر "ايشن".. وهو يقع بعد قرية "ميلكوت" بعشرة أميال تقريبًا. وسيجتمع معه هناك نخبة من السادة بينهم اللورد "إنجرام" والسير "جون لين" والكولونيل "دينيت"..

– وهل يزمع العودة هذا المساء؟

– لا أعتقد أنه سيعود قبل أسبوع، فاجتماعات هؤلاء السادة المترفين الظرفاء سلسلة من اللهو والأحاديث والغناء والقصف والصيد. وستكون هناك أيضًا مجموعة من أل زهرات المجتمع، والمستر "روشستر" بهذه المناسبة محبوب

جدًا في هذه الأوساط. وقد لا تتصورين من منظره أنه موضع رغبة وإقبال من الجنس اللطيف.. ولكن الواقع خلاف ذلك، فتفكيره وثقافته ونسبه وثراؤه تستطيع أن تغطي على كل نقائص الجمال وترجح عليها..!

– وهل في هذا المكان من الريف سيدات من هذا النوع؟

– طبعًا.. هناك مسز "إيشتن"، وهناك أيضًا بناتها الثلاث.. فضلاً عن ابنتي اللورد "إنجرام بلانش" و"وماري إنجرام". وهما بلا شك من أجمل الحسان النبيلات. فقد رأيت "بلانش" منذ سنوات عندما كانت في الثامنة عشرة في حفلة راقصة أقامها هنا مستر "روشستر". وكان المدعوون يزيدون على الخمسين، وكلهم من الوجاهة والجمال. ولكن "بلانش إنجرام" كانت ملكة الجمال بلا منازع في تلك الليلة..

– صفيها لي يا مسز "فيرفاكس"..

– لقد رأيتها في تلك الليلة شابة طويلة القامة، ممشوقة القد، طويلة العنق، حنطية اللون، دقيقة الملامح. أما عيناها فسوداوان واسعتان، يشع منها بريق خاطف للأبصار كبريق الماسات الفاخرة. وشعرها أسود فاحم له نعومة الحرير.. وقد صففته بصورة أكسبتها مهابة وجلالاً..

– وثوبها يا مسز "فيرفاكس"؟..

كانت ترتدي ثوبًا أبيض اللون، وتغطي كتفيها ونحريها بغلالة في لون الكهرمان، وتزين شعرها بزهرة من نفس اللون زادت سواد شعرها الحالك أبهة وبهاء..

– لا بد أن الجميع افتتنوا بها في تلك الليلة..

– طبعًا.. ولم تكن محط الأنظار لحسنها الفائق وكفى، بل لجمال صوتها أيضًا ورقة شمائلها.. وكان غناؤها بديعًا حين شاركت بصوتها في مقطوعة غناها مستر "روشستر"..

– عجبًا!.. وهل مستر "روشستر" يغني أيضًا؟

– إن لمستر "روشستر" صوتًا رخيمًا.. وهو من الموسيقيين البارعين. وعندما غنت الآنسة "إنجرام" كان صوتها مرحًا، مثل شدو الطيور. ولما قامت بالعزف، أبدى الجميع استحسانًا لبراعتها الفائقة.

– إنها كنز من المزايا.. فكيف لم تتزوج؟

– لعل السبب هو قلة ما بقي لأسرتها من المال هي وأختها.. لأسباب لا أعلمها.

– ولكن هذا لا يمنع سيدًا لا حاجة به إلى مزيد من الثراء كمستر "روشستر" مثلاً أن يتزوجها..

– وكلنه أكبر منها بكثير.. إنه ناهز الأربعين وهي لم تزل في الخامسة والعشرين.

– مثل هذا الفارق لم يحل دون زواج الكثيرين من قبل، بل لعل هذا الفارق هو الأمر المألوف في أيامنا هذه..

– ربما.. ولكن لا أعتقد أن مستر "روشستر" يفكر في شيء من هذا القبيل.. ولكنك تتكلمين ولا تأكلين يا "جين"!

– لا أشعر بالجوع.. بيد أنني ظمآنة، ولذا سأشرب فنجانًا آخر من الشاي..

وما أن خلوت إلى نفسي في تلك الليلة، حتى رحت أستعيد ما سمعته من مسز "فيرفاكس"، وألوم نفسي على أنني فكرت في وقت من الأوقات في أن مستر "روشستر" ربما خالجه بعض الميل إلى شخصي الهزيل.. فما الذي يوحي إلي بهذا الاعتقاد السخيف؟.. إنه لم يتفوه إلا باليسير من عبارات المجاملة التي تصدر بشكل عادي جدًا من سيد مهذب نحو موظفة في كفالته، يرى من واجبه الأدبي أن يبر بخاطرها ويرفع عنها الشعور بالوحدة والهوان..

ووقفت أمام المرآة، وجعلت أتطلع إلى عيني لأطبق في ذهني ذبولهما الذي يتكفل بحمايتهما من إعجاب سيد مرهف الذوق كالمستر "روشستر".. ثم قلت أوبخ نفسي:

– أي حمقاء أنت يا "جين إير"!.. ألم تعلمك الأيام وتصاريفها أن التعلق بمن هو أعلى منك قدرًا حقيق أن يوردك مهاوي التهلكة؟ مثل ذلك الحب خرافة.. وما من نبيل أحب من هي دونه. وإن أحبها فلنزوة عارضة لا تغريه بالزواج منها.. ألا فاعلمي أيتها الحمقاء أن الحب هو العدو الحقيقي لأي امرأة لأنه يجعلها فريسة للآمال الكاذبة والمطامع الخادعة..!

وأردت أن أغالي في تأديب نفسي تأديبًا صارمًا رادعًا.. فجلست أمام المرآة، وأتيت بالأوراق والأقلام. وقلت لا بد أن أرسم لنفسي صورة أمينة، ثم أرسم صورة أخرى للآنسة "بلانش إنجرام" مسترشدة بما قالته لي مسز "فيرفاكس" من أوصافها. وعلى ضوء هاتين الصورتين، لا بد أن تلتزم نفسي حدودها، وتقلع عن الطائش من أحلامها وأشواقها..

لم يستغرق مني ذلك الرسم أكثر من ساعتين.. وجلست بعدهما أنظر في الصورتين، وأتمعن فيما بينهما من فروق كافية لتحطيم ما بقي من كبريائي..

وفي الوقت عينه، ساعدني هذا الانهماك على تصريف طاقة انفعالي.. فاستردت شيئًا من اتزاني، واستطعت منذ اليوم التالي أن أواجه الحياة بمزيد من الصبر ومزيد من الإذعان، وأن أروض نفسي على التمسك بالكرامة والتظاهر بالهدوء والسكينة.

***

وفي ظل هذه السياسة النفسية الجديدة، واجهت الأسبوع الأول من غيبة مستر "روشستر". ولما اكتملت غيبته عشرة أيام، بدأ القلق يساورني. وفاتحت مسز "فيرفاكس" من طرف خفي، فأخبرتني أنه لم يرسل أي تعليمات، وأنه ليس من الضروري أن يعود بتاتًا إلى "ثورنفيلد".. فمن عادته أن يتجه من زيارة قصور أصدقائه إلى لندن مباشرة. وهناك يقيم أم يرحل في أسفاره المتعدد إلى أقطار أوربا، ولا يفكر في العودة إلى "ثورنفيلد" قبل سنة على الأقل.. فقد عودهم ذلك نتيجة تقلب أهوائه.. يرحل فجأة من غير نذير، كما يقدم فجأة..

وأحسست لسماع هذه الكلمات بكف باردة تقبض على قلبي. ولم أعرف في حياتي صدمة أمل خاب كصدمة تلك اللحظة.. فثبطت همتي وخارت عزيمتي. ولولا أنني استنجدت بكل ما عندي من عزة النفس، لانكشف أمري لعيني مسز "فيرفاكس" ورحت أنحي على نفسي باللائمة، لأنني كنت قد استبقيت في ركن غائر من أركان سريرتي شيئًا من الاهتمام بمستر "روشستر".. الاهتمام برؤيته، والاهتمام بعودته. ولذا وقع على وجداني وقوع الصاعقة هو أن شأني لديه، بحيث يرحل من بيت أصدقائه بعد تلك الغيبة من غير أن يفكر في العودة إلى "ثورنفيلد" من أجلي..!

شعرت بهوان شأني.. لا في نظر نفسي طبعًا، فأنا لم يساورني الإحساس في أي وقت بأن قيمتي الإنسانية أخف وزنًا من قيمة أي إنسان مهما توفرت له

أسباب الجاه والمكانة. بل إنني استنفرت إحساسي بالكرامة، ليكون عونًا لي في تلك المحنة.. فجعلت أحدث نفسي ذلك الحديث:

– أي شأن لك يا "جين إير" بصاحب "ثورنفيلد".. ليست لك به صلة اللهم إلا صلة الأجيرة بمن يؤجرها، فأنت تعلمين طفلة يتولى الإنفاق عليها وتربيتها، وهو يقدم إليك الأجر العاجل مقابل ذلك الجهد. فليس لك عليه من مطمع إلا أن يعاملك بأسلوب يحفظ عليك احترامك، وألا يشعرك بوضاعة الشأن، وأن يعاملك معاملة عادلة من جميع الوجوه.. فلا ينبغي لك أن تتخذي من مجاملاته ذريعة لإشباع جوعك العاطفي، أو أن تجعلي منه موضوعًا تنيطين به ما يفيض عن وجدانك من آمال وأشجان وأشواق وأفراح وأتراح. وكيف غاب عنك أن صاحب "ثورنفيلد" ليس من طبقتك الاجتماعية بسبب ثرائه وفقرك على الأقل.. ولتلك الفوارق الاجتماعية أحكامها الحاسمة الملزمة التي تجعل لكل امرئ مكانًا لا يعدو في الحياة.. فلا تتجاوزي مكانك المقسوم لك حتى لا تتهددي كرامتك وتعرضي احترامك للضياع. واحذري يا "جين إير" من بذل ينابيع إحساسك وحيويتك الشابة وأشواقك العارمة لإنسان لا أرب له في شيء من ذلك.. فإنه خليق ألا يلتقي تلك النفائس الجديرة بالصيانة والإكبار بغير الزراية والاحتقار!..

وبعد هذا الدرس القاسي من نفسي، استطعت أن أواصل نظام حياتي اليومي وأؤدي واجباتي المألوفة بهدوء ظاهر على الأقل. ولكني بيني وين نفسي، لم أخل من وسوسة وأخذ ورد ومراجعة.. لأني شغلت بالتفكير في مبارحة ضيعة "ثورنفيلد" بعد الذي منيت به من صدمة مؤلمة. أفليت كل مخيب الآمال شعاره أن يفوز من الغنيمة بالإياب، كي يسلم له جلده بعد أن ضاع منه صيده وخاب منه جهده؟

وتصورت نفسي أحرر صنوفًا من إعلانات طلب الوظائف، وأحاول أن أتخيل الذرائع التي أقدمها بين يدي مسز "فيرفاكس" لأبرر في نظرها مغادرة بيت لم أجد فيه إلا الراحة والرعاية والإكرام. وراحت مخيلتي تقدم لي صورة بعد أخرى للوظائف التي قد يستخرجها لي الحظ من طوايا الغيب.. فإذا صنوف من النساء والرجال مختلفة خلائقهم بين الغطرسة والأنانية والغباء!

ولم أجد هناك ما يدعوني لمنع نفسي من الاسترسال في هذه التخيلات والتكهنات، لأني قدرت أنها مصرف حسن لما أعانيه من الضيق ومهرب طبيعي من المأزق الذي ثقلت وطأته على أعصابي.

وفي هذه التصورات، انقضت أيام اكتملت بها مدة غياب مستر "روشستر" أسبوعين.. ثم إذا بساعي البريد يطرق باب قصر "ثورنفيلد"، ويحمل إلى مسز "فيرفاكس" خطابًا ما أن رأت الخط المدون به العنوان على مظروفه حتى نظرت إلي وقالت:

– هذه رسالة من مستر "روشستر".. ولا شك أننا سنعرف منها هل ينبغي أن ننتظر عودته إلينا أو لا ننتظرها..

وتمالكت نفسي، وتشاغلت باحتساء القهوة، ريثما تفض هي الشمع الأحمر عن المظروف.. لأن الرسالة وصلت ونحن على مائدة الإفطار. وأحسست أن الدم قد تصاعد إلى وجهي حتى لقد توهجت وجنتاي.. وخشيت أن تفطن العجوز الطيبة إلى ذلك، فقلت أدرأ الشبهة عن نفسي:

– ما أشد سخونة القهوة!..

ولكني طبعًا لم أفكر في تعليل ارتجاف يدي بالفنجان، حتى تدفق جانب كبير مما كان فيه على المفرش الأبيض.. وأحمد الله أنها لم تسألني، لأنها كانت

منصرفة بكليتها إلى استجداء كوامن الخطاب من خلف منظارها. فلما فرغت من تلك المهمة قالت:

– أحمد الله!.. فإني كنت أضيق بما نعيش فيه من خمول ممل.. فها هي موجة من النشاط توشك أن تغمرنا ولو لمدة قصيرة..

واستبد بي الفضول لأني لم أفهم شيئًا محددًا من عبارتها.. ولكني قسوت على نفسي وعضدت على لساني. وتشاغلت عمدًا بربط شريط من أشرطة ثوب "آديلا". لم يكن بحاجة إلى ربط. ثم قدمت للصغيرة فطيرة.. أطريت لها طعمها.. وملأت لها فنجان اللبن وأقنعتها بشربه، ثم قلت لمسز فيرفاكس:

– هل معنى هذا أن مستر "روشستر" قد يعود إلى "ثورنفيلد" قريبًا؟

– طبعًا سيعود.. بعد ثلاثة أيام، هكذا يقول في رسالته.. سيأتي يوم الخميس المقبل، وستأتي معه صحبة من رفاقه. وإن كنت لا أعلم بالضبط كم سيكون عددهم بين سادة وسيدات لأنه أوصاني بتهيئة جميع حجرات النوم على خير وجه، وأن أعني بترتيب حجرات الاستقبال والمكتبة وأن أجند كل من أستطيع تجنيده من الخدم والسقاة والطهاة من فنادق "ميلكوت" وغيرها من القرى المحيطة بنا. ومعنى حضور هؤلاء السادة والسيدات، أننا سنحظى بقدوم حاشية كبيرة من الخدم والوصيفات حتى يضيق القصر على رحبه بالنزلاء!.

وأتت مسز "فيرفاكس" على ما تبقى من إفطارها بهمة، ثم نهضت لتشرع على الفور في تلك الاستعدادات الضخمة. والحق أن الأيام الثلاثة حفلت بألوان من النشاط لم تخطر ببالي.. إذ اكتشفت أن جميع حجرات النوم المقفلة طال إهمالها أكثر من عام، فاقتضى الأمر أن تستنجد مسز "فيرفاكس" بعدد من نسوة القرية للمساعدة في التنظيف والترتيب، وتلميع زجاج النوافذ، وغسل

المفارش والستائر وكيها، ونفض التراب عن السجاجيد، وتلميع الثريات والمرايا، ونفض الغبار عن اللوحات والصور، وتسليك المداخن والمدافئ، وتنظيف الأسرة بما فيها من الوسائد والحشايا..

كان هذا النشاط الشامل بمثابة مهرجان غير عادي بالنسبة لأديلا التي راحت تتنقل من هنا وهناك وهي تغني وترقص. وآمنت في تلك الأيام أن العرق دساس حقًا.. لأنها كانت مشغولة الخاطر بوصول الضيوف من وجهة نظر لم تشغل بال أحد منا، فهي مهمومة بمظهرها، وتصفيف شعرها، وتريد من حاضنتها "صوفي" أن تراجع مجموعة ثيابها لتصلح منها ما يحتاج إلى إصلاح، وتزيد في زخرفة بعض ثيابها البسيطة، وتغسل وتكوي جانبًا آخر..

وقد وجدت "أديلا" فراغًا كافيًا لهذا الاهتمام، لأنني أعفيتها من الدراسة في تلك الأيام الثلاثة تحت ضغط مسز "فيرفاكس" التي ناشدتني أن أخصص كل جهودي لمساعدتها في هذا الموقف العسير. ووكلت إلي مراقبة الطاهية والإشراف على إعداد أنواع المربى والفطائر المحشوة. وفي هذه الأيام الثلاثة، تعلمت من تدبير المنزل وأنواع الطهو الراقي أضعاف ما تعلمته في حياتي من قبل.. ولأول مرة تعلمت أيضًا كيف أنظف الطيور المذبوحة، وكيف أحشوها النقل، وكيف أزين أطباق الفطائر وأعدها للتقديم..

***

وكان المفروض أن يصل الضيوف في ساعة مبكرة بعد ظهر يوم الخميس.. وعلى هذا الأساس يجب أن يقدم الطعام في الساعة السادسة. وقد أفادني هذا النشاط، فشغل ذهني كما شغل يدي. ولكن عواطفي المتمردة كانت تنتهز كل فرصة لتطفو إلى سطح ذهني، وتستأثر باهتمامي، وتنكد على صفوي بتخيلات مؤلمة..

وفي هذه الأيام الثلاثة أيضًا، كنت أرى بين الحين والحين وجه "جريس بول" هابطة من الطبقة الثالثة في ثيابها الناصعة البياض.. وكلما رأيتها انقبض قلبي، واستولى علي الضيق، ولا يهدأ بالي إلا حين أراها عائدة من حيث أتت في حذائها الرقيق الذي لا يسمع لخطواته صوت. وهي تحمل بين يديها خوان طعامها صاعدة إلى تلك الحجرة المظلمة اللعينة في الطابق العلوي حيث انبعثت ضحكتها المزعجة أول مرة..

وكانت "جريس بول" في ذلك الغدو والرواح تلقي نظرة على أعمال التنظيف. ولا يخلو الحال أن توجه إلى إحدى الخادمات المستأجرات من الخارج نصيحة حول أحسن الوسائل للتلميع أو التنظيف.

ولاحظت كذلك أن الجميع لا يعيرونها اهتمامًا، سواء حضرت أو غابت، فانا وحدي كنت أفكر أحيانًا في غرابة حياتها واستمساكها بعزلتها في صومعتها.. إلى أن ترامى إلى سمعي حديث عنها عفوًا جرى بين إحدى الخادمات المستأجرات من الخارج لهذه المناسبة الوقتية وبين خادمتنا الدائمة "ليا". ولم أسمع بالضبط ما قالته "ليا" بصوتها المنخفض.. ولكني سمعت جواب الخادمة الغريبة:

– وهل تتقاضى نظير ذلك أجرًا حسنًا؟..

وعندئذ سمعت بوضوح "ليا" وهي تقول:

– أوه.. ليتني أحصل على ما يقارب أجرها. ولكن لا تظني أنني أشكو من قلة مرتبي، فسيد "ثورنفيلد" عادل لا يبخل على خدمه بالأجر المناسب. ولكني أعني فقط أن مرتبي لا يصل إلى ربع مرتب "جريس بول" التي لا تعمل شيئًا هنا، ويتكفل القصر بكل احتياجاتها فلا غرو أن يكون لها من المدخرات

الآن ما يسمح لها بالتقاعد والحياة المرفهة سائر عمرها.. ولكنها طبعًا لا تفكر في الرحيل والتقاعد من عمل أسمى كهذا تتقاضى عليه أجرًا ضخمًا كهذا، وليس من الطبيعي لامرأة لم تكد تتجاوز الأربعين أن تعتزل الخدمة..

وعندئذ قالت الخادمة الغريبة:

– لا بد أنها تقوم بنوع خاص من العمل نظير ذلك..

فأجابتها "ليا" بلهجة ذات مغزى:

– كل ما هناك أنها تدرك جيدًا ما ينبغي أن تفعل وقت اللزوم، وأنا أعترف أنه ليس في استطاعة أي امرأة أن تقوم بما تقوم به هي.. مهما كان الأجر!

فقالت الفتاة الغريبة:

– ليس عن هذا أسأل.. بل أعني هل السيد..

ولم تكمل الفتاة سؤالها لأن "ليا" فطنت إلى وجودي في تلك اللحظة، فلكزت محدثتها تدعوها للصمت.. وسمعت الأخرى تسألها بصوت خافت:

– هل هي تجهل السر؟

فأومأت برأسها علامة الإيجاب.. وساد الصمت..

وفي تلك اللحظة، عرفت أن في قصر "ثورنفيلد" سرًا غامضًا خفيًا، وأنه من المفروض أن أظل جاهلة بحقيقة ذلك السر الذي تعرفه الأخريات..

ذلك السر.. سر "ثورنفيلد" الغامض.. ترى ماذا عساه يكون؟

الفصل الحادي عشر

الدمية الصغيرة

قبل الموعد المحدد لاستقبال الزائرين، كانت جميع الاستعدادات قد تمت وشملت كل شبر في أرجاء القصر العتيد.. فعلقت فوق الأسرة ستائر مخملية موشاة، ونسقت مناضد الزينة ووضعت فوقها أوان من الأزهار النادرة، ولمعت قطع الأثاث حتى صقلت. فبدت حجرات القصر في أبهى ما تبدعه يد فنان.. ونظفت الساعة الأثرية الكبيرة، كما صقلت درجات السلم وسياجه حتى بدا البهو رائعا براقا. أما حجرة الطعام، فقد حفل صوانها بأثمن الصحاف..

وإذ عهد إلى مسز "فيرفاكس" باستقبال السيدات ومرافقتهن إلى الحجرات المخصصة لهن، فقد كان عليها أن تظهر في أكمل زينتها وأن تكون مثالا مجسما للأناقة، فارتدت ثوبا من الحرير الأسود هو أفخر ثيابها، ولبست قفازا وعلقت في صدرها ساعة ذهبية. أما "أديلا" فلم يكن لها مجال في ذلك الحفل، وارتدت ثوبا بسيطا من الحرير. أما أنا– وقد كنت بعيدة عن نطاق هذا النشاط– فلم تكن بي حاجة إلى تغيير ثيابي، لأن مكاني بطبيعة الحال سيكون في حجرة الدراسة التي كنت ألوذ بها إذا دهمتني موجة من الضيق.

وكنا في الربيع، وأيامه صافية تضفي على الكون بهاء، بيد أن جو النهار بدأ يتغير، ثم أقبل المساء حارا.. فجلست في حجرة الدراسة، وقد تركت نافذتها مفتوحة لعلها تحمل إلى هبة من نسيم. وإذا بي أرى مسز "فيرفاكس" تقبل، ثم تقول وهي تختال في ثوبها الأنيق:

– لقد فات الوقت.. بيد أنني مغتبطة لأن التعليمات صدرت لي بأن لا أبكر في إعداد الطعام.. وبالرغم من ذلك فلم يحضروا حتى الآن. وقد كلفت "جون" بمراقبة الطريق..

ومضت إلى النافذة ونظرت منها، ثم قالت: "ها هو ذا مقبل"

وسألته وهي تطل من النافذة: "ماذا وراءك من أنباء؟".

فأجابها قائلا: "أنهم في طريقهم إلينا.. وسيكونون هنا بعد دقائق معدودات".

فأسرعت "أديلا" إلى النافذة، وتبعتها أنا أيضا.. وأخذت مكاني بحيث تحميني ستائر النافذة، فأرى دون أن يراني أحد. وبدت الدقائق ثقيلة مملة، ثم وصلت إلى سمعي طرقعة العجلات، ورأيت أربعة من الفرسان تتبعهم عربتان مفتوحتان وقد أخذت الأوشحة ترفرف والريش يتماوج بفعل الهواء. وتبينت من الفرسان الأربعة مستر "روشستر" بدمه ولحمه وقد امتطى جواده الأسود، وأمامه "بايلوت" وقد أخذ يتواثب، وإلى جانب مستر "روشستر" سيدة على جواد آخر، وكانا في الطليعة. ولاحظت أن ثوب السيدة طويل يكاد يحف بالأرض، بينما راح النسيم يداعب وشاحها ويعبث بشعرها الفاحم، وما لبثت أن سمعت مسز "فيرفاكس" تصيح:

– مس "انجرام"!..

وتركتنا وأسرعت تهبط الدرج لتذهب إلى حيث ينبغي أن تقف. وما هي إلا دقائق استدار بعدها الركب، ثم توارى عن الأنظار. ودفع الفضول "أديلا" أن ترجوني أن اسمح لها بالنزول، بيد أني أجلستها على حجري وربت على خدها، وأخبرتها أن ليس من اللائق أن تظهر أمام السيدات سواء الآن أو فيما

بعد، إلا إذا طلب إليها ذلك. وأن مثل هذا التصرف من جانبها قد يغضب مستر "روشستر".. فلم تتمالك نفسها وذرفت بعض الدموع، ثم عادت وكفكفت عبراتها بعد أخذها بشيء من الحزم.

وتجاوب البهو بأصوات المرح، مزيجا جميل الوقع من أصوات الرجال العميقة ونبرات السيدات التي تشبه الموسيقى. وكان صوت مستر "روشستر" واضحا في جلاء، وهو ينثر التحيات الضيفاته الجميلات وضيوفه الأعزاء. وتناهى إلى سمعي صوت خطوات خفيفة على الدرج، ثم وقع أقدام في الردهة، وضحكات ناعمة تتخلل أصوات فتح الأبواب أو إغلاقها، ثم ران السكون فترة من الوقت. ويظهر أن "أديلا" كانت تتابع كل حركة وكل سكن في انتباه شديد، فسمعتها تقول لي:

– أنهن يستبدلن بثيابهن ثياب نظيفة..

وارتد بها التفكير والخيال إلى الماضي، فندت عنها زفرة ثم قالت بالفرنسية:

– كنت أتبع ماما كظلها، إذا حضر إليها ضيوف، سواء في الصالون أو في المخادع.. وكنت أرى السيدات وهن يصففن شعورهن أو يغيرن ملابسهن، وكان ذلك مما يبعث البهجة في نفسي، وكنت أتعلم من تطلعي إليهن..

– ألا تشعرين بالجوع يا "أديلا"؟..

– جدا يا مس "جين"، فقد انقضت ساعات طويلة دون أن نأكل شيئاً.

– إنها فرصة إذن، والسيدات في حجراتهن، انتهزها وأنزل لآتيك ببعض الطعام..

وخرجت من حجرة الدراسة في حذر شديد، وهبطت سلما خلفيا يؤدي إلى المطبخ الذي وجدته كخلية نحل، إذ امتلأ بالخدم الذين وفدوا مع السادة.و حملت بعض الطعام ثم عدت على عجل، بيد أنني ما كدت أصل إلى الردهة حتى سمعت أصواتا تدل على أن السيدات يوشكن على الخروج من الحجرات. فأصبح من العسير مواصلة السير نحو حجرة الدراسة، من غير أن أمر بأبواب الحجرات. وأصبح موقفي في غاية الحرج بما أحمله من طعام، فوقفت في مكاني وتسمرت قدماي، ولحسن حظي كان المكان مظلما إذ لم تكن به نوافذ كما كان وقت الغروب..

وفي لحظات وجدت الأبواب تنفرج وتخرج منها السيدات الحسناوات، واحدة بعد واحدة، وقد ارتدت كل منهن ثوبا لامعا يخطف الأبصار ويأخذ بالألباب. ورأيتهن يقفن لحظة في طرف الردهة ويتبادلن بضع كلمات، ثم أخذن يهبطن الدرج في صمت وهدوء وكأنهن حوريات من الجنة. وترك هذا المنظر في نفسي أثرا عميقا لما يتمتع به السادة من أناقة مسرفة لم تخطر لي على بال. وحين وصلت إلى حجرة الدراسة، وجدت "أديلا" تسترق النظر من فرجة بابها، وكان مواربا، وما أن رأتني حتى صاحت بالإنجليزية:

– أوه.. إنني أتحرق إلى الذهاب إليهن.. هل تظنين أن مستر "روشستر" سيرسل في طلبنا بعد الانتهاء من العشاء؟

– إنني لا أتوقع ذلك، فإن لدي مستر "روشستر" شواغل أخرى. دعينا من السيدات الليلة، ولنتركهن وشأنهن، وقد تحظين برؤيتهن في الغد. لقد أحضرت لك طعام العشاء فتناوليه.

وكانت في حالة شديدة من الجوع حقا، فأثار شهيتها لحم الدجاج والفطائر، وشغلها عن التفكير في السيدات وعن الرغبة في الذهاب إليهن. وقد

حمدت الله إذ أتيت بذلك الطعام، فلولا ذلك لقضينا ليلتنا جوعا أنا و"أديلا" و"صوفي"، فقد كان القوم مشغولين عنا ولم يفكر أحد فينا. واسترعى انتباهي أن العشاء استغرق وقتا طويلا جدا، أخذ بعده الخدم يحملون أقداح القهوة إلى السادة. وظلت "أديلا" مستيقظة بعد أن حان موعد نومها، وقالت لي في صراحة أن النوم لن يطرق جفنيها طالما هي تسمع أبواب الطابق الأرضي تفتح وتغلق، وطالما يتناهى إلى سمعها أصوات السادة في مرحهم وصخبهم. وفضلا عن ذلك، فإنها كانت ترتقب دعوة من مستر "روشستر" فظلت بثيابها ولم تخلعها.. فعمدت إلى تسليتها بسرد بعض القصص، حتى زهدت في الاستماع فصحبتها إلى الردهة، وكان البهو لا يزال مضاء.. فوجدت "أديلا" شيئا من الترويح عن نفسها بمشاهدة الخدم وهم في حركة دائبة. وفي ساعة متأخرة جدا من الليل، انبعثت دقات البيانو من حجرة الاستقبال، وكان قد نقل إليها. فجلست أنا و"أديلا" على رأس الدرج ننصت. وصاحب نغمات البيانو صوت رخيم، صوت إحدى السيدات تغني بأعذب الألحان في نبرات موسيقية، ثم ما لبث أن شاركها رجل في الغناء. وما أن وصلت الأغنية إلى نهايتها حتى سمعنا الضحكات تتعالى. وقد أصخت السمع جيدا وأخذت أحاول تمييز الأصوات التي اختلطت ببعضها بعضا، لعلني أميز صوت مستر "روشستر". وقد تبينت صوته فعلا، فازداد فضولي وأردت استيعاب ما كان يقول!

وكاد الليل ينتصف، و"أديلا" إلى جانبي وقد مالت برأسها على كتفي. ونظرت إلى عينيها، فإذا هما قد أثقلهما النعاس.. فرفعتها برفق وحملتها إلى فراشها. واستمرت الجماعة في مرحها وسهرها حتى منتصف الساعة الثانية صباحا في دنيا غير الدنيا التي تعيش فيها بقية الناس.

وأشرق اليوم التالي فكان في بهجة سابغة، شأنه شأن أيام الربيع، استمتعت فيه الجماعة بنزهة خارج القصر بدأتها قبيل الظهر. امتطى البعض ظهور الجياد، وفضل البعض الآخر ركوب العربات. وكان من السهل أن أراقب الجماعة في ذهابها وإيابها، ولفت نظري أن ألاحظ أن مس "انجرام" كانت موضع الإعجاب وقبلة الأنظار.. وإلى جانبها مستر "روشستر" فوق جواده كما كان إلى جوارها عند وصول الجماعة، وقد سارا بعيدا بعض الشيء عن باقي الرفاق فقلت لمسز "فيرفاكس":

– ذكرت لي أنه ليس من المحتمل أن يفكرا في الزواج.. ألا ترين أن مستر "روشستر" يؤثرها على غيرها، ويشملها بكثير من عنايته واهتمامه؟

– هذا واضح وصحيح.. ويمكنني أن أقرر الآن أنه لا يخفي إعجابه بها!

– وهي الأخرى تبادله نفس الإحساس.. انظري.. أنها تميل برأسها نحوه وكأنها تبوح له بسر.. كم أود أن أتبين قسمات وجهها عن كثب!

– سيكون لك ذلك هذا المساء.. فقد ذكرت للسيد في حديث خاطف أن "أديلا" تتوق للمثول أمام السيدات، وأن يقدمها السيد إليهن فكان جوابه:

– لا بأس.. دعيها تحضر إلى حجرة الاستقبال بعد العشاء، وقولي لمس "اير" أن تكون في رفقتها..

فقلت على الفور:

– لعله قال ذلك من قبيل المجاملة فقط.. وأعتقد أنه ليس هناك ما يدعو إلى ذهابي..

– ولم يغب ذلك عن ذهني، إذ قلت له أنك لم تتعودي الاختلاط، وأنك ربما لا تأنسين للظهور في جو يسوده المرح خاصة وأن غالبية الجماعة غرباء عنك ولم يسبق لك أن التقيت بهم.. فأجابني على الفور قائلا:

– هذا هراء.. إذا أبدت مس "اير" ممانعة، فقولي لها أن هذه رغبتي. فإذا أصرت على الاعتذار أو الاعتراض، فاخبريها أنني سأتوجه إليها بنفسي وأجيء بها!

وحين سمعت ذلك لم يسعني إلا أن أقول:

– لن أجشمه عناء الحضور إلي.. مادام الأمر كذلك فسأذهب، ولو أنه على غير إرادة مني.. وأنت يا مسز فيرفاكس.. هل ستكونين هناك؟

– يا عزيزتي.. فقد رجوته أن يعفيني فقبل رجائي.. دعيني اذكر لك الآن كيف تتحاشين الاضطراب الذي ينتاب الإنسان حين يضطر إلى موقف من المواقف يقتضيه تكلف بعض الرسميات. أن دخول الإنسان على جماعة لا يعرف أغلب أفرادها هو أثقل ما في الموضوع.. لذلك أنصحك أن تذهبي إلى حجرة الاستقبال قبل أن يذهب إليها أحد غيرك، أي قبل أن تنتهي السيدات من تناول الطعام وتغادرن حجرة المائدة. ثم تخيري مقعدا في ركن هادئ من الحجرة، وبعد دخول السادة لا تمكثي طويلا، إلا إذا راق لك ذلك. واحرصي على أن يراك مستر "روشستر". وبعد ذلك تسللي في خفة دون أن يلحظ أحد خروجك.

– هل تظنين أنه سيطول مكث الجماعة هنا؟

– يتراوح ذلك بين أسبوعين وثلاثة أسابيع.. لأنني أستبعد بقاء الجماعة أكثر من ذلك، لأن السير "جورج لين" نائب مقاطعة ميلكوت الجديد سيضطر

إلى السفر إلى لندن، وأعتقد أن مستر "روشستر" سيسافر معه.. ويدهشني حقا أن إقامته هنا طالت حتى الآن.

***

انتابني شعور بالاضطراب والارتياع حين اقترب موعد ذهابي إلى حجرة الاستقبال برفقة "أديلا" التي بدا عليها الفرح حين عرفت بنبأ ذهابها لتقدم للسيدات. وظلت مرحلة طول النهار إلى أن بدأت "صوفي" تغير لها ثيابها، واستكانت لعملية تصفيف شعرها، فبدت في غاية الرزانة. وجلست في مقعدها في رصانة السيدات، وقد شمرت أهداب ثوبها حتى لا تتسخ. ووعدتني بأن تظل هادئة حتى أتم استعدادي، فارتديت ثوبا فاخرا، وكان هدية لي من مس "تمبل" بمناسبة زفافها.. ثم سويت شعري وتزينت بالحلية التي لا أملك سواها، وهي دبوس مرصع باللؤلؤ.. ثم أخذنا نهبط الدرج..

وكان لحجرة الاستقبال باب آخر غير الباب الذي يصلها بحجرة المائدة. وقد وجدنا الحجرة خالية لحسن حظنا، ونيران المدفأة تشيع الدفء فيها كما تضيء الشموع جنباتها. واستبد التهيب "بأديلا" فجلست صامتة لا تتحرك، وجلست أنا إلى جانب إحدى النوافذ، وأردت أن أقتل الوقت بالقراءة في كتاب تناولته. ثم رأيت "أديلا" تقترب بمقعدها مني ثم تلمس يدي، فسألتها:

– ماذا تريدين يا "أديلا"؟..

– هل يمكنني أن أتمم زينتي بزهرة أقتطفها من هذه الأزهار النادرة يا مس "جين اير"؟

– ما هذه المبالغة في التفكير في التزين يا "أديلا"! لك ما تريدين وتخيرت لها زهرة جميلة تناولتها بيدي من إحدى الزهريات، ثم ثبتها في وشاحها،

فتنهدت تنهيدة نمت عن مبلغ سعادتها. لم يسعني إلا أن أدير وجهي لأخفي ابتسامة حاولت عبثا أن أطمسها، فقد امتزج شعوري بالضحك مع شعوري بالأسى لما بدا من اهتمام الباريسية الصغيرة بثيابها وهندامها. ثم سمعت الأصوات الخافتة ترتفع في وضوح حين أزيحت الستائر التي تفصل بين الحجرتين. وانعكست أضواء ثريات حجرة المائدة على طاقم للحلوى من الفضة المبطنة بالزجاج، وقد انتثرت قطعه على مائدة كبيرة. ورأيت السيدات عند الباب، وخيل إليّ أن عددهن كبير مع أنه لا يتجاوز العشر وذلك لتزاحمهن على الدخول. وما أن ولجن الباب، ودخلن القاعة، حتى أسدلت الستائر. وحين رأيتهن عن كثب لمحت الجمال في وجوههن وفي قوامهن، وقد أضفى بياض ثيابهن أناقة وبهاء على مظهرهن..

ووقفت أحييهن في حياء، فرد بعضهن التحية باحناء الرأس بينما حملق البعض الآخر في وجهي. وأخذن ينتثرن في الحجرة ليأخذن مجالسهن، فكن في خطواتهن الخفيفة الرشيقة أشبه بالطيور حين تخطر على الأرض. ثم رأيت خليطا من تصرفاتهن.. فبعضهن فضلن الجلوس فوق الأرائك، ووقف البعض الآخر حول المنضدة يتفحصن الزهريات. بينما التف فريق ثالث حول المدفأة التماسا للدفء، وسمعت سيدات الفريق الثالث يتحدثن في همس. وطبيعي أنني لم أعرف أسماءهن في ذلك الوقت وإن كنت عرفتها فيما بعد، وأذكر من هذه الأسماء مسز ايشتون وابنتيها، ولا تزال ملامح جمال صباها واضحة على محياها. وكانت كبرى ابنتيها واسمها "آمي" ضئيلة الجسم، متوفرة الحركات كأنها طفلة غريرة. بينما كانت الابنة الثانية "لويزيانا" أمشق عودا وأشد أناقة، يتسم وجهها بجمال فاتن.. فالابنتان زهرتان ناضرتان.

وكانت الليدي "لين" شخصية عجيبة حقا، فكانت قوية الملامح بدينة، ناهزت الأربعين ذات قوام فارع، تغلب عليها سمة الكبرياء والعظمة. وكانت ترتدي ثيابا فاخرة، ويظهر أنها تبذل مزيدا من العناية بشعرها الذي بدا لامعا وقد علته ريشة وردية والتف حوله طوق من اللآلئ. أما مسز "دنت" فكانت أقل أناقة، وإن كانت أكثر صفاء.. ذات عود نحيف ووجه باهت وشعر مصفف في عناية زادته جمالا. وكانت ترتدي ثوبا من الحرير الأسود الذي يبرز المفاتن. وقد أعجبت بهذه السيدة أكثر مما راقني مظهر الليدي "ليين" بجسمها البدين وألوان ثيابها الزاهية..

أما من استرعين كل انتباهي، فكن الليدي "انجرام" وابنتيها "بلانش" و"ماري".. فثلاثتهن كن أمشق السيدات قامة.. وكانت الليدي "انجرام" في العقد الخامس من عمرها، ومع ذلك فظل مزهوا بلونه الفاحم وكأنه يسخر من مر السنين. ولم ألحظ أي عطب يعتور أسنانها، وبالجملة كانت نموذجا للجمال بالنسبة لسنها.. إلا أنها كانت تتسم بكبرياء شامخة، ينم لمعان عينيها عن قسوة أعادت إلى ذاكرتي نظرات مسز "ريد". أما الابنتان فكانتا كأنهما توأمان، فقد كانتا متشابهتين في البنية، وإن كانت "ماري" تظهر أكثر نحولا بالنسبة لطولها بينما كانت "بلانش" بضة ممتلئة.

ولم أستطع أن أقطع برأي فيما إذا كانت "بلانش" من الطراز الذي يروق لمستر "روشستر" ويقع عليه اختياره، لأنني أجهل ذوقه وميوله في دنيا الجمال. ومن الجائز أنه كانت تستهويه عظمتها إذا كان يعشق العظمة، بيد أنها كانت على جانب كبير من الأدب والرشاقة، وأعتقد أن هذا هو الذي دفع السادة على الإعجاب بها، ومن بينهم مستر "روشستر". وكدت أقتنع بصحة ما استنتجته، فرأيت أن أرقب ما يجري بينهما..

ومن عجب أن "أديلا" خلعت على نفسها ثوب الرزانة والوقار، فقد رأيتها- عندما دخلت السيدات- تنهض للقائهن باحترام ثم تقول في رزانة البالغين: "يوم رافل بالسعادة يا سيداتي!".

وحين سمعتها مس "انجرام" تطلعت إليها في سخرية، ثم قالت:

- أوه.. ما هذا؟.. يا لها من دمية صغيرة!

وأردفت الليدي "انجرام": لعلها الفتاة التي يتولى مستر "روشستر" رعايتها.. تلك الفتاة الفرنسية التي حدثنا عنها".

وعلى عكس هذا الأسلوب رأيت مسز "دنت" تتناول يد "أديلا" في رفق وعطف وحنان وطبعت عليها قبلة..

وصاحت آمي ولويزيانا مأخوذتين في صوت واحد:

-كم هي جميلة هذه الطفلة!..

ثم دعتاها إلى أريكتهما وأجلستاها بينهما، فأخذت الطفلة تتحدث بالفرنسية تارة، وبالإنجليزية الضعيفة تارة أخرى.

ولم تكن "أديلا" موضع إعجاب "آمي" و"لويزيانا" فحسب بل نعمت بعطف الجميع وحظيت بتدليلهم.

الفصل الثاني عشر

حب بلا هدف

حان موعد القهوة، فجيء بها.. ودعى السادة للحضور إلى قاعة الجلوس. وكنت قد اتخذت مجلسي في مكان يكاد يحجبني عن الأنظار. وأزيحت الستائر ودخل السادة في مثل روعة دخول السيدات.. كانوا جميعا في أرديتهم السوداء، يكادون يتحدون بعضهم في طول القامة. وبعضهم كان في نضارة الشباب. ولفت نظري أن "فردريك" و"هنري" كانا شعلة من النشاط. أما الكولونيل "دنت" فكان رجلا عسكريا وسيما، بينما اتسم مستر "ايشتون" القاضي بالوقار بشعره الأبيض، وإن احتفظ حاجباه وسوالفه بسوادهما فكان أشبه بالذين يمثلون دور النبلاء على المسارح. أما اللورد "انجرام" الصغير فكان يشبه شقيقته في طول القامة والوسامة، وإن كان يتفق مع "ماري" في النظرة الهادئة الفاترة، مما يدل على افتقاره في الهمة والعاطفة ونشاط الذهن..

وأخيرا أقبل مستر "روشستر"، فقد رأيته يدخل خلف السادة، وحاولت أن أشغل نفسي بحبك الخرز في الخيط. ومع ذلك فقد لمحت السيد بالغريزة، فارتسمت في ذهني اللحظة التي قال لي فيها أنني أديت له خدمة لن ينساها.. وقد أمسك بيدي وجعل ينظر إليّ بعينين تنمان عن عاطفة مشبوبة وعن قلب يهفو إلى الإفضاء بمكنونه نحوي، مما جعلني أستشعر أثرتي لديه! ماذا إذن بدل الحال غير الحال؟!. ورغم ما ذكرت، فقد ظل وقتذاك متباعدا عني. لذلك لم تأخذني الدهشة إذ رأيته يتخذ مجلسه في مكان قصي في الحجر، بعيدا عني، وقد أخذ يتحدث إلى بعض السيدات، دون أن تتحرك عيناه بلفتة نحوي.. فقد ركز

اهتمامه فيهن. لذلك كان من السهل عليّ أن أرقبه دون أن يلحظ، ووجدت نفسي– دون وعي– أحدق فيه ولا تتحول عيناي عنه، واستشعرت في ذلك نشوة حبيبة ولكنها أليمة في نفس الوقت.. نشوة الظامئ الذي ما كاد يهتدي إلى الماء حتى وجده مسمما، ومع ذلك أخذ ينهل منه وكأنه ماء مقدس!

لقد تجسم لي في هذه اللحظة جمال ذلك السيد، بوجهه الشاحب، وجبينه المستعلي، وحاجبيه الفاحمين، وعينيه العميقتين الصافيتين صفاء الغدير، وأساريره الحازمة، وفمه الذي ينطق بالتجهم.. كانت هذه كلها ملامحا تنبي عن حيوية وحزم، ولو أنها تبعا لمقاييس الجمال كانت أبعد عن الجمال! بيد أنها في نظري– أنا– آية من آيات الجمال، فقد كانت تترجم لي عن معان شتى وسلطان قاهر ملك على نفسي ومشاعري، فأصبحت عبدة له يفرض علي سطوته وجبروته.. لم يكن في نيتي حتى مجرد التفكير في حبه. وكم بذلت لأقاوم هذا الشعور وأمحوه من نفسي، ولكن جذوة الحب بعثت من جديد من أول نظرة إليه بعد افتراقنا. واشتدت هذه الجذوة وترعرع نبتها، فقد جعلتني أهيم به من غير أن ينظر إلي!

وشأن المحبين، أخذت أقارن بينه وبين سواه.. فظهر أمامي عملاقا ضخما، واستهونت بجانبه رشاقة آل "لين" وأناقة لورد "انجرام" الصغير ووسامة الكولونيل "دنت" بمظهره العسكري.. فما قيمة كل ذلك بجانب روح مستر "روشستر" الطبيعية وقوته الخالصة في غير تصنع؟ لم يستهوني تجملهم، فلم أشعر بميل نحو مظهرهم الزائف– في نظري على الأقل– بل على العكس شعرت بالنفور منهم، وإن ترجمت مظاهرهم عن الجاذبية، على عكس مظهر سيدي. لم تجذبني ابتسامات السادة لأنها تنم عن تفاهة نفوسهم. ولمحت مستر "روشستر" وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة، فإذا بأساريره في ليونة النغم، وإذا بعينيه

تفيضان بالرقة.. وعجبت "للويزيانا" و"آمي"، وقد كان يتحدث إليهما، أنهما لم تتأثرا بنظرته النفاذة وابتسامته الأخاذة وكان أحرى بهما أن تسبلا عيونهما ويتضرج خداهما.. وسرني– بغريزة المرأة الولهانة– عدم تأثرهما، وعللت ذلك بأنهما لا يكنان له مثل ما أكنه أنا.. وأنه ليس من طرازهما، بل يتفق معي في كثير من النواحي والميول.

وذهب بي الظن أنني ليست غريبة عنه، وأنني من ذوي قرباه لأن لي قدرة على تحليل حركات وجهه وسكناته وتفسير ما تترجم عنه. فأنا أشعر أن ذهني لا يستوعب سواه، وأن قلبي لا يتسع لغيره، وأن دمي قد امتزج بدمه رغم الفارق الذي بيننا في الثروة والجاه والمكانة! ترى هل كنت أموه على نفسي وأغالطها حين قلت أن صلتي به هي علاقة الأجير الذي يتناول أجره من سيده؟! وهل تفكيري فيه لا يتعدى هذا الحيز فقط؟! كم كنت حمقاء حين قلت ذلك لنفسي! ويا له من تجاهل للطبيعة البشرية!.. فحقيقة الأمر أنني استشعرت له فيضا من الحب الخالص. ورأيت من الواجب أن أخفي هذه العواطف، وأن أخنق بصيص الأمل الذي راودني، وأنه من العسير عليه أن يحفل بي أو بعواطفي. وليس معنى أنني على شاكلته، وأنه على شاكلتي، أنني أملك من المزايا ما يؤثر فيه كما استحوذ هو على تفكيري، أو أنني أحظى في دنيا الجمال بنصيب يجذبه إليّ.. كلا.. فأقصى ما تتوق إليه نفسي أن أبقى على حبي له مادام في نفس يتردد، حتى لو ظللنا بعيدين لا تربط بيننا رابطة الزوجية أبد الدهر!

وقدمت أقداح القهوة، ودبت الحيوية في نفوس السيدات وقلوبهن.. فكأن دخول الرجال عصا ساحر حولت الفتور نشاطا والقلوب شعلات! وتنوعت أساليب الحديث ومواضيعه، فاتسمت بالطراوة والطلاوة والرشاقة..

وقد أخذ الكولونيل "دنت" ومستر "ايشتون" يتحدثان في السياسة، وزوجتاهما تصغيان لهما.. بينما أخذت النبيلتان الأرملتان ليدي "لين" وليدي "انجرام" تتجاذبان أطراف الحديث، وقد وقف السير "جورج" قبالتهما وقدح القهوة في يده، وهو يتكلم بين الحين والحين. أما مستر "فردريك" فقد جلس بجوار "ماري انجرام" يعرض عليها نقوشا بديعة لمجلد ثمين، فكانت تبتسم تارة وتعلق بكلمة تارة أخرى. ولما اتصف به اللورد "انجرام" من فتور، فقد عقد ذراعيه واتكأ بهما على ظهر مقعد "آمي ايشتون" الفاتنة، وقد لاحظت أنها كانت ترنو إليه بعينيها وتتحدث إليه بين الفينة والفينة وكأنها بلبل يغرد، مما يدل على أنها كانت تميل إليه أكثر من ميلها إلى مستر "روشستر"! واتخذ "هنري لين" مجلسه عند قدمي "لويزيانا" وبجانبه "أديلا" التي أخذ يكلمها بالفرنسية الركيكة فكانت "لويزيانا" تغرق في الضحك من كثرة أخطائه..

أين كانت إذن "بلانش انجرام"؟ ومع من كانت تسمر؟.. لقد رأيتها قد وقفت وحدها أمام المنضدة، وانحنت في رشاقة على "ألبوم" للصور وكأنها تنتظر أن يخف إليها أحد.. بيد أنها لمحت مستر "روشستر" يبتعد عن "لويزيانا" و"آمي" ويقف هو الآخر بمفرده أمام المنضدة من الطرف الآخر، فسارت "بلانش" ثم توقفت بجانب المدفأة وقالت:

– كنت أحسب أن ليس بك ولع بالأطفال يا مستر "روشستر" وأنك غير مغرم بهم!..

– من قال إنني لست مغرما بهم؟!

فأشارت إلى "أديلا" بطرف أصبعها وأردفت تقول:

– ماذا دفعك إلى تعهد هذه الدمية الصغيرة؟ من أين أتيت بها؟. من أين التقطتها؟.

– إنني لم ألتقطها.. لقد وضعها القدر بين يدي!.

– ولماذا لم ترسلها إلى المدرسة؟

– لم يكن ذلك في الإمكان.. لأن نفقات المدارس باهظة كما تعلمين.

– يغلب على ظني أن الآنسة التي رأيتها– في رفقتها منذ قليل– معلمة أتيت بها لهذا الغرض.. أين هي؟. أتراها خرجت؟. آه.. كلا.. أنها لا تزال قابعة خلف ستائر النافذة! أنك توفيها أجرها طبعا.. وأعتقد أنه باهظ.. بل أكثر من باهظ، لأنه يكلفك إيواء اثنتين بدلا من واحدة!

وقد توجست، وإن شئت الصدق تمنيت أن تنبهه إشارة "بلانش انجرام" إليّ فيحول نظره نحوي، فازددت انكماشا.. بيد أنه لم يلتفت إلى ناحيتي، بل قال دون اكتراث وهو لا يزال يتطلع إلى الأمام:

– إنني لم أفكر في دقائق هذا الموضوع حتى الآن..

– يدهشني أن الرجال لا يأبهون بالاقتصاد والتدبير.. حبذا لو حدثتك ماما عن المعلمات، فقد تولى تعليمي أنا وأختي عدد منهن في صغرنا.. فكان بعضهن بغيضات وبعضهن سخيفات.. وكلهن تافهات.. أليس كذلك يا ماما!

– هل تكلمينني يا حياتي؟!

فأعادت "بلانش" حديث المعلمات لأمها، فقالت الأم:

– بالله لا تذكريني بالمعلمات وأمورهن.. فإن ذلك يثير أعصابي. كم عانيت منهن ومن شذوذهن.. شكرا لله الذي خلصني منهن!.

ورأيت مسز "دنت" تهمس ببضع كلمات في أذن ليدي "انجرام".. واتضح لي من الرد أنها كانت تلفت نظرها إلى وجود "معلمة" في الحجرة، فقد سمعت الليدي "انجرام" تعقب قائلة:

– وماذا في ذلك؟. فليكن.. لعلها تفيد مما أقول!.

وخفضت صوتها، ولكني تمكنت من سماعه حين استطردت تقول:

– إن فراستي لا تخيب.. وأنا أرى فيها نموذجا لعيوب طائفة المعلمات!.

وفي هذه اللحظة سمعت صوت مستر "روشستر" يدوي:

– هل تسمح السيدة بذكر هذه العيوب؟.

– أمامك "بلانش".. سلها تجبك!

– ماما.. لماذا تحيلينه علي؟ كل ما يمكنني أن أقوله أن فئة المعلمات كرب!. ولست أعني أنني ذقت الأمرين منهن، فقد كان الأمر بالعكس.. فكم من أحابيل دبرتها مع "تيودور" ضد معلماتنا، وبخاصة مس "ويلسون" ومسز "جريز" ومدام "جوبير".. ولكن "ماري" كانت لا تأبه كثيراً بما نفعل. وكانت الذع حيلنا مع مدام "جوبير"، ومس "ويلسون". كانت بدينة من النوع المستكين تبكي لأبسط إشارة فكان قهرها ميسورا، على عكس مسز "جريز" التي كانت شرسة فاقدة الإحساس تتلقى اللطمات دون أن تتأثر. أما مدام "جوبير" فكانت ضعيفة الشخصية، وعندما أثقلنا عليها ذات مرة خرجت عن اتزانها فأسالت الشاي وقذفت بالخبز والزبد حتى تكسر، وبعثرت كتبنا وأثارت ضجة صاخبة.. أما تذكر ذلك يا "تيودور"؟

وأجابها اللورد "انجرام" في غطرسة:

– أذكره جيدا.. وكانت مدرستنا العجوز العجفاء تصرخ فينا:

"يا لكم من شياطين!" فكنا نجيبها بأنها مادامت هي جاهلة فلا يجدر بها تعليم أطفال شياطين وأذكياء!

– حقا.. وهل تذكر أنني كنت أعاونك على إلحاق الأذى بمعلمك ذي السحنة الكالحة مستر "فايننج"؟. ذلك الرقيع الذي استظرف نفسه، فطارح مس "ويلسو" الهوى.. وحين افتضح أمرهما بعد أن رأيتهما يتبادلان النظرات الولهى وتنهدات الصبابة، طردتهما ماما! أتذكرين ذلك يا والدتي؟

– طبعا.. وكان ذلك هو التصرف الحكيم في هذه الحالة. ولست بحاجة إلى القول أن منزلا له تقاليده ونظمه لا يليق أن يتطارح فيه المعلمون والمعلمات الهوى لعدة أسباب منها..

– لا داعي يا أمي إلى سرد الأسباب فهي لا تخفى على أحد: تجنب القدوة السيئة، وشغل الأفكار بالسفاسف مما يدعو إلى إهمال الواجب وما يصاحب ذلك من وقاحة وتقريع وعصيان.. أليس كذلك يا بارونة؟!

– تماما يا زهرتي اليانعة.. إني فخور بحصافتك!

– لنطرق موضوعا آخر، ففي ذلك الكفاية..

ويظهر أن "ايمي" لم تسمع كلمة "بلانش" الأخيرة، أو أنها لم تأبه بها، فقالت بصوت طفلي رقيق:

– ونحن أيضا، أنا و"لويزيانا"، كثيرا ما كنا نسخر من معلمتنا، ولكنها لطيبتها كانت صبورا لا يثيرها شيء فكانت لا تنقم علينا.. هل تذكرين يا "لويزيانا"؟..

– نعم يا "ايمي".. لقد كنا نفعل ما لا يخطر ببال، فكنا نبعثر محتويات أدراجها وصندوق أشغالها، ومع ذلك كانت سموحة عطوفة لا تضن علينا بشيء.

وعادت "بلانش انجرام" تقول وقد مطت شفتيها في تهكم واستهزاء:

– لعلنا الآن قد أوضحنا في إيجاز فكرة عامة عن جميع المعلمات، فأحرى بنا أن نكتفي بذلك وأن نتحدث في موضوعات أخرى.. هل توافق على ذلك يا مستر "روشستر"؟

– لا يمكن إلا أن أوافق يا سيدتي، بل أن موافقتي تمتد إلى غير ذلك.

– إذن دعني أتخير الموضوع.. هل بك ميل إلى الغناء الليلة؟

– إذا تعطفت بالأمر يا دونابيانكا!!

– إذن فمشيئة فخامتنا تقضي بأن تهيئ نفسك وصوتك لتكون في خدمة عظمتنا!

– ومن ذا لا يسره أن يغني مع عازفة نابغة مثلك؟!!

وعندئذ رأيت أنها الفرصة المواتية لكي أتسلل إلى خارج الحجرة، بيد أن الصوت الذي صاحب اللحن جذبني بشدة وجعلني لا أبرح مكاني. وأذكر أن مسز "فيرفاكس" أخبرتني ذات مرة أن مستر "روشستر" يتمتع بصوت عذب.. والواقع أن صوته رخيم عميق، وقد مزج فيه شعوره فسرى في أذني ونفذ إلى قلبي حيث أيقظ أحاسيسي. ولم يسعني إلا أن انتظر حتى انتهت الأغنية، وعاد القوم يتبادلون الحديث من جديد. فغادرت مكاني وتسللت من الباب الجانبي وكان قريبا مني إلى ممر ضيق.. توقفت فيه لأحكم رباط حذائي، ثم سمعت باب حجرة المائدة يفتح، ليبرز منه أحد السادة، وإذا بي أجد نفسي وجها لوجه أمام مستر "روشستر"، فبادرني بقوله:

– كيف حالك؟.

– إنني بخير يا سيدي..

– لماذا لم تتحدثي إلي في حجرة الاستقبال؟

وجال بذهني أن أسأله أنا هذا السؤال، ولكني راجعت نفسي بأن ليس لي أن أمنحها من الحرية إلى هذا الحد، فاكتفيت بأن قلت:

– رأيت أن لا أضايقك، فقد كنت مشغولا يا سيدي.

– وماذا كنت تفعلين وأنا غائب؟.

– عملي المعتاد.. تعليم "أديلا".

– أراك زدت شحوبا على غير سابق عهدك.. هل حدث شيء؟

– لم يحدث شيء يا سيدي..

– هل أصابك برد أو ضر في الليلة التي غمرتني فيها بالماء؟

– كلا..

– عودي من حيث أتيت.. إلى غرفة الاستقبال.. لماذا غادرتها مبكرة هكذا؟

– أنني أشعر بالتعب يا سيدي..

فرشقني بنظرة تأمل، ثم استطرد يقول:

– ولعلك مكتئبة أيضا.. اخبريني لماذا؟

– لست مكتئبة يا سيدي.. ما بي شيء من هذا..

– إنني متأكد من ذلك.. بل أنك مكتئبة جدا إلى حد تكفي معه بضع كلمات لتطفر الدموع من عينيك، بل أنها في مآقيك الآن حيرى بين الاحتباس والانهمار.. أراها تلتمع وتسبح.. ها هي ذي دمعة استعصى حبسها فسقطت على الأرض. الوقت غير مناسب، كما أخشى أن يرانا خادم سليط اللسان، ولولا ذلك لأصررت على حل رموز هذا اللغز.. سأتجاوز هذه الليلة. ولكن عليك أن تحضري إلى حجرة الاستقبال كل مساء، هذه رغبتي فلا تهمليها.. أرجو ترسلي "صوفي" إلى "أديلا" أتمنى لك ليلة هانئة يا..

ولم يكمل ما كان يريد أن يقول، بل جز على شفته وتركني ومضى.

الفصل الثالث عشر

سعير الحب

اقترن المرح والسرور بالعمل والنشاط في قصر "ثورنفيلد" في هذه الأيام.. فلم تكن كالأيام الأولى التي قضيتها في سكون ممل وعزلة موحشة. وخيل إلي أن المشاعر والإحساسات المقبضة قد انجابت وحلت محلها حياة نابضة بالحركة، فكانت كل واحدة من الردهات والحجرات تزخر بوصيفات أو وصفاء بعد أن كادت تكون خالية.. كذلك دبت الحياة في كل ركن من أرجاء القصر. ولم تكن حجرات الاستقبال تخلو إلا عندما ينطلق السادة في نزهات الربيع. وحين تعوقهم رداءة الجو، كانوا يعمدون إلى ضروب من التسلية داخل القصر، كأن يتندرون بالألغاز والأحاجي، بيد أنني لم أكن أفهم ما يتندرون به.

وذات مرة رأيت الخدم وقد لفتهم موجة نشاط غير عادية، فنقلوا موائد حجرة الطعام، ونسقوا الأنوار تنسيقا جديدا، ووضعوا المقاعد في وضع دائري لنصف دائرة في مواجهة القبو. وكان مستر "روشستر" يشرف على كل ذلك يشاركه السادة، وإذا بالسيدات يذرعن الدرج صعودا ونزولا وارتفعت أصواتهن ينادين وصيفاتهن. ثم استدعت مسز "فيرفاكس" لتخرج ما في القصر من أوشحة وملابس، فإذا منها مجموعات متباينة موشاة وذات أهداب، أرسلت إلى الطابق الأرضي، واختير بعضها فأرسل إلى مقصورة تتصل بحجرة الاستقبال. وفي هذه اللحظة جاء مستر "روشستر" يطلب إلى السيدات أن يلتففن حوله، وأخذ يختار من بينهن أعضاء فرقته وهو يقول: "لا شك أن مس "انجرام"

ستكون معي" ووقع اختياره على "ايمي ايشتون" و"لويزيانا" ومسز "دنت". ثم رأيته يلتفت إلي ويسألني:

– هل تلعبين؟..

فهززت رأسي معتذرة، فلم يلح. وتركني أعود إلى مقعدي ثم سار بصحبة زميلاته خلف الستار.. وجلست المجموعة الأخرى، وعلى رأسها الكولونيل "دنت" على المقاعد التي صفت في نصف دائرة. وأبدى مستر "ايشتون" الرغبة في إشراكي معهم، ولكني سمعت الليدي "انجرام" تحتج وتقول:

– لا داعي لذلك.. فهي ليست على شيء من الذكاء بحيث تستطيع الاشتراك معنا.

وبعد فترة قصيرة سمعت جرسا يدق ورأيت الستائر ترتفع.. ومن خلال القبو، رأيت السير "جورج لين"، وهو من فريق مستر "روشستر"، قد التف بملاءة ناصعة البياض وأمامه كتاب ضخم مفتوح فوق منضدة. ووقفت بجانبه "ايمي ايشتون" وقد تدثرت بعباءة مستر "روشستر" وأمسكت بيدها كتابا آخر.. وقرع الجرس شخص مختف، وإذا بأديلا التي ألحت في إصرار أن تكون ضمن فريق مستر "روشستر" وقد أخذت تنثر الزهور حولها من سلة معلقة في ذراعها. وظهرت مس "انجرام" بقامتها الممشوقة، ترتدي حلة بيضاء وتتشح بوشاح طويل يزين جبينها إكليل من الورد، يسير إلى جانبها مستر "روشستر". واقتربا وركعا أمام المنضدة، بينما وقفت خلفهما مسز "دنت" و"لويزيانا" بملابسهما البيضاء. وأعقب ذلك احتفال صامت هو في الواقع حفل زواج.. ما أن انتهى حتى تهامس الكولونيل مع أعضاء فريقه ثم صاح: "عروس!!".. وعند ذلك انحنى مستر "روشستر" وأنزل الستار.. إذ عرف فريق المخمنين الكلمة التي يرمز إليها المنظر!

وانقضت فترة طويلة قبل أن ترفع الستارة مرة أخرى لتكشف عن منظر أشد بهاء، ظهر فيه مستر "روشستر" بجانب حوض من الرخام وقد ارتدى من الملابس ما يوحي أنه أمير من أمراء الشرق. وأخذت مس انجرام تتهادى في مشيتها وقد لفها وشاح قرمزي، تسند جرة بإحدى ذراعيها. واقتربت من الحوض، وكأنها تهم أن تملأ الجرة وهمس السيد في أذنها فقدمت له الجرة ليشرب، وعندئذ أخرج علبة وفتحها فأطلت منها جواهر تظاهرت مس "انجرام" بالدهشة مقرونة بالإعجاب لمرآها. وتحيرت جماعة المتكهنين في معرفة العبارة التي يصورها ذلك المنظر. ثم استمر القوم في تمثيل مشاهد أخرى إلى أن فرغت جعبتهم، فخلعوا ثياب التمثيل وارتدوا ثيابهم العادية وعادوا إلى حجرة الطعام. ودخل مستر "روشستر" وبرفقته مس "انجرام" وهي تحدثه بإعجابها بفنه فتقول:

– هل تعلم أن حبي لك بلغ أقصاه حينما كنت تقوم بتمثيل الفصل الثالث.. عندما كنت تتقمص شخصية قاطع طريق شهم؟!

– خبريني أولا.. هل زال كل أثر للسناج عن وجهي؟

– نعم.. ومما يؤسف له أن لا شيء يتلاءم مع تقاطيع وجهك كهذا الطلاء الذي ينم عن إجرام!..

– إذن ففتى أحلامك تتمنينه من هذا الطراز؟

– أني أعجب بالمغامرات!

– لا تنسى أنني زوجك الآن.. ألم يعقد قراننا منذ ساعة أمام الجميع؟

ووقع هذا التعليق موقع القبول منها، فضحكت وتضرجت وجنتاها. فعاد يقول:

– لقد حان دورك يا "دنت".

وتغيرت الأماكن، فجلس مستر "روشستر" وفريقه وإلى جانبه مس "انجرام".. فلم أجد في نفسي رغبة في متابعة الممثلين، بل تحول انتباهي إلى مستر "روشستر" وفريقه، فلم ألق بالا إلى أي مشهد تمثيلي. وكنت أرقب السيد وهو يميل نحو مس "انجرام" أو أراها وهي تميل نحوه وتلتصق به حتى تداعب خصلات شعرها وجنته. وأنني لأذكر حتى الآن الغصة التي أحسست بها لهذا المنظر..

لقد وجدت نفسي أحب مستر "روشستر". ولم يكن في مقدوري أن أعدل عن ذلك لما أراه من عدم اهتمام بي، أو لأن فتاة من علية القوم استأثرت به وخلبت لبه، فتاة عظيمة بالنسبة لي تأنف حتى أن تسمح لعينيها أن تنظر إلي: ولم أقو على مقاومة عاطفة الحب حتى لمجرد أن ظهر جليا أمامي أنه سيتزوج هذه الفتاة، فقد كانت جميع البوادر تدل على ذلك من اطمئنانها وضروب تودده إليها.. بيد أنه كان رزينا كي يحملها على أن تسعى هي إليه، فكان في رزانته ساحرا لا سبيل إلى مقاومته!

***

لم أجد أمامي ما يخفف من سعير ذلك الحب، أو يمحو لوعته من قلبي، بل كان اليأس والقنوط يملآني. وقد يتبادر إلى الذهن أن ذلك بسبب الغيرة. ولكن لا محل للغيرة هنا مع وجود الفارق بين واحدة مثلي وفتاة مثل مس "انجرام". ولم تناوشني الغيرة إلا نادرا، فقد كانت غريمتي أتفه في نظري بحيث تدفعني إلى الغيرة. ولا أقصد بذلك الحط من شأنها، فقد كانت رائعة، ولكنها روعة مجلوبة متصنعة.. وكانت جميلة ناضرة، ولكنها كانت تافهة العقل مجدبة القلب. لا تنم حركاتها عن أحاسيس أو إخلاص، ولم تكن تملك من معالم الصدق والصفاء شيئا، فكانت تعبر عما تريد التعبير عنه بما هو مسطور في الكتب من كلام

أجوف.. فهي كالببغاء ناقلة لا رأي لها ولا ابتكار. وكانت كل عواطفها في تصنع لأنها كانت مجردة من العاطفة الأصيلة. ووضح ذلك بما كانت تبديه من نفور نحو "أديلا"، فكانت تزجرها وتنهرها إذا حاولت الصغيرة التقرب إليها بل كانت تأمرها بالخروج في غطرسة وتعاملها بقسوة لا مبرر لها. ولم أكن وحدي ألاحظ ذلك، بل لاحظ مستر "روشستر" بنفسه أيضا هذا الشذوذ في تأمل ودهشة ولا شك في أسف أيضا. فمما لا شك فيه أنه كان يدرس طباع "عروسه" في تعمق ليزن بين محاسن فاتنته ومساوئها.

وتبين لي أنه سوف يتزوجها لاعتبارات عائلية أو اجتماعية، ولأن مركزها يتناسب مع مركزه.. ولكني في الوقت نفسه، تبينت أن قلبه بعيد عنها كل البعد.. ولعل ذلك لأنها ليست جديرة بمثل هذا القلب الكبير.. وكان هذا بيت القصيد.. النقطة الحساسة في الموضوع، وهي أنها لم تستطع أن تملك زمامه وتستهوي قلبه وتحظى بحبه.

ولو حدث ذلك لكان أحرى بي أن أنزوي أو أهرب من الميدان من أجلهما. ولو كانت الفتاة كبيرة في القوة والعقل، لوجدت نفسي في تضال مع غضنفرين: اليأس، والغيرة، وما كان في استطاعتي إلا الإعجاب بها ولو على أشلاء قلبي لتفوقها، ولركنت إلى الاستسلام والفوز من الغنيمة بالإياب. ولكن الحال غير ذلك، فقد كانت مس "انجرام" تبذل جهودا جبارة لتمس قلب مستر "روشستر" وتفوز به، وكانت جميع جهودها تمني بالفشل.. وكلما خالت أنها ملكت الصولجان استهواها الغرور، وكانت كبرياؤها تتحطم على صخرة العجز. وكان كل ذلك يسلمني إلى انفعالات لا ترحم. وكنت أعجب كيف أن أسلحتها التي كانت تصوبها لتنفذ إلى قلبه، كانت تسقط عند قدميه ولا تنال منه وترا حساسا. في حين أن تلك الأسلحة كانت خليقة أن تثير في قلبه جذوة الحب

فتزيل عبوس نظراته وتلين معالم قسماته. وبان لي أن قلب مستر "روشستر" قلعة منيعة من العسير غزوها.

ودفعني ذلك إلى أن أسأل نفسي:

– لماذا هي عاجزة عن إصابة الهدف ورشق قلبه بسهام حبها، وقد تسنى لها أن تتقرب إليه إلى هذا الحد؟!.. إن قلبها– من غير شك– لا ينبض بحب صادق، وإلا لكانت في غير حاجة إلى تصنع الابتسامات وبذل النظرات والتفنن في إبراز الرشاقة وإتقان تمثيل دور الولهانة. ويغلب على ظني أنها كانت تغدو أقرب إلى قلبه وجنانه لو أنها تركت نفسها على سجيتها دون ما تصنع ورياء، واقتصدت في حديثها ونظراتها.. وقد لمحت علائم التأمل في نظراته حينما كانت تنطلق على سجيتها وتطرح التكلف جانبا.. فالتصرف على هذا النحو جدير بأن يغذي قلب الرجل، فينعطف قلبه وينبض قلبه بمشاعر الحب.. ترى كيف يتسنى لها ترويضه والعمل على إرضائه وإيقاظ مشاعره وامتلاك قلبه إذا قدر لهما أن يصبحا زوجين؟.. أكاد اعتقد أنهما لن يوفقا إلى أن ينهلا من ينابيع السعادة، بيد أنه لابد من التوافق والتمازج والاندماج في غير تكلف أو تصنع أو رياء. وأنا أجزم أن المرأة التي يتزوجها مستر "روشستر" خليقة بأن تبز في السعادة غيرها، لأنه شخصية فريدة فذة وقلب كبير.

لم أنوه حتى الآن عن استنكاري لا عتزام مستر "روشستر" الإقدام على زواج يرتكز على المصلحة فقط دون سواها من الاعتبارات الجوهرية. وأخذتني الدهشة، واستبد بي العجب، حين تبينت أنه يميل إلى ذلك، فقد كنت أعتقد أن مستر "روشستر" لا يستهويه أمثال هذه العوامل الزائفة البغيضة.. بيد أنني كلما تعمقت في تحليل مركز السيد ومركز مس "انجرام" شعرت أنني جائرة في الحكم عليهما، فقد كانت هذه تقاليد غرست فيهما منذ النشأة.. تقاليد تسير عليها

هذه الطبقة لأسباب يعجز عنها إدراكي. على أنه قر في نفسي أنني لو كنت مكانه، لما تخيرت سوى المرأة التي أكن لها الحب لتكون شريكة حياتي، ضاربة عرض الحائط بأي اعتبارات أخرى.. فلابد أن هناك أسبابا أخرى تدفعه إلى ذلك. وهنا بدأت أتراخى شيئا فشيئا في الحكم عليه، فتلاشت صور عيوبه من مخيلتي وتجسمت أمامي شمائله الطيبة..

وكنت غارفة في دوامة من التفكير في ذلك اللغز الماثل أمامي، وفي الأحاجي التي تومض ثم تختفي، دون أن أصل إلى كنهها وأغوارها.. فيشملني شعور بالتوجس، وانكمش كأنني أتخبط في بيداء مترامية.. وأصبح كل همي هو اجتلاء الحقيقة وحل الرموز. ودار بخلدي أن مس "انجرام" قد تستطيع الوصول إلى أغوار نفسه، والنفاذ إلى أعماق عينيه فتنعم بالسعادة..

كنت أنا مستغرقة في التفكير في أمرهما، بينما كان المدعوون في شغل بأنفسهم وبشئونهم ولهوهم.. انهمكت اثنتان منهم في حديث هامس تتخلله بعض الإيماءات، وكانت مسز "دنت" الدمثة تتبادل الحديث مع مسز "ايشتون" ذات القلب العطوف، وكانتا تمنحاني بسمة ملاطفة أو كلمة مجاملة بين الحين والحين. وأخذ بعض الرجال يتناقشون في السياسة، بينما أخذ اللورد انجرام يتودد إلى "ايمي اشتون" ويطارحها الغزل، وانفردت "لويزيانا" بأحد أبناء "جورج لين" واندمجا في العزف والغناء.. أما "ماري انجرام" فكانت تصغى إلى ما يحدثها به ابنه الآخر. وكان الجميع يولون– بين الحين والحين– بعض الالتفات إلى الممثلين.. بيد أن "بلانش انجرام" لازمت السيد كظله، وكان الاثنان قبلة الأنظار.. إذا احتجبا خيم الوجوم على النفوس، وإذا عادا وظهرا دبت نشوة الحياة في الأحاديث!

وحدث ذات مرة أن ذهب مستر "روشستر" إلى "ميلكوت" لأمر استدعى ذلك.. وتوقع الجميع أن غيابه سيطول، وكانوا قد رتبوا أمرهم على التوجه لمشاهدة إحدى خيام الغجر.. فعدلوا عن ذلك، وذهب بعض الرجال إلى حظائر الخيل، وقصد فريق الشبان والشابات إلى صالة البلياردو، وأخذت الليدي "انجرام" تقتل الوقت بلعب الورق في الليدي "لين" بينما اعتكفت "بلانس انجرام" بمفردها، وفشلت كل محاولة لانتشالها من عزلتها. وعزفت– لفترة قصيرة– على البيانو، ثم همت إلى المكتبة وعادت بكتاب أغلب الظن أنه قصة، وانتحت ركنا وأخذت تقرأ لعل سحر القصة يذهب عنها الملل الذي استشعرته لغياب مستر "روشستر".. فبدا القصر ساكنا، فيما عدا بعض الأصوات المرحة التي كانت تتناهي إلى السمع من صالة البلياردو بين الحين والحين.

***

وحان موعد العشاء.. وبدأ الجماعة يستعدون لذلك، وإذا بي أسمع "أديلا" تطلق صيحة بجانبي على غير انتظار:

– لقد عاد مستر "روشستر"!

فكانت صيحتها كالتيار الكهربائي.. فقد وجدت نفسي أستدير، بينما قفزت "بلانش انجرام" عن الأريكة، كما اشرأبت أعناق المدعوين حين طرقت أسماعهم جلجلة عجلات ووقع حوافر جياد على الطريق.. وما لبثت أن ظهرت عربة البريد، فقالت "بلانش":

– ترى لماذا آثر أن يعود في هذه العربة، مع أنه رحل على جواده يرافقه "بايلوت"؟!.

واقتربت من النافذة، شامخة بقامتها وثيابها.. فاضطررت إلى الانحناء، ولعل لهفتها ألهتها عن وجودي، فلما لمحتني زمت شفتيها وتحولت إلى نافذة أخرى. ووقفت العربة وهبط منها رجل طويل متأنق في لباس السفر.. فظهر الحنق على وجه "بلانش انجرام" وانفجرت صائحة في "أديلا"":

– كم أنت مقلقة أيتها الحية... ماذا حملك على إلقاء أنباء كاذبة..؟!

ثم رشقتني بنظرة غضب، كأنني المسئولة عن ذلك..

وظهر الضيف الجديد يسير في البهو، وتقدم نحو الليدي "انجرام" وانحنى أمامها باعتبارها أكبر السيدات سنا، وقال:

– لعلني جئت في وقت غير مناسب إذ أن مستر "روشستر" متغيب عن القصر. ولكني آت من رحلة طويلة، وعلاقتي الوطيدة بالسيد تسمح لي بالبقاء حتى يعود..!

وكان يتكلم في أدب ولباقة، وبدت لي لهجته غريبة.. فلا هي أجنبية تماما ولا هي انجليزية، وسنه تقارب سن مستر "روشستر"، في العقد الرابع من عمره، يبدو جميلا شاحب اللون لأول وهلة.. فإذا أمعنت فيه النظر لا يروقك منظره، وكان دقيق الأسارير واسع العينين، بدا لي منهما أن حياته تافهة خاملة..

وذهبت الجماعة لارتداء ملابس العشاء، ووقع نظري على الضيف الجديد بعد الانتهاء من العشاء، فبدا لي هادئا يتسم بالوداعة... بيد أنني لم أشعر بالارتياح لما تبينته في أساريره، فقد خيل إلي أنه جامد في غير رزانة، وأن حياته خاوية، وأن عينيه تجولان في لا شيء، مما جعله يبدو لي في صورة لا عهد لي بها.. كان مليحا إلى حد ما، بيد أنه بالرغم من ذلك أثار نفوري، فلم ألمح فيه شيئا من بوادر القوة أو الحزم، ولم تعبر عيناه عن قوة الشخصية..

وأخذت أرقبه على ضوء الشموع، وكان بجوار المدفأة يلتمس الدفء. ورحت أقارن بينه وبين مستر "روشستر" فتراءى لي وكأنه طائر هضيم إلى جانب نسر جارح.. فمن عجب أن يذكر أنه صديق قديم لمستر "روشستر" إذ كيف يجتمع نقيضان. وتبادل الحديث معه بعض السادة، بيد أن أحاديثهم ضاعت وسط أحاديث غيرهم ممن كانوا يتحدثون عنه، وسمعت "ماري انجرام" تصفه بالجمال، وأنها معجبة بفمه الدقيق وأنفه البديع، بينما وصفته "لويزيانا" بأنه رجل محبوب وأنها شديدة الإعجاب به وأطرت جبينه الذي ينم عن خلق، وقالت أن نظرته وابتسامته أسرتاها..

ودعيت الجماعة من أحدهم إلى جانب من الحجرة للتشاور في أمر النزهة التي أرجئت، فغمرني شعور بالارتياح لأنني استطعت أن أركز انتباهي على من التفوا حول المدفأة.. فعرفت أن الضيف الجديد يدعى "ميسون"، وأنه هبط انجلترا لتوه قادما من إحدى البلاد الحارة.. تدل كل ذلك سمرة بشرته وجلوسه بقرب المدفأة، كما أنه ظل مرتديا معطفه. وسمعت كلمات كينجستون وجمايكا وغيرهما تجري على لسانه مما جعلني أفهم أنه كان يعيش في جزر الهند الغربية. وأخذتني الدهشة حين عرفت أن أول معرفته بمستر "روشستر" كانت هناك.. وسمعته يتحدث عن نفور صديقه من الحرارة والعواطف والجو الممطر في تلك الجزر. وكنت أعرف من قبل أن مستر "روشستر"مغرم بالرحلات، فقد أخبرتني بذلك مسز "فيرفاكس".. بيد أنني ما كنت أظن أن رحلاته تجاوزت أوربا إلى غيرها من القارات.

وحدث وأنا أفكر في ذلك أن فتح الباب وظهر أحد الخدم، فطلب منه مستر "ميسون" أن يزود المدفأة بالفحم فقد كادت تخبو.. وعندما هم الخادم بالخروج بعد أن لبى طلب الضيف، توقف وأسر إلى مستر "ايشتون" ببضع

كلمات تبينت منها "سيدة مسنة" و"مصدر تعب شديد"، فقال له مستر "ايشتون":

– بلغها أنني أطلب إليها أن ترحل فورا، وإلا فسأضطر إلى الزج بها في السجن!..

ولكن الكولونيل "دنت" اعترض على ذلك قائلا:

– كلا.. كلا.. لا تتصرف هكذا يا "ايشتون".. قد نستفيد من الأمر، ويجمل بنا أن نستشير السيدات..

والتفت ناحيتهن، ثم صاح:

– لقد كان في نيتنا زيارة إحدى خيام الغجر.. وقد علمنا أن إحدى عجائزهن موجودة الآن في غرفة الخدم، وأنها تطلب في إلحاح المثول أمامنا لتكشف عن الحظ.. فما رأيكن.. وهل ترغبن في ذلك؟

فاعترضت الليدي "انجرام" وقالت بحنق:

– لا يجمل بك أن تشجع هذه المحتالة الحقيرة.. اطردوها فورا.!

فقال الخادم:

– أن ذلك غير مستطاع يا سيدتي.. لا أنا ولا أحد من الخدم يمكنه أن يصرفها.. أن مسز "فيرفاكس" معها الآن تضرع إليها أن ترحل دون جدوى، فقد تسمرت في ركن الغرفة، وقالت أن أية قوة أو محاولة لا تستطيع مهما بلغت أن تحملها على الانصراف، أو تزحزحها عن مكانها، ما لم يسمح لها بالمثول بين أيديكم!

فقالت مسز "ايشتون":

– ماذا تبغي هذه الغجرية من وراء ذلك؟

– أن تكشف للسادة عن حظوظهم.. وتلح في ذلك بل وتقسم أنها لابد أن تفعل، وأنها ستفعل حتما..

وسألت ابنتا مسز "ايشتون" عن شكلها، فقال الخادم:

– أنها عجوز شمطاء، تثير الاشمئزاز بدمامتها.. فاحمة السواد!

فصاح "فردريك" على الفور:

– إذن فهي ليست محتالة.. أنها ساحرة حقا.. لنسمح لها بالدخول.

وقالت الليدي "انجرام":

– أنني لا أطيق هذا الإلحاح ولا أقبله..

– وأردفت ابنتها "بلانش" تقول:

– أحقا يا أماه.. شيئاً من التسامح.. كم أنا مشوقة إلى معرفة مستقبلي..

ونظرت إلى الخادم "سام" واستطردت:

– دعها تحضر!..

فعادت الليدي "انجرام" تقول:

– تذكري أيتها العزيزة بلانش..

– إنني أذكر جيدا كل ما تريدين أن تقولي.. لكن هذه رغبتي، ويجب أن تنفذ.. هيا يا "سام".. أسرع..

وفي هذه اللحظة تصايح فريق الشباب من الجنسين:

– أننا من رأي "بلانش انجرام".. دعها تحضر، فستكون أداة ترفيه لطيفة وطريفة..!

بيد أن "سام" تمهل قليلا، ثم قال:

– ولكنها تبدو فظة شرسة!..

فنهرته "بلانش انجرام" وصرخت في وجهه:

– اذهب كما قلت لك...

فخرج الخادم، وشاع الهرج بين الجماعة، وسرت فيهم روح الفكاهة وعاد "سام" بعد فترة قصيرة ليقول لهم:

– أنها ترفض المجيء وتقول أنها لا تقبل المثول بين جماعة لاهية، وأنه إذا كان ولابد فليكن وجودها في إحدى الحجرات، وأن على من يرغب في معرفة حظه أن يذهب إليها بمفرده..!

فعلقت "الليدي انجرام" إذ سمعت ذلك، بقولها:

– هل ترين يا ابنتي العظيمة كيف تجاوزت الحدود؟.. لماذا لا تستمعين إلى نصيحتي يا "حبة قلبي" و..؟

فقاطعتها بلانش، ووجهت الكلام إلى الخادم قائلة:

– اذهب بها إلى حجرة المكتبة، فأنا أيضاً لا أحب أن تقرأ لي حظي أمام "الجماعة اللاهية"، أنني أفضل أن أخلو بها!

– ولكن يبدو أنها ثرثارة يا سيدتي!..

– أنت الثرثار أيها الأحمق.. نفذ ما آمرك به.

وخرج الخادم للمرة الثانية.. وظل الجماعة في ترقب إلى أن عاد ليقول:

– أنها الآن في انتظار من يحضر، وتريد أن تعرف من ستكون أولى زائراتها..

وأراد الكولونيل أن يلقي عليها نظرة، فطلب إلى الخادم أن يخبرها بذلك، فذهب ثم عاد يقول:

– أنها ترفض أن تقابل أحدا من السادة، ولا داعي لأن يفكروا في ذلك، كما أنها لا تستقبل سيدات.. فلا تقبل إلا من كانت آنسة لم تتزوج بعد.

– أنها ذات ذوق جميل!..

فهمت مس "انجرام" لتذهب إلى الغجرية، ونصحتها أمها بالتريث فلم تأبه لنصيحتها، وسارت نحو المكتبة ودلفت من بابها. وتغامزت بعض السيدات، وإن ظهر عليهن القلق.. وعادت مس "انجرام" بعد ربع ساعة، فتطلعت إليها العيون في تساؤل وفضول، ولكنها قابلت ذلك بنظرة غامضة باردة.. فلا هي باشة، ولا هي عبوسة، وجلست في صمت. وانهالت عليها الأسئلة من اللورد "انجرام" ومن "ماري" ومن غيرهما فقالت للجميع:

– لا تثقلوا علي بأسئلتكم، ولا تولوا الأمر اهتماما.. أنها ليست ساحرة أصيلة، فهي مشعوذة كغيرها من محترفي الدجل.. إني أفضل لها السجن كما أشار مستر "ايشتون"!

وتناولت كتابا، لعزوفها عن الحديث، ولكني لاحظت أنها لا تقرأ في الكتاب.. ولمحت على وجهها أمارات الضيق، فعرفت أنها لم تسمع كلمة تسرها، بيد أن ما سمعته شغل أفكارها. وسمحت العرافة "لماري" و"لويزيانا" بالمثول أمامها معا. وتخلل زيارتهما للعرافة ضحكات جنونية.. وعادتا بعد حوالي

نصف ساعة لتنهيا إلى الجماعة أنها عرافة خارقة، وأنها فوق مستوى البشر.. فقد حدثتهما عن أمور حقيقية كأنها كانت معهما وقت حدوثها.

وطلبت الجماعة منهما أن تفصحا، فأكدتا أنها قرأت لهما ما كان يدور في رأسيهما، وأنها همست لكل منهما باسم الشخص الذي تميل إليه.. فطلب الرجال إيضاح هذه النقطة بصراحة أكثر، فتضرجت وجناتهما.. وساد المكان بعض الهرج.

وفي غمرة هذا الصخب، كنت أتابع حركات كل فرد من الجماعة بنظراتي.. سمعت صوتا بجانبي، فاستدرت نحو الصوت ورأيت "سام" يقول لي:

– تذكر العرافة أنه لا تزال بالحجرة شابة لم تتزوج بعد لم تذهب إليها حتى الآن، وتلح في طلب حضورها، وهي تعنيك ولا شك.. فما رأيك وماذا أقول لها؟

– طبعا سأذهب إليها...

وشعرت بالفرح في قرارة نفسي، فهي الفرصة التي أشبع فيها فضولي، وتسللت خارجة دون أن يلحظني أحد.. فقد كانت الجماعة تحيط بالشابات العائدات لتوهن اللواتي كانت أطرافهن ترتجف كريشة في مهب الريح. ودلفت من الباب، ثم أغلقته في هدوء فقال "سام":

– هل انتظرك هنا يا سيدتي، حتى إذا رأيت بي حاجة ناديتني فأدخل على الفور؟

– لا داعي لذلك يا "سام".. يمكنك أن تعود إلى المطبخ، فإني لا أخاف من شيء!..

ذلك لأنني لم أكن استشعر الخوف قط، بل على العكس كنت شديدة الغبطة واللهفة على ما ستنبئني به العرافة مهما كان!

كان السكون يشمل المكتبة عند دخولي، ووجدت العرافة مضطجعة على مقعد بجوار المدفأة، ملتفة بعباءة حمراء وقلنسوة سوداء عريضة شدت بمنديل إلى ذقنها.. ورأيتها تقرأ في كتاب على وهج نار المدفأة وتغمغم ببعض كلمات، فلم تكف عن القراءة عند دخولي..

***

ووقفت في وسط الحجرة التمس بعض الدفء.. ولم استشعر أي خوف، على العكس كنت رابطة الجأش، فلم يكن في مظهرها ما يدعو إلى الخوف.. رأيتها تطوي الكتاب ثم تنظر إلي، فاستطعت أن أتبين ملامح وجهها، فإذا هو أسمر تعلوه خصلات من شعر مشعث تطل من منديل أبيض. وسدت إلي نظرة فاحصة، ثم قالت بصوت أجش جريء واضح النبرات:

– ترغبين طبعا أن تعرفي طالعك يا آنسة؟

– ليس ذلك بذي بال يا أماه.. أنني لا أؤمن بذلك!

– قول صريح ينم عن جرأة لمستها في خطواتك وأنت قادمة..

– أنك تتمتعين بسمع حاد يا أماه!..

– وكذلك ببصر حاد وذهن متوقد!..

– لعل هذا من مستلزمات عملك..

– هو ذلك.. وبخاصة مع من يكون على شاكلتك من الزبائن.. أراك لا ترتعدين!

– لأنني لا أشعر بالبرد..!

– ووجهك على طبيعته، لا يعتوره شحوب!..

– لأنني أنعم بالصحة والحمد لله.. ولست مريضة..

– ولماذا لا تؤمنين بما سأنهي به إليك؟..

– لأنه هراء، وأنا لست حمقاء!..

فأطلقت العجوز ضحكة، ثم أشعلت غليونا وأخذت تدخن. وما لبثت أن اعتدلت، وقالت على مهل دون أن ترفع نظرها إلي، بل كانت تحملق في النار وقد ألقت غليونها جانبا:

– أنك تستشعرين البرد.. ومريضة.. وحمقاء..!

– ماذا تقولين؟.. كيف تثبتين ذلك؟!..

– تشعرين بالبرد لأنك وحيدة دون أنيس، لا يذكي النار الكافية فيك تجاوب.. وأنت مريضة لأنك محرومة من أسمى وأشهى مشاعر الرجال.. وأنت حمقاء لأنك برغم ما تعانينه فإنك لا تقدمين على خطوة ليقترب إليك وتلتقي به فهو يترقبك!

وعادت إلى غليونها، وراحت تجذب منه الأنفاس وتنفثها، فقلت لها:

– هذا كلام يمكن أن تقوليه لأي فتاة في مثل ظروفي تعرفين أنها وحيدة!

– هذا صحيح.. ولكن هل يصدق على الغير؟!

– إذا كان الغير في مثل ظروفي.. وهناك آلاف منهم..

– من العسير أن تجدي مثلا واحدا.. بيد أنك فريدة في موقفك، والسعادة أقرب إليك من ظلك، وجميع الظروف مهيأة لها ولا تحتاج إلى مجهود يبذل، وبقليل من الإقدام تصلين إلى الهناء!..

– أكاد أسمع ألغازا لا أستطيع لها فهما!..

– أريني كفك لأزيدك إيضاحا.. وقدمي الأجر الرمزي!

***

ودسست في يدها قطعة من النقود، وضعتها في جورب قديم أخفته بين طيات ثيابها، ثم اقتربت بوجهها من كفي.. وقد بسطت يدي، ونظرت فيها مليا دون أن تلمسها ثم قالت:

– أنها بضة تكاد تكون خالية من الخطوط، فلا أستبين فيها شيئا.. بيد أن الكف لا يخبر عن المصير..

– صدقت..

فاستطردت تقول:

– أن ذلك مكتوب في الوجه.. على الجبين.. في العينين وفي خطوط الفم.. اركعي قليلا وارفعي رأسك!..

فقلت في دعابة:

– سأمنحك بعض ثقتي.. إذ يخيل إلي أنك اهتديت إلى الحقيقة..

وإذا فعلت ما طلبت مني، حركت نار المدفأة فزاد وهجها وانعكس على وجهي... فأخذت تتفحصني ثم قالت:

– ماذا كان يعتمل في نفسك من مشاعر وأفكار وأنت جالسة مع تلك الجماعة من المترفين، وقد بهرتك أضواؤهم وهم عازفون عن التحدث إليك!..

– إنني أشعر بالتعب أحيانا، وبميل إلى النوم.. ولكني لا أشعر بالانقباض إلا نادرا!

– ألا يراودك إحساس خفي بالسعادة في مستقبل حياتك؟..

– كلا.. وأقصى ما تصبو إليه نفسي أن ادخر بعض المال لأنشئ مدرسة..

– أمنية تافهة.. وجلوسك هكذا يخبرني عن الكثير من عاداتك؟!

– لعلها وصلت إلى علمك من الخدم..

– تظنين نفسك ذكية.. ولعل الأمر كما تقولين، فقد تعرفت إلى مسز "بول"..

وانتابتني رجفة لسماع هذا الاسم، وقلت في نفسي لعلها مكيدة أحكم تدبيرها، ولكنها استطردت تقول:

– لا تدعي الهلع يذهب بعقلك هكذا.. أنها لا تضمر سوءا، وهي أمينة جديرة بالثقة.. ولكن أما كنت تفكرين وأنت جالسة إلى النافذة في أمر غير المدرسة. ألم تركزي اهتمامك في شخص معين، تتابعين حركاته في كثير من الاهتمام والفضول؟!

– من عادتي أن أتتبع حركات الناس وسكناتهم..

– ولكنك تؤثرين باهتمامك واحدا فقط أو اثنين!..

– هذا صحيح.. حينما يبدو لي أن تصرفاتهم توحي بقصة، فحينذاك يغريني ذلك على التسلي بمراقبتهما..

– وما يروقك من هذه القصص؟..

– أغلبها يدور حول محور واحد.. سلام فابتسام فكلام ثم غزل ووعد فزواج! بيد أنني لا أحفل بمثل هذه المواضيع، فهي لا تهمني في كثير أو قليل..

– ألا يهمك أو يؤثر في نفسك أن تشهدي فتاة تتفجر صحة وحيوية وتنعم بالجمال والثراء تغازل سيدا أنت..

– ماذا؟!..

– تؤثرينه.. بل تطيلين التفكير فيه..؟!

– إنني غريبة عن أولئك السادة، وقلما تبادلت الحديث معهم.. وتفكيري لا يتجاوز أخلاق الجديرين منهم بالاحترام، وجمال الشبان منهم الممتلئين حيوية ونشاطا..

– إذا كان قولك هذا صدقا.. فهل ينصب كذلك على سيد القصر؟

– أنه ليس هنا..

– هذه مراوغة بارعة منك!.. أنه ذهب إلى "ميلكوت" حقا وسيعود بعد ساعات، فهل يتعارض ذلك مع ما أقول؟.. وهل هو غريب عنك بالسادة الآخرين كما تقولين؟

– طبعا لا بحكم عملي في قصره.. بيد أنني لا أجد علاقة بين مستر "روشستر" وبين الموضوع الذي كنت تتحدثين فيه!..

– كنت أتحدث عن غزل السيدات والسادة، ولقد غمر مستر "روشستر" بسيل من الابتسامات وأفاعيل التودد.. وقد لاحظت ذلك من غير شك!

– مستر "روشستر" خليق بأن يحظى ويستمتع بصحبة زائريه..

– أوافقك في ذلك.. ولكن ألم تلاحظي أن الحديث معه كان حول موضوع واحد يكاد لا يتعداه.. هو الزواج؟!

وشعرت عند ذلك أن العرافة قد استحوذت على مشاعري بكلامها العجيب ونبراتها، فأحسست كأنني في حلم.. فقد كانت تسترسل في حديثها من نقطة إلى نقطة حتى تجعلني في حيرة مما أسمع، فأخذت أعجب من أمر هذه المخلوقة ذات الطبيعة الخارقة، وقلت بصوت خافت كأنني أحدث نفسي:

– أن ما ينطبع على أسارير السامع من أحاسيس ولهفة، يوحي إلى المتكلم فيلهب لسانه..!

– حقا ما تقولين... فقد كان مستر "روشستر"يظل الساعات مرهفا بسمعه إلى شفتي تلك الفاتنة النشوانة بمحادثته.. وكان ينعم بذلك.. مما لم يغب عن فطنتك!

– لم استشف أنه كان ينعم بذلك!..

– تقولين "لم تستشفى"؟! إذن فقد حللت وجهه لتتبيني انفعالاته.. فماذا رأيت غير ذلك؟..

فلذت بالصمت ولم أحر جوابا، فاستطردت تسألني:

– لقد رأيت آيات الحب واضحة.. أليس كذلك.. ثم حلقت بك الأفكار في آفاق المستقبل، وتراءى لك أنه قد تزوج فسعدت به عروسه..!

– ليس كذلك بالضبط.. لقد جانبك الصواب هذه المرة.

– أصدقيني القول إذن.. ماذا رأيت؟

– ليس هذا بذي بال.. لا تضعيني في موقف الاعتراف.. هل سيتزوج مستر "روشستر"؟..

– سيتزوج من فاتنته "بلانش انجرام"، وتؤكد الظواهر ذلك، وأنا أصارحك بهذا لما أراه من تلهفك وأن أعوزتك الجرأة.. واعتقد أنهما سينعمان بالسعادة لما تتمتع به فاتنته.. ومن المحتمل أن يتولد في قلبها الحب له، لشخصه أو لماله، بيد أنني أخبرتها أن أمواله موقوفة.. فبان عليها الحزن، ونصحتها أن تبحث عن خطيب آخر حر الثراء!

– أراك تحولت عني إلى مستر "روشستر"، وأنا جئت من أجل حظي أنا فلم تحدثيني به!

– أن حظك ليس واضحا تماما، ففيه تناقض كبير، وإن كنت أعلم أن القدر يدخر لك قسطا من السعادة. وقد عرفت ذلك قبل أن أجيء.. والأمر يتوقف عليك، فإذا مددت يدك نلت ما تتمنين.. وهذا ما أدرسه.. اركعي ثانية..

– لا أريد أن أجثو طويلا لأن النار تلهب وجهي..

وامتثلت لأمرها.. فراحت تحملق في دون أن تنحني فوقي، ثم أخذت تغمغم:

– اللهب يتراقص داخل العين التي تأتلق، وتبدو زاخرة بالأحاسيس، وكأنها تبتسم لما أقول.. أنها شفافة حساسة ينعكس عليها كل شيء، حتى إذا زايلها الابتسام ارتسم فيها الأسى، وثقل جفناها لا شعوريا مما يوحي بمضاضة

الوحدة.. أنها لا تحتمل مزيدا من الفحص، فتتحول عني وترسل نظرة تائهة كأنها لا تؤمن بما أقول! العين تكشف عن الهناء، ولكن الفم تستخفه النشوة أحيانا فيبتسم ويود الإفصاح عن مكنون العقل وإن لزم الصمت في كثير مما يزخر به القلب.. أنه لم يخلق للوحدة والصمت، بل للحديث الشجي لكي يحس بالمحبة نحو من يهفو إليه.. أن الفم أيضا ينم عن الهناء! ثم أن هناك الجبين الذي يقول أن في وسع الإنسان أن يعيش وحيدا ولو اقتضاه ذلك ثمنا باهظا، فلا حاجة إلى بيع الروح لشراء السعادة، فبي قدرة على الحياة الخالية من المباهج.. أن العقل الرزين يمسك بزمام المشاعر فلا يدعها تفلت إلى الحضيض، وقد تستبد الأهواء في عنف وتتوهم الشهوات ضروب الأماني.. ولكن العقل سيكون المهيمن الذي يعبر عما يمليه الضمير.. لقد أبدعت أيها الجبين، وسيكون لرأيك شأن كبير، فقد أصغيت إلى ما يوحي به العقل ويشير به الضمير. وتذبل زهرة الشباب سريعا إذا تلوثت الحياة بعار يستوجب الندم. إنني لا أنشد التضحية أو أسعى إلى الفجور، فهي أمور لا تتفق مع مزاجي.. وكل مناي أن أكون مركز إشعاع وتنمية لا مصدر موت وهلاك.. أريد أن أحظى بالشكر وعرفان الجميل.. لا أن أعتصر الدم أو الدموع.. أحب أن يكون حصادي ملائكيا.. والآن كفى.. فلعلني أصبت بلوثة هذيان. وبودي أن تطول هذه اللحظة.. يبد أنني لا أجرؤ.. لقد ملكت زمام نفسي، وتصرفت بحكمة، والتمادي يضني.. انهضي يا مس اير وبارحي الحجرة..

***

سبحت في عالم آخر، في دنيا لا عهد لي بها.. فلم أدر هل كنت مستيقظة أو نائمة أو حالمة. وبدا لي صوت العجوز مألوفا.. وهممت لأقوم ولكني لم أبرح مكاني، وتلفت حولي ثم نظرت إلى العجوز فرأيتها تشير إلي مرة أخرى أن

أرحل.. وتأملت يدها فإذا هي بضة لا تتفق مع مظهر سنها، وفي خنصرها خاتم تأملت الجوهرة التي تتوسطه. وعدت أتفحص وجه الغجرية وقد تكشف لي، ثم قالت:

– والآن يا "جين".. هل عرفت من أنا؟

– آ...هـ، إذن اخلع العباءة يا سيدي و...

– ولكن خيطها معقود.. هل أرجو معاونتي في حله؟

– إذا كان الأمر كذلك فاقطع الخيط يا سيدي..

– إذن فإليك عني أيتها الثياب التنكرية..!

ورأيت أمامي مستر"روشستر" بمظهره الحقيقي، فصحت في دهشة:

– أي هاتف أوحى إليك بذلك يا سيدي؟..

– ولكنني أحكمت إتقان الفكرة وتنفيذها.. أليس كذلك؟

– غاية الإبداع وغاية التوفيق.. وبخاصة مع السيدات!..

– ومعك؟..

– لم تمثل دور الغجرية تماما..!

– هل عرفت شخصيتي فيمن كانت ماثلة أمامك؟..

– لا.. بل كانت شخصية غامضة لا يمكن تفسيرها، واعتقد أنك كنت تعمل على استدراجي.. فهل كنت محقا في ذلك يا سيدي؟

– استطيع أن ألتمس صفحك يا "جين"؟..

– أريد مهلة للتفكير، فإذا وجدت أنني لم أتورط فسأصفح.. بيد أنني مستاءة..

– لقد كان التعقل رائدك!..

واسترجعت في ذهني ما حدث منذ بداية المقابلة، فوجدت أنني لم أتورط في كلمة مما قلت فشعرت بالارتياح.. خاصة وأنني كنت قد شككت في الموضوع لأنني أعرف أن عادات الغجر تخالف ما ظهرت به هذه الغجرية كما أنني اكتشفت التصنع في صوتها.. ثم انصرف ذهني إلى "جريس بول" التي كنت أعتبرها لغزا غامضا، ولم يخطر مستر "روشستر" ببالي.. وإذ رآني أفكر قال:

– ترى فيم تفكرين؟.. وما معنى هذه الابتسامة الهادئة؟..

– لفرط الدهشة يا سيدي.. واغتباط النفس.. أظنني استأذنت في الانصراف.

– لحظة أخرى.. هل يمكن أن أعرف ماذا يفعل الجماعة هناك؟

– استحوذت الغجرية على مشاعرهم، فهم لا يتحدثون إلا عنها..!

– إذن اجلسي واسمعيني بعض أحاديثهم..

– لقد تأخر بنا الوقت والأفضل ألا أطيل البقاء هنا.. أريد أن أنهي إلى سيدي أن ضيفا غريبا حضر وقال أنه يعرفك منذ زمن مما يسمح له بالبقاء حتى تعود. وذكر أن اسمه "ميسون" وأنه قادم من "جمايكا" بجزر الهند الغربية..

وكان قد تناول يدي لأجلس.. فما أن سمع ما ذكرت حتى ضغط على معصمي في حركة تشنجية، ثم قال:

– "ميسون".. جزائر الهند الغربية "ميسون".. جزائر الهند الغربية.. أنها صدمة يا "جين"!

وكان يترنح وهو يردد هذه العبارة، فهالني أمره وسألته:

– هل أنت مريض يا سيدي؟..

– لقد منحتني شرف الاتكاء على كتفك في مناسبة من قبل.. امنحيني الآن هذا الشرف مرة أخرى..

– هاك يا سيدي.. وذراعي أيضا!

وجلس وأجلسني إلى جانبه، ويدي بين راحتيه وهو يضغط عليها، ثم حملق في وجهي بنظر قلق وقال:

– بودي يا عصفورتي الصغيرة أن تضمنا وحدنا جزيرة نائية هادئة لا يشوبها كدر أو خطر، فأبعد عني ذكرياتي القاسية..

– إنني رهن إشارتك يا سيدي.. على استعداد لأن أبذل روحي في سبيل إسعادك.

– قد أحتاج إليك يا "جين"..

– والآن.. بماذا تأمر؟

– إلي بكأس من النبيذ.. أنهم في حجرة المائدة يتناولون العشاء.. أرجو أن أعرف هل "ميسون" معهم وماذا يفعل؟..

وذهبت فوجدتهم جميعا في قاعة المائدة وقد شملهم السرور. ولمحت "ميسون" يتحدث إلى الكولونيل ومسز "دنت" في مرح، فملأت كأسا من النبيذ. ورأيت مس "انجرام" تنظر إلي في عبوس، وقفلت راجعة إلى المكتبة..

وأدهشني أن أرى مستر "روشستر"وقد زايله شحوبه، وعاد إلى هدوئه وحالته الطبيعية، فتناول الكأس من يدي وقال:

– في صحتك يا ملاكي الحارس..

ثم أردف:

– كيف رأيتهم يا "جين"؟

– كعادتهم، يضحكون ويصخبون ويتحدثون ويمزحون ويطربون.

– و"ميسون"؟..

– يشاركهم في مرحهم..

– ماذا تفعلين يا "جين" لو أهانني هؤلاء الناس؟!

– أطردهم على الفور يا سيدي لو كان ذلك باستطاعتي..

فلاح شبح ابتسامة على وجهه، ثم قال:

– ولو ذهبت إليهم فتهامسوا وتغامزوا ساخرين.. ثم غادروني.. فهل تنصرفين في أثرهم؟..

– سيزداد تقديري وسروري وتشبثي بالبقاء إلى جانبك لأسرى عنك!..

– وإذا انطلقت ألسنتهم لوقوفك إلى جانبي؟..

– لن أعيرهم ذرة من اهتمام، ولن أحفل بما يقولون..

– إذن فأنت مقدامة لا تتهيبين، وجريئة تتحملين الأذى في سبيلي!..

– احتمل كل شيء في سبيل شخص في مثل نبل أخلاقك..

– أرجو إذن أن تعودي، واهمسي في أذن "ميسون" أن مستر "روشستر" قد عاد وأنه يرغب في مقابلته، ثم أدخليه إلي واتركينا.

ونفذت ما طلبه، وحينما دخلت حدجني الجميع بنظراتهم فلم آبه بها، وقصدت "ميسون" وهمست في أذنه، ثم تقدمته إلى المكتبة. وما أن انتهيت من ذلك، حتى صعدت إلى الطابق العلوي واستلقيت في فراشي، وكنا في الهزيع الأخير من الليل.. فسمعت السادة يلتمسون مخادعهم، وطرق سمعي صوت مستر "روشستر" وهو يقول:

– هذه غرفتك يا "ميسون"..

واستغرقت في النوم حينما اطمأنت نفسي لروح المرح والبهجة التي أشاعت في لهجة مستر "روشستر"وهو يتحدث..

الفصل الرابع عشر

مشروع جريمة

أيقظتني طلعة القمر، وقد أطل علي خلال زجاج النافذة، إذ نسيت أن أسدل الستار كما نسيت إغلاق المصاريع الخشبية، وكان الجو صافيا.. فاستويت في فراشي، وأخذت أتطلع إلى القمر وأنا نشوانة بجماله، وإذا بي اسمع صرخة مروعة مزقت سكون الليل، تجاوبت في أرجاء القصر صداها.. فغاص قلبي، وتسمرت يدي التي مددتها لأسدل الستار.. ثم تبددت الصرخة وتلاشت ولم اسمع غيرها، ولعل صاحبها لم يستطع أن يردفها بأخرى.

واستنتجت أن الصرخة صدرت من الطابق الثالث لأنني أحسست دويها فوق رأسي، وأنها من الحجرة التي تعلو حجرتي.. ثم تناهت إلى سمعي ضجة تخللها عراك وصراع، وسمعت صوتا يهتف في اختناق "النجدة يا أهل النجدة".. "ألا يخف إلي أحد؟!" وأخيرا سمعت الصوت يهتف "روشستر.. أسرع إلى نجدتي"..

وسمعت بابا يفتح وشخصا يندفع في الردهة، ثم ضربة قدم في الغرفة العليا أعقبها صوت جسم يهوي، ثم ساد السكون. وكنت قد تدثرت ببعض الثياب، فانطلقت من غرفتي والرعب يكاد يذهب بعقلي.. واستيقظ النائمون، وترددت صيحات الذعر، وهجر السادة مضاجعهم يتساءلون عما حدث.. ولولا ضوء القمر لتخبطوا في الظلام، وسادهم الهرج والاضطراب، وصاح الكولونيل "دنت":

– أين "روشستر"..؟ لقد افتقدته في فراشه فلم أجده!..

وفي هذه اللحظة قال "روشستر" في هدوء عجيب:

– ها أنذا.. لا يذهبن الهلع بألبابكم.. أنني في طريقي إليكم..

وأقبل مستر "روشستر" وفي يده شمعة هابطا الدرج من الطابق العلوي، فتكالبت عليه الجماعة، وأمسكت به "بلانش انجرام" تستفسره عما حدث مهما بلغ من السوء.. فطلب ممن تعلقن به أن يتركنه حتى لا يقع أو يختنق. وتقدمت نحوه "ليدي انجرام" و"ليدي ايشتون" فقال بصوت مجلجل:

– أيها السادة.. لم يحدث ما يستدعي الذعر.. أنها مسرحية صاخبة.. أنصحكن بالابتعاد عني يا سيداتي، وإلا تحول شأني إلى شيء خطير..!

والواقع أن معالم الشراسة تبدت على صفحة وجهه، فأخذت عيناه تقدحان بالشرر.. بيد أنه غالب نفسه والتزم الهدوء ثم قال:

– مجرد حلم مثير مزعج انتاب إحدى الخادمات.. ولما كانت عصبية سريعة التأثر، خيل إليها أنها ترى ماردا يهم بالفتك بها فتولتها نوبة هلع!.. أرجو أن تعودوا إلى مخادعكم لأن الضجة تثير الخادمة، واستعادة رباطة جأشها تستلزم الهدوء.. أرجو أن تعود الطمأنينة إلى الآنسات، وأن تعتصم السيدات بمخادعهن حتى لا يصيبهن البرد!

واستطاع مستر "روشستر" أن يعيد الهدوء إلى القصر، وأن يقنع الجميع بالعودة إلى المخادع، وانسحبت أنا أيضا عائدة دون أن يفطن إلي أحد.. بيد أنني لم أركن إلى النوم، بل أخذت ارتدي ثيابي.. إذ أنني الوحيدة على الأرجح التي سمعت تفاصيل الصراع في وضوح، لأنه انبعث من الحجرة التي تعلو حجرتي. ولم أصدق مطلقا رواية الحلم المزعج التي ابتدعها مستر "روشستر" لتهدئة الخواطر، فرأيت أن أكون على استعداد لما تتمخض عنه الأحداث. ثم

جلست بجوار النافذة في ارتقاب ما أتوقع أنه سيحدث. وخاب ظني فلم يحدث شيء وبات القصر في سكون القبور.. ففكرت أن أنام بملابسي، ويممت شطر الفراش، فإذا بي أسمع نقرا خفيفا على الباب.. فقلت مستفسرة:

– هل يطلبني أحد؟..

فسمعت الصوت الذي حدست أنه صوت مستر "روشستر" يسأل:

– أنائمة أنت أم مستيقظة؟!

– مستيقظة يا سيدي.. ومرتدية ملابسي..

– إذن تعالي معي بهدوء!..

ووجدته ينتظر في الدهليز، وفي يده شمعة فقال:

– سيري في حذر على مهل، لأنني في حاجة إليك..

فسرت في خفة دون أن أحدث صوتا إلى جانبه، وصعدنا السلم. ثم توقف في الردهة المظلمة، وسألني في همس:

– هل تحتفظين بإسفنج ونشادر في حجرتك؟

– نعم..

– أرجو أن تعودي في خفة كما أتيت وتحضريهما..

ففعلت، وقفلت راجعة فوجدته ينتظرني وفي يده مفتاح أولجه في أحد الأبواب، ثم قال:

– ألا تتقززين من رؤية الدم؟..

– لا أعتقد وإن لم يسبق لي ذلك..!

بيد أن رعشة سرت في أطرافي وأنا أجيبه، فقال:

– ومع ذلك دعيني أمسك يدك حتى لا يدهمك إغماء!.. آ..هـ! دافئة وثابتة!

وأدار المفتاح وفتح الباب، فطالعتني حجرة كنت قد رأيتها من قبل. وتحت ستارة مشدودة ظهر من خلفها باب نصف مفتوح يفضي إلى حجرة داخلية يضيئها نور ضعيف، وسمعت صوتا يشبه زمجرة الكلاب وهي تشتجر، فقال مستر "روشستر":

– انتظري هنيهة..!

ثم رأيته يتقدم بمفرده نحو الحجرة الداخلية، فطالعته ضحكة صاخبة انتهت نبراتها بقهقهة "جريس بول!".. إذن فهي في الحجرة. وقام مستر "روشستر" ببعض الأعمال دون أن يتكلم.. بيد أنني سمعت صوتا خافتا يتحدث إليه، وخرج ثم أغلق الباب وعاد إلى الحجرة التي كنت انتظره عند بابها وقال لي:

– تعالي معي يا "جين"..

فأطعت وسرت بجانب سرير ضخم، رأيت بالقرب منه مقعدا جلس فيه رجل بملابسه تقريبا، وكان ساكنا وقد مالت رأسه إلى الخلف وعيناه مغمضتان، تبينت في وجهه عندما حرك مستر "روشستر" الشمعة، وجه "ميسون" في سكون الأمواج.. ورأيت الدم يخضب جنبه وذراعه. وناولني مستر "روشستر" الشمعة، وأتى بحوض فيه ماء طلب مني أن أحمله. ثم أخذ قطعة الأسفنج وغمسها في الماء ومسح بها وجه الرجل. ثم قرب النوشادر من أنف "ميسون" فما لبث أن فتح عينيه قليلا وأخذ يئن.. ثم أزاح مستر "روشستر" القميص عن الذراع والكتف، ومسح الدماء المنبثقة، فغمغم "ميسون":

– هل حالتي خطيرة؟

– لا.. لا.. أنه جرح سطحي.. اهدأ ولا تضطرب. سأستدعي طبيبا، وأرجو أن تسمح حالتك بنقلك من هذه الحجرة في الصباح.. "جين"؟

– نعم يا سيدي..

– سأتركك هنا مع السيد لفترة من الزمن.. ومهمتك أن تمسحي الدم بقطعة الأسفنج كما رأيتني أفعل إذا عاد الدم ينزف، وضعي على شفتيه كوب الماء إذا شعر بالإغماء وقربي النشادر من أنفه. ولا تتحدثي إليه مطلقا.. وكذلك أنت يا "ميسون" لا تحاول أن تكلمها، وإلا تعرضت للخطر.. كما لا تتحرك في مكانك حتى أعود.

وغادر الحجرة، وسمعت الرجل يتأوه ويستكين وبدت عليه أمارات الخوف. وأخذت أزيل قطرات الدم التي تنبثق من الجروح، وساورني شعور غامض لوجودي بمفردي مع الرجل الشاحب الجريح، وعلى مقربة مني امرأة سفاكة، فكنت أرتعد فرقا.. إذ ماذا يمنع "جريس بول" أن تفتك بي أنا الأخرى. وكان محتما علي أن أظل في مكاني لا أبرحه بين شفتين لا تنطقان، وعينين زائغتين تغمضان أحيانا وتنفتحان أحيانا أخرى لتحدقا في وفي الحجرة، ترتسم فيهما آيات الوجل. وطالعتني في الحجرة صور كثيرة لبعض الرسل، يعلو كلا منها صليب فوقه تمثال للسيد المسيح.. فضاعف ذلك من شعوري بالرهبة، وبخاصة لوجود هذه الشريرة "جريس" على مقربة مني.

وتراءت لي الأمور والأحداث وكأنها ألغاز تظهر في شكل حريق تارة وفي سفك دماء تارة أخرى، وصاحب القصر عاجز عن تلافي شيء منها. وتساءلت عن كنه هذه المخلوقة التي تقمصت شخصية امرأة! ولماذا تخيرت هذا الرجل

الغريب دون سواه فخصته بأذاها.. ترى لماذا ساقته قدماه إلى هذا المكان؟ وكانت حجرته بالطابق الأرضي! ولماذا أراه يستكين رغم الاعتداء عليه تماما، كما استكان مستر "روشستر" لحادث الحريق؟ كما تساءلت لماذا انقبض مستر "روشستر" عند سماعه بنبأ قدوم "ميسون" وما سر سيطرة السيد عليه؟!.. ولن أنسى تلك الجملة التي انطلقت من فمه حين قال "أنها صدمة لي يا "جين"، وتهالك بعدها فاتكأ على ذراعي..!

وطال بي الوقت، فضاقت ذرعا، وتساءلت لماذا لم يأت السيد ومتى يأتي؟ وقد رأيت الجرح يسير من سيء إلى أسوأ. وكادت جهودي لا تفلح في إنعاشه، فقد أخذت حالته تتدهور سريعا.. فلم يكف عن الأنين، وأصابته نوبة هياج.. فخشيت أن تكون منيته قد أضحت وشيكة، وأنه سيهلك دون أن أسمع منه كلمة..

وانطفأت الشمعة.. ولاحت تباشير الفجر، وسمعت "بايلوت" ينبح من بعيد، فدب الأمل في نفسي. ولم يخب ظني، فقد سمعت صوت المفتاح يوضع في الباب.. ومعنى ذلك أن مهمتي أوشكت أن تنتهي، المهمة التي استغرقت بضع ساعات خلتها عدة أسابيع. ودخل مستر "روشستر" وبرفقته طبيب، قال السيد له:

– أمامك نصف ساعة يا كارتر.. لتنهي كل شيء مع نقله إلى أسفل.

– وهل يقوي على السير؟..

– حالته ليست خطيرة.. أنه عصبي ويحتاج إلى بث الطمأنينة في نفسه.. هيا!

وأشاع الفجر الطمأنينة في نفسي.. واقترب مستر "روشتر" من الطبيب الذي أخذ يباشر عمله، قال لـ "ميسون":

– كيف حالك الآن يا عزيزي؟..

– أخشى أن تكون طعنتها قاتلة!..

لا تخف! وعما قريب تسترد عافيتك.. أنك تشعر بالوهن بسبب الدم الذي نزف منك.. أليس كذلك يا "كارتر".. وضح له ذلك.

– هذا صحيح.. وحبذا لو كنت قد حضرت قبل الآن لتفادي نزف الدم.. ولكن الكتف ممزق ويبدو أن أسنانا نشبت فيه..

وعندئذ تكلم الجريح فقال:

– انقضت على كوحش ضار، وأنشبت في أسنانها عندما انتزع "روشستر" السكين من يدها.

وعندما علق "روشستر" على ذلك بأنه كان يجب عليه أن يقاوم ويناضل، قال "ميسون":

– أخذتني على غرة، فقد كانت بادية الهدوء في أول الأمر..

– لقد نبهتك وطلبت إليك أن تكون حذرا، وكان في وسعك أن ترجئ مقابلتها إلى الغد. لقد جانبت الصواب بمقابلتها الليلة بمفردك.. وها انتذا ترى وتقاسي عاقبة تصرفك.

ثم تحول إلى الطبيب وقال:

– توشك الشمس أن تشرق، ويجب أن ينصرف الآن..

فقال الطبيب:

– لحظة أخرى ريثما انتهى من تضميد ذراعه أيضا..

فقال "ميسون":

– لقد امتصت دمي وهددتني بأكثر من ذلك..

فارتسم على وجه مستر "روشستر" مزيج من الرعب والاشمئزاز وقال لـ "ميسون": "لا عليك من هذا!."

– أني لي أن أنسى؟!

– ستنسى عندما ترحل، ويمكنك وأنت في "جمايكا" أن تقدر أنها ماتت فلا تفكر فيها..

– أنها ليلة ليلاء لن أنساها قط!..

– لا تقل هذا، وقد كنت تحسب أنك مت.. وها انتذا تتحدث.. سأعينك على ارتداء ملابسك..

وطلب مني مستر "روشستر" أن أحضر من دولابه بعض الملابس ففعلت.. ثم أشار إلي أن انتظر قليلا، ثم سألني عما إذا كنت سمعت حركة بالطابق الأسفل عندما هبطت، فأجبته بالنفي، فقال موجها الكلام لـ "ميسون":

– سننقلك في حذر فهذا من مصلحتك ومصلحتها.. لقد كافحت كثيرا لتتحاشى التشهير، أين معطفك فهو ضروري لبرودة الطقس.. احضري المعطف من حجرته يا "جين"..

ففعلت، ثم عاد فطلب مني أن أحضر شرابا خاصا، صب قطرات منه في قدح من الماء قدمه لـ "ميسون" وطلب منه أن يشرب.. فاعترض أولا ثم رضخ بعد أن قال له أن الشراب سيمنحه قوة وشجاعة. وبعد فترة نهض الجريح

مستندا على الطبيب، ثم طلب "روشستر" منه أن يبسط أساريره ففعل، وما لبث أن قال:

- أنني أشعر بالتحسن حقا..

ثم طلب مني مستر "روشستر" أن أسير أمامهم إلى السلم الخلفي، وأن أطلب من سائق مركبة البريد أن يستعد.. كما طلب مني أن ألفت نظره إذا رأيت أحدا آخر..

وكانت الشمس قد أوشكت أن تشرق، بيد أنني وجدت المطبخ ساكنا معتما.. وفتحت باب الممر ودلفت إلى الفناء، ورأيت العربة وطلبت إلى السائق أن يكون على أهبة الاستعداد، وكان السكون شاملا فيما عدا الجياد التي كانت تضرب الأرض بحوافرها بين الحين والحين، وشقشقة العصافير فوق الأغصان.

ورأيت "ميسون" يسير في سهولة، وقد استند إلى مستر "روشستر" والطبيب، فساعداه على ركوب العربة، وتبعه إليها الطبيب، فقال له مستر "روشستر": "ليكن موضع العناية في منزلك حتى يسترد صحته، وسأحضر بعد يومين لأطمئن".

ثم التفت إلى "ميسون" وسأله: "كيف حالك الآن؟."

- أنعشني هواء الصباح العليل.. وأرجو أن لا تحرمها من عطفك وسامحها..

ثم انفجر باكيا، فطمأنه مستر "روشستر".. وأغلق الباب فمضت العربة في طريقها. فأخذ يحدثني متمنيا أن ينتهي من هذه المتاعب، وطلب مني أن أظل

في رفقته قليلا في هذا الخلاء، لنستمتع بنسيمه المنعش لأن القصر على حد تعبيره سجن، فقلت له:

– أنه قصر عتيد يا سيدي..

– أنك تنظرين إلى الأمر نظرة سطحية خالية من الخبرة أو التجربة، فزخرف القصر كله زائف. أما هنا حيث الطبيعة فإنها جميلة نقية بين الأشجار والأزهار.. هل لك في زهرة؟..

وقدم إلي زهرة قطفها فشكرته، ثم قال: "كم هي جميلة هذه الشمس المشرقة، والسماء الصافية، والنسيم العليل.."

– ومن ذا لا يعشق سحر الطبيعة.. أنني أحبها في كافة صورها.

– أنك قضيت ليلة قاسية يا "جين"! شحب وجهك بسببها.. هل شعرت بالخوف عندما تركتك وحدك معه؟..

– خفت أن يفاجئني أحد من الحجرة المجاورة الداخلية..!

– لقد كان بابها مغلقا ومفتاحه معي، وبذلك تركتك في مأمن.. فليس من الحكمة أن أترك ملاكي الحارس في متناول شيطان كاسر!..

– هل ستبقى "جريس" بعد ذلك؟..

– نعم.. ولكن لا تشغلي فكرك بها..

– أليس في وجودها خطر عليك؟..

– أنني أعرف كيف أحرص على نفسي..

– وهل انتهى ما كنت تتوجس منه؟..

– لا أستطيع أن أخبرك "بنعم" أو "لا" حتى يرحل "ميسون" عن انجلترا، وحتى بعد أن يرحل.. فحياتي على فوهة بركان!

– ولكن "ميسون" يبدو أضعف من أن يتحداك أو يمكنه إيذاؤك..

– أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك عامدا، بل قد يجيء ذلك عفوا.. فيسلبني السعادة وقد يسلبني الحياة!..

– ولماذا لا توضح له ذلك ليكون على حذر؟..

فضحك وتناول يدي بين يديه وضغط عليها في حنان، ثم قال:

– لا داعي للتوجس إذا كان الأمر كذلك.. أنه يمتثل لأوامري، بيد أنه ليس في استطاعتي أن أصارحه.

– يسعدني أن تجد في عونا لك على أي وجه من الوجوه.

– بل أنك تفعلين ذلك.. فأنا أرى دلائل الرضا في عينيك إذ تلبين كل ما أطلبه منك. ولو طلبت منك أمرا غير طبيعي، فلن أرى بوادر الغبطة والملاحة في أساريرك ولوجدت منك الممانعة والاعتراض.. أن لك أيضا سلطانا علي، وقد يكون في مقدورك إيذائي، ولكني لا أكشف لك عن موضع الألم في نفسي خشية أن ينالني منك ضر رغم إخلاصك.

– إذا كنت تتوجس من "ميسون" بقدر ما تخشاني، فانعم براحة البال يا سيدي.

– كم أتمنى ذلك.. ألا تحبين أن نجلس قليلا تحت هذه الخميلة؟ ولم تكن الخميلة سوى مجموعة من الأشجار المتشابكة، وضعت بها أريكة عفا عليها الزمن. وجلس عليها مستر "روشستر" وأفسح لي مكانا إلى جانبه، ولكني ظللت واقفة فقال:

– لماذا لا تجلسين؟.. أنها تتسع لك ولي! أم هل في طلبي هذا ما يتنافى مع الصواب؟

فلم يسعني إلا أن أجلس لأنني لم أرد في طلبه أمرا إذا..

– تأملي الطبيعة يا عزيزتي الصغيرة.. هذه الشمس المشرقة، والأزهار المتفتحة والطيور المغردة، والنحل الذي ينتقل من زهرة إلى زهرة يرشف نداها.. تأملي كل ذلك، وسأطرح بين يديك أمري الذي أحب أن تعتبريه أمرك. ولكن قبل ذلك، هل تشعرين بالاستياء لبقائك معي؟

– أبدا.. على العكس.. أنني راضية كل الرضا..

– الآن أرجو أن يذهب بك الخيال، فتفرضي أنك تخليت عن شخصيتك الواقعية، شخصية فتاة أصيلة النشأة حسنة التربية.. وإنك شاب شرير انغمس في شئون الحياة الزائفة، وتخيلي نفسك في بلاد بعيدة عن وطنك.. وأنك ارتكبت إثماً تتبعك عواقبه الوخيمة– مهما يكن ذلك الإثم أو الدوافع إليه– مدى العمر فينغص عليك حياتك. أنني لم أقل جريمة تقع تحت طائلة القانون، بل قلت إثما غدت نتائجه لا تطاق، ولا سبيل إلى التخلص من عذابها مهما بذلت في سبيل ذلك من احتياطات غير مألوفة.. ولكنها لا تتنافى مع القانون أو تستوجب التأنيب. وبالرغم من ذلك تستشعرين التعاسة لأن الدنيا ضاقت في وجهك، بينما أنت في ريعان الشباب.. فتحسين أن شمس حياتك بدأت في الأفول في رائعة النهار، وأن المنفس الوحيد للتسرية أضحى في تلك الجماعات القذرة.. وإذا بك تجدين نفسك هائمة بحثا عن راحة البال والنفس، فتنشدين السعادة في العبث واللهو الشهواني والجنس الذي لا ينبع عن القلب، ولذلك يطمس العقل، ويقضي على المشاعر السامية. وعندما تعودين إلى الوطن، وأنت مثقلة النفس معذبة القلب كسيرة الوجدان، فتضع المقادير في طريقك صديقا

جديدا تلمسين فيه كثيرا من الفضائل والسجايا مما بذلت عمرك في البحث عنها دون جدوى.. فضائل نبيلة وسجايا نقية لا تشينها وصمة عار. أن مثل هذه الصحبة تبعث في لنفس الحياة وتدفع القوة إلى القلب، فتؤثرين أن تبدئي حياة جديدة تشعرين أن أيامها تحمل في طياتها أمانيك السامية وأحاسيسك الظاهرة فستشعرين بالسعادة في بقية العمر. وفي سبيل ذلك، هل يصح أن تتجاوزي عن التقاليد.. تلك العقبة التي لا يعترف بها عقل أو ضمير..!

وكف عن الكلام، وبدأ كأنه ينتظر مني ردا أو تعليقا.. ولكن ترى ماذا عساي أن أقول؟ وكيف يعينني الإلهام على رد حكيم؟ يا له من أمل بعيد!..

وكانت الرياح ترسل أصواتها، والطيور تزقزق بأغاريدها.. أما أنا فكأن رباطا عقد لساني، فعاد مستر "روشستر" يلح في سؤاله:

– هل من العسير على ذلك الخاطئ– وقد غدا يلتمس السعادة ويهصره تبكيت الضمير– أن يقف في وجه المجتمع لينعم بهذا الجليس الأنيس، لكي يسترد راحة البال وطمأنينة النفس ويستشعر طعم الحياة الهادئة الهانئة؟

فقلت له وقد ملك علي مشاعري:

– أن تقويم الخاطئ لا يتوقف على أنيس أو صديق، فالناس يموتون ويذهبون، وأصحاب الفكر غير معصومين.. وقد يختلط الأمر بالمتدينين لشدة ورعهم. فإذا كنت تتحدث عن شخص تعرفه يتعذب وينوء تحت وطأة الخطيئة، فالأجدر به أن يتطلع نحو المثل العليا التماسا للقدرة على إصلاح ما أفسد، وشفاء ما به.

– وهل يمكن الوصول إلى هدف دون وسيلة؟.. إن الله وهو مبدع الأعمال هو الذي يهيئ الوسائل إلى أدائها. وأنا لا أعدو الحقيقة إذا قلت أنني

انغمست في حمأة الجنس إلى أبعد مدى، واعتقد أن الله قيض لي الآن مفتاح شفائي من..

وتوقف عن الكلام للمرة الثانية، بينما استمرت أوراق الأشجار ترسل حفيفها، واستمرت الطيور في تغريدها.. فلماذا لم تنصت هي الأخرى لتستمتع إلى ذلك الاعتراف الذي يكاد ينطق به الرجل. وطال صمته، فرفعت إليه رأسي في نظرة تساؤل، فوجدته ينظر إلى نظرات ولهي.. وقد جاشت نفسه بالعواطف. بيد أنه غي لهجته، وذهبت عنه رقته، وقال في تهكم لم يخف عني:

– لعلك لاحظت تدلهي بمس "انجرام"، فهل يدور بخلدك أن في استطاعتها أن تذكي نار الانتقام الكامنة في قلبي إذا تزوجتها؟..

ونهض وسار قليلا، ثم عاد وقد أخذ يردد بعض الأنغام.. إذ وقف أمامي قال: "لقد أضناك السهر يا "جين".. فوجهك شديد الشحوب.. فهل أنت ناقمة علي؟".

– معاذ الله يا سيدي.. كيف تقول ذلك؟!

– إذن فلا أقل من أن تصافحيني حتى أتأكد من ذلك.. أن أصابعك باردة، وكانت تزخر بالدفء عندما لمستها في الليلة الماضية أمام باب الحجرة الداخلية!.. متى تسمحين بالسهر معي مرة أخرى؟.

– إذا كان هناك ما يدعو إلى ذلك يا سيدي..

– في الليلة السابقة ليوم زواجي، حين يجافيني النوم..؟! أتعدينني بذلك وبعدم تبرمك برفقتي؟.. أنك الوحيدة التي استطيع التحدث إليها عن حبيبة قلبي لأنك رأيتها وعرفتها!..

– طبعا يا سيدي..

– أنها جوهرة ليس لها مثيل.. أليس كذلك يا "جين"؟!

– تماما يا سيدي..

– ممشوقة القوام.. ذات خصر أبدعه الخالق.. هي هيفاء يا "جين"، ذات عود فارع، بشرتها خمرية سمراء، تفيض أنوثة وحيوية، تكللها هالة من سحر الجاذبية، وشعرها مسترسل يأخذ بالألباب وكأنها حورية من الجنة.. آه.. أنني أرى "دنت" "ولين" في حظائر الخيل.. انصرفي أنت عن طريق هذه الأحراش خلال هذا الباب القريب حتى لا يلمحك أحد..

فذهبت من الطريق الذي أشار به، وسار هو في طريق آخر، وسمعته يصيح في ابتهاج عجيب:

– ألا يدهشكم أن يبكر "ميسون"، ويرحل قبل أن ترسل الشمس أول خيوطها؟.. فاضطررت أن أستيقظ في الساعة الرابعة لأقوم بمراسم توديعه..

الفصل الخامس عشر

رحلة مفاجئة

تذخر الطبيعة بكثير من الألغاز المستغلقة على العقول، فالهواجس والعواطف والامتزاج الوجداني أمور غامضة وإن كان الإنسان يلمسها حسيا. بيد أنني أنكرها إذ حفلت حياتي بألوان عجيبة منها. ألا يثير الدهشة مثلا ما يحدث من انعطاف وحنين غامض بين الأقارب الذين تربطهم صلة الدم مهما بعدت بينهم الشقة إذا قدر لهم أن يتقابلوا؟ وهناك نوع أشد غموضا، وأبعد عن الإدراك، هو الامتزاج الوجداني بين الطبيعة وبين الإنسان لا يمكن التعبير عنه، بل أن أقصى ما يمكن تفسيره به أنه تدبير من الغيب! فذات مرة وكنت صغيرة أقيم أو قدر لي أن أقيم بقصر "جيتسهيد".. سمعت "بيسي" المربية تروي "لمارتا أبوت" أنها رأت طفلا صغيرا في المنام، وأن حلما كهذا نذير شؤم. وربما مر هذا الحديث دون أن يحظى باهتمام من ناحيتي، لولا أن أعقب سماعي له وقوع حادث جعله يطبع في ذاكرتي، فقد عرفت "بيسي" في اليوم التالي أن أختا لها تحتضر!

وظل هذا الحدث والحديث عالقين بذهني يردان على ذاكرتي في أيامي الحاضرة فظللت طوال الأسبوع الماضي أحلم كل ليلة بطفل صغير أناغيه أو أدلله أو أهدهده أو أرقبه وهو يعبث بالأزهار.. وكنت أراه باكيا أحيانا وضاحكا أحيانا أخرى، مقبلا علي حينا ومدبرا عني حينا آخر.. ودأب هذا الحلم على إزعاجي طيلة الأسبوع.

وألم بي الضيق لإلحاح هذا الحلم وتكراره في صورة رتيبة لا تتبدل، فكان يثير أعصابي كلما حان موعد نومي. وكان طيف ذلك الحلم يسبح في منامي حين استيقظت فزعة على صرخة "ميسون" كما دعيت بعد ظهر اليوم التالي لمقابلة شخص ينتظرني بحجرة مسز "فيرفاكس" ورأيته يرتدي ثياب الحداد، وحين وقع بصره علي هب واقفا وقال:

– لعلك لا تذكرين من أنا يا آنسة.. أنا "ليفن"، حوذي في خدمة مسز "ريد" منذ كنت في "جيتسهيد" وما زالت هناك حتى يومنا هذا..

– كيف حالك يا "روبرت". أنك لم تغب عن ذاكرتي، فقد كنت تختلس لحظات تسمح لي فيها أن أركب فرس مس "جورجيانا".. وكيف حال "بيسي" لعلك متزوج؟

– نعم.. وأنا وزوجتي وأولادي بخير.

– وكيف حال الأسرة في جيتسهيد؟

فتجهم وجهه، وارتسمت عليه أسارير الأسى وهو يقول:

– يؤلمني أن أنهي إليك أنهم في أسوأ حال!

– ولماذا ترتدي هذه الثياب السوداء؟

– ألم يبلغك نبأ وفاة مستر "جون" منذ أسبوع بمنزله في لندن؟!

– ماذا؟.. مستر "جون"؟

– نعم..

– حدثني عن أمه.. ما أثر الصدمة فيها؟

– لم يكن أمرا عاديا كما يحدث لكثير من الناس، فقد تردى في مهاوي الاستهتار، وسلك طريقا معوجا، طريق الغواية وانغمس في الشهوات، وكانت خاتمته أليمة حقا.

– سمعت من "بيسي" أنه جانب الحكمة والاستقامة.

– لقد تردى حتى قضى على شبابه وصحته وماله بين إخوان السوء من رجال ونساء. وتراكمت عليه الديون، فدخل السجون.. وأنقذته أمه مرة ومرتين عله يرعوي، ولكنه كان يعود سيرته الأولى. فكان إذا خرج من السجن سعى إلى رفاقه ونزواته. وكان ساذجا فاستغله قرناء السوء.. واذكر أنه حضر إلى "جيتسهيد" منذ بضعة أشهر، وطلب إلى والدته أن تهبه الثورة كلها أو قولي ما تبقى من الثروة التي تضاءلت بسبب اعوجاجه وتبذيره واستهتاره.. فرفضت والدته، فعاد ولم يسمع به أحد بعد ذلك حتى جاء نبأ موته، ويقولون أنه مات منتحرا!

واستبد بي الأمر، فلذت بالصمت وقد راعني الخبر، فاسترسل "ليفن" في الكلام:

– لقد اعتلت صحة مسز "ريد" منذ زمن، فهي ضعيفة رغم بدانتها، وهدت كيانها تصرفات "جون" التي هددتها بالإفلاس. وجاء موته فقضى على البقية الباقية من جلدها، وتعذر عليها النطق، وإذ تحسنت حالتها قليلا، تمتمت إلى "بيسي" ببضع كلمات فهمت منها أنها تقصدك، فقد نطقت باسمك وطلبت أن تذهبي إليها فهي تريد أن تتحدث إليك. ولما ظنت "بيسي" أن السيدة لا تعني ما تقول لم تعر الأمر اهتماما، بيد أنها أفضت إلى ابنتي مسز "ريد" برغبة أمهما ونصحتهما بالعمل على تلبية تلك الرغبة. وكان أن أستبد القلق بالسيدة، فراحت تردد اسمك بلا انقطاع. فرضخت ابنتاها وطلبتا إلي أن أحضر

لأصحبك. وها أنذا قد حضرت لأصحبك معي- إذا وافقت- في صبيحة الغد.

- بكل تأكيد يا روبرت، فمن الحكمة أن أذهب..

- إذن فبادري بالاستعداد، وقد خمنا أنا و"بيسي" أنك ستلبين الدعوة.

وذهبت به إلى حجرة الخدم، ثم عدت أبحث عن مستر "روشستر" فلم أجده، وعلمت أنه بحجرة البلياردو مع "بلانش انجرام" فأسرعت إليها ووجدته مع لفيف من الآنسات وبعض الضيوف. وواتتني الجرأة واقتربت منه، فتطلعت إلى "بلانش" في عظمة وغطرسة، وهمت بطردي حينما ناديت مستر "روشستر" وكانت في أبهى حلة من الرونق والجمال. ورأيتها تستدير إلى السيد وتسأله: "ماذا تريد هذه الفتاة؟".

واستدار مستر "روشستر"ليراني في مواجهته فاختلجت أساريره، ثم ألقى العصا وتبعني إلى الخارج، ودلفنا إلى حجرة الدراسة فقال بعد أن أغلق بابها: "ماذا تريدين يا "جين"؟".

- هل يتفضل سيدي فيمنحني أجازة لبضعة أيام؟

- لماذا؟.. وهل ستذهبين؟

- نعم.. لأرى سيدة مريضة تلح في الذهاب إليها.

- من تكون هذه المريضة.. وأين مكانها؟

- أنها تقيم في "جيتسهيد"..

- تفصلنا عن "جيتسهيد" عشرات الأميال! ترى من تكون تلك السيدة التي ترسل في طلبك من هذا البعد الطويل!؟

– اسمها مسز "ريد" يا سيدي..

– أنني أذكر أنه كان هناك قاض اسمه "ريد" هناك.

– نعم يا سيدي.. والسيدة أرملته.

– وما علاقتك بها؟.. هل تعرفينها؟

– أنها زوجة خالي.. لأن مستر "ريد" شقيق والدتي..

– ما هذا؟.. أنني لم أسمع منك ذلك قبل الآن! بل ذكرت أنه ليس لك أقارب!

– كنت أقصد أن ليس لي أقارب يكنون لي عطفا أو إعزازا، فلما توفي خالي نبذتني زوجته لأنني معدمة، وكنت عبئا وعالة عليها فحملت لي البغض والكراهية.

– أغلب الظن أن لك أولاد خال.. وقد سمعت "لين" يتحدث عن شاب اسمه "ريد" قال أنه من أسوأ الشبان خلقا. كما تحدثت الليدي "انجرام" عن فتاة اسمها "جورجيانا" أطرت جمالها الذي كان قبلة الأنظار في لندن.

– لقد بدد "جون" الثروة في نزواته، وقد توفي أخيرا بعد أن كاد يصيب الأسرة بكارثة مالية، ويقال أنه مات منتحرا. وقصمت الصدمة ظهر أمه فأصيبت بالشلل.

– وهل من الحكمة أن تتجشمي هذا السفر الطويل لتشاهدي سيدة مريضة قد يباغتها الموت قبل وصولك؟. ماذا في وسعك أن تبذليه من أجلها؟.. فضلا عن أنك تقولين أنها نبذتك وأنها كانت تحمل لك البغض!

– لقد كان ذلك منذ أمد بعيد، وكانت في غير هذه الظروف، ولا يرتاح ضميري أن أنا أهملت أمنيتها.

– وهل ستمكثين هناك طويلا... عديني ألا يطول غيابك عن أسبوع، وأرجو ألا تنسي كل شيء فتبقين هناك في إقامة دائمة!

– سأمكث أقصر مدة ممكنة، وأطرح الموعد جانبا.. وسأعود حتما إذا رأيت الأمور طبيعية.

– هل سترحلين وحدك؟

– كلا.. فقد أرسلت "ليفن" سائق عربتها، وهو شخص أمين طالت مدة خدمته للأسرة. وسأرحل معه في ساعة مبكرة صباح الغد.

– إذن فلابد لك من بعض المال. أنني لم أعطك مرتبك بعد؟

ورأى بالكيس خمسة شلنات فقهقه بالضحك، ثم ناولني خمسين جنيها في حين أن استحقاقي عنده خمسة عشر جنيها فقط، وتحيرت كيف أرد الباقي.. وإذ رأى حيرتي ذكر أن المبلغ كله لي وأنه أجري، فرضت أن أتناول أكثر مما استحق، فتجهم وجهه لحظة ثم قال:

– هاك عشرة إذن... لعلها تكفي!

فوافقت على أن يحتفظ بباقي ما أستحق فقال:

– كأنني مصرف، وعندما تعودين تجدين رصيدك فيه أربعين جنيها!

– سيدي.. أريد أن أتحدث إليك في موضوع هام..

– كلي آذان تتلهف لسماعه..

– لقد أبلغتني أنك ستتزوج قريبا، وإزاء ذلك يجدر أن تذهب "أديلا" إلى المدرسة.

– حتى يخلو لي الجو، ولا تحس "أديلا" بالمهانة.. أنها فكرة صائبة على كل حال.. وأنت؟

– ألتمس عملا آخر.. في مكان آخر..

فتقلصت أساريره وصاح:

– لعلك ستلتمسين ذلك بمساعدة مسز "ريد" أو ابنتيها؟

– كلا يا سيدي وقد أظهرتك على حقيقة شعورهن نحوي، سألجأ إلى الإعلان في الصحف.

فأربد وجهه وزمجر كالأسد، وهو يقول:

– أنك طموحة الخيال.. أنا لا أوافق على فكرة الإعلان.. استبق جنيها وأعيد إلى الباقي.

فتمنعت وأنا أخفي الكيس، متعللة بأنني بحاجة إليها، فقال:

– يا لك من فتاة غريبة الأطوار.. عديني بشيء يا "جين"..

– إذا قدرت على الوفاء به..

– اتركي هذا الأمر لي، وانبذي فكرة الإعلان وسأدبر لك الوظيفة في الوقت المناسب..

– من دواعي سروري أن اسمع ذلك، على أن أكون بعيدة عن القصر قبل تشريف عروسك.

– لك ذلك.. هل سأراك بحجرة الاستقبال مساء؟

– يؤسفني ذلك، فسأكون مشغولة بالاستعداد للرحيل..

– إذن لابد من وداع.. أليس كذلك.. كيف يكون الوداع يا "جين".. علميني!.

– بأن يقولوا "تصحبك السلامة" مثلا.. أو تعبيرا مماثلا يؤدي المعنى.

– أنها عبارات جوفاء جافة لا تروق لي.. أريد تقليدا آخر، كأن نتصافح مثلا.. ولكن هذا لا يكفي أيضا.. فهلا فكرت في طريقة أعظم وقعا؟

– أعتقد أن ذلك فيه الكفاية، فالمسألة مسألة قلوب، وكلمة نابضة تغني عن ألف كلمة..

وتساءلت حتى متى سيطول وقوفنا، فأمامي مهمة حزم أمتعتي.. ودق جرس العشاء فحسم الموقف، إذ رأيته يغادرني دون أن يتكلم، ولم أره بعد ذلك طوال اليوم، ورحلت في الصباح المبكر قبل أن يستيقظ من نومه.

***

وحين وصلت إلى قصر "جيتسهيد" كانت الساعة قد وافت الخامسة بعد الظهر، فعرجت إلى مسكن البواب قبل أن أنفذ إلى البهو. وطالعني وجه "بيسي" جالسة ترضع وليدها، بينما انهمك الطفلان في اللعب فصاحت "بيسي":

– أهلا.. أهلا.. تحل عليك نعمة الرب.. لقد كنت موقنة من حضورك..

فعانقتها وقبلتها بشوق وقلت:

– طبعا يا "بيسي".. لعلني حضرت في الوقت المناسب.. كيف حال مسز "ريد"؟

– لا تزال أنفاسها تتردد، وقد أصبحت أكثر انتباها، وتمالكت قواها عن ذي قبل. بيد أن الطبيب قرر أن حياتها قد لا تطول أكثر من أسبوعين، وأن لا أمل في شفائها..

– هل سألت عني في الفترة الأخيرة؟

– جرى ذكرك على لسانها صباح اليوم، وقالت أن أمنيتها أن تحضري وأن تراك. وقد تركتها نائمة منذ دقائق.. وتقضي نهارها نائمة ولا تصحو قبل السادسة. أرجو أن تستريحي قليلا، ثم أصعد معك إليها..

وفي هذه اللحظة دخل زوجها "روبرت" فوسدت طفلها مهده، وكان قد استسلم للنوم، ونهضت لتستقبله. وطلبت إلي أن أشرب الشاي، وسرتني حفاوتها فتركتها تخلع عني معطفي كما كانت تفعل حين كنت طفلة. وتواترت على رأسي ذكريات الماضي بكل ما حفل به. وأدهشني أن تظل "بيسي" محتفظة برشاقتها ونظراتها الحانية وقلبها الطيب العطوف!

وقدمت لي الشاي وبعض الطعام الشهي. واستفسرت مني عن حياتي الحالية، فأخبرتها أنني راضية، وأن سيد القصر دمث الخلق طيب المعاملة. وشرحت لها كيف يعج القصر الآن بالمدعوين الذين يقضون أوقاتهم في مرح.. حتى إذا انتهينا من تناول الشاي ومن الحديث خرجت في رفقتها، تماما كما رافقتني يوم رحيلي عن الدار. وخالجني شعور بالانقباض لأنني مقبلة على لقاء أناس يكرهونني، وكانوا في يوم ما أعداء لي. ولكنني تغلبت على ذلك الشعور، فعادت إلى نفسي الثقة والطمأنينة، وقالت "بيسي": "سأذهب بك إلى حجرة الطعام حيث تتناول الابنتان طعامهما هناك الآن".

ودلفت إلى الحجرة وأدهشني أن أرى المعالم كما هي، فلم يتغير سوى أهل القصر حتى كدت لا أعرفهم. فقد كبرت "أليزا" وخلتها راهبة بثوبها الأسود وبالصليب المعلق في صدرها. أما "جورجيانا" فقد ذهبت عنها نحافتها وأصبحت شابة ممتلئة الجسم جميلة التقاطيع، وقد تهدل شعرها الذهبي فوق عينين ساحرتين، وتتشح بالسواد هي الأخرى. وكانتا تشبهان والدتهما إلى حد كبير. وإذ لمحتاني نهضتا لتحيتي. واكتفت "اليزا" بالتحية، أما "جورجيانا" فأخذت تلقي علي بعض الأسئلة عن الطقس والسفر وتتفحصني في اهتمام. وكانتا تنظران إلي نظرات تعال تحمل معنى التهكم، وتتحدثان إلي بلهجة عدم الاكتراث، بيد أنني لم أسمع منهما كلمة نابية أو جافة. ولم تترك معاملتهما هذه أثرا في نفسي، كما لم يثرني حين جلست بينهما أن تتجاهل إحداهما وجودي وأن تعاملني الأخرى في سخرية، فقد كان تفكيري يحلق في أمور أخرى أسمى بكثير من ذلك. وسألت "جورجيانا": أريد أن اطمئن على صحة مسز "ريد".

– ماما.. أنها في أسوأ حال.. وأغلب الظن أنك لن تستطيعي رؤيتها الليلة!

– حبذا لو تفضلت وأبلغتها بنبأ وصولي..

وأدهشني أن أراها ترتجف وتحملق في ثم تقول: "أنها في الواقع ترغب في رؤيتك، وتلح في ذلك.. وبودي أن ألبي رغبتها فورا".

ولكن "اليزا" قالت: "والدتي لا تحب أن يقلقها أحد في المساء!"

فنهضت لأذهب إلى "بيسي" واستفسر منها عن إمكان مقابلتي لمسز "ريد" الليلة، فذهبت "بيسي" للاستفسار بدورها. بيد أن هذه المقابلة الجافة لم تترك في نفسي أثرا سيئا، فقد استقر رأيي على أن أبقى حتى تتحسن الخالة أو

تقضي. وعلى أن أطرح جانبا غطرسة ابنتها وحماقتها. فطلبت إلى مديرة القصر أن تعد لي حجرة، وأخبرتها بأن إقامتي بالقصر قد تطول إلى أسبوعين. وأشرت إلى حقيبتي، وطلبت إليها أن تحملها إلى حجرتي وتبعتها، وعند الدرج رأيت "بيسي" فقالت لي: "وجدت مسز "ريد" مستيقظة، وقد أخبرتها بوصولك. فهيا إليها لترى هل لا تزال حاضرة الإحساس فتعرفك!".

الفصل السادس عشر

رهبة الموت

لم تكن حجرات القصر غريبة علي، وبخاصة حجرة مسز "ريد" التي طالما ذهبت إليها حينما كانت تستدعيني السيدة لتسمعني سيلا من التقريع. وفتحت "بيسي" باب الحجرة في هدوء، فطالعني ذلك السرير العريض وإلى جانبه منضدة فوقها مصباح.. ولا تزال الستائر كما هي وكذلك المقاعد التي طالما شهدت تأنيبي والتماس الصفح عني. وتطلعت إلى المكان الذي كان يقف فيه "جون" حين يجيء ليشكوني.. وسرت في خفة نحو الفراش وانحنيت على الوسائد.

ولما كانت صورة مسز "ريد" لا تزال منطبعة في مخيلتي، فقد نظرت إليها في لهفة وقد زايلتني الرغبة في الانتقام، إذ خرجت مطرودة وعدت يملؤني الأسى ويجيش قلبي بالرغبة في الصفح. وطالعتني عيناها فملت عليها وقبلتها.. فتطلعت إلي في نظرة طويلة عميقة تزخر بشتى الأحاسيس ثم قالت:

– "جين اير"؟!

– نعم.. كيف حالك يا خالتي الحبيبة؟

وفيما مضى كنت قد عاهدت نفسي ألا أدعوها "خالتي" ولكني لم أجد حرجا في أن انقض ذلك العهد الآن. وأخذت يدها بين يدي، وضغطت عليها في رفق، فقابلتني بالمثل.. بيد أنها ما لبثت أن سحبت يدها وأشاحت بوجهها. ثم تفوهت بكلمتين أو ثلاث عن الطقس، وأخذت ترمقني في برود استشعرت

منه أنها لا تزال على عهدها نحوي.. فغلى الدم في عروقي، وشعرت برغبة جامحة في إذلالها، وطفر الدمع من عيني. فجلست إلى جانبها، وقلت:

– لقد لبيت رغبتك وحضرت، وفي عزمي أن أبقى حتى تتحسسن صحتك..

– أوه.. طبعا.. هل رأيت "اليزا" و"جورجيانا".

– قابلتهما بحجرة الطعام.

– أرجو أن تنهي إليهما أنني أرغب في بقائك حتى تساعدني صحتي على الإفضاء إليك بأمور تشغل بالي.. من العسير أن أتذكرها الآن.. ولكن دعيني أرى..

ورأيت في وضوح مبلغ ما أصابها من ضعف وهزال. وحدث أن جذبت الغطاء حول جسدها، وهالني أن أراها تثور قائلة:

– لا تضايقيني.. هل أنت "جين اير"؟!

– بدمها ولحمها!..

– كم قاسيت منك ومن نزعاتك وعنادك، فلما ضقت بك ذرعا أقصيتك عن القصر. وكنت أظن أنك قضيت بالحمى التي تفشت في "لوود" ولكنك لم تموتي وكنت أتمنى ذلك!

– أن هذا يبعث على الدهشة والأسى معا، فلماذا تحقدين على "جين اير" بهذه الدرجة؟

لقد كنت أكره أمها أيضا، شقيقة زوجي الذي كان يحبها رغم معارضة الأسرة لزواجها، وحزن لموتها واحتضن الطفلة رغم معارضتي، وبالغ "ريد" في

رعايتها أكثر من بناته، حتى كان يجعلها تنام إلى جانبه في فراشه أثناء مرضه. وأكرهني على أن أقسم بتعهدها وكفالتها، بيد أن "جون" على نقيض أبيه الضعيف، فقد تشرب من آل "جيبسون" لا آل "ريد". بيد أنه يضايقني برسائله التي تترى في طلب النقود حتى كدت أوشك على الإفلاس، فليته يكف عن ذلك. أن فوائد ديونه تستنفد الجانب الأكبر من مواردي. و"جون" يقامر ويخسر ويستدين، وقد التف حوله قرناء السوء.. أنني أشعر بالخزي حينما أراه!

وبلغ انفعالها ذروته، فأومأت إلى "بيسي" أن نتركها الآن وقالت:

– هذه عادتها عندما يدهمها الليل، وهي تهدأ في الصباح.. وهممت بالنهوض، ولكن مسز "ريد" صرخت تأمرني بالبقاء، وقالت:

– أنه يهددني بين الحين والحين بموته أو موتي. وكثيرا ما أراه في أحلامي وقد أصابه جرح أو انتفخ وجهه.. لقد استبدت بي الحيرة، وأصبحت أنوء تحت وطأة همومي.. ومن أين لي النقود!؟

ولم يكن أمامي "بيسي" إلا أن تقنعها برشفة من دواء مهدئ، تجرعتها بعد مجهود فهدأت، ثم استسلمت للنوم فتركتها وخرجت..

وأصدر الطبيب أوامره بتجنيبها كل ما يثير أعصابها، فلم أتمكن من التحدث إليها إلا بعد عشرة أيام، فقد ظلت تهذي أو تستغرق في نوم عميق. وعقدت العزم على أن أحسن العلاقة بيني وبين الابنتين، ولكنهما تمادتا في إهمال شأني. وكنت قد جئت معي بأدوات الرسم للتسلية وقتل الوقت. وشرعت ذات صباح ارسم وجها لإنسان دون أن يخطر ببالي شخص معين، فإذا بي حين انتهيت أجد أمامي صورة ناطقة لوجه مستر "روشستر" سألتني "اليزا" حين رأت الصورة عما إذا كان هذا وجه إنسان أعرفه، فأجبتها أنه مجرد رسم

من وحي الخيال.. وكنت كاذبة في ذلك بلا شك! وأعجبت "جورجيانا" بالرسوم الأخرى، فعرضت عليهما أن أرسم لكل منهما صورة. وبعد ذلك لاحظت تغيرا في معاملة "جورجيانا" لي فقد عرضت علي أن نتنزه في الحديقة. وحدثتني أثناء النزهة في أمور شتى ومن بينها ما أثارته من إعجاب في قلوب شباب لندن. وفي المساء أخذت تتبسط في الحديث فتروي بعض مغامراتها الغرامية. وكانت لا تتحدث إلا في الحب والغرام والشجون، ولم تتناول أمها ومرضها بكلمة فكأن أفقها لا يتسع لغير الأمل في العودة إلى مباهج لندن وإلى غزواتها.

أما "اليزا" فكانت تخلد إلى الصمت، ولا تتحدث إلا لماما، وكأنها تضن بوقتها أن تضيعه في الكلام. ولاحظت أنها كانت تعطي التعليمات لإيقاظها عند الفجر، وإن كنت لم أعرف تعليلا لذلك. وتبين لي أنها كانت تخصص ساعات للقراءة، وساعات للتطريز، وساعات أخرى لتدوين مذكراتها، وبعض الوقت في زراعة الخضر ومراجعة حساباتها.. فصارت حياتها رتيبة على هذا النمط، فكانت تخشى أن يطرأ ما يضطرها إلى تغيير هذا النظام.

وذات مساء، وكانت قد فرغت من أعمالها رأيتها تتحدث إلي على غير عادتها فقالت:

– كان "جون" يتسبب بتصرفاته في الإطاحة بكيان الأسرة. وأنا حزينة لذلك، ولكي أضمن الاستقرار لمستقبلي، فقد عزمت إذا ما ماتت أمي– فالأمل ضعيف في شفائها أو بقائها طويلا على قيد الحياة– أن أنشد مكانا لا تتسلل إليه المتاعب، وأقطع أسباب الصلة بيني وبين العالم الماجن..

– وهل ستسلك "جورجيانا" نفس الطريق؟

– أن "جورجيانا" تختلف عني مشربا ونزعة.. فلكل منا أن تسير في الطريق التي تروق لها.

وكانت "جورجيا" تتبرم بالظروف المحيطة بها، وتتمنى لو استطاعت أن تهرب إلى المدينة حتى تستقر الأمور على حد تعبيرها، ولعلها تعني بذلك موت أمها..

واختلفت "اليزا" مع أختها ذات مرة وضاقت بها ذرعا، فأخذت تنعتها بالسخافة والأنانية وإن كل همها إعجاب الناس بها والتقرب إليها، وأنها مفتقرة إلى العقل والعزيمة والنظام لتنتج عملا نافعا. وذلك تبتعد عن التفكير في الغير والتماس توددهم. ونصحتها بأن ترسم لنفسها طريقا أجدى وأقوم. وذهبت إلى أبعد من ذلك، فصارحتها بأنها ستنفض يدها منها بعد وفاة والدتهما وأنها ستفترق عنها عقب ذلك. ولو فنى العالم ولم يبق سواها، فلن يجمع بينهما رباط. فقالت "جورجيانا":

– كم أنت بارعة في إلقاء الخطب وإرسال النصائح وأنت أكثر الناس أنانية.. أنني أعلم مبلغ حقدك علي. وقد لمست غيرتك حين تقدم إلي أحد اللوردات، فلم تطبقي أن ارتفع عن مستواك أو أتمتع بلقب عظيم أو أكون قبلة الأنظار في مجتمع لا تجرؤين على الظهور فيه، فقمت بالوشاية وقضيت على الآمال..!

وإذا انتهت من ردها هذا انخرطت في بكاء مرير، ولكن "اليزا" لم يبد عليها أنها تأثرت.

أن حرارة الإخلاص والشعور المرهف شيء رائع. وها أنذا أرى أختين متناقضتين إحداهما جادة والأخرى تافهة، فما أغرب تصاريف القدر! فالشعور بلا تفكير أمر هين بسيط، بينما التفكير المجرد من الشعور ثقيل عسير.

والتمست "جورجيانا" النوم، بينما ذهبت "اليزا" إلى الكنيسة، إذ كانت حريصة على ألا تفوتها صلاة سواء أكان الجو معتدلا أو رديئا صافيا أو ممطرا.

وجال بذهني أن أصعد لأطمئن على المريضة التي أهمل الجميع شأنها حتى الخدم فيما عدا "بيسي" فقد كانت مخلصة، ولو أن شئون أسرتها وأولادها كانت تشغلها. ولم أجد أحدا بجانب المريضة يرعاها، فأذكيت نار المدفأة وقد بدأت تخمد، ورتبت الفراش.. ثم وقفت أتطلع مليا إلى ذلك الوجه الذابل الشاحب الذي لم يعد يقوى على التحديق في. ثم مضيت إلى النافذة وأرسلت البصر، فإذا المطر ينهمر والطبيعة ثائرة، فأخذت أحدث نفسي:

– سوف تقضي هذه السيدة فلا تحس بما حولها من صخب الطبيعة.. ترى أين تذهب الروح بعد أن تغادر ذلك الجسد الفاني وتصبح متحررة؟!

وبينما أنا مستغرقة في التفكير في هذا اللغز المستغلق، قفزت إلى ذهني ذكرى "هيلين بيرنز" وكلماتها لي قبيل أن تلفظ آخر أنفاسها عن الأرواح ومآلها. وقفزت أمام مخيلتي صورة وجهها الواهن، ونظراتها الصافية، وبسمتها الوادعة التي استقبلت بها عودتها إلى خالقها...

وانتشلتني من دوامة هذا التفكير غمغمة واهنة من الفراش:

– من هنا؟

فهرولت إليها وأجبتها:

– أنا... يا خالتي...

فسمعتها تقول:

– من أنت؟.. من أنا..؟

ثم ارتسمت على وجهها أمارات الدهشة المقرونة بالخوف وقالت:

– إنني لا أعرف من أنت.. أين "بيسي"؟

– في مسكنها يا خالتي...

– تقولين "خالتي".. أنك لا تمتين بصلة إلى آل "جيبسون".. ويخيل إلي أن هذا الوجه ليس غريبا عني، وكذلك هاتين العينين.. أنك تشبهين.. "جين اير"!

فألجم لساني ولم أنطق بكلمة، خشية أن أثيرها إذا أفصحت عن شخصيتي، فاستطردت:

– أخشى أن أكون مخطئة فإن أفكاري مشتتة... أريد أن أرى "جين اير" ويخيل إلي أنك تشبهينها.. ولابد أنها قد تغيرت على مر الأعوام...

وتراءى لي أنها استردت وعيها، فأكدت لها أنني "جين اير" التي ترغب في رؤيتها، وأن زوج "بيسي" حضر واستدعاني فلبيت الدعوة على عجل.. وبعد فترة صمت قالت:

– أنني أدرك مبلغ مرضي، فقد اكتشفت أنني لا استطيع الحراك .. ومن ثم أريد أن أريح ضميري قبل أن أقضي، فما كنت أستخف به يثقل كاهلي الآن. وهل معنا أحد في الغرفة؟

– كلا يا خالتي...

– اسمعي.. لقد أخطأت في حقك مرتين، أولهما أندم عليه، فإنني نكثت بالعهد الذي قطعته لزوجي بأن أربيك وأن اعتبرك ابنتي... والثاني...

وسكتت، ثم أخذت تحدث نفسها:

– ليس لهذا الأمر أهمية، فربما أشفى فأشعر أنني أذللت نفسي فأتألم...

وحاولت أن تتحرك.. ولاحظت أن أساريرها قد تبدلت، وكأن صراعا يعتمل في داخلها، قد يكون نذيرا باقتراب نهايتها، فقد سمعتها تقول:

– يجب أن أحكم العقل.. العالم الآخر يتراءى أمام عيني، الأفضل أن أخبرها! يا "جين" اذهبي إلى دولاب ملابسي، وتعالي بالخطاب الذي به...

فنفذت ما طلبته مني، فقالت:

– افتحي الخطاب واقرأيه...

"سيدتي.. أرجو أن تتفضلي وتخبريني بعنوان ابنة أخي "جين اير" وأن تشرحي لي حالها، لأنني عزمت على أن أكتب إليها بمجرد وصول ردك أطلب إليها أن توافيني في "ماديرا"، فأنا أرغب في تبنيها في حياتي، وأوصي لها عند موتي بكل ثروتي..".

"جون اير"– ماديرا

ولاحظت أن تاريخ الخطاب يرجع إلى ثلاث سنوات خلت، فسألتها:

– لماذا لم تبعثي إلي بذلك في الوقت المناسب؟

– دفعني مقتي الشديد لك على ذلك، فلم أشأ أن انتشلك من وهدة البؤس والفقر. ولن يبرح ذاكرتي ذلك اليوم الذي ثرت فيه علي، ولا أسلوبك في الإفصاح عن حقدك على ناعتة إياي أسوأ النعوت فتوجست منك يومئذ رغم طفولتك... ناوليني رشفة ماء فقد جف حلقي..

فناولتها جرعة الماء وقلت لها:

– دعي كل هذا عن ذهنك أيتها العزيزة "ريد"، واغفري لي ما بدر مني، تشفع في ذلك طفولتي يومئذ..

– لم استطع النسيان فانتقمت لأنني لم أطق أن تنعمي بالراحة. وأرسلت إليه وأخبرته أنك قضيت بالحمى.. ولا يهمني أن تكتبي إليه الآن وتظهريه على الحقيقة، فإنني أعتقد أنك مصدر عذابي. ولولا ذلك ما أقدمت على ما أقدمت عليه مما يعذب نفسي وضميري ويقض مضجعي في لحظاتي الأخيرة..

– هلا طرحت ذلك جانبا يا خالتي وغفرت لي ومنحتني عطفك..

– ماذا أرى؟ كيف تحملت سنين طوالا.. ثم ثرت بعدها ثورة هوجاء؟

– إنني لست سيئة كما تتوهمين.. صحيح أنني حادة الطبع ولكني لست حقودا، وكم كان يشرح قلبي أن أحبك في طفولتي لو أنك هيأت السبيل إلى ذلك. وأرجو في صدق وإخلاص أن يسود بيننا الوئام ويحل الصفاء... امنحيني قبلة يا خالتي..

وقربت خدي من شفتيها حتى التصق بهما، ولكنها لم تفعل، وطلبت ماء للمرة الثانية. وأسندتها ثم أمسكت يدها الباردة، ولكنها جذبت أصابعها وأعرضت عني فقلت:

– لقد صفحت عنك سواء منحتني عطفك أو ظللت على حقدك، فاطلبي من الله الغفران وليهدأ بالك...

أنها الآن في سعير من العذاب. وقد ذهب الأمل في استلانة قلبها، وستقضي وقلبها مترع بالحقد علي..

وفي هذه اللحظة دلفت الممرضة إلى الحجرة تتبعها "بيسي". فظللت أرقب السيدة لعلي أرى إيماءة أو إشارة تحمل معنى الحب، بيد أنها لم تبد شيئا

من ذلك، ثم راحت في غيبوبة شديدة لم تفق منها حتى أسلمت الروح في منتصف الليل.

ولم أحضر موتها ولا حضرته ابنتاها، بل أنهيا إلى الخبر في الصباح، وانخرطت "جورجيانا" في البكاء، وذهبت مع "اليزا" لنلقي عليها النظرة الأخيرة، وقالت "جورجيانا" أنها لا تستطيع ذلك.. وقد وجدنا "سارة ريد" مسجاة في فراشها، تلك التي كانت يوما ما تزهو ببأسها وشكيمتها.. لقد أصبحت ساكنة باردة كالثلج وقد احتجبت عيناها تحت جفنيها، أما ملامحها الصارمة فلا يزال منها أثر على صفحة وجهها، فألقيت عليها نظرة في أسى عميق دون أن أشعر برثاء أو رجاء.. بل أسى من أجل شقائها وليس لحزني عليها، بل استشعرت الحزن أمام رهبة الموت..

وتطلعت "ليزا" إلى أمها المسجاة، وقد أخذتها رهبة الموت، ثم قالت:

– لقد كان من الممكن أن تعمر أكثر من ذلك، بيد أن الهموم والأرزاء تحالفت عليها فقضت على مناعتها.

ثم غلبها البكاء فبكت.. وبعد ذلك غادرنا الحجرة في صمت كئيب..

الفصل السابع عشر

قصر الحبيب

ظللت شهرا في "جيتسهيد" مع أن الأجازة التي منحت لي كانت لأسبوع فقط. وأردت أن أرحل عقب تشييع الجنازة، ولكن "جورجيانا" ألحت علي أن أبقى حتى تسافر إلى لندن حيث دعاها خالها مستر "جيبسون" الذي كان قد جاء للإشراف على مراسم الدفن وتسوية أمور العائلة، ولأن "اليزا" أخبرتها بأنها لن تنتظر منها عطفا حينما تنتهي الأمور.. فبقيت على مضض، وقمت بحياكة ملابسها وحزمها.

وحان موعد سفر "جورجيانا" فودعتها.. فطلبت "اليزا" مني أن أبقى أسبوعا آخر، لأنها كانت تعتزم الرحيل إلى مكان غير معروف. وأخذت تفرغ أدراجها وتعد حقائبها بمفردها، ووكلت إلي مقابلة الزوار والرد على رسائل التعزية، وأخيرا قالت لي:

– كم أنا شاكرة لك هذه الخدمات مقدرة لك نبل سلوكك.. أن الفارق جد كبير بينك وبين "جورجيانا"! فأنت تعتمدين على نفسك ولست عالة على الغير مثلها.. سأرحل غدا إلى أوربا، وسأقيم في دار تشبه الدير بالقرب من "ليل" حتى أقضي عمري في هدوء وراحة بال. وقد أفكر في دخول الدير!

ولم أدهش، كما لم أحاول أثناءها عما اعتزمته، فربما كان أجدى لها. وعند سفرها ودعتني راجية لابنة عمتها أطيب التمنيات، فقلت:

– أن عقلك راجح يا ابنة الخال. وإذا لم يكن لي أن أتكلم، ولكني أصارحك بأنك ستقضين على نفسك في دير كهذا..

– هذا صحيح.. ولكن هذه رغبتي..

وافترقنا.. وأذكر بعد ذلك أن "جورجيانا" تزوجت من رجل مسن ثري، وأن اليزا التحقت بالدير وأصبحت رئيسته..

لم يحدث أن جربت من قبل ما يشعر به الإنسان عندما يعود إلى وطنه بعد غيبة عنه.. لذلك كان شعوري غامضا، وأنا أعود إلى "ثورنفيلد". وبدت رحلة الأوبة شاقة، فكنت أقطع خمسين ميلا كل يوم. وفي أول الرحلة، انحصر تفكيري في "مسز زيد" ولحظاتها الأخيرة ثم وفاتها وجنازتها، وحول "جورجيانا" ومرحها و"اليزا" ووحشتها في الدير. وكانت هذه الأفكار تتبدد، فلا تلبث أن تعاودني من جديد. وساءلت نفسي، وأنا في طريقي إلى "ثورنفيلد":

– ترى كم هو مقدور لي أن أمكث بها؟!..

لقد عرفت من الرسائل التي بعثت بها مسز "فيرفاكس" أن الضيوف قد رحلوا، وأن مستر "روشستر"غادر القصر وسافر إلى لندن، وأنه سيعود بعد أسبوعين، وأنه ولا شك يعد العدة للزواج إذ أنه اشترى عربة جديدة. وأنها لا تشك في زواجه من "مس انجرام" رغم غرابة ذلك. فلم أعلق على استنتاجاتها، لأنني من ناحيتي لا يساورني أدنى ارتياب. ولكنني عدت اتساءل:

– ترى أين يكون مصيري بعد ذلك؟! فقد رأيت مس "انجرام" في منامي تغلق في وجهي أبواب "ثورنفيلد" وتشير إلى طريق آخر ورأيت "مستر روشستر" في نفس الحلم، وقد عقد ذراعيه، وراح ينظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة سخرية واستخفاف..

وكنت قد أخفيت عن مسز "فيرفاكس" موعد عودتي، حتى لا تنتظرني في العربة في "ميلكوت" فقد عزمت أن أقطع المسافة سيرا على الأقدام.. فغادرت

الفندق تاركة حقيبتي لدى الحارس، واتخذت طريقي إلى "ثورنفيلد" عبر الطريق القديم المهجور، ورأيت الفلاحين على جانبي الطريق وقد انهمكوا في الحصاد. ورحت أشعر بالغبطة كلما تقدم بي المسير، واسأل نفسي عن سر هذا الشعور مع أن المنزل الذي أقصده ليس منزلي، ولا به أصدقاء مشغوفون بي وينتظرونني. وإذا كانت "مسز فيرفاكس" سترحب بي "وأديلا" ستطير فرحا بلقائي، إلا أنني أفكر في شخص آخر لا يفكر هو في.. ولكن أوحى إلى شبابي وافتقاري إلى التجربة، أنني سأحظى باستجلاء طلعة مستر "روشستر" مرة أخرى سواء أعارني اهتمامه أو أهملني، وصار كل همي أن أبقى إلى جانبه فترة طالت أو قصرت قبل أن افترق عنه إلى الأبد، فأخذت أحث السير..

ولم يبقى أمامي سوى مرحلة قصيرة لأصل إلى أبواب القصر، وكنت أتوق للوصول إليه بأسرع ما أستطيع.. ووجدت مستر "روشستر" جالسا على مقعد فوق سلم السور، وقد انهمك في الكتابة. وخارت أعصابي للمباغتة، فلم أملك زمام عواطفي للحظة.. ما هذا الذي انتابني؟! ما فكرت يوما أنني أرتجف للقياه، وأن الكلمات تحتبس في حلقي وأصبح عاجزة عن الحركة.. ماذا دهاني، وما دوافع كل ذلك؟!... وفكرت أن أعرج إلى طريق آخر قبل أن يراني، بيد أن عينيه وقعتا علي فتوقف عن الكتابة وهتف:

– مرحي.. مرحي.. لقد عدت أخيرا.. إلي.. الي..

فتقدمت دون أن أشعر، وبذلت جهدا في التظاهر حتى لا تفضحني انفعالاتي، وأسدلت قناعا على وجهي حتى أحجب عنه قدر استطاعتي بعض هذه الانفعالات، فقال:

– ها أنذا وجها لوجه أمام "جين اير".. لماذا آثرت الحضور سيرا على الأقدام؟ أهي حيلة منك حتى لا تنتظرك العربة فجئت كما يجيء الحلم.. كيف قضيت ذلك الشهر يا "جين"؟

– مع زوجة خالي التي قضت يا سيدي..

– أفي حلم أنا؟! رفقا بي أيتها السماء.. فقد هبطت "جين اير" من العالم الآخر، ووجدتني وحيدا أهيم في الظلام.. بودي لو لمستك لأعرفك هل أنت حقيقة أو خيال.. أغلب ظني أنك سراب خادع.. أيها الطير الشارد! لقد غبت عني شهرا كأنك نسيتني!

أنني أعلم أن لقاءه يشيع البهجة في نفسي، وإن لم يطل هذا اللقاء وفرقت بيننا الأقدار. ورغم اعتقادي بأنني لست موضع الاهتمام من جانبه، ولكن ما كان يمنحني إياه من قطرات عطفه وعواطفه كان كافيا لأن يبعث السعادة في طائر غريب مثلي. وقد تناثرت كلماته على مسامعي وكأنها السحر، فجعلتني أعتقد أنني أشغل مركزا كبيرا في نفسه وقلبه.. فهو يشير إلى "ثورنفيلد" على أنني عدت إلى (منزلي) فليت الأمر كذلك!..

ووقف في مكانه لا يبرحه، ولم أتحرك أنا الأخرى، ثم سألته هل سافر إلى لندن فدهش وعزا ذلك إلى ثاقب فكري وبديهتي المتوقدة، فقلت له:

– أخبرتني بذلك مسز "فيرفاكس" في إحدى رسائلها..

– وهل أخبرتك بالمهمة التي سافرت من أجلها؟..

– أوه يا سيدي.. لم يعد ذلك خافيا..

– أريد أن تلقي نظرة على العربة يا "جين" لترى هل تناسب "مسز روشستر"، وهل ستكون فيها كحورية من حوريات الأساطير بين وسائدها

القرمزية.. كم أود يا "جين" أن أكون بهي الطلعة مثلها.. أما من تعويذة أيتها الساحرة تجعلني جميلا؟!

– أن هذا فوق طاقة السحر يا سيدي!..

بيد أنني قلت فيما بيني وبين نفسي أن عين المحب تراه جميلا.. ومن عجب أن لمستر "روشستر"قدرة خارقة على قراءة ما يدور بالخواطر، فلم يأبه بجوابي بل ابتسم ابتسامة ذات مغزى، ثم أفسح الطريق وقال لي: "هيا يا "جينيت".. هيا إلى المنزل!. فلابد أنك متعبة، واخلدي للراحة في قصر حبيب لك..".

وأطعته.. ولكني استدرت تحت تأثير خفي لأقول له:

– شكرا على هذا العطف يا مستر "روشستر"، أن السعادة تغمرني لعودتي.. وداري الوحيدة حيث توجد أنت!...

ومرقت إلى القصر، فطارت "أديلا" من الفرح، وطالعتني مسز "فيرفاكس" بحفاوتها الصادقة، وحيتني "ليا" و"صوفي" وهما باديتا السرور، فكان ممتعا لي أن أشعر أنني أحظى بمحبتهن.

وعندما حل المساء، لم أشأ أن أفكر في المستقبل، ولا أن أدع الهواجس تنتهشني بدنو الفراق، وما يستتبع ذلك من مرارة، فجلست مع مسز "فيرفاكس" و"أديلا" تلهو أمامنا، وإذا بمستر "روشستر"يدخل علينا فجأة ومعالم السرور بادية عليه.. فتضرعت إلى الله في سري ألا يفرق بيننا بعد زواجه..

***

وانقضى منذ عودتي شهران لفهما هدوء غامض.. لم يشر أحد فيهما عن زواج السيد، ولم ألحظ أي استعدادات لحفل الزواج. وذات مرة سألت مسز

"فيرفاكس" سيد القصر عن موعد قدوم عروسه، فأجابها بكلمة مازحة وبسمة غامضة..

وأدهشني منه أمر واحد حرت في تعليله، ذلك أنه انقطع عن الرحلات ولم يعد يتردد على قصر "انجرام".. فما معنى هذا بالنسبة لعاشق ولهان؟! وذهبت بي الأفكار إلى أبعد الحدود. وتراءى لي أن أحدهما أو كليهما قد عدل عن الزواج، فأخذت أتفرس في وجه مستر "روشستر" لعلني أستشف ما ينبي عن حزن أو ألم مكبوت، ولكني لم ألمح شيئا من هذا!..

وكان يذهلني أن تخور قواي حين أتشرف بلقائه مع "أديلا" وأسبح في خضم من التفكير والاكتئاب، فيبعث ذلك السرور في نفسه.. فراح يكثر من دعوتي إلى مقابلته ويغمرني بعطفه وحنانه.. وشعرت بعاطفة الحب له تتسلل إلى قلبي في عنف وجبروت..

الفصل الثامن عشر

شجرة البندق

جاء الصيف وانتف، بسمائه الصافية وشمسه المشرقة.. فازدهرت الحقول، واخضرت المروج، وأزهرت الأشجار..

وأوت "أديلا" إلى فراشها في إحدى الأمسيات، بعد أن أنهكها التعب من التنقل بين الأشجار.. فغادرتها وذهبت إلى الحديقة، وليس بخاف ما في تلك الساعة من سحر يأخذ بمجامع الألباب.. ساعة غروب الشمس، وهي ترسل آخر خيوطها الحمراء ليستعد القمر للتألق وأخذ مكانه في كبد السماء..

وسرت الهوينا في الممر، واستشعرت خياشيمي عبيرا لا أخطئه.. فقد كان دخان سجاير يتسلل من إحدى نوافذ القصر، وكانت نافذة المكتبة نصف مفتوحة، فخشيت أن تراني عين.. فسرت موغلة في الحديقة، ميممة شطر بقعة منعزلة كأنها قطعة من الجنة، يفصلها عن فناء القصر جدار شامخ كما يفصلها عن المروج طريق تحف بجانبيه أشجار باسقة.. وفيما كنت أخطر بين الأزهار وقد أطلت على أشعة القمر الفضية توقفت عن السير لا بسبب أحد اعترض طريقي أو صوت تناهى إلى سمعي.. بل بسبب العبير الذي نفذ إلى خياشيمي. ذلك العبير تلاشى بجانبه شذى مختلف الأزهار، وعرفت فيه دخان سيجار سيدي. وتلفت حولي وأرهفت السمع، فلم أر غير الأشجار، ولم أسمع سوى تغريد الطيور.. بيد أن عبير الدخان أخذ يشتد، فرأيت أن أتوارى ودلفت من باب قريب مني، فرأيت مستر "روشستر"يحث الخطى نحو المكان الذي أنا فيه، وحدست أنه ربما يعود من حيث أتى دون أن يراني. ولكن يبدو أن انتشى مثلي

بجمال الطبيعة، فأخذ يسير الهو بنا هو الآخر يتسلى بقطف الثمار أو الزهور. وجذبت أنظاره فراشة جميلة أخذ يتأملها وقد أولاني ظهره، فأردت أن انتهز هذه الفرصة لعلي استطيع الاختفاء..

وسرت في خفة الطاووس فوق الأعشاب، حتى لا يكشف عني وقع خطواتي على الأرض. وكان مستر "روشستر"على قيد خطوة من الممر الذي يتحتم علي اجتيازه. فلم أكد أخطو خطوة أو خطوتين حتى سمعته يخاطبني بصوته الشجي دون أن ينظر إلي:

– انظري.. كم هي جميلة هذه الفراشة يا "جين"!

فارتجفت وأخذني العجب كيف أحس بي، لأنني لم أحدث صوتا ينبي عن وجودي، ثم تقدمت فقال:

– أنها تذكرني بجزر الهند الغربية، فهناك رأيت فراشة مثلها.. وأغلب ظني أنها نادرة في بلدنا هذا.. آه لقد طارت!

وأخذت ارتد عائدة، ولكنه تبعني وقال:

– العودة إلى القصر تحرمنا من سحر هذه الليلة الجميلة، وما من شك في أن أحدا لا يحب أن تفلت منه هذه الفرصة..

أنها لباقة في الحديث تنفذ إلى النفس فتأسر الفؤاد.. بيد أنني اعترف بالعي الذي يعتريني حين تدعو الحاجة إلى الكلام رغم طلاقة لساني. وتبعته متثاقلة، رغم أنه لم تكن بي رغبة في السير معه. وأخذت أفكاري تلهب رأسي باحثة عن مخرج من هذا المأزق، فقال لي في هدوئه المعهود:

– ألا تجدين "ثورنفيلد" مكانا يشيع البهجة في النفس في هذا الفصل يا "جين"؟..

– حقا يا سيدي..

– أغل بالظن أنك أصبحت شغوفا "بثورنفيلد"، ولو إلى حد ما، يوحي إلي بذلك ما أراه من حبك للطبيعة وعشقك لجمالها..

– تسحرني الطبيعة بجمالها يا سيدي..

– أرك أيضا متعلقة بالطفلة "أديلا" وتحلو لك صحبة "فيرفاكس" الطيبة فهل يؤلمك أن تبتعدي عن حياتهما؟

– أن ذلك يحزنني جدا يا سيدي..

– واأسفاه..هذه سنة الحياة.. لا يستقر المقام بأحد.. ثم لا يلبث إلى تغيير!..

– وهل يتحتم علي أن أغادر "ثورنفيلد"؟..

– ذلك في ظني يا "جين" وأحسب ألا مفر منه، وأن كان مما يدعو إلى أسفي!..

ووقعت كلماته وقع الصاعقة.. ولكني تمالكت نفسي وقلت في نبرة لا أدري كيف صدرت عني:

– فيلكن يا سيدي، وسأكون على أهبة الاستعداد متى حان وقت الرحيل..

فقال على الفور:

– لقد حان الموعد، وسأصدر أمري بذلك.. الليلة!..

– إذن فقد استقر رأيك على الزواج.. وبهذه السرعة؟!

– لقد أدركت الحقيقة بذكائك الخارق.. لعلك تذكرين أنني أبديت رغبتي في أن أضع حدا لحياتي الراهنة، وارتبط برباط مقدس، وأن أضم إلى مس "انجرام" فإنها تتمتع بجمال أخاذ نادرا ما يجده الإنسان في غيرها.. كنت أقلو.. آه.. اسمعي يا "جين".. ألست أنت التي اقترحت ببعد نظرك أن ترحلي مع "أديلا" عندما أتزوج "بلانش انجرام". ومع ما في اقتراحك من تعريض بها، ولكني سأنسى ذلك حينما ترحلين يا "جينيت" ولن يعلق بذهني سوى ما انطوى عليه من حكمة وبعد نظر.. ومن ثم، فلابد من إلحاق "أديلا" بإحدى المدارس الداخلية.. أما أنت يا "جين" فلابد لك من وضع جديد!..

– طبعا يا سيدي.. وسأبادر إلى الإعلان عن وظيفة..

وكاد يجري على لساني أن استطرد وأقول: "وأرجو أن يسمح لي سيدي بالبقاء في القصر حتى أوفق إلى مأوى آخر".

ولكنني أمسكت عن ذلك القول خشية أن تخونني قواي. فعاد يقول:

– قد يتم الزواج بعد شهر.. سأبحث في خلاله عن عمل لك ومأوى.

– شكرا.. لماذا أجشمك هذا التعب يا سيدي؟

– لا داعي للشكر.. فمن كانت مثلك ليس بكثير أن تلقى بعض العون من "روشستر". ولقد سمعت من الليدي "انجرام"– حماتي مستقبلا– عن وظيفة لتربية خمس بنات بإحدى مقاطعات ايرلندا التي يقولون أن أهلها طيبو القلب، ولا شك أنك ستحبينهم..

– أنها نائية يا سيدي!..

– ليس ذلك بذي بال.. كما أنه ليس كثيرا على فتاة عاقلة مثلك..

– السفر لا يهمني يا سيدي.. ولكن بعد الشقة.. والبحر الذي... يفصل...

– ماذا يفصل؟!..

– ايرلندا عن انجلترا.. وعن "ثورنفيلد"... وعن...

– ماذا أيضا؟..

– وعنك أنت يا سيدي..

نطقت بالجملة الأخيرة تحت تأثير قوة قاهرة، ورأيت الدموع تنهمر من عيني في صمت على غير إرادة مني. كانت فكرة السفر إلى ايرلندا، والبحر الذي يفصل بيني وبين مستر "روشستر"قد أشاعت في قلبي برودة قاسية. فلم أتمالك أن قلت:

– أن المسافة بعيدة جدا يا سيدي...

– هذا صحيح.. وعلاوة على ذلك فلن أراك يا "جين" لأنه ليست بي رغبة إلى السفر إلى ايرلندا.. هل تعتقدين أننا كنا صديقين مخلصين؟

– طبعا يا سيدي!..

– ومثل هؤلاء الأصدقاء جديرون بأن يقضوا أوقاتهم معا قبيل فراقهم.. فدعينا نتكلم بعض الوقت عن السفر، وما سوف يعقبه من فراق.. هيا نتغزل في جمال هذه النجوم التي تأتلق في السماء.. انظري إلى هذه الشجرة، وإلى ذلك المقعد الجاثم بجانبها.. هلا جلسنا الليلة هنا لا يعكر صفونا أمر، فقد لا تتاح لنا فرصة أخرى نجلس فيها معا مرة ثانية..

وجذبني برفق وأجلسني، واتخذ مكانه إلى جانبي، ثم قال:

– يا عصفوري الصغير العزيز.. أن الرحلة شاقة، ولكن ما حيلتي؟! هل تظنين أن هناك صلة رحم تربط فيما بينك وبيني؟

وأذهلني هذا السؤال، وكان قلبي يقطر أسى، فلم أحر جوابا.. فقال:

– يدفعني شعور غامض طاغ إلى الاعتقاد بوجود هذه الصلة حتى لأكاد أحس أننا روح واحد في جسدين. وأخشى ما أخشاه أن يؤثر الرحيل في هذه الرابطة، فيقضي على كياني وقلبي.. بيد أنك قد تلهيك مشاغل الحياة فتنسينني..

– هذا مستحيل يا سيدي.. لأنني..

ولم أقو على أن أبوح بما كنت أريد أن أنطق به.. فقال:

– أنصتي يا "جين" إلى ذلك البلبل وهو يغرد..

وهنا أدركت أن عواطف الرجل وأشجانه قد بلغت الذروة من الاضطرام، وأنه يقاسي صراعا مريرا... فلم أتمالك نفسي ورحت أنشج بالبكاء. وبعد أن خففت عن نفسي قليلا قلت:

– ليتني ما خلقت.. وليتني ما عرفت "ثورنفيلد"..!

– هل ذلك لأنك سترحلين عنها عما قريب، وتشعرين لذلك بالأسى...؟

ولم يعد في طوقي أن أحتمل أكثر من ذلك، وقد استبد بي الحب والحزن معا، فقلت:

– يعصف بي الأسى لأنني عشقت "ثورنفيلد".. أحببتها لما لقيته فيها من حياة ممتعة.. بين عقول واعية راجحة، لم يحط أحد من كرامتي، وفيها تجسمت أمامي المثل العليا. كما أفضيت فيها بخواطري ومكنون نفسي في شجاعة

وصراحة إلى من أحبه من أعماقي، وأجد فيه البهجة وراحة النفس.. صاحب العقل الإنساني الذي ينطوي على النبل وسعة الأفق، وأنه ليصهر فؤادي ويعصف بقلبي أن أفارقك يا مستر "روشستر". ولا أرى أمامي بادرة أمل في رؤيتك بعد ذلك.. ففراقي هذا بمثابة الموت بالنسبة لي.. الموت الذي لابد منه!

– هل تقدرين أنه كذلك؟..

– لقد رسمت أنت الموضوع على هذا الوضع!..

– فسري ما تقولين في إيضاح أكثر..

– بعبارة أوضح.. مس "انجرام"... عروسك الجميلة...

– عروسي...! من قال ذلك؟!..

– ستحظى بعروس إن عاجلا أو آجلا...

– طبعا..

– وفي هذه الحالة يجب أن أذهب..

– بل يجب أن تبقي.. أؤكد لك ذلك.. وسترين..

– تريدني أن أبقى لأصبح نقطة صغيرة في محيطك.. هل تظنني مخلوقة صماء بلا شعور، أم تريد أن تتسلل حياتي من نفسي قطرة قطرة.. أم هل دار بخلدك أنني فتاة بلا قلب، لأنني فقيرة في المال والجمال.. ولو أنني وهبت قليلا منهما لشعرت أنت لفراقي بتلك الغصة التي أحسها أنا الآن. أنني لم أحبك حبا جسديا، لأن الجسد فان ونزواته إلى فناء. ولكن حبي لك روحاني.. وأنا لا أخاطبك الآن، بل أن روحي هي التي تناجي روحك وقد تجردتا عن هذا الجسد.. في حضرة الله.. كما هو الوضع الصحيح الأزلي..

فلم أشعر إلا وقد احتواني بين ذراعيه، وضمني إلى صدره، وتلاقت شفاهنا في قبلة خالدة، وقال:

– أهكذا تصورين الوضع الصحيح الأزلي..؟

– نعم.. ولا يا سيدي.. هو كذلك حقا، ولكنك رجل على وشك الزواج من فتاة أخرى لا تشعر نحوك بعاطفة، وأغلب الظن أنك لا تستشعر حبا صادقا لها.. ومثل هذه الرابطة التي تنطوي على الرياء أو الزيف تناقض مبادئي.. فدعني أذهب يا سيدي!

– إلى أين تذهبين يا "جين"؟!..

– إلى أي مكان.. فقد صارحتك بسريرتي، وأرضيت بذلك نفسي..

– لا تكوني حمقاء هكذا يا "جين".. كعصفور غلبه اليأس فأخذ ينتف ريشه بمنقاره!

– إنني لست هكذا يا سيدي.. بل إنني فتاة حرة طليقة ذات إرادة تفرض عليها سلوك الطريق الذي تراه قويما، وقد أوعزت إلى أن أتركك..

وكان لا يزال يضمني إلى صدره، فبذلت مجهودا حتى تخلصت منه، ووقفت قبالته، فقال:

– مما لا شك فيه أن الإرادة تقرر المصير، ولذلك فأنا أقدم لك قلبي ويدي وبعض ما أملك..

– هذا هراء يا سيدي..

– أنني أطلب منك أن تظلي طول العمر إلى جانبي، وأن تكوني شريكة حياتي ونصف روحي...

– لقد وقع اختيارك على من أهلتها لهذا المركز، ومن الخطل أن تنقض قرارك...

– ما هذا يا "جين"؟.. هدئي من روعك، فإنني أراك في أشد حالات الانفعال..

ورحت أبكي وأنا أنصت إلى تغريد البلبل، بينما جلس مستر "روشستر" هادئا يرنو إلي في حنان.. وأخيرا قال:

– اقتربي مني يا "جين".. ودعينا نتفاهم..

– لا داعي لذلك بعد ما بذلته من جهد لأخلص نفسي منك..

– أنني أدعوك إلى جانبي يا "جين" كما أدعو زوجتي.. فأنت عروسي دون سواك..

وظننته يسخر مني، أو يهزأ بي، فلذت بالصمت.. فقال:

– اقتربي مني يا "جين"..

– شبح عروسك يحول بيننا!..

وبخطوة خاطفة صار بجانبي، ثم جذبني إليه وهو يقول:

– أنك أنت عروسي لأنك ندي.. فهل تقبلين الزواج مني؟

فلم أنبس ببنت شفة، وحاولت التخلص من يده التي أمسكت بي، فعاد يقول:

– هل تشكين فيما أقول يا "جين"؟..

– إن أردت الصدق.. يخامرني الشك والارتياب...

– إذن فأنت لا تثقين بي؟..

– يؤسفني ذلك يا سيدي..

– هل يعني ذلك أنني في نظرك مخادع أو كاذب.. سوف أنزع هذا الاعتقاد من نفسك.. فأنا لا استشعر حبا لمس "انجرام" وأنت تعلمين ذلك، بل صرحت لي به منذ لحظة وقلت أنها هي الأخرى لا تكن لي عاطفة حب. وعلاوة على ذلك فيمكنني أن أصارحك بأنني أردت أن اختبرها، فأطلقت إشاعة بلغت مسامعها بأن ثروتي لا تساوي ربع قيمتها. ثم زرتها لأرى أثر الإشاعة في نفسها، فقوبلت بالفتور منها ومن والدتها. أما أنت.. يا من هبطت إلي من السماء، فأغلب ظني أنك لست من سكان هذه الأرض، فإنني أحبك وكأنك قطعة من قلبي ولحمي ودمي.. فإليك أيتها الفقيرة في المال والجمال كما تقولين، أتوسل كي تقبلي الزواج مني...

وطالعتني لهجة الصدق في قوله، فقلت:

– تتوسل إلي أنا.. أنا التي لم تهبها الحياة صديقا سواك.. وهل غاب عن بالك أنني لا أملك من المال إلا الأجر الذي أحصل عليه منك مقابل عملي..؟

– أنت يا "جين" كل شيء بالنسبة لي.. فأنت الروح التي بها أحيا، فهل تقبلين توسلي؟.. قولي "نعم" الآن...

– دعني أتفحص وجهك لأقرأ أساريره!..

ورأيت وجهه يتضرج بالخجل، وقد شاع فيه الانفعال، وقد أخذت عيناه تأتلق في بريق عجيب، وقال لي:

– نظراتك تعذبني رغم إخلاصها!..

– كيف يدور بخلدك أنني قد أكون مصدر ألم لك؟.. أن شعوري يفيض بالحب، فهل في ذلك تعذيب لك؟!..

– إذن هلا وافقت بسرعة وقولي "سأقترن بك يا ادوارد".

– أتحبني حقا أم هي نزوة طارئة؟..

– ماذا أفعل أكثر من ذلك كي أقنعك؟!..

– سأتزوجك إذن يا سيدي..!

فضمني إلى صدره، وأخذ يغمغم معبرا عن شعوره بالسعادة، وتمنى ألا يظهر ما يعكر الصفو.. فطمأنته بأن ليس لي ثمة من أخشى تدخله في شئوني. وانجابت عني وطأة كابوس الفراق، إذ دعيت إلى جنتي. فرحت انتشي بالسعادة نتقاسم الشعور بها..

وجن الليل حتى كدت لا أتبين وجه مستر"روشستر"، وراحت شجرة البندق تتراقص من تأثير الرياح فقال:

– الأفضل أن ندخل الآن، فقد تغير الطقس!

وتغير الطقس فعلا حتى رأيت السماء قد أرعدت، ثم هطلت الأمطار حتى اضطررت أن أخفي وجهي في صدره. وفيما هو يزيح عني لفاعتي التي بللها المطر، وإذا بمسز "فيرفاكس" تطل من باب حجرتها دون أن يراها أحد منا، فقال لي يودعني:

– اخلعي ثيابك المبتلة قبل أن تنامي.. يا حبيبتي..

وأمطرني بقبلات لا أدري كم بلغ عددها.. وحين تخلصت من ذراعيه وجدت مسز "فيرفاكس" تتطلع في دهش مما ترى فقلت في نفسي "سأوضح لها الأمر فيما بعد". وطغى شعوري بالسعادة على أي تفكير آخر قد يجول بخاطر مسز "فيرفاكس" عما رأته. وقد وجدت مستر "روشستر" يقترب من باب

حجرتي عدة مرات ليطمئن على حالي، فبعث ذلك في نفسي قوة، وشد من عزيمتي لمواجهة كافة الاعتبارات.

وإذ لاح صباح اليوم التالي، رأيت "أديلا" تهرول إلي في حجرتي لتنهي إلي بنبأ عجيب.. أن صاعقة أعقبت هياج الطبيعة أثناء الليل وأصابت شجرة البندق التي تقع في نهاية الحديقة، فأطاحت بجزء كبير منها..

الفصل التاسع عشر

فترة تدريب

واستيقظت في صبيحة اليوم التالي، وأنا لا أكاد أصدق أن ما حدث بالأمس كان حقيقة واقعة، ولم يكن أضغاث أحلام.. حتى تقابلت مع مستر "روشستر"، فأخذ يبثني عواطفه ويؤكد لي حبه..

وخيل إلي أن وضعي الجديد أضفى على وجهي جمالا لا عهد لي به، وأن عيني تأتلقان بوميض السعادة. وكنت قبل الآن أخشى أن أنظر إلى سيدي.. أما الآن فإني أستطيع أن أطالعه بوجهي في ثقة واطمئنان من ناحية حبه..

وكان الصباح مشرقا يحمل عبير الأزهار، فخيل إلي أن الطبيعة تشاطرني السعادة. وأحسست بقلبي يكاد يقفز من بين ضلوعي من شدة الفرح. وفوجئت بمسز "فيرفاكس" تطل من النافذة وقد تجهمت أساريرها، ثم طلبت إلي أن أذهب لتناول الإفطار. وقد لاذت بالصمت أثناء تناوله، فلم أشأ أن أبدأها الحديث وفضلت أن أترك ذلك لسيدي. والتقيت "بأديلا" ونبهتها إلى أن موعد الدرس قد حان، فأخبرتني أن مستر "روشستر" أصدر إليها الأمر بالتوجه إلى حجرة الأطفال.

– وأين هو؟..

– في هذه الحجرة..

فدلفت إليها ووجدته واقفا في وسطها.. وإذ رآني هتف قائلا:

– هلمي إلي بتحية الصباح..

فتقدمت إليه.. فلم يقرئني تحية بلسانه، أو مصافحة بيده، بل تلقيت عناقا حارا وقبلة عميقة عبرت عما يجيش بقلبه من وجد.. ثم قال:

– أنك كالزنبقة المتفتحة في هذا الصباح.. "جين".. أنك تبدين متألقة رائعة الجمال..!.. لقد همت بين مفاتن هذا الجمال.. فهل أنت حقا "جين"..؟

– أنها هي يا سيدي.. "جين اير"..

– بعد شهر واحد يا "جينيت" ستغدين "جين روشستر"

وما أن سمعت ذلك حتى دارت الدنيا برأسي، عبرت ملامحي عن انفعالاتي، ولاحظ هو ذلك فسألني:

– "جين".. لماذا تضرج وجهك ثم تحول إلي شحوب؟!

– لذلك الاسم الذي يشبه نغم موسيقى سماوية.. الذي أطلقته على الآن...

– حسنا يا "مسز روشستر"...

– أكاد لا أصدق يا سيدي.. لأنني أعلم أن السعادة الكاملة لا ينعم بها أحد في عالمنا هذا.. فلماذا أشذ عن بنات جنسي؟.. أنني أكاد أؤمن أنني في حلم من أحلام اليقظة...!

– ولكني سأحقق ذلك الحلم.. وقد أرسلت في طلب جواهر ولآلىء من لندن، يحتفظ بها وكيل أعمالي هناك، لأنها ميراث تتداوله سيدات "ثورنفيلد"..

– دعك من حديث اللآلىء يا سيدي، فليس لها أثر في نفس "جين اير"..

– مهما تقولين، فهي لك دون سواك..

– اطرق موضوعا آخر.. فما أنا إلا مربية في قصر سيدي...

– بل أنت حسناء عيني.. وحسناء روحي.. وحسناء قلبي..!

– لعلك تسخر مني يا سيدي.. بالله لا تمعن في ذلك..

بيد أنه لم يأبه لتعليقي، وبدا كأنه لم يسمع شيئا، فاسترسل يقول:

– سأجعل الجميع يعترفون بهذا الجمال..

وخيل إلي أنه يتملقني، أو يغرر بنفسه، فقلت له:

– عندئذ ستنكرني.. فلن أكون "جين اير".. أن حبك قد ملك على كل مشاعري رغم عدم وسامتك.. فاطرح جانبا هذا الأسلوب ولا تتملقني..

بيد أنه تجاهل ما أقول، واستطرد:

– سنذهب اليوم معا في العربة إلى "ميلكوت" لانتقاء بعض الثياب، فقد قرب موعد الزفاف، الذي سنرحل بعده إلى لندن.. ثم إلى دنيا الجمال في فرنسا، ودنيا الفن في إيطاليا، حيث ننعم بالحياة. وستعرفين يومئذ أنك أغلى جوهرة في تاج حياتي.. لقد جبت أوربا من قبل، وكنت وحيدا لا تؤنسني غير الوحشة والوحدة والنقمة.. أما الآن فسيكون معي ملاكي، وقد أفعم قلبي بحبه...

– ما هذا الإغراق في العواطف؟.. لن يلبث الفتور أن يتسلل إلى نفسك، فتختلف نظرتك إلي فيتحول الحب إلى ميل، أو قد يتبخر بعد بضعة شهور. لذلك أتمنى أن تبقى على عهدك..

– لن تتأثر عواطفي نحوك..!

– ألم تتقلب عواطفك من قبل؟.. ألم تسأم ذات مرة؟

– مع النساء ذوات الجمال الظاهري.. اللواتي بلا قلوب. ولكنني محب صادق للروح العالية والقلب العامر...

– وهل صادفك قلب عامر؟

– أنه أمامي الآن..! "جين".. أنني لم أصادف مثيلا لك من قبل، ففيك سحر لم أجده في سواك. لقد غلبت على أمري، ومع ذلك استشعر النشوة في خضوعي...

– لي مطلب يا سيدي.. هلا أجبته...؟

– أن سحر عينيك شفيع بأن أجيب، ولو طلبت المستحيل..!

– أرجو أن تصرف النظر عن مسألة اللآلىء.. فهي ليست ذات بال.. وكذلك ثروتك.. وكل ما أطمع فيه أن أظفر بثقتك.. أم ترى ستنبذني إذا فتحت لي مغاليق نفسك؟

أنت موضع ثقتي التامة بلا قيد أو شرط.. ولا تعمدي إلى المغالاة فتتحولين إلى حواء...

– لم لا.. وقد قلت منذ لحظة أنك تستشعر اللذة في القهر والإلحاح.. لماذا تعبس؟.. وهل هكذا ستكون بعد الزواج...؟

– إذا كنت أنت أيضا كذلك... أفصحي بالله عما تتلهفين على معرفته؟

– ألا فأعلم أنني أوثر الجد والخشونة على الظرف والملق.. أنني أفضل أن أكون في نظرك مجرد إنسانة.. ما الذي دفعك يا سيدي على بث الاعتقاد في نفسي بأنك تزمع الزواج من "بلانش انجرام"...

فانبسطت أساريره، وأخذ يعبث بشعري، وقال:

– ألست أنت التي تقدمت بهذا العرض يا "جينيت"؟.. لقد لجأت إلى هذه الحيلة لكي تتدلهي بحبي مثلما أنا غارق في هواك.. فكانت الغيرة هي كلمة السر التي أغزو بها قلبك..!

– ألم تنظر إلى الموضوع من ناحية "مس انجرام"؟

– لقد كفتني مشقة الإجابة عن ذلك بكبريائها.. ألم تشعري بالغيرة يا "جين"؟

– دعنا من ذلك... ألم يخطر ببالك أن مس "انجرام" ستتألم لتظاهرك بغزلها وانهيار أملها حين تعرف أنك هجرتها...؟

– هذا خلاف الواقع، فقد أخبرتك أنها هي التي نبذتني بعد أن تناهت إلى سمعها فكرة إعساري.

– هل لي أن اطمئن إلى ما تغدقه علي من فضل وخير دون أن يقاسي غيري من ذلك؟

– هل في العالم قلب عامر بحبي سوى قلبك؟.. وإيماني بحبك لا تعدله في الكون أية سعادة..

وكانت يده على كتفي، فتحولت إليها وقبلتها تعبيرا عن صادق حبي. ثم عدت اسأله:

– لي رجاء... هو أن توضح الأمر لمسز "فيرفاكس"، فقد لاحظت أنها متجهمة حينما رأتني بالأمس، وأخشى أن تذهب بها الظنون!...

– اذهبي إلى غرفتك واستعدي للذهاب معي إلى "ميلكوت" في الصباح.. وسأوضح أنها لها الأمر..

– أحسب أنها تظنني استهنت بمركزك أو نسيت مركزي..

– أن مركزك في القلب يا حبيبتي...

وحين انتهيت من ارتداء ملابسي، كان مستر "روشستر" يغادر حجرة "مسز فيرفاكس".. فهبطت إليها ووجدتها شاردة بالأفكار، وعليها معالم الدهشة. وابتسمت إذ رأتني ثم هنأتني، بيد أن الابتسامة ما لبثت أن انجابت عن شفتيها، وقالت:

– لقد عقدت الدهشة لساني يا "جين اير".. فلا أدري ماذا أقول.. هل أنا في حلم؟.. كما أحلم كثيرا بزوجي الذي قضى من زمن.. هل طلب مستر "روشستر" الزواج منك حقا؟..

– لقد قال لي ذلك فعلا..

– وهل قبلت؟..

– قبلت!..

– لم يخطر ذلك ببالي قط.. فعهدي به متكبر، شأنه في ذلك شأن أفراد أسرته، ثم أنه يتميز بالدقة والحذر في جميع تصرفاته.. فهل يعني حقا أنه سيتزوجك؟

– هذا ما أنبأني به..!

وبدأ عليها كأنها تبحث عن لون من ألوان الفتنة يغريه بي، ثم قالت: "أكاد لا أصدق، لولا أنك تؤيدين ذلك.. مع الفارق في المركز والثراء والسن، فأجدر به أن يكون لك أبا"..

– كلا يا مسز "فيرفاكس"... فليس فارق السن كما تذكرين، فإنه يبدو وكأنه دون الثلاثين.

– هل ربط بينكما الحب؟!..

وحين سمعت ذلك أغرورقت عيناي بالدموع.. ولكنها عادت تقول: "على العموم يجدر بي أن أحذرك"..

– مم؟.. ألست جديرة بأن يحبني؟..

– لم أقصد ذلك.. فأنت مليحة.. بل ازددت ملاحة في الفترة الأخيرة. وقد لاحظت تدلهه بك وإيثاره لك، فساورني القلق. ولما كنت أعهد فيك العقل الراجح، فإنني على يقين من أنك ستعرفين كيف تصونين نفسك. فكري في الموضوع، واجتهدي أن تبتعدي عن السيد، ولا تندفعي وراء العواطف.. لأن السادة لا يتزوجون في الغالب من مربيات.

وأنقذتني "أديلا" بحضورها، وهي تصيح طالبة أن تذهب معنا في العربة الجديدة، فوعدتها أن أستأذن السيد في ذلك. ووقفت العربة أمام مدخل القصر، بينما كان مستر "روشستر" يذرع الإفريز ومن خلفه "بايلوت" فسألته:

– هل تسمح "لأديلا" أن ترافقنا؟..

– لقد طلبت مني ذلك فرفضت... أنني أريدك أنت فقط... وحضورها سيضايقنا...

وطنت في أذني تحذيرات مسز "فيرفاكس" فساورني بعض القلق. ولاحظ هو ذلك فسألني: "ماذا أرى؟.. وماذا جرى؟. لقد زايلك إشراقك.. فهل تريدينها معنا؟".

واضطر إلى الموافقة وأشار إلى الفتاة أن تسرع، ثم تحول إلي وقال:

– لا بأس من تحملها لفترة.. فسأنعم بك مدى العمر..!

وأجلس الفتاة إلى جانبه من الناحية الأخرى، فبرمت. وتضرعت إليه أن يأتي بها إلى جانبي، فوافق على مضض. ثم أشار إلى أنه سيلحقها بإحدى المدارس. وعندما استفسرت منه عما إذا كانت ستذهب بمفردها دون الآنسة، أجابها بأن الآنسة ستظل معه بعيدا جدا. فصارحته الفتاة بأنه لن يستطيع توفير أسباب الراحة للآنسة، وضايقه إلحاحها في الحديث، وبخاصة عندما قالت له:

– أن الآنسة لن تلبث أن تضجر ببقائكما وحدكما. ولو كنت في مكانها لرفضت..!

– ولكنها قبلت.. واتفقنا على ذلك..

وكانت العربة قد ابتعدت عن القصر وسارت في الطريق، وقد بدت الأشجار على الجانبين. وأشار للفتاة عن مكان في الحقل ذاكرا لها أنه جلس فيه ذات مساء، وأخذ يدون في مذكراته متمنيا أن يتمتع بالسعادة في المستقبل، وإذا به يرى إنسانة على قيد خطوتين منه، وأنه أشار إليها أن تتقدم فتقدمت. وأنهما لم يتحدثا بل أن عيونهما وقلباهما هي التي تحدثت. وكان الحديث حول الحب والسعادة... فقالت "أديلا":

– ما شأن الآنسة بذلك الذي ترويه؟!..

– أنت صغيرة أيتها الفتاة.. لا تدركين شيئا...

وطلبت إلى "أديلا" ألا تعير مزاحه أهمية، بيد أن الفتاة أظهرت شيئا من التشكك.. وقضيت ساعة في ميلكوت شعرت فيها بالضجر. فقد أرهقني اختيار الملابس، وأقنعته باختيار ثوبين فقط أحدهما أسود والآخر رمادي. وكان الحنق يستبد بي كلما ابتاع لي قطعة من المجوهرات. وكنت خلال ذلك قد

نسيت خطاب خالي إلى مسز "ريد" واعتزامه أن يتبناني ويجعلني وريثته، وأن ذلك كان يغنيني عما يغدقه على مستر "روشستر". فعزمت أن اكتب إلى "ماديرا" عند عودتي، لأزف لخالي نبأ زواجي الوشيك. وراح مستر "روشستر" ينظر إلي، فشددت على يده ووجدتني أقول له:

– لماذا تنظر إلي هكذا؟.. أرجو أن تكف عن ذلك... وإلا فلن تغريني هذه الثياب، ولك أن تصنع منها ما شئت لنفسك.. وسأتزوج بثوبي الذي ارتديه..

فضحك في جذل، وقد أطربه أن يسمعني أتكلم مهما كان الحديث الذي أتناوله. ووصفني بأنني شاذة الأطوار، وأنني أفوق جواري السلاطين.. وآلمني منه ذلك، فقلت له:

– لماذا تشبهني بحريم السلاطين؟.. إذا كانت بك رغبة فيهن فأمامك نقودك وتجار الرقيق..

– وأنت... ماذا تفعلين عندئذ؟

– أشعر بالحرية، وأشعل نار الثورة في قلوبهن، فتجد نفسك مصفدا في الأغلال.. ولا أصفح عنك إلا بعهد عظيم..!

– يسعدني سلطانك علي يا "جين"..

– لن تنفذ الشفقة إلى نفسي إذا نظرت إلي بهذا الشكل.. وإذا كان الأمر هكذا، فلن تلبث أن تنقض عهدك.

– ماذا اسمع يا "جين"؟. هل سأضطر إلى إقامة حفل زواج فريد من نوعه؟.. أراك تلمحين عن شروط غريبة.

– أنني لا أطمع إلا في راحة البال.. الحرير واللآلىء لا تغريني.. وأنا أفضل عليها أن أظل معلمة بأجرها الضئيل... ولا أطمع في غير الاحترام المتبادل.

– أنك تتمتعين بفطنة نادرة..!

وعندما اقتربنا من القصر، سألني عما إذا كان يسرني أن أتناول معه طعام العشاء فاعتذرت مبدية شكري.. فدهش واستفسر عن سبب اعتذاري، فقلت:

– لم يسبق لي أن تناولت العشاء مع سيدي.. وليس ثمة ما يدعو إلى ذلك حتى..

– حتى ماذا؟..

– حتى يصبح أمرا مفروضا..

– هل تخشين أن أحظى بنصيب الأسد من الطعام؟

– لم يخطر ذلك ببالي.. أنني أفضل أن تسير الأمور كما هي لشهر آخر..

– سأعفيك من عملك على الفور..

– اعذرني يا سيدي إذا رفضت ذلك، سأستمر في عملي. وأفضل أن ابتعد عن طريقك نهارا.. ولك أن تستدعيني في المساء إذا رغبت. ولا يسعني إلا تلبية رغبتك.. لا شيء أكثر من ذلك.

– يا لك من طاغية.. أنها أيام يصير بعدها الزمام بيدي، حيث أشدك إلى خشية أن تفلتي..!

وهبطت من العربة، وأسرعت إلى حجرتي، وعندما أقبل المساء أرسل يدعوني، وكنت قد رتبت له ما يشغله عني.. فرجوته أن يغني، بيد أنه اعتذر وأخذ يطري ملاحتي. وسألني عما إذا كنت معجبة بصوته، وتمشيا مع مقتضيات الذوق أجبته بالإيجاب فقال:

– إذن لا مانع لدي من الغناء بشرط أن تعزفي..

فوافقت.. بيد أنه دفعني عن مقعدي، وجلس مكاني ثم راح يعزف ويغني في براعة أذهلتني. وسمعته يردد مقاطع أغنية عن الحب الذي تسلل إلى قلبه، واختلط بكل قطرة من دمه، وأخذ يتدفق في مجرى حياته بما فيها من آلام وآمال...

وعندما انتهى نهض وتقدم نحوي، فرأيت عينيه تأتلقان في بريق عجيب وقد توردت وجنتاه وبان الوجد في أساريره.. فتوجست حين وجدت نفسي أمام عرض غرامي جريء ولكن سرعان ما تمالكت نفسي ووطنت العزم على أن أهيئ وسائل الدفاع.. فما أن صار في مواجهتي حتى بادرته بالسؤال:

– من تلك التي تعتزم أن تتزوجها الآن؟!

– وهل هذا سؤال؟.. من تكون غير معبودتي "جين"!؟

وازداد حنقي وهياجي لتشبيهي بمن وردت على لسانه في الأغنية.. فتوسل إلي أن أصفح، وأن يكون الصفح بقبلة فرفضت. بيد أنني وجدت في رفض جمودا، وأردت أن يكون في ذلك امتحان له كي يعرف ما هو مقدم عليه، فلعله يعدل. ولكنه طلب إلي أن أهدأ، وأن تكون الحكمة رائدي.. فقلت له:

– أنني أفخر بما أوتيت من حكمة!

فازداد حنقه، بيد أنني لم آبه بذلك وقلت له:

– هذه خير وسيلة يمكن أن اتبعها.. أنني أحبك حتى لأعجز عن التعبير عن مبلغ حبي.. ولكني لا أريد أن نندفع وراء العواطف، وأود أن أجنبك التردي في هوة.. فهذا أجدى لك ولي..

وأخذت أروضه على انتهاج هذا المنهج في الليالي التالية، فكنت في نهاية كل مقابلة انهض لأنصرف بعد أن أقول له بلهجة تزخر بالاحترام: "طابت ليلتك يا سيدي.."

وحالفني التوفيق.. ولو أنه كان يغضب أحيانا، بيد أنه كان يستشعر الغبطة. وكنت أظهر له الاحترام والتبجيل والهدوء في حضرة الغير، فلم أكن أعارضه أو أتبسط معه إلا في أحاديثنا الليلية ونحن منفردان. وقد دأب علي استدعائي في كل أمسية، وكان يحلو له أن ينعتني بأوصاف عجيبة على سبيل عدم التكليف. وكنت ألاحظ أنه يضغط على يدي، أو يعبث بذراعي أو أذني.. ففضلت هذه المداعبات على غيرها من ألوان الغزل. ويظهر أن ذلك قد بعث الطمأنينة في نفس مسز "فيرفاكس" وأنها لم تعد تقلق من ناحيتي.. بيد أن مستر "روشستر" كان يبدي أنني أضايقه بخطتي هذه، وراح يتوعدني بالانتقام.. فكنت أقابل ذلك بالضحك من تهديداته، مقنعة نفسي بأنه سنعدو في وسعي أن أجعله يتصرف طبقا لهواي، وأن ذلك سيكون رائدي في مستقبل حياتنا..!

بيد أنني– فيما بيني وبين نفسي–كنت اعتبر الأمر غير طبيعي، وأنه يجمل بي أن أرضيه ولا أغضبه.. فإنه عما قريب سيصبح زوجي، وهو أعز من اعتز به في الدنيا.. أنه أملي في الحياة..!

***

انقضى الشهر الذي ذكر مستر "روشستر" أنه سيتزوج في نهايته.. وكنا قد أعددنا كل ما يلزم في اليوم السابق للزفاف.. فأعددت أنا حقائبي وحزمتها استعدادا لنقلها إلى لندن في اليوم التالي. وكان مستر "روشستر" قد كتب في بطاقات الأمتعة: "مسز روشستر.. فندق.. لندن.." ولكني لم أجرؤ على لصقها على الأمتعة لسبب واحد، هو أن "مسز روشستر" لم تكن قد اكتسبت هذه الشخصية في تلك اللحظة، بل أمامها بضع ساعات حتى يكون لها ذلك الحق..!

واستمر هبوب الرياح في ذلك اليوم، فهرعت إلى الحديقة لعلي أجد فيها حماية من تلك الرياح التي لم تحمل معها قطرة من المطر. وبتقدم الليل زادت حدة الرياح، وتضاعفت شدتها، حتى كادت تعصف بالأشجار.. فرحت أتمشى وأتسلى بجمع التفاح المتساقط، وحملت الناضج منه إلى القصر. ثم مضيت إلى المكتبة التماسا لدفء نار المدفأة، وجلست على مقعد إلى جانبها، وأسدلت الستائر وأعددت الشموع.. بيد أني وجدت القلق يستولى علي حتى ضقت ذرعا بكل شيء. وكانت الساعة قد بلغت العاشرة، فحدثتني نفسي أن أذهب إلى البوابات الخارجية لعلي أرى مستر "روشستر" قادما ولأذهب عن نفسي سأم الانتظار..

ووطنت العزم على ذلك، وعلى ألا أعود إلا برفقته.. وسرت بضع عشرات من الأمتار، فلم ألبث أن تناهى إلى سمعي وقع حوافر، ثم رأيت فارسا يعدو وفي أثره كلب، فحدثت أنه لابد أن يكون مستر "روشستر" ومعه "بايلوت". ولم يلبث أن رآني لأن القمر كان قد أطل بطلعته، وحياني.. فأسرعت للقائه فقال:

– لقد قادك قلبك إلي.. أليس كذلك؟. هيا ضعي قدمك على حذائي وامسكي بيدي، واقفزي فوق الجواد..

ففعلت وأنا نشوانة من الفرح، فحياني بقبلة تفيض باللوعة واللهفة، ثم سألني:

– ماذا دفعك للحضور إلى هنا في هذه الساعة لاستقبالي؟.. هل حدث أمر..؟

– كلا.. لقد طال بي الوقت، واستبد بي سأم الانتظار حتى خلت أنك لن تعود، فلم أقو على الانتظار أكثر من ذلك.. وبخاصة مع المطر والرياح..

– حقا.. أنك تقطرين ماء كعروس البحر وقد خرجت لتوها.. تدثري بمعطفي.. أنني أراك محمومة يا "جين" وقد تورد خداك والتهبا.. خبريني.. ماذا حدث؟

– لا شيء.. فلست الآن خائفة أو تعسة...

– إذن فقد كنت كذلك؟..

– كنت مشوقة إليك.. ها قد وصلنا... فدعني أترجل..

وهبطت إلى الممر، فطلب إلي وقد تبعني إلى البهو أن أبدل ملابسي بأخرى جافة، وأن أوافيه في المكتبة وشدد على ألا أبطيء.. فعدت بعدة دقائق لأجده يتناول العشاء. فبادرني بالسؤال:

– هل أعددت كل شيء؟..

– نعم يا سيدي..

– وكذلك أنا.. وسنرحل عن "ثورنفيلد" غدا عقب عودتنا من الكنيسة..

– هذا جميل يا سيدي..

– ما هذه الابتسامة المشرقة التي اقترنت بردك، وما هذا الورد الذي صبغ خديك... بل ما هذا البريق الذي تأتلق به عيناك! هل هنالك ما يشغل بالك؟..

– هل تظن ذلك؟..

– خبريني بالله.. بماذا تشعرين؟

– أن لساني يعجز عن التعبير عما يجيش به قلبي.. كم أتمنى ألا تنتهي هذه الساعة، فمن يدري ما يخبئه لنا القدر؟

– دعي عنك هذه الخواطر يا "جين"... لقد نال منك التعب.

– أتشعر يا سيدي بالهدوء؟.. والسعادة..؟

– أما الهدوء فلا.. وأما السعادة فأنا سعيد كل السعادة...

وتطلعت إلى وجهه فوجدته يفيض بها، وقد تورد خداه لما يعتمل في قلبه وقال:

– سبق أن طلبت إليك أن تمنحيني ثقتك.. لذلك أرجو أن تزيحي عن نفسك عبء المتاعب فتفضي بها إلي.. ماذا يدور بخلدك من الهواجس؟.. هل تخشين ألا أكون زوجا طيبا؟

– لم يخطر ذلك ببالي قط..

– إذن فهل تخشين دنياك الجديدة؟ وحياتك المقبلة؟

– كلا..

– أتحبينني يا "جين"؟

– أحبك يا سيدي.. أن قلبي لا ينبض إلا بحبك...

– هذا جميل.. أنك نطقت بذلك في صدق وحرارة حتى ليخيل إلي أن التي إلى جانبي روح أو طيف وليست إنسانة.. قولي أي شيء "جين" وافعلي ما شئت.. قولي أنك تكرهينني.. وافعلي ما يثيرني، فإنني أوثر ذلك على أن تملأي نفسي بالأسى..

– سأفعل ما تشاء من إثارة بعد أن أفرغ من سرد قصتي.

– ماذا تقولين؟..

وأذهلني قلقه وما بدا عليه من نفاذ صبر، بيد أنني استرسلت:

– رأيت حلما يا سيدي... شاهدت فيه قصر "ثورنفيلد" أطلالا موحشة وقد سكنته البوم وأخذت تنعق فيه، ولم يبق من واجهته سوى جدار متصدع. وأخذت أتجول ذات ليلة فوق الحشائش التي نبتت فيه، وإذا بقدمي تتعثران في حافة ناتئة.. وكنت متلفعة بشالي أحمل طفلا مجهولا فوق ذراعي، ولم ألقه رغم تعبي وثقله.. ثم ما لبثت أن سمعت جوادا يركض فأيقنت أنك قادم، لأنك كنت قد رحلت.. فأسرعت أتسلق الجدار كي ألحك، وإذا بالجدار ينهار وإذا بالأغصان التي تعلقت به تلتوي. وتشبث الطفل بعنقي حتى كدت أختنق.. ولكني وصلت رغم كل ذلك إلى القمة، ورأيتك وكأنك نقطة بيضاء أخذت تزداد تضاؤلا. ثم اشتدت الرياح فلم أعد أستطيع الوقوف فجلست فوق قمة الجدار ورحت أخفف من روع الطفل، وإذا بك تدور حول منعطف ثم تنحني لكي ألقي عليك نظرة أخيرة.. ففقدت توازني وسقطت، ثم استيقظت من نومي وقد استبد بي الهلع!

– ولكنه حلم على كل حال وقد انقضى.. ولم يبق منه أثر!

– أنها المقدمة يا سيدي، أما القصة فها هي: حينما استيقظت بهر عيني نور.. فخيل إلي أن الصبح قد انبلج، بيد أنه لم يكن كذلك فقد كان النور ضوء شمعة. ودار بخلدي أن "صوفي" حضرت. ورأيت باب الخزانة التي بها ثوب الزفاف مفتوحا، وسمعت خفيفا فقلت: "ماذا تفعلين يا "صوفي"؟" فلم يجبني أحد.. وإنما مرق شخص من الخزانة وراح يتأمل الثوب، فصرخت باسم "صوفي" مرتين.. فلم اسمع جوابا. فاستويت جالسة، وملت إلى الأمام أحدق في فزع، وأخذتني الدهشة في مبدأ الأمر.. ثم استبدت بي الحيرة ولفني الخوف حتى جمد الدم في عروقي.. فلم يكن الشخص "صوفي" ولا "ليا" ولا مسز "فيرفاكس". كما لم يكن "جريس بول".

وهنا قاطعني سيدي قائلا: "ما من شك في أن الشخص واحدة منهن.. هل تذكرين أوصافه؟"

– يخيل إلي أنها امرأة فارعة مملوءة الجسم ذات شعر كثيف طويل، ولم أتبين سوى أنها كانت تتشح بلباس أبيض. ولم أر وجهها في مبدأ الأمر.. وشاهدتها تتناول خمار الزفاف وتتأمله مليا، ثم وضعته على رأسها وراحت تتطلع إلى نفسها في المرآة، فرأيت وجهها وقد انعكس في وضوح على صفحة المرآة. وكانت مخيفة يا سيدي ينم وجهها عن وحشية.

– وماذا فعلت تلك المرأة بعد ذلك؟..

– مزقت الخمار وألقته على الأرض ثم داسته..

– ثم ماذا؟..

– أزاحت إحدى الستائر وأطلت إلى الخارج.. ثم تناولت الشمعة، واتجهت نحو الباب.. وعندما بلغت فراشي راحت تتفرس في بعينيها المتقدتين

ثم أطفأت الشمعة. وقد أحسست بأنفاسها تلفح وجهي، فأغمى على للمرة الثانية في حياتي، لفرط الرعب الذي استولى علي..!

– من تذكرين كان معك حينما أفقت من الإغماء؟

– لم يكن معي أحد.. وكان ضوء النهار قد غمر الحجرة، فنهضت واغتسلت وشربت جرعة من الماء وأنا أحس بالوهن.. بيد أنني لم أكن مريضة. واعتزمت ألا أبوح بما رأيت لأحد سوى سيدي.. فماذا يعني ذلك؟.. ومن تكون تلك الشيطانة؟

– أنها مجرد أوهام لا أكثر ولا أقل، فاض بها رأس مثقل مرهق.. ولابد من أن أرعاك يا معبودتي فمثلك لم يخلق للمتاعب..

– ليت الأمر كما تقول.. أراك عاجزا عن تفسير هذه الرؤيا!

– أن هذا يعني أنها ليست حقيقية يا "جين"، فلا تمت للواقع بشيء..

– وما قولك أنني حين استيقظت رأيت الخمار ملقى على الأرض وممزقا؟..

وارتسمت على وجه مستر "روشستر" دلائل الفزع، إذ ارتعد قليلا ثم طوقني بذراعيه وقال:

– أحمد الله أن الأذى لم يتعد الخمار، فإنني لا أدري كيف يكون حالي لو أصابك سوء.

وتنهد ثم ضمني إلى صدره في عنف، كأنه يحميني من خطر داهم، ثم قال في ابتهاج:

– هل تريدين تفسيرا يا "جين"؟.. لقد كان نصف الأمر حلما ونصفه الآخر حقيقة. فإنني أتبين من ثنايا حديثك أن امرأة تسلك إلى حجرتك.. ولابد أنها "جريس بول" التي وصفتها بأنها مخلوقة غريبة الأطوار.. هل تذكرين ما فعلته بي... وبمستر "ميسون"؟ ولابد أنك كنت في حالة بين اليقظة والنوم، إذ أحسست بدخولها ولاحظت أفعالها. وإذ كنت في حالة من الهذيان، فقد تراءت لك في صورة خيالية بعيدة عن الواقع.. فالشعر الكثيف المشعث، والوجه المنتفخ، والقوام الضخم، مجرد أوهام كابوس.. بيد أن الخمار الممزق حادث حقيقي قد تقدم عليه. وإذا أردت أن تعلمي لماذا تقيم هذه المرأة بمنزلي، فسأذكر لك ذلك بعد انقضاء عام كامل على زواجنا.. فهل يروق لك ذلك؟

وببعض التفكير وجدته تفسيرا معقولا، بيد أن الشك ظل يخامرني.. فأجبت بابتسامة راضية. وتأهبت لمغادرته، فقال:

– من الأفضل أن تشاطري "أديلا" فراشها الليلة، فلا تأوى وحيدة إلى حجرتك. وأغلقي الباب من الداخل، وأيقظي "صوفي" التي تنام مع "أديلا" متعللة برغبتك في أن توقظك في ساعة مبكرة لما ينتظرك من مهام. واطرحي عنك الأفكار والهموم. إلا ما أجمل همسات نسيم الليل.. وكان الليل جميلا حقا..

فنظر مستر "روشستر" إلي وقال: كيف حال ملاكي الآن؟"

– هادئة كهذا الليل..

– ستكون أحلامك الليلة عن الحب والرباط المقدس، ولن تحلمي أحلاما مفزعة.

بيد أن هذه الأمنية لم تتحقق كلها.. فلم أرد أحلاما مزعجة كما لم أر أحلاما سارة، لسبب واحد هو أنه لم يغمض لي جفن.. بل رحت أرقب "أديلا" بجانبي وأتأمل نوم الطفولة الهادئ وأنا أترقب مطلع الفجر.. وأخذت تتراءى أمام عيني صور حياتي وأحداثها تباعا.

مفاجأة مذهلة

نهضت "صوفي" مبكرة لتساعدني على ارتداء ملابسي.. وأعتقد أنها تباطأت في ذلك لأن صبر مستر "روشستر"نفد، فأرسل يستفهم عن سبب تأخري. وكانت "صوفي" تثبت خمارا آخر أبيض برأسي فأسرعت أغادرها، فطلبت إلي أن ألقي نظرة على نفسي في المرآة.. ففعلت، وتراءى لي منظر يختلف عن شكل "جين" حتى كدت أنكر نفسي. وسمعت صوتا يناديني، فهرعت حيث وجدت مستر "روشستر" في استقبالي، وهو يقول:

– أيتها الكسول... لقد عيل صبري ونفد احتمالي..!

وأخذ يتأملني، ويطري جمالي، ويشبهني بالزنبقة اليانعة، وأنني غاية مناه ومشتهاه.. وأمهلني بضع دقائق أتناول فيها فطوري، ثم دق الجرس، فلباه خادم، فسأله:

– هل أعد كل شيء؟..

– العربة في الانتظار.. والخدم ينقلون الحقائب يا سيدي..

وطلب إليه أن يسرع إلى الكنيسة– وكانت مجاورة للقصر– ليتأكد من وجود الكاهن والكاتب ويعود ليخبره.. فذهب وعاد مسرعا ليقول أن الكاهن يستعد. فقال مستر "روشستر":

– لست بحاجة إلى العربة للذهاب إلى الكنيسة، إنما أريد أن تكون مستعدة عند عودتنا، وكذلك الحقائب والسائق "جون"..

– حسنا يا سيدي..

ثم التفت إلي وسألني:

– هل أنت على استعداد يا "جين"؟..

فنهضت.. ولم يكن معنا أحد من أصدقائه أو صديقاتي أو من الأهل والأقارب، وقد وقفت مسز "فيرفاكس" في البهو عندما اجتزناه.

ودلفنا إلى الهيكل الهادي، فرأيت الكاهن ينتظرنا في ثوبه الكهنوتي والكاتب إلى جانبه. وكان الهدوء شاملا، فيما عدا شبحين لرجلين غريبين في ركن بعيد. واتخذنا مكاننا عند ستار الهيكل المقدس، وسمعت صوت خطوات خلفي، فإذا هي خطوات أحد الغريبين.. يدل مظهره على أنه من أبناء الطبقة الراقية وقد أخذ يتقدم نحونا..

وبدأت المراسم، وأخذ الكاهن يتلو حكمة ناموس الزواج.. ثم تقدم إلى الأمام، وأخذ يسأل مستر "روشستر" تلك الأسئلة التقليدية عن رباطنا الزوجي. وعندما وجه الكاهن السؤال لمستر "روشستر":

– هل تقبل هذه المرأة زوجة لك؟..

انبعث صوت واضح قائلا:

– لا يمكن أن يتم هذا الزواج.. فهناك عقبة تحول دون ذلك!

فرفع الكاهن عينيه إلى المتكلم، وكذلك فعل الكاتب.. وتململ مستر "روشستر" قليلا: ثم قال للكاهن:

– استمر.

– ليس باستطاعتي أن استمر قبل التحري، وحتى يقوم الدليل على الصدق أو الزيف!

وهنا عاد المتكلم يقول في هدوء وثبات:

– تتلخص العقبة في وجود زواج سابق.. لمستر "روشستر" زوجة لا تزال على قيد الحياة!

وزلزلت هذه الكلمات كياني، وهدت أعصابي وكانت نبراتها على هدوئها كدوي بركان ثائر. بيد أنني لم أفقد رباطة جأشي، وتطلعت إلى مستر "روشستر" في نظرة استفسار.. فطالعني وجه جامد شاحب وعينان تقدحان شررا، بان فيهما أنه لا ينكر شيئا وأن بدا عليه التحدي، وطوقني بذراعيه ثم تحول إلى الدخيل وسأله

– من أنت؟

– بريجز. محام بلندن..

– وهل قدمت لتهبني زوجة من لدنك؟.

– أرجو أن تذكر يا سيدي زوجتك التي تتمتع بحصانة القانون.. أتتجاهلها أنت؟!

– زدني إيضاحا من فضلك.. ما اسمها؟ واسم أسرتها؟ ومحل إقامتها؟

– لك هذا يا سيدي.

واخرج ورقة نشرها، وأخذ يتلو ما في نبرات رسمية:

لدي برهان على أن ادوارد فيرفاكس روشستر صاحب قصر ثورنفيلد بإقليم...... ومالك ضيعة فرندين بمقاطعة... بانجلترا قد تزوج بتاريخ..... (منذ

خمسة عشر عاما) من أختي "برتا انطوانيت ميسون" الخلاسية المولد في سبانس تاوربجاميكا ويمكن الحصول من سجلات كنيستها على وثيقة الزوج.. وتحت يدي الآن نسخة منها" ريتشارد ميسون

– قد تثبت هذه الوثيقة أنه سبق لي الزواج، ولكنها لا تثبت أن الزوجة لا تزال على قيد الحياة..!

– كانت على قيد الحياة منذ ثلاثة أشهر..!

– كيف علمت ذلك؟..

– ندى شاهد لا تستطيع الطعن في شهادته..

– قدمه إن كنت جادا أو أغرب عن وجهي إلى الجحيم!

– تقدم يا مستر ميسون.

وإذا سمع مستر "روشستر" ذلك الاسم، جز بأسنانه وبدت عليه قشعريرة تشنجية وشعرت برعشة الحنق واليأس التي تملكته وكان الرجل الآخر قد اقترب ووقف خلف المحامي. فإذا هو "ميسون". فأخذ مستر "روشستر" يحملق فيه في ضيق عنيف ثم قال:

– اذهب إلى الشيطان أو تكلم بوضوح.. ماذا تريد من ذلك؟

فقال الكاهن لمستر "روشستر":

– لا تنس يا سيدي أنك أمام الهيكل المقدس..

ثم تحول إلى "ميسون" وسأله:

– هل يمكنك أن تثبت يا سيدي أن زوجة هذا السيد لا تزال على قيد الحياة؟

– أنها الآن بقصر ثورنفيلد. وأنا شقيقها، وقد شاهدتها هناك منذ بضعة أشهر.. وإن شئت التحديد ففي شهر ابريل الماضي..

فصاح الكاهن، وقد أخذته الدهشة:

– في "ثورنفيلد"..! هذا مستحيل..! أنني أقيم في هذه المنطقة منذ سنين. ولم أسمع بوجود زوجة لمستر "روشستر" في "ثورنفيلد" كما تقول..

ورأيت طيف ابتسامة باهتة على شفتي مستر "روشستر" الذي غمغم قائلا:

– يالله.. كم بذلت من الحيطة كي لا يسمع بها أحد.. أو بقصتها.!

واخلد إلى الصمت.. واطرق برأسه وطال إطراقه، ويبدو أنه كان يعاني صراعا في داخله.. بيد أنه ما لبث أن رفع رأسه وصاح:

– كفى.. كفى.. سأتصرف وفق مشيئتي.. أطو كتابك أيها الكاهن.. وأنت أيها الكاتب عليك أن تغادر الكنيسة.. فلن يتم اليوم زفاف..!

وسكت قليلا ثم استطرد:

– أن تعدد الزوجات أمر تمجه النفس. ورغم ذلك أردت أن أكون زوجا لاثنتين، ولكن القدر وقف لي بالمرصاد.. أو لعلها العناية الإلهية عاقتني عن ذلك. لقد جانبني التوفيق، وفشلت خطتي! وهذا المحامي ورفيقه على حق فيما يقولان.. فإنني سبق أن تزوجت، ولا تزال زوجتي على قيد الحياة..! تقول أيها الكاهن أنك لم تسمع بوجود زوجة لي في القصر.. لعل أذنك التقطت في بعض الأحيان أخبار المجنونة الخفية التي أحكمت عليها الحراسة والرقابة. ولعل البعض أسر إليك أنها أخت لي غير شقيقة أو أنها خليلة منبوذة. ولكني أقرر الآن أنها زوجتي وأن اسمها "برتا ميسون". وهي شقيقة هذا الرجل الذي تستشف من

أطرافه المرتعدة أن شقيقته مجنونة، ومن سلالة أسرة كل أفرادها بلهاء ملتاثون منذ أجيال ثلاثة. وقد عرفت ذلك بعد الزواج لأنهم كانوا يتكتمون هذه الأسرار..!

وسكت قليلا ليسترد أنفاسه اللاهثة، ثم استطرد:

– وأراد القدر أن يعوضني، فوفقني إلى شريكة نقية عاقلة.. هي النعيم في صورة أدمية.. أنني أدعوك يا "بريجز" وأنت أيها الكاهن، وكذلك أنت يا "ميسون" إلى القصر، لتروا بأعينكم تلك الزوجة المريضة التي وكلت أمرها إلى مسز "بول" لترعاها. سترون مبلغ خديعتي فيها حين تزوجتها.. ولكم أن تحكموا فيما إذا كان يحق لي أو لا يحق أن أفصم الرابطة التي بيني وبينها لأبحث عن الحنان الوجداني مع إنسانة كهذه.. أن هذه الفتاة تجهل كل شيء عن دقائق هذا الأمر، أو عن هذا السر، أكثر مما تعرف أيها الكاهن.. لقد كانت تعتقد أن الأمر طبيعي شرعي، ولم يخطر ببالها أنها ستتردى في زواج زائف من رجل شرير مرتبط بزوجة ملتاثة!.. هيا اتبعوني جميعا..

وغادر الكنيسة وهو ممسك بيدي، والسادة في أثره.. ورأينا العربة عند مدخل البهو، فأومأ مستر "روشستر" إلى الحوذي أن يعود بها إلى الحظيرة، فليست هناك حاجة إليها اليوم. ودلفنا إلى القصر، فتقدمت مسز "فيرفاكس" و"صوفي" و"ليا" لتحيتنا، ولكن مستر "روشستر" صاح فيهن:

– إليكن عنا.. وفرن تهانئكن!.. ما بي حاجة إلى تهنئة.. فقد تأخرت أعواما..

وأخذ يرتقي الدرج، وهو ممسك بيدي، والكاهن والرجلان يتبعونه.. حتى إذا بلغنا الطابق الثالث، فتح السيد بابا منخفضا أسود بمفتاح أسود يحتفظ به،

فدلفنا إلى حجرة مفروشة بالسجاجيد وبها سرير كبير.. فقال السيد لـ "ميسون":

– لعلك تذكر هذه الحجرة وما أصابك فيها!..

ثم كشف عن باب آخر يفضي إلى حجرة داخلية ليس بها نوافذ.. وكانت خالية إلا من موقد مشتعل داخل سياج، ومصباح يتدلى من السقف. ورأينا "جريس بول" منهمكة في طهو طعام، وفي ركن من الغرفة لمحنا شبحا يذرعها جيئة وذهابا، وكان أشبه بحيوان كاسر منه بمخلوق بشري. فقد وجدناه يحبو على يديه ورجليه، ويغمغم، ويزمجر، وقد كسا رأسه شعر مشعث كاد يخفيه. وتكلم مستر "روشستر" فقال:

– عمي صباحا يا "جريس".. كيف حالك وحال رفيقتك؟

– لا بأس يا سيدي.. شكرا.. أنها شرسة في غير خطورة..

وعندئذ سمعنا دوي صراخ حاد.. فاستطردت "جريس":

– من الأفضل أن لا تبقى هنا يا سيدي، فمجرد رؤيتها لك تثيرها..

وعندما أصر على أن يبقى لحظات، قالت:

– إذن كن على حذر..!

وأخذت المخبولة تزأر كالأسد، وأزاحت خصلات الشعر عن وجهها، ثم حملقت فينا، فتبينت تقاطيع سحنتها. وتقدمت "جريس بول"، فأزاحها السيد جانبا وهو يقول:

– أعتقد أنها لا تحمل الآن سكينا، بيد أني على حذر..

– أنها شديدة المكر والدهاء يا سيدي..

ثم ما لبثت "جريس بول" أن صرخت محذرة، فارتد السادة إلى الخلف.. وجذبني مستر "روشستر". وأمسكت المخبولة بتلابيب عنقه، وانشبت أسنانها في وجهه، ودار النضال. وكانت ضخمة الجسم بدينة، وتتمتع بقوة خارقة، فكادت تخنقه. وكان في إمكانه أن يسدد إليها ضربة توقفها عند حدها، ولكنه آثر ألا يفعل، واكتفى بأن يمسك ذراعيها ليشل حركتها، وشدهما بحبل وأوثقها إلى مقعد بالحجرة، وهي تصدر صرخات هستيرية وحركات جنونية. وتطلع مستر "روشستر" إلى السادة في أسى وقال:

– هذه زوجتي.. وهذا عناقها.. وهذه مظاهر الإعزاز والتدليل..!

وصمت لحظة ثم استطرد يقول وهو يشير إلي:

– بينما هذه هي التي اصطفيتها.. وهذا الملاك الهادئ الرزين، الذي يتطلع في رباطة جأش إلى الشيطان الذي يهدر ويحجل أمامه..!

وانسحبنا، وقد تخلف مستر "روشستر" ليلقي بعض تعليمات إلى "جريس بول" وقال لي المحامي:

– لا لوم عليك يا آنسة.. وسيكون ذلك من دواعي غبطة عمك "جون اير" لو أنه ظل على قيد الحياة عند عودة "ميسون" إلى "ماديرا"..

– هل تعرف عمي يا سيدي؟.. ما أنباؤه؟

– يعرفه "ميسون"، وتصادف أن كان معه حينما تلقى خطابك الذي ذكرت فيه اعتزامك الزواج من مستر "روشستر".. إذ أن "ميسون" كان قد سافر إلى "ماديرا" ليستكمل نقاهته عقب الحادث الذي لا شك تعرفينه. فأبلغه عمك بالنبأ الذي يحمله خطابك، كما أن عمك يعلم أن لـ "ميسون" صلة بشخص يدعى "روشستر". وإذ سمع "ميسون" ذلك دهش وعلته الكآبة وشرح

جلية الأمر لعمك. ويؤسفني أنه مريض وفي حالة انهيار وقد لا ينجو منها.. فحال ذلك دون أن يحضر بنفسه ليخلصك من هذا الشرك، فأناب مستر "ميسون" عنه وأحاله علي لمعاونته. ولولا أنني أتوجس من حالة عمك الصحية لنصحتك بمرافقة "ميسون" عند عودته. ونصيحتي أن تبقى إلى أن تصلك أنباء.. هل هناك ما يدعو لبقائنا يا "ميسون"؟

– هيا بنا.. فلم يعد ثمة ما يدعو إلى ذلك..

وعندما انفض الجمع، خلوت إلى حجرتي، وأغلقت الباب بالمزلاج حتى لا يتطفل على أحد.. ولم أركن إلى البكاء فقد كنت هادئة.. بل خلعت ثوب الزفاف، وارتديت ثوبي. ولما كان الوهن قد نال مني فقد ألقيت برأسي على المنضدة..

وتمثلت حبي فوجدته يرتجف في قلبي كريشة في مهب الريح أو كطفل عليل يتململ في مهده. ولم يعد باستطاعتي أن أنشد مستر "روشستر" لأنني فقدت الإيمان به وتلاشت الثقة فيه ولأنه لم يعد لي، وتغيرت الصورة التي انطبعت في ذهني عنه. نعم أنا لا ألومه ولا أقول أنه غدر بي، ولكني فقدت الاطمئنان.. فلم يكن ثمة بد من الرحيل.. بيد أن الحيرة تملكتني: متى يكون ذلك؟ وكيف؟ وإلى أين؟!..

ولم يخطر ببالي أن السيد لن يلبث أن يعمل على رحيلي.. ولاح لي أنه لم يستشعر حبا حقيقيا لي، وأن الأمر مجرد نزوة طارئة. وبت أتحاشى مقابلته، وخيل إلي أنه زهد في ذلك.. بيد أنني كنت واهمة.

وشعرت أنني غارقة في دوامة.. وتألبت على الأفكار السوداء، فخلفتني واهنة فاستلقيت خائرة القوى. وتمنيت أن أموت، فأضع بذلك حدا لما بي.. وتملكتني فكرة واحدة.. أن أذكر الله، فرحت أصلي في صمت كمتعبد في محراب يخاطب الله بقلبه دون أن يقوى على النطق: اللهم أني وحيدة ضعيفة لا معين لي، فكن عضدي ولا تبتعد عني..".

الفصل الحادي والعشرون

ذكريات مريرة

نهضت واقفة، وأدركني غثيان لا شك أنه نشأ عن اضطرابي وخلو معدتي، فلم أكن قد تناولت طعاما في يومي.. وحدثت نفسي بأنني إذا ظللت هكذا فلن يتنبه أحد لي أو يسأل عني. وتذكرت أن الأصدقاء ينأون عمن يتخلى عنهم الحظ، فخرجت أتعثر وأنا خائرة واهنة. وكدت أقع فتلقفتني ذراع ممدودة، ووجدتني مستندة إلى مستر "روشستر" الذي كان قد جلس على مقعد عند باب غرفتي، فبادرني بقوله:

– لقد انتظرتك طويلا.. وها قد خرجت أخيرا.. وكنت أرهف السمع دون أن يتناهى إلى أذني نشيج أو حركة. ولو طال الأمر هكذا للحظات لاقتحمت الباب كلص. لم يسبق أن أغلقت الباب بالمزلاج، فهل تخافين مني؟.. كنت أوثر لو أنك أتيت إلي وأخذت تعنفينني.. بل توقعت ذلك، وأعددت نفسي لسيل من العبرات تزرفينها على صدري فوق قلبي النابض، بدلا من أن تتلقاها أرض صماء أو منديل صغير.. بيد أنني أراك شاحبة لا أثر لدموع في عينيك، وأغلب ظني أن قلبك يقطر دما يا "جين"!.. هيا صبي على جام غضبك أو قولي ما هو أشد منه مرارة وأبلغ وخزا.. أراك يا "جين" هادئة واهنة مستكينة.. أنا ما قصدت أن أصيبك بهذه الطعنة.. وأنا الآن أعاني الحسرة.. فهلا عفوت وصفحت..؟

وصفحت في الحال، وقد نطقت عيناه بالندم العميق، وتجلى الأسى في نبراته.. وطالعتني رجولة صادقة. ولمست الحب يشع منه، ولم يفتر ولم يتبدل!..

فلم يسعني إلا أن أصفح في فؤادي ومن أعماقي، دون أن أعبر عن ذلك بقول أو إشارة..

– لقد تطورت الأمور يا سيدي، فيجب أن يتغير وضعي أنا الأخرى تبعا لذلك. ولكي لا تتأثر مشاعري، ولكي أتحاشى الصراع مع ذكرياتي وصلواتي، أرى ضرورة البحث عن معلمة غير "لأديلا"..

– سوف تذهب "أديلا" إلى المدرسة، وقد استقر رأيي على ذلك ولا أريد أن أعذبك بذكرياتك أو صلاتك "بثورنفيلد".. هذا المكان العاتي الشاحب شحوب الموت.. هذا الجحيم الذي لا يطاق! سوف لا تقيمين هنا يا "جين".. وكذلك أنا. لقد أخطأت بوضعك مع الشياطين، وكان أملي أن يظل الأمر خافيا عنك إلى حين. ولم أفكر في إقصاء هذه المخبولة إلى دار قديمة أخرى أملكها. وكان ذلك في مقدوري، كما كان من المحتمل أن تعجل رطوبة جدران تلك الدار بخلاصي منها.. بيد أنني لا أميل إلى القتل حتى لمن يبغضونني! لقد كنت غبيا في إخفاء مكان المخبولة عنك.. بيد أنني سأغلق "ثورنفيلد" عليها، وأعطي "جريس بول" ثلاثمائة جنيه في السنة لتعيش هنا مع "زوجتي" الرهيبة. و"جريس بول" تعبد المال ولا تتورع عن أداء كل ما يطلب منها في سبيله. وستستعين بابنها لمعاونتها في حالات نوبات الهياج، عندما تحاول زوجتي– على عادتها– حرق الناس في مضاجعهم، أو طعنهم، أو نهشمهم بأسنانها..

– أنك تقسو على تلك التعسة يا سيدي.. وتتحدث عنها بحقد ونقمة.. فهي لا تدرك في جنونها ما تفعل..!

– يا حبيبتي "جين".. أنك لا تدركين الأمر على حقيقته، وتسيئين بي الظن.. فأنا لا أكرهها لأنها مخبولة.. هل يدور بخلدك أنه يمكن أن أكرهك لهذا السبب لو حدث لك لا قدر الله؟!

– أظن ذلك..

– لا يا حبيبتي.. لقد جانبك الصواب، فأنت لا تعرفين مدى ما يزخر به قلبي من حب لك.. فكل ذرة فيك عزيزة على نفسي، وعقلك الراجح كنزي الثمين الغالي. ومهما يبدو منك فستتلقفك ذراعاي لأضمك إلى صدري. وليس كما فعلت تلك المخبولة، وسأقوم على تمريضك في حنان لا يدركه تعب أو ملل. ولن أمل من التعبد في عينيك، وإن كانتا تنظران إلي الآن وكأنهما لا تعرفاني.. دعينا من ذلك الآن، فقد كنا نتحدث عن نقلك من هنا.. سترحلين غدا. وأرجو أن توافقي على المبيت هذه الليلة فقط، ثم تودعي هذا المكان بآلامه وذكرياته إلى مكان أكثر أمنا وطمأنينة.

– يمكنك أن تأخذ "أديلا" يا سيدي.. ففي وسعها أن تؤنسك.

– ماذا تقولين يا "جين".. ألم أقل أنني سأرسلها إلى المدرسة.. أنجبتها راقصة فرنسية فاجرة؟.. كيف تفرضينها علي؟!

– لأنك حدثتني عن رغبتك في العزلة والاعتكاف، وهما يبعثان السأم إلى نفسك..

– تتحدثين عن العزلة والاعتكاف.. أنك أنت يا "جين" دون سواك التي يجب أن تشاطريني وحدتي.. أفهمت؟..

قال ذلك في ثورة.. فكنت في حاجة إلى قدر من العزيمة والشجاعة كي أجيبه بالرفض. وكان في تلك اللحظة يذرع الحجرة في عصبية، فتوقف فجأة وتفرس في وجهي بقسوة، فحولت عنه عيني وتطلعت إلى المدفأة محاولة أن أبدو هادئة رابطة الجأش..

– أنصحك أن تصغي يا "جين" إلى صوت العقل وأن تفكري مليا..

– نعم.. ساعات إذا شاء سيدي..

– بل بضع دقائق يا "جين".. هل وصل إلى علمك أنه كان لي أخ يكبرني؟

– أذكر أن مسز "فيرفاكس" أخبرتني بذلك ذات مرة..

– وأن أبي كان رجلا ضنينا يعبد المال؟..

– أظن أنني فهمت شيئا من ذلك..

– بسبب هذا يا "جين" لم يفكر أبي في تقسيم ممتلكاته ليجعل لي نصيبا عادلا، واستقر رأيه على أن يرث "رولاند" أخي كل شيء. وفي الوقت نفسه، أراد أن يجنبني حياة الفقر فراح يبحث لي عن زوجة ثرية. ووجدها في شخص ابنة صديقه مستر "ميسون" الكبير التي آثرها بثلاثين ألف جنيه.. فما أن أتممت دراستي، حتى بعث بي إلى "جمايكا" لأخطب الفتاة دون أن يشير بكلمة إلى ثروتها، واكتفي بإطراء جمالها. ولم يكن مبالغا في ذلك الإطراء، فقد وجدتها جميلة حقا لا تقل في بهائها عن "بلانش انجرام". ورأت أسرتها في، الزوج المرتقب لعراقة أسرتي.. ولم تجد عناء في استمالتي.. فقد كانت قبلة أنظار الرجال في المجتمعات، يحيطون بها متقربين معجبين، ويغبطونني عليها.. فبهرني ذلك، وانسقت وراء العواطف والإغراء، ولم أتعمق في تعرف حقيقة مشاعري نحوها، إذ كنت أفتقر إلى التجربة في ذلك الوقت. ولم يحدث أن انفردت بها أو تحدثت إليها دون رقيب.. فخيل إلي أنني أحببتها. وشجع على ذلك ما رأيته من تنافس عليها بين المجتمعات، فاندفعت وراء العاطفة وفورة الشباب وعدم التبصر. وشجعني أهلها وبهرتني هي بسنائها وسحر فتنتها.. فتم الزواج في سهولة دون أن أدرك ما ترديت فيه.

وكم احتقر نفسي الآن عندما أفكر في هذه المأساة التي أحكم تمثيل فصولها.. وكم أتألم مما يستبد بي فإنني لم أشعر نحوها بحب أو تبجيل.. فلم تصادفني فضيلة في طبائعها، ولم ألمس في عقلها رجاحة أو في تصرفاتها تهذيبا. ومع ذلك تزوجتها، فدمغت نفسي بالبله وقصر النظر. وقيل لي أن أمها قضت من زمن.. بيد أنه لم يكد ينقضي شهر حتى عرفت أن أمها على قيد الحياة، وأنها مجنونة أودعوها إحدى مستشفيات الأمراض العقلية.. وأن لزوجتي أخا أصغر أبلها هو الآخر، أما أخوها الأكبر الذي رأيته فينتظره نفس المصير. وأنا لا أكرهه لما كان يبديه من عطف على شقيقته.. وهكذا رحت ضحية مؤامرة أبي وأخي الأكبر في سبيل ثروة تلك الزوجة..

وكانت أنفاسه قد لهثت.. فتوقف عن الكلام قليلا، ثم استطرد يقول:

– وانكشفت لي الحيلة الدنيئة الوضيعة.. ولولا إخفاؤها عني ما صببت جام سخطي على زوجتي.. وبخاصة بعد ما تبين لي من أن طباعها وميولها تتنافى مع طباعي، وأن عقلها بلغ من التفاهة وضيق الأفق حدا يستحيل معه التسامي به. ووجدت أنه ليس باستطاعتي أن أقضي معها أمسية أو ساعة من نهار في وئام أو سلام، وتعذر تبادل الحديث.. فكانت تقابل حديثي بفظاظة وغباء إذا تكلمت، فأيقنت أن الاستقرار قد زايل منزلي. ولم يحتمل الخدم ثوراتها العنيفة وأوامرها السخيفة. وحاولت أن أكبح جماح نفسي، فكنت أوجز في احتجاجي، وأحاول أن أطوي نفسي على ما ينتابني من ضيق وندم. وكتمت شعوري بالسخط والكراهية..

ولا أثقل عليك يا "جين" بالإطالة والتفصيل.. لقد عشت معها أربع سنوات كانت أسود سني حياتي، إذ تبدت فيها طباعها وتجلت رذائلها بصورة لم أجد مفرا من اللجوء إلى القسوة التي ليست من طبيعتي. لقد كانت تافهة

العقلية شريرة في نزعاتها.. ولا عجب فقد كانت صورة طبق الأصل لأمها المجنونة، فجلبت على كل ألوان العذاب والهوان.. وفي أثناء ذلك قضى أخي الأكبر، كما مات والدي في نهاية تلك السنوات العجاف الأربع.. فأصبحت ثريا، ولكني واأسفاه تعس بمعاشرة هذه المخلوقة المخبولة التي يعتبرها القانون زوجتي، والتي لم يعد في استطاعتي أن أتخلص منها بوسيلة شرعية، لأنها مخبولة.. أراك تتبرمين بسماع القصة يا "جين"، فقد بان ذلك على وجهك.. أتحبين أن أؤجل البقية إلى يوم آخر؟

– على رسلك يا سيدي.. استمر.. ماذا فعلت وقد اكتشفت أنها مجنونة؟

– استبد بي اليأس يا "جين".. وأبيت أن أقدم على عمل يحط من كرامتي أمام الناس، بيد أنني آثرت أن أبقى على نقائي.. ولم أنس أنني زوجها. وكنت أتمنى أن أكون زوجا لامرأة تفضلها، مادام مقدرا لها أن تظل على قيد الحياة. ورغم أنها تكبرني سنا– وقد أخفت أسرتها ذلك عني– إلا أنها قد تعيش طويلا لأنها تتمتع بصحة جيدة لا يتهدد حياتها مرض. وهكذا وجدت نفسي– وأنا لا أزال شابا– بلا أمل وبلا مثل عليا في حياتي التعسة.. وحدث ذات ليلة وقد جافاني النوم لشدة حرارة الطقس في جزر الهند القائظة، فجلست إلى النافذة يلفح الهواء الملتهب وجهي ويطن البعوض في أذني ويحوم حولي.. أن سمعت صرخاتها تردد فيها اسمي، وتكيل فيها لي شتائم وقحة، فكانت أشبه بعواء الذئاب.. فتنهدت وقلت "حقا أن حياتي جحيم، فإن الهواء الذي يلفحني كأنه آت من جهنم، وهذه الصرخات والشتائم كفيلة بأن تخنق أنفاسي" ثم استبد بي القنوط فأخذت أضرع إلى الله: "أليس من حقي أو أليس أجدى بي أن اتخلص من هذه الحياة؟.. فأي مصير آخر مهما كان لن يكون أسوأ مما أنا فيه..! فلأضع حدا لهذا العذاب، ولأطلق روحي إلى خالقها..!" وجثوت وأنا أردد هذه

الأماني، وكان بجانبي أكثر من مسدس.. بيد أن هذه الأفكار لم تستمر سوى لحظات، تمالكت فيها نفسي وقضيت على رغبتي في الانتحار.

وحدث أن صفا الجو، وهب نسيم منعش.. فهداني تفكيري- وأنا أسير بين الأشجار وقد أخذ الفجر يرسل أوائل خيوطه الفضية- إلى الطريق القويم الذي يجدر بي أن أسلكه.. فقد راودني الأمل أن أرحل إلى أوربا حيث لا يعرف أحد قصتي.. وأن آخذها معي، وأحبسها في "ثورنفيلد" تحت رقابة شديدة، ثم انتقل من مكان إلى آخر وأمرح في الحياة ما شاء لي المرح، وأنشئ من العلاقات ما يروق لي.. فلي العذر كل العذر فيما أفعل، فالله يغفر لي والإنسانية تغضي. وعندئذ أطوي علاقتي وصلتي بهذه المجنونة طي النسيان.. وراقتني هذه الفكرة، فنفذتها بكل دقة..

وساعدني على ذلك أن أبي وأخي لم يذيعا نبأ زواجي بين المعارف لأنني كنت قد طلبت إليهما ذلك في رسائلي بعد أن تجلت أمامي الحقيقة المرة التي ترديت فيها.. بيد أن النبأ لم يلبث أن شاع، فكان مصدر خجل وزراية لهما حتى أضحى أبي أكثر رغبة في كتمان الأمر. ونقلتها إلى انجلترا، وكم كان قاسيا أن يتم الرحيل في سفينة واحدة. وما أن وصلنا حتى حبستها في تلك الحجرة الخفية، حيث بقيت فيها عشر سنوات طوال تحت رعاية وحراسة "جريس بول". وهذه والطبيب الذي ضمد جراح "ميسون" هما الوحيدان اللذان يعرفان هذا السر. أما مسز "فيرفاكس" فإنها لا تدري شيئا، وإن كانت قد استرابت في الأمر.. ويظهر أن "جريس بول" تراخت في رقابتها- وهي غلطة سيبقى أثرها إلى الأبد- فحصلت المجنونة على خنجر طعنت به أخاها.. كما سرقت المفتاح أكثر من مرة، فحاولت حرقي في فراشي في المرة الأولى، وزارتك في حجرتك في

المرة الثانية.. تلك الزيارة التي شاعت الهلع في نفسك. وحمدت الله أنها لم تصبك بأذى، ولا أزال أذكر كيف انقضت على عنقي هذا الصباح..

– وبعد أن جئت بها يا سيدي.. ماذا فعلت؟.. وإلى أين ذهبت..؟

– لم أعد إنسانا بمفهوم هذه الكلمة، فقد تحولت إلى شبح أو طيف يا "جين". ورحت أهيم على وجهي كالأرواح.. رحلت إلى أوربا انتقل بين مدنها، انشد العثور على امرأة طيبة أحبها..

– لم يكن باستطاعتك أن تتزوج..!

– استقر رأيي على أن أتزوج، وأقنعت نفسي بأن ذلك في وسعي، وبين ذلك ضروري. ولم يكن في نيتي أن ألجأ إلى الخديعة، بل كنت اعتزم بسط قصتي في صدق وصراحة. وبدا لي ذلك معقولا، وأن من حقي أن أنعم بالحب.. ولم أشك في وجود امرأة تفهمني.. وخيل لي أحيانا أنني عثرت على ضالتي، وجدت من تحقق حلمي. ولا يذهب بك الظن أنني كنت أنشد الجمال أو الجاه، فقد كانت كل أماني أن أعثر على من تلائمني.. وضاعت جهودي سدى، وخشيت أن أتورط في شر أفدح.. فخلق مني اليأس شخصا مستهترا، فسعيت وراء الملذات دون أن أتردى في مهاوي الفسق والرذيلة فإنني أكرههما.. فكنت أتقرب من النساء ثم أهرب منهن.

ولما لم استطع حياة الوحدة، فقد جربت معاشرة الخليلات، فاصطفيت "سيلين فارنس" وهي نقطة سوداء في سجل حياتي تحمل طابع الزراية، وتعرفين كيف انتهت صلتي بها.. ثم وصلت حياتي باثنتين إحداهما إيطالية والأخرى ألمانية، وكانتا آية في الجمال. وكانت الإيطالية وضيعة الخلق فظة الطباع، وكانت الألمانية هادئة باردة كالثلج تافهة العقل، فتلاشى جمالها بجانب هذه الصفات،

ولم ألبث أن سئمتهما.. أرى الظنون والشكوك تساورك الآن من جهتي يا "جين" فلا تحسبيني وضيعا مستهترا بلا مثل..

– أنني أحببتك في بعض الأحيان لمثل رأيتها فيك.. أليس من الشائن يا سيدي أن تحيا بهذه الطريقة.. تعاشر خليلة ثم تنتقل إلى غيرها، وكأن ذلك أمر طبيعي؟!

– أنني أصدقك القول، فهكذا عشت فترة من حياتي.. ولم تكن هذه الحياة تروق لي، بل كانت وسيلة إلى العزاء والنسيان.. وأنا لا أفكر أو أحب أن أعود إليها لأن اقتناء محظية أو عشيقة لا يقل وضاعة ودناءة عن استرقاق جارية.. ويؤلمني التفكير في تلك الفترة من حياتي..

وشعرت بحرارة الصدق في نبراته.. واستخلصت منها مآلي لو أنني نسيت مبادئي، وغدوت خليفة لخليلاته، متعللة بأي مبرر أو منساقة تحت تأثير أي عاطفة.. فإنه كان ينظر إلى نفس النظرة التي ينظر بها إلى ذكري هذه الفترة من حياته.. بيد أنني لم أبح بذلك الذي جاش في صدري، وكتمته في أعماقي ليشد أذري في وقت الضيق.. وسكت..

– لماذا ران عليك الصمت يا "جين".. أراك مهمومة وكأنك تستنكفين ما فعلت. وفي النهاية وضعت حدا لهذا الأسلوب من الحياة، فنأيت عن كل خليلاتي لأنني عانيت من وخز الضمير، واستشعرت الحقارة لتلك الحياة العابثة الهائمة.. وشعرت بالكراهية للمجتمع، لاسيما النساء. وتمثلت بالحكمة القائلة أن المرأة الفاضلة لؤلؤة نادرة.. وحدث أن عدت إلى انجلترا. وفيما كنت أمتطي صهوة جوادي بعد ظهر يوم من أيام الشتاء.. وقد أشرفت على ذلك المكان البغيض الذي لا أتوقع فيه سلاما "ثورنفيلد"، شاهدت شبحا يجلس في هدوء فلم أتوقف عن السير. ولم يدر بخلدي ما سيكون لهذا الشبح من شأن في مجرى

حياتي.. حين تقدمت الفتاة الهادئة تساعدني لأنهض من عثرتي عندما كبا بي الجواد.. لقد كانت أشبه بالأطفال، وخيل إلي أنها بلبل صغير جاءت به المقادير ليحملني على جناحه. ولم أكن لبقا معها، بيد أنها وقفت في إلحاح وجعلت تحدثني كمن يفرض علي قبول معونتها.. فرضخت..

وما أن لمست كتفها وأنا اتكئ عليها حتى تسرب إلى نفسي إحساس لا عهد لي به. وخالجني شعور بالغبطة حين عرفت أن منزلي مأواك، وأنك بعد حين عائدة إليه. ولم يخطر ببالك يا "جين" أنك استحوذت على مشاعري، وأنني أخذت أفكر فيك وأترقب عودتك. وفي اليوم التالي اختلست النظر إليك وأنت مع "أديلا" دون أن تفطني. وخيل إلي أن أفكارك تهيم، فقد لاحظت أنك تسبحين في أحلام اليقظة حين غادرتك "أديلا" لأنك كنت تذرعين الدهليز في بطء وتنظرين إلى الجليد المتساقط وتصغين إلى أصوات الرياح.. وكانت عيناك تلتمعان في غبطة، وتنعكس انفعالاتك ناعمة على صفحة وجهك. وأغلب الظن أن نظراتك وشت بأحلام الشباب المستطابة التي تحملها أجنحة الأمل لتحلق بالروح.

وأخيرا رأيتك يا "جين" تتنبهين على صوت، ثم تبتسمين ابتسامة زخرت بشتى المعاني، وكأنها تقول "أن الأحلام حقا لذيذة.. ولكنها خيال عل كل حال". ثم رأيتك تهبطين الدرج على عجل، فأحسست شعورا بالانقباض لاختفائك عن نظري.. ولم أجد مفرا من أن أنتظر قدوم المساء لأدعوك إلى مقابلتي، فقد أردت أن أسبر غور طباعك. ورأيتك تدخلين في خفر وحياء، مقرونين باعتزاز في الشخصية. واستدرجتك في الحديث، فعرفت أنك مثقفة ذات مواهب نادرة، وأنك في واد والمجتمع في واد آخر. ورأيتك حريصة على عدم الخوض فيما هو هراء..

وكنت تتطلعين إلى محدثك في اعتداد، فكانت كل لفتة منك تنفذ إلى الأعماق.. وكانت بديهتك حاضرة وردودك حاسمة سديدة. واعتقد أنك شعرت بالتجاوب بينك وبيني، وكانت الصراحة رائدك فلم تتهيبي من عبوسي أو حدتي، بل كنت تقابلين ذلك ببسمة ساحرة.. فطابت نفسي وارتاحت وتمنيت المزيد. بيد أنني قصدت أن أختبرك فتناسيت وجودك، ولم أسع إلى لقائك لأنني أردت أن أبقى على الزهرة يانعة. ولم يدر بخلدي وقتئذ أن الزهرة خالدة الازدهار، ذات إشراق دائم، مثلها مثل جوهرة لا يقلل الزمن من قيمتها. وكنت أريد أن أعرف أيضا ما إذا كنت تسعين إلى رؤيتي إذا تجنبتك، فإذا بك لا تحفلي.. حتى إذا التقيت بي صدفة لم أر منك إلا مظاهر الاحترام.. ولاحظت أن أساريرك تنم عن تفكير عميق، بيد أنك لم تعاني هما.

وقد ساءت نفسي: ترى ماذا جال بخاطري عني، وهل فكرت في مرة.. فجعلت أراقبك فإذا نظراتك تنم عن فرح وسماحة، وإذا حديثك يكشف عن قلب نقي. فأخذت أعاملك بمثل سماحتك، فتحركت عواطفك، وانبسطت أساريرك، ولانت نبراتك، وأصبحت أهفو إلى سماع أسمي على شفتيك. ورحت أتحين الفرص لأكثر من لقائك، فأخذتك الحيرة وساورك القلق عما ستسير عليه علاقتي معك، وهل هي علاقة سيد بمربية في قصره أم علاقة صديق بصدقة رائدها الود والتعاطف؟.. بيد أنني وصلت إلى حد همت فيه بحبك حتى أنني كنت أبذل عناء كبيرا في منع نفسي من ضمك إلى صدري..

وكانت عيناي قد طفرتا بالدمع دون أن يفطن، فأخذت أكفكفها خلسة، وقلت له:

– أرجو ألا تحدثني بعد ذلك عن تلك الذكريات يا سيدي..

– ذلك لأن حديثه أشاع الشجن في نفسي فضلا عن أنني عرفت ما يجب أن أفعل.. وأن أفعل دون توان.. وهذه الذكريات العاطفية تضاعف من صعوبة مهمتي.

– حقا يا "جين" ليس هناك ما يدعو إلى التحدث عن الماضي، مادام الحاضر أكثر أمنا والمستقبل أعظم إشراقا وتفاؤلا..

وارتعدت أوصالي، وشعرت برجفة، لأنني وجدت نفسي أمام رجل مسلوب القلب والإرادة.. ولكنه استطرد يقول:

– ها أنذا قد بسطت لك شأني.. شباب ضائع، ورجولة قضيتها في بؤس عاطفي وعدم استقرار.. إلى أن عثرت على مثلي الأعلى، وعلى ضالتي التي ظللت أبحث عنها والتي استطيع أن أهبها قلبي وأحبها حبا خالصا.. إلى أن عثرت عليك يا "جين".. فأنت مثلي الأعلى، وأنت عاطفتي، وأنت أثمن درة في حياتي. والرباط الذي يربطني بك أقوى من أن ينفصم.. لقد ملك حبك كل ذرة في كياني.. أنك نبع حياتي. أننا روح واحدة في جسدين، بل أننا شخصان في كيان واحد.. وهذا سر إصراري على أن أتزوجك. والقول بأن لي زوجة أخرى هراء.. لأنها شيطانة لا تمت إلى الزوجة بسبب.. وكان من الخطأ أن أخفي عنك هذه المسألة، وكان خليقا بي أن أبسط الأمر قبل ذلك.. ثم أتوسل إلى نبلك وتقديرك إذ اكشف لك بصراحة حياتي الضائعة المعذبة وتعطشي إلى حياة أنقى وأسمى.. حتى إذا ما لمست في العزم في الحب والإخلاص فيه، أصبح من حقي أن أسألك العهد والوفاء.. فهلا عاهدتني يا "جين"..؟

وصمت قليلا، وران السكون لحظة، فسألني:

– ألم تسمعي سؤالي يا "جين".. لماذا لم تجيبي..؟

وكانت نفسي تضطرم عذابا.. وكأنما سددت إلى أحشائي خناجر أخذت تمزقها. لقد كانت لحظة رهيبة زخرت بالصراع واللوعة.. لقد سما بي الحب فكنت لا أقل حبا لذلك الرجل عن حبه لي. ولكن واجبي الآن يقتضيني أن أحطم محراب حبي، وأن انطق بالرد الحاسم.. الرحيل. وعاد يلح في السؤال.

– هل تدركين يا "جين" ما تهفو إليه نفسي.. أن تقولي: "سأكون لك مستر روشستر؟"

– ولكنني لن أكون لك.. أن ذلك متعذر..!

ولفنا السكون مرة أخرى.. ثم راح يتحدث بصوت حنون ونبرات رقيقة مزقت نياط قلبي، وغمرتني بالاشفاق المقرون بالهلع.. فقد كان كالأسد المغلوب على أمره وهو يقول:

– أتعنين يا "جين" أنك سترحلين.. وأنك ستبتعدين عن طريقي.. وتذهبين من حياتي..

– هو ذلك يا سيدي..

فمال علي.. وضمني إلى صدره، وعاد يقول:

– وهل ما زلت تعنين ذلك الآن؟!..

– نعم يا سيدي.

فطبع قبلة رقيقة على وجنتي، وقبلة حانية على جبيني، ثم قال:

– والآن..؟

فانتزعت نفسي من بين ذراعيه، وجابهته بردي في حزم:

– أنني أعني ذلك تماما يا سيدي..

- هذه قسوة منك يا "جين".. أواه.. هل يضيرك أن تحبيني؟!

- بل يؤذيني أن أطيعك..

فارتفع حاجباه، والتمعت عيناه بنظرات قاسية انعكست على أساريره، ونهض واقفا. ولكنه تمالك نفسه وتجلد عندما استندت على مقعد خشية السقوط.. فقد ارتجفت أوصالي، واستبد بي الفزع، بيد أنني ظللت على إصراري فيما اعتزمته، فقال:

- هلا منحتني لحظة يا "جين".. ريثما ألقى نظرة واحدة على حياتي التعسة قبل أن ترحلي.. أنك ستأخذين معك كل آمالي وسعادتي وهنائي.. فماذا يتبقى لي؟.. الزوجة المجنونة، وهي والجثة المسجاة في القبر سواء، وماذا أفعل يا "جين".. ومن أين لي الرفيق من بعدك؟.. أي أمل لي بعد ذلك في الحياة؟!..

- كن مثلي.. واحذ حذوي.. أملأ نفسك بالثقة في الله وفي نفسك.. وآمن بإرادة السماء.. وتمسك بالأمل في أن نلتقي فيها!

- إذن فهذا قرارك الأخير.. ألن يطاوعك قلبك فترضخي..؟

- كلا..!

فصرخ كأسد يزأر:

- أنك تحكمين علي أن أعيش تعيسا. وأن أموت ملعونا منبوذا!..

- بل عليك أن تتجنب الخطيئة، وأتمنى أن تموت في هدوء بنعمة الرب!..

- أنك تنتزعين مني الحب والطهارة بعدما غرستهما في قلبي وتردينني إلى الرذيلة!..

– أنك تغالط نفسك.. فأنا لا أدفع بك إلى مثل هذه الحياة يا سيدي، فأنا لا ارتضيها لنفسي.. لقد ولدنا لكي نقاسي ونناضل ونحتمل.. أن هذا مصيرك ومصيري ومصير مخلوقات الله من أمثالنا.. ولسوف تمحي صورتي من ذاكرتك وتنساني قبل أن أنساك أنا..!

– ماذا تقولين؟.. أنك تصمينني بالخسة والرياء، وتستهينين بأمانتي وشرفي.. لقد قلت لك في صدق وصراحة أنني لن أجد لي رفيقا غيرك.. ومع ذلك تقولين في جرأة أنني لن البث أن أتغير وأنساك.. ما أقسى ذلك الحكم، وما أبعد أفكارك عن الحقيقة.. هل من العدل في شيء أن تدفعي إنسانا إلى غياهب اليأس، وكان الأحرى أن تتجاوزي عن قانون بشري لا قيمة له إلى جانب ما ربط قلبينا، ولن يضير نقضه أحدا منا..! ليس لك أقارب تخشين نقمتهم إذا ربطت حياتك بحياتي..!

– رغم كل ذلك أنا ذاهبة يا سيدي..!

– وهل تتركينني؟..

– هذا ما استقر عليه رأيي..

– هلا تعودين، فتقومين بدور المنقذة.. هل استهنت بحبي وكربي وضراعتي؟!

وكانت نبراته مشربة بالشجن المكبوت.. فوجدت من العسير أن أعيد جوابي في حزم: "أنني راحلة".. فهتف وكأنه يلفظ أنفاسه:

– "جين"..!

ووجدت نفسي أقول:

– مستر "روشستر"..!

– اذهبي.. ما دامت هذه إرادتك.. لقد رضيت.. فقط تذكري أنك تتركينني فريسة للوعة قاتلة. وفي إمكانك أن تختلي بنفسك، وأن تفكري مليا في كل كلمة قلتها لك.. ثم تصوري شجوني.. وآلامي.. ومصيري..!

ومال فوق الأريكة، ووضع يديه فوق عينيه، وأخذ يبكي بحرقة وهو يغمغم:

– أواه يا "جين".. يا أملي وحياتي..!

وكنت قد غادرته.. وإذ بلغت الباب وجدتني أعود مثلما انسحبت، فركعت إلى جواره وأخذت وجهه بين يدي، فحولته نحوي وطبعت قبلة على خده، وأخذت أداعب شعره بأصابعي وقلت:

– تجلد يا عزيزي.. ليشملك الله بعنايته ورعايته ويعصمك ويسدد خطاك. ويهبك السلوان، ويجزيك خير الجزاء عل ما أوليتنيه من حب وعطف وحنان!

– أن الجزاء الذي تهفو إليه نفسي هو.. قلب "جين" وحب "جين".. في سماحة ونبل وكرم..

ورأيته وقد احتقن وجه، وهلعت عيناه في بريق عجيب.. ثم هب واقفا، ومد ذراعيه ليضمني إلى صدره.. ولكنني أفلت كالظبي الظافر، وغادرت الحجرة في لمح البصر.. وقلبي يعتصر، وكأنه يردد في دقاته كلمة: الوداع.. الوداع إلى الأبد..

وما كانت بي رغبة إلى النوم في تلك الليلة.. بيد أنني لم أكد ألقي بجسدي الواهن على الفراش حتى غلبني النعاس فنمت. وصحوت قبيل الفجر، فنهضت لأشرع في مهمتي.. وكنت قد نمت بثيابي ولم أخلع غير حذائي. وأخذت أجمع ثيابي وحاجياتي، فعثرت أثناء ذلك على عقد من اللؤلؤ كان قد أهداه لي مستر

"روشستر" منذ أيام.. أهداه لعروسه المقبلة. فتركت العقد مكانه لأنني لم أعد عروسه، وحزمت أمتعتي، ووضعت ثروتي التي لم تتجاوز عشرين شلنا في كيس ودسسته في جيبي. ثم حملت أمتعتي وتسللت من الحجرة. وهمست وأنا أمر بأبواب الحجرات: "وداعا يا مسز "فيرفاكس" الطيبة القلب".. وداعا يا صغيرتي "أديلا" ولم أجسر على الدخول لأقبل "أديلا".... وإذ وصلت إلى حجرت مستر "روشستر" وجدت قلبي قد كف عن النبض، وتسمرت قدماي عند بابها.. وأرهفت السمع فإذا شاغل الحجرة جافاه النوم، فأخذ يذرعها ويتنهد بين الحين والحين.. وحدثت نفسي بأن تلك الحجرة كانت تغدو عشا لسعادتي لو أنني أردت ذلك.. وكان كل ما علي، أن ألج بابها لأقول:

– سأظل على حبك يا مستر "روشستر"، وسأبقى معك حتى آخر العمر..

جالت بذهني هذه الخواطر، وكأنها صور تمر أمام عيني تباعا..

لم يستطع هذا القلب الكبير أن ينام.. فظل ساهدا ينتظر مطلع النهار، فيرسل في طلبي، حين أكون قد رحلت، فيتضح له هجري له فيتعذب ويتملكه اليأس.. نعم جالت كل هذه الخواطر بذهني، ثم امتدت يدي إلى باب السلم ففتحته.. وتسللت يلفني شعور بالكآبة. ثم دلفت إلى المطبخ من باب جانبي، وتناولت بعض الماء والخبز خشية أن تطول شقة المسير. وخرجت وأغلقت الباب خلفي.. ووجدت الأبواب الخارجية مغلقة إلا كوة أزحت مزلاجها، وتسللت منها وأغلقتها.. فغدوت خارج "ثورنفيلد"..

بيد أنني لم ألبث أن تناهى إلى سمعي وقع عجلات.. وما هي إلا لحظات حتى لمحت عربة قادمة، فلوحت لها بيدي فتوقفت. وسألت الحوذي عن الأجر الذي يطلبه مقابل اصطحابي معه إلى المكان الذي يقصده.. فطلب ثلاثين شلنا. وعندما ذكرت له أنني لا أملك سوى عشرين شلنا فقط، رق قلبه وقبل.. وأشار إلي أن أركب، وكانت العربة خالية.. ثم أغلق بابها واستأنف السير!

الفصل الثاني والعشرون

أشواك...

وذات أمسية، وكان قد انقضى يومان في ذلك السفر.. وإذا بالحوذي يطلب إلي أن أغادر العربة في مكان عرفت أنه يدعى "هوايت كروس". فلم يشأ أن يقلني إلى أكثر من ذلك، مقابل المبلغ الذي دفعته، والذي لم أكن أمتلك غيره. وواصلت العربة سيرها وابتعدت وخلفتني.. واكتشفت أنني نسيت بها حزمة حاجياتي، وكنت قد وضعتها في جيب العربة، فغدوت مجردة من كل شيء..!

ولم يكن ذلك المكان مدينة أو قرية، بل كان ملتقى لأربع طرق أقيم فيه عمود حجري أبيض، تعلوه أذرع يشير أحدها إلى أقرب بلدة. ومن الكتابة التي على العمود، فهمت أن بيني وبين أقرب بلدة عشرة أميال. وتبين لي في المقاطعة التي هبطتها أن المستنقعات تسودها، وتمتد من خلفي، ويقوم على حافتها جبل، وأن أمامي واديا منخفضا ارتفعت من ورائه سلسلة من الجبال. وأنها قليلة السكان، إذ لم يلح لي أي عابر... فألقيت نفسي في أرض مقفرة نمت فيها الأعشاب..

ورحت أضرب على غير هدى.. ويممت شطر حفرة، ومضيت أخوض في حشائشها وأدور في منعرجاتها. ورأيت صخرة ضخمة جلست تحتها لأحمي نفسي والتمس بعض الهدوء، فقد كان يساورني خوف غامض. وكنت أهب مذعورة إذا هبت الريح، فأخال هبوبها وحشا ضاريا يندفع ليفترسني.. وبعد قليل، هدأ جأشي بفضل السكون الذي شمل المكان مع هبوط الليل. فأخذت

أصيخ السمع، وأرقب في حذر.. فقد كان الخوف لا يزال يساورني، حتى إذا اطمأنت نفسي أخذت أفكر وأتساءل:

- ماذا أفعل؟.. وإلى أين أذهب؟!

واستقر رأيي على السير، فسرت في الطريق الممتدة متتبعة شروق الشمس المطلة من السماء. وسرت طويلا على غير هدى، حتى نال مني التعب.. فآثرت أن أنال بعض الراحة. وجلست على حجر قريب، وركنت إلى الجمود. وإذا بدقات جرس تطن في أذني.. جرس كنيسة! فأدركت أنني قريبة من الحياة، وعلي أن أكافح في سبيل العيش شأن كافة البشر..

واستأنفت السير حتى وصلت إلى القرية، وكانت الساعة حولي الثانية بعد الظهر. ثم أخذ المساء يقترب، وأنا أهيم كحيوان ضال نال من الجوع. وشاهدت برج كنيسة فيممت شطره. وإذ بلغته وجدت بجوار الكنيسة حديقة يتوسطها منزل صغير، لابد أنه مسكن القس. وتذكرت ما جرى عليه الأغراب حين يحلون في مكان ينشدون لهم فيه عملا، فليجأون أول ما يلجأون إلى قسيس البلدة.. فرأيت أن أفعل ذلك. واستجمعت شجاعتي، وطرقت باب مطبخ المنزل.. ففتحت الباب امرأة عجوز فسألتها:

- هل هذا منزل القس؟..

- نعم..

- وهل هو هنا؟..

- ليس هنا..

- هل سيعود قريبا؟..

– لا أظن ذلك.. فقد استدعى لوفاة والده في "مارش اند" التي تبعد بمقدار ثلاثة أميال.. وقد يستدعي الأمر بقاءه هناك أسبوعين.

– هل ربة البيت موجودة؟..

– كلا.. لا يوجد بالمنزل غيري.. أنا مديرة المنزل..

فألم بي ضيق شديد.. ولم تطاوعني نفسي أن أسألها المعونة، ولم أشأ أن استجدي. فأوليتها ظهري لأعود من حيث أتيت، وتناولت منديلي أمسح بيه عبراتي.. ويممت شطر القرية ووجدت حانوتا دلفت إليه. ووجدت أشخاصا معهم امرأة، استجمعت شجاعتي ورجوتها أن تعطيني رغيفا في مقابل المنديل!

فتطلعت إلي في برود وشك، ثم قالت:

– يؤسفني يا سيدتي.. فإنني لا أتعامل بهذه الطريقة..!

وتملكني القنوط، فطلبت كسرة صغير في مقابل المنديل... فرفضت قائلة:

– من يدريني أن هذا منديلك؟!..

فعرضت عليها قفازي، فرفضت متعللة أن ليس لها به حاجة. ولم أكن في وضعي هذا أحسن حالا من المتسول الذي غالبا ما يكون عرضة للشكوك. ومن يرضى أن يقدم لي معونة وهو لا يعرفني؟ ولقد عذرت المرأة لرفضها، فربما رأبها أمري..

ومررت بمنزل في مزرعة قبيل الغروب، جلس على بابه المفتوح فلاح يتناول طعاما من الخبز والجبن. فوقفت وطلبت إليه أن يعطيني كسرة من الخبز أتبلغ بها.. فأخذته الدهشة، ورمقني للحظة ثم قطع جزءا كبيرا من رغيفه ناوله لي دون أن ينطق بكلمة. ويظهر أنه فطن إلى أنني لست متسولة، وأن رغيفه استهواني. وابتعدت قليلا، ثم جلست في ركن التهم الخبز..

ولم يكن لدي خيط من أمل في أن أجد لي مأوى، فالتجأت إلى الغابة أنشد فيها المبيت.. فقضيت ليلة زاخرة بالتعاسة والشقاء، افترشت فيها الأرض المبتلة وتدثرت بالهواء البارد. وكان يضجرني المتطفلون من عابري السبيل، فكنت أضطر إلى تغيير مرقدي ولا أشعر بالطمأنينة. وأخذ المطر ينهمر قبيل الصباح، واستمر طوال النهار التالي.. فضاعف ذلك من شعوري بالتعاسة.

وقوبلت بالجفاء، وأنا أبحث عن عمل في ذلك اليوم، كما حدث لي في اليوم السابق.. حتى أشرفت على الهلاك والموت جوعا. فلم أحظ بطعام إلا مانلته بقية من ثريد كانت تهم فتاة بالقائه لخنزير، فتوسلت إليها أن تعطيني ذلك الثريد.. فتطلعت إلي الفتاة في دهشة وصاحت:

– أماه.. بالباب امرأة تطلب أن أعطيها الثريد..!

فأجابتها أمها من الداخل:

– أعطيها إياه إذا كانت متسولة.. فإنه لا يروق للخنزير...!

فأفرغته الفتاة في يدي، فالتهمته في نهم..

وأخذ الغسق ينشر ظلاله، فتملكني اليأس للحال التي وصلت إليها. وتذاكرت هل كتب علي أن أتوسد الأرض المبتلة كالليلة السابقة. وضاقت الدنيا في عيني، ولم أر بصيصا من أمل. وراعني أن أموت بردا وجوعا، بيد أنني ساءلت نفسي:

– لماذا أناضل هكذا لكي أبقى على حياتي التافهة؟!..

وسبح بي الخيال والتفكير إلى مستر "روشستر".. وأخذت أقول لنفسي بأنه لابد حي يرزق. وليس من الصواب أن يموت الإنسان مستكينا من الإملاق والبرد. وضرعت إلى الله أن يمدني بقوة من لدنه، وأن يهديني سواء السبيل..!

وراحت عيناي تحملقان في الفضاء المعتم الذي يلفني.. إذ كنت قد نأيت في سيري عن القرية حتى غابت معالمها عن نظري. وأصبحت قريبة من التل الموحش، فآثرت الموت عنده على الموت على مرأى من الناس.. وفضلت أن تنهش الجوارح لحمي على أن أدفن في مقابر الصدقة والغرباء، فيممت شطر التل حتى بلغته. وأخذت أبحث عن حفرة أرقد فيها لأكون بعيدة عن الانظار دون جدوى.. واشتدت الظلمة شيئا فشيئا حتى لفني ظلام دامس..

ولاح لي ضياء فجأة في شكل نقطة بعيدة.. ففكرت أنه ربما كان سرابا لن يلبث أن يتلاشى. بيد أنه ظل مضيئا في ثبات لا يخفت ولا يزداد، فتساءلت:

– أهي نار أشعلها أحد؟..

وجال بذهني أنه ضوء مصباح في أحد المنازل. وكان لا يزال يرسل شعاعه خلال المطر. ورحت أجر قدمي المرهقتين نحوه، فإذا بي أسير نحو أعلى التل خلال مستنقع يتعذر الخوض فيه. ووقعت أكثر من مرة، فكنت أستجمع قوي وأنهض.. فقد كان ذلك الضوء هو شعاع الأمل الذي يجب أن استميت في الوصول إليه. وإذ عبرت المستنقع، وجدت طريقا يتجه إلى الضوء الذي كان يشع خلال مجموعة من الأشجار. واختفى "أملي" عندما اقتربت، ولعل شيئا حجبه عن عيني.. فبسطت يدي أتلمس الطريق في هذا الظلام، إلى أن بلغت سورا حجريا.. وواصلت تلمسي، فرأيت شيئا أبيض اللون، اتضح لي أنه باب.. دفعته بخفة فتحرك وانفرج ودلفت منه، ووجدتني أسير فوق أرض تكسوها الحشائش، ورأيت منزلا غير مرتفع، ولكني لم أر أثرا لنور.. فقد لفه الظلام. ترى هل نام سكانه؟.. فاستشعرت الخوف.. وبينما كنت أبحث عن الباب، سطع من زاوية في الدار ذلك الضوء الذي لاح لي، وسعيت إليه خلال نافذة صغيرة تحيط بها نباتات تحجب ما بالداخل.. فأزحت النباتات، فتجلت أمامي

حجرة مفروشة بالرمل تتوسطها منضدة صغيرة وبعض مقاعد. وكان المصباح الذي أتيت على هداه فوق المنضدة.. فشاهدت على ضوئه امرأة عجوزا خشنة المظهر. ولكنها بلغت من النظافة حدا يدعو إلى الدهشة كسائر ما حولها. وقد أخذت تحيك شيئا في يدها، فكان كل ما رأيته عاديا. بيد أن ما استرعى انتباهي أني رأيت شابتين إلى جوار المدفأة بين السكون الوردي والدفء الذي يغمر الحجرة، وقد جلست كل منهما على مقعد منخفض.. وقد اتشحتا بثياب الحداد، فأضفت على وجهيهما وصدريهما تألقا وبهاء. وزاد من دهشتي أن رأيت كلبا ضخما يعتمد برأسه على ركبة إحدى السيدتين، بينما نامت قطة سوداء في استكانة في حجر السيدة الأخرى.

وتبينت أن المكان مطبخ جمع بين البساطة والرونق.. ولكن ترى من تكون الشابتان؟ أنني استبعد أن تكونا ابنتي المرأة العجوز، لأن مظهرها جاف يبعث على التقزز.. بينما هما رقيقتان مهذبتان، شديدتا الامتقاع، بالغتا الرزانة. وكان التفكير العميق يتجلى على إحداهما، وهي تطالع في كتاب. وكانت الحجرة في مجموعها أشبه بصورة تفنن رسام في إبداعها.. كما كانت في صمت شامل، حتى أنني سمعت حركة رقاص الساعة. وفجأة تناهى إلى سمعي صوت إحدى الفتاتين تقول للأخرى:

– ديانا.. أن فرانز والعجوز دانيال يسمران في الليل، فيروي فرانز حلما أزعجه فاستيقظ.. اسمعي..

وأخذت تقرأ في صوت خافت لم أفهم منه كلمة واحدة لأنه كان بلغة غريبة.. حتى إذا انتهت من القراءة، استطردت تقول:

– أنه أسلوب جاف لا يروق لي...!

ورفعت الفتاة الأخرى رأسها لتصغي إلى أختها.. ثم كررت بضع كلمات مما سمعتها، وهي تتطلع إلى المدفأة. ثم هتفت وقد تألقت عيناها:

– شيء جميل.. أنه يروق لي...

وران الصمت فترة قطعته العجوز، وقد توقفت عن أعمال الإبرة وتطلعت إليهما:

– هل هناك من يتحدثون بهذه اللغة؟..

– نعم.. في بلاد أعظم من انجلترا..

– أنني لا أفهمها.. ولا أدري كيف يفهم بعضهم بعضا. هل تدرك إحداكما ما يقولون إذا ذهبت إلى تلك البلاد؟

– أظن أننا نفهم بعض ما يقولون، لأننا لا نتكلم هذه اللغة، ولا نستطيع أن نقرأها إلا بالاستعانة بالقاموس..

– وماذا ترميان من وراء ذلك؟

– نأمل أن نتولى تدريسها فيزداد دخلنا..

– كفى استذكارا الليلة..

– أعتقد ذلك.. فأنا متعبة.. وأظنك كذلك يا ماري..؟

– أنني أشد إرهاقا.. وبخاصة في مثل هذه اللغة..

– تماما وإن كانت في الواقع لغة رائعة.. ترى متى يعود سانت جون؟

– تقول ساعتي أننا في العاشرة.. وأعتقد أنه سيعود بعد قليل. المطر ينهمر غزيرا، فهل لك أن تطمئني على نار المدفأة في الصالون يا "حنة"..

فنهضت العجوز، وفتحت بابا طالعني من خلاله ممر.. وسمعتها تذكي نارا في الغرفة التي ذهبت إليها، وتعود مسرعة لتقول:

– كم يضجرني يا صغيرتي أن أذهب إلى تلك الحجرة الموحشة بمقعدها الخاوي الراهن كالتمثال..!

ثم مسحت عينيها بثيابها، وتبدي الأسى على أسارير الفتاتين الهادئتين، فقالت "حنة":

– أنه ينعم الآن في مكان قدسي.. ولا نحب له أن يعود إلى عالمنا الفاني. ولعل أحدا لم ينل مثل حظه بالرحيل في سلام...!

– تقولين أنه لم يذكرنا؟..

– لقد عاجلته المنية على غير توقع، فلم يكن لديه فسحة من الوقت.. لقد عانى توعكا خفيفا في الليلة السابقة، فلم يهتم أحد منا بالأمر. فلما سأله مستر "سانت جون" أخوكما، عما إذا كان يرغب في أن نستدعي إحداكما.. أجاب بابتسامة. وفي اليوم التالي، شعر بثقل في رأسه.. آه.. لقد كان ذلك منذ أسبوعين بالضبط، ومضى لينام.. نومه الأبدي..! وعندما ذهب إليه أخوكما.. وجده قد انتهى.. أواه يا صغيرتي..! هكذا رحل الرجل مثلما رحلت أمكما من قبل.. أنك صورة مصغرة لأمك يا ماري.. أما أنت فإنك شديدة الشبه بوالدك يا ديانا...!

وإذ بلغت الساعة العاشرة، قالت "حنة" للشابتين:

– لعل الوقت قد حان لتناول عشائكما.. كما سيفعل ذلك أيضا مستر "سانت جون" حين يعود..

وهمت لتعد العشاء.. فنهضت السيدتان، وكنت أرقبهما في اهتمام نسيت معه نفسي وحالي.. بيد أنني قارنت بين شقائي وراحتهما، وجال بخاطري أن من العسير أن أجعلهما توليانني بعض الرعاية وتنشلانني من هذا التشرد. وتحسست طريقي إلى الباب، وترددت قبل أن أطرقه.. وخالجني شعور باليأس، ووجدت "حنة" تفتح الباب وقد أخذتها الدهشة فسألتني:

– ماذا تريدين؟..

– أرجو أن تخبري السيدتين أنني أرغب في التحدث إليهما...

– هلا أفصحت لي أنا.. من أين أتيت؟

– لست من سكان هذا المكان..

– ماذا أتى بك في هذا الوقت المتأخر؟..

– التمس أي مأوى يأويني الليلة، كما أريد كسرة خبز أتبلغ بها...

وبدأ يساورها الشك، وكنت أخشى ذلك، فقالت:

– استطيع أن أعطيك كسرة الخبز التي تطلبينها.. أما عن المبيت فيؤسفنا أن نقول أننا لا نستطيع أن نأوي غريبة!..

– أتوسل إليك أن تسمحي لي بالتحدث إلى السيدتين..

– ماذا في وسعهما أن تفعلاه لك؟. لقد كان أحرى بك أن لا تتجولي على هذه الصورة!..

– ماذا أفعل الآن يا سيدتي؟..

– هذا شأنك.. إليك قطعة النقود هذه وارحلي..

– أنها لا تكفي لإطعام طفل.. وقدماي أنهكهما السير.. لا تغلقي الباب يا سيدتي.. أتوسل إليك أن تخبريهما وأن تدعيني ألقاهما.. فإن المطر ينهمر...

– قلت لن أفعل.. ويظهر أنك ثرثارة.. فاذهبي من هنا..

– أنك لا تدرين ماذا سيكون مصيري.. سأموت..!

– هذا هراء.. ومن يدريني بنواياك؟.. فهذا شأن من يحوم حول بيوت الناس في مثل هذا الوقت من الليل. وأرجو أن تعلمي وأن تخبري رفاقك المتربصين أننا محصنون.. ومعنا سيد ولدينا كلاب حراسة وأسلحة..

ولن تلن توسلاتي قلبها، فأوصدت الباب في وجهي وأحكمت رتاجه.. فتملكني اليأس، ومزق الألم قلبي. وكان الإعياء قد نال مني، فغدوت لا أقوى على التحرك من مكاني، فتهالكت على العتبة التي بللها المطر ورحت أبكي في لوعة وألم، ولاح لي شبح الموت رهيبا.. وأنا بعيدة عن موطني. وفقدت الأمل كما فقدت الجلد.. ثم خطرت بذهني آخر بارقة من الرجاء فصحت:

– إيماني بالله عظيم.. فلتكن إرادته..

واستسلمت للقدر وكتمت تعاستي في قلبي. وفي هذه اللحظة سمعت صوتا يقول، وكأنه هاتف:

– الموت مكتوب عل جميع المخلوقات.. بيد أنهم جميعا لا يلقون المصير السابق للأوان، مثلما ستقضين أنت الآن جوعا...

فارتجفت للمباغتة، و صحت:

– هل أحد يتكلم؟!.

ولم ألبث أن لاح لي شبح حالك السواد عجزت عن تبينه.. ثم سمعت طرقا متواصلا على الباب. وسمعت صوت "حنة" من الداخل يرتفع ليقول:

– وأخيرا حضرت يا مستر "سانت جون"!..

– افتحي الباب بسرعة..

– كم تقاسي البرد والبلل..! أن أختيك قلقتان عليك.. ويخيل إلي أن لصوصا يحومون حول البيت، فقد طرقت الباب امرأة غريبة منذ لحظة.. آه ها هي ذي لا تزال قابعة.. انهضي أيتها الشريرة واذهبي!..

– كفي عن الكلام يا "حنة".. لقد أديت ما يجب عليك.. ولدي أنا ما أقوله لها... فدعيني أقوم بواجبي أنا أيضا فأدعوها للدخول... لقد كنت على قيد خطوات.. وسمعت كل ما دار من حديث. واعتقد أن الأمر ما يدعو إلى النظر.. انهضي يا فتاة.. وادخلي...

ووجدت صعوبة في النهوض لشدة إعيائي.. وما لبثت أن وجدت نفسي داخل المطبخ، وأنا أرتجف، وانتابني شبه دوار. وأخذت السيدتان كما أخذ السيد يحملقون في، ثم سمعت سؤالا موجها إلى السيد يقول:

– من تكون هذه الفتاة يا "سانت جون"؟

– وجدتها عند الباب.. ولا أعرف من هي!

وسمعت "حنة" تقول:

– أنها تبدو شاحبة جدا..

– أنها شاحبة شحوب الموت من الإعياء.. اجلسي يا فتاة...

وألقيت بنفسي على أحد المقاعد.. وكنت لا أزال مالكة لحواسي، ولكني كنت لا أقوى على الكلام، فقال الشاب:

– جرعة من الماء يا "حنة" لتستعيد بها بعض قواها.. أنها ممتقعة بالغة الهزال والإعياء...

– أنها كالشبح..

– لعلها مريضة أو تعاني من شدة الجوع..

– أعتقد أنها كذلك.. قدمي إليها هذا اللبن يا "حنة" وبعض الخبز...

ورأيت "ديانا" تغمس قطعة من الخبز في اللبن ثم تدسها في فمي.. وإذ كان وجهها قريبا من وجهي، فقد تبينت فيه الشعور بالرثاء كما لمست الحنان في أنفاسها، وقالت لي في رقة وعطف:

– كلي..

– كذلك قالت أختها "ماري"..

ورفعت رأسي، وفاضت عيناي بالامتنان، وتناولت ما قدم لي في نهم ولهفة..

وجال بخاطر السيد أن كثرة الأكل تؤذيني، وأشار بأن ما قدم لي فيه الكفاية. ولكن إحدى السيدتين قالت له:

– بل أنها بحاجة إلى مزيد.. ألا ترى نهمها في تناول ما يدم لها؟..

– في ذلك الكفاية الآن على الأقل.. أساليها عن اسمها إذا أمكنها أن تتكلم..

وشعرت في هذه اللحظة أنني استطيع الكلام فقلت:

– أنني ادعى "جين اليوت"..

وتعمدت أن أجعل اسمي محرفا حتى أخفي حقيقتي.. فربما يعرف أحدهم أمري إذا ذكرت اسمي الصحيح...

– أين تقيمين؟.. وأين معارفك؟

وتحيرت فلذت بالصمت.. فعاد يسألني:

– هل نستطيع أن نستدعي أحد معارفك؟

فهززت رأسي بالنفي.. فقال:

– إذن حدثينا عن نفسك وعن أمرك..

وأحسست أنني لم أعد شريد أو منبوذة، فاستعدت شجاعتي وأجبته بعد فترة:

– هلا تمهلني الليلة يا سيدي.. فإنني لا أقوى على سرد تفاصيل قصتي...

– وماذا تنتظرين أن افعله من أجلك؟

– لا شيء يا سيدي..

فقالت "ديانا":

– هل نفهم من ذلك أنك حصلت على ما كنت تريدين؟... وإن بإمكاننا الآن أن نلقي بك خارجا في أحضان الليل..!

فتطلعت إليها في ضراعة، فإذا وجهها يتميز بالطيبة التي لمستها فيها، فابتسمت ردا على نظرتها الحانية وقلت:

– لقد وضعت فيك ثقتي.. فأنا على يقين أنك لن تطرديني حتى ولو كنت كلب ضالا.. لك أن تفعلي ما تشائين، ولكني أرجو المعذرة إذا عجزت عن الإفاضة في الكلام. وأشعر بضيق أنفاسي عندما أتحدث..

ولفنا سكون شامل.. قطعه مستر "سانت جون" حين قال:

– دعيها يا "حنة" ولا تثقلي عليها بالأسئلة. وبعد ربع ساعة، قدمي لها بقية الخبز واللبن.. هيا يا أختي إلى حجرة الجلوس لنبحث الأمر..

وغادروني، ولكن سرعان ما عادت إحدى السيدتين.. وكنت قد رحت في شبه غيبوبة من النشوة لأنني استمتع بالدفء بجوار النار.. فأسرت إلي "حنة" بكلام، ارتقيت على أثره الدرج بمعاونة الخادمة إلى حجرة، فخلعت ثيابي المبتلة واستقبلني فراش دافئ. فشكرت الله على نعمائه، وعلى أنه لم ينسني. وأضاء وجهي بالفرج... واستسلمت للنوم بعد أن كنت قد أشرفت على الهلاك...

الفصل الثالث والعشرون

وظيفة متواضعة

كانت الأيام والليالي الثلاث التي تلت ذلك، تكاد تكون مبهمة لا أتبين بوضوح ما حدث فيها. وكل ما أذكره أنني لم أقم بعمل ما.. وأنني كنت استمتع بالإقامة في حجرة صغيرة، يحتويني فيها سرير صغير لا يكاد يتسع لجسمي الضئيل، رقدت عليه دون حراك كأنني قطعة حجر. ولم يخطر ببالي أن أتابع مرور الوقت، فكنت لا أدرى كيف يسير من الصباح إلى الظهيرة ثم إلى المساء. بيد أنني كنت أشعر بالسادة، وهم يدخلون حجرتي أو يغادرونها. وكنت أميز شخصاتهم، وأعي ما كانوا يتحدثون به ولكنني كنت لا أجيب، فقد كنت في حالة تجعل تحريك أطرافي أو شفتي عملا مضنيا.. وكان يضايقني مقدم حنة لأنني شعرت أنها ترغب في أن أرحل، وأنها لم تقدر ظروفي، وهذا سر تحاملها علي..

أما السيدتان فكانتا تحضران، واسمعهما تتهامسان بأنهما خيرا فعلتا بإيوائي وإلا لكنت قد هلكت، وتبديان الشفقة لما قاسيته. ويظهر أنهما فطنتا إلى أنني مثقفة، لما بدا لهما من حديثي وتصرفاتي، ولما لاحظتاه على ملابسي ومن لهجتي المهذبة، وللطابع الذي تميز به وجهي، وأنني سأغدو مليحة حين انتعش واسترد عافيتي.

ولم ألحظ أن حديثهما تناول ما أغدقتاه وأخوهما على من كرم ومعروف، وما يوحي بالبرم والنفور.. فأثلج ذلك صدري، وشرح قلبي، وطابت له نفسي. ولم يزرني "سانت جون" إلا مرة واحدة، ذكر لي فيها أن ما أصابني إنما هو نتيجة الإرهاق والإعياء، وأنني لن ألبث أن استرد صحتي فلا حاجة إلى طبيب.. وأن

علاجي الوحيد عن طريق الاستجمام لأنني لست مريضة. وبدا أنه يستشف غرابة في أساريري، بيد أنه استبعد أن تنم هذه الأسارير عن ابتذال أو دناءة.. وإذ قال ذلك أجابته "ديانا":

– أنني أشعر بالعطف عليها.. وبودي أن نرتب لها مساعدة دائمة...

– قد لا يعدو الأمر أن تكون قد اختلفت مع أهلها فغادرتهم في لحظة تهور. وقد يكون في وسعنا أن نعيد الأمور إلى مجراها.. أنني المس الدماثة في خلقها..

وتحسنت حالتي في اليوم الثالث.. وفي اليوم الرابع، استطعت الكلام والنهوض من الفراش. وجاءتني "حنة" بطعام جيد أكلته بشهية، واستشعرت القوة والنشاط فأحسست بميل إلى مغادرة الفراش. وخجلت أن أظهر بملابسي القذرة أمام من غمروني بفضلهم وأدهشني أن أجد ثيابي نظيفة، وقد أزيلت الأقذار عن ثوبي الحريري الأسود، وأعيد كيه فبدا أنيقا.. وكذلك نظف حذائي وجوربي. وأعدت بحجرتي وسائل الاغتسال والتمشيط. وكان قد نال مني الهزال، فبدا ثوبي فضفاضا.. ولكني أخفيت ذلك بشالي. وهكذا عاد إلى مظهري الذي ينطوي على الوقار. ومن ثم هبطت الدرج في طريقي إلى المطبخ الذي وجدته يزخر بعبير الخبز ويشمله الدفء. وكانت "حنة" تخبز، فأشارت إلى مقعد جلست فيه.. وانهمكت هي في عملها تختلس النظر إلي بين الحين والحين. ثم رأيتها تتحول إلى نمرة شرسة في كلامها حين سألتني وهي تتناول بعض الأرغفة من الفرن:

– أكنت تتسولين قبل أن تأتي إلينا؟..

فتملكني الحنق لحظة.. والتمست لها بعض العذر، فقد كان مظهري ينبي بذلك، ثم أجبتها في هدوء وحزم:

– تكونين مخطئة إذا ظننت ذلك.. فأنا أبعد عن التسول بعدك وبعد سيدتيك عنه..

– أليس لك دار أو أثاث أو مال؟..

– أن الافتقار إلى شيء من ذلك لا يعني التسول..

– أمثقفة أنت؟. هل نلت قسطا من التعليم؟..

– نعم.. وإلى درجة لا تخطر ببالك..

– إذن لماذا لا تعولين نفسك؟..

– لقد كنت كذلك.. وسأعود إلى سابق عهدي..

وأتت بسلة كرز، وفهمت أنها تعتزم عمل بعض الفطائر.. فطلبت منها أن تناولني الكرز لأنظفه، فرفضت. ولكني ألححت عليها، وأصررت على أنني يجب أن أؤدي عملا.. فرضخت، وجاءتني بمنشفة نشرتها على ثوبي. وتطلعت إلى يدي ثم قالت:

يبدو أنك لم تمارسي أعمال الخدم.. فهل كنت تشتغلين بالحياكة؟

– كلا.. وأرجو ألا تشغلي بالك بي أو بما كنته.. ما اسم هذا المنزل؟

– يسميه بعضهم "مارش اند" ويسميه بعض آخر "مورهاوس".

– ومستر "سانت جون" هل يقيم هنا؟..

– لا.. أنه جاء لبعض الوقت.. وهو يقيم في كنيسته في "مدرثون".

– وماذا يعمل هناك؟..

– أنه قسيس..

في هذه اللحظة، تذكرت رد مديرة المنزل في دار راعي الكنيسة حين طلبت إليها أن أقابل القسيس. فقلت:

– هذا بيت أبيه إذن؟..

– نعم كان لمستر "ريفرز" الكبير، ومن قبله والده وأجداده..

– إذن فالسيد يدعى "سانت جون ريفرز"؟.

– هو ذلك..

– و"ديانا" و"ماري ريفرز" شقيقتاه؟

– نعم..

– هل مات والدهم؟..

– منذ أسابيع ثلاثة..

– وأين أمهم؟..

– لقد توفيت منذ سنوات..

– كم قضيت مع هذه الأسرة؟..

– قضيت ثلاثين عاما، قمت فيها بتربية الإخوة الثلاثة..

واتضح لي أن "حنة" مغرمة بالثرثرة، فقد راحت وهي تعد العجين تروي لي الحكايات عن المرحومين والد الإخوة ووالدتهم، وكذلك عن الفتاتين. وذكرت لي فيما ذكرت أن مستر "ريفرز" كان رجلا طيبا، ينحدر من عائلة عريقة تمتلك ضيعة "مارش اند" منذ مائتي سنة. وأن آل "ريفرز" من السادة الأكابر منذ عهد الملك "هنري". وكان السيد يمتاز بولعه بالمزرعة والصيد.. أما زوجته

فكانت هوايتها القراءة والاطلاع. وورث أولادها هذه الهواية عنها، فلم ولن يفوق أحد في هذا المكان هؤلاء الإخوة علما أو سعة اطلاع. وقد رسم كل منهم مستقبل حياته بنفسه، فأصبح مستر "سانت جون" قسا، أما الفتاتان فقد أصبحتا مربيتين، لأن أباهما فقد معظم ثروته في حالة إفلاس رجل ائتمنه على ماله.. فلم يخلف لهما ثروة، أنهما هنا الآن لبضعة أسابيع بسبب وفاة والدهما. وقد زارتا لندن وغيرها من المدن، فلم تعدل هذه المدن الكبيرة عندهما مسقط رأسيهما. وهما أنموذج في محبتهما حتى لتضرب بذلك الأمثال..

وعرفت منها أن الإخوة ذهبوا في نزهة، وأنهم سيعودون قبل أقل من ساعة، وقد حضروا فعلا ودخلوا من باب المطبخ.. وحياني مستر "سانت جون" بإحناء رأسه، ثم واصل السير.. أما الفتاتان فقد توقفتا، وأعربت "ماري" عن ابتهاجها بتقدم صحتي، وأمسكت "ديانا" يدي وداعبتني بقولها:

– لماذا لم تنتظري حتى أسمح لك بمغادرة الفراش والنزول؟.. أن آثار الضعف ما زالت بادية عليك!.

وكان صوتها كوقع الموسيقى في أذني، ونظرتها تشيع البهجة في نفسي.. كما كان وجهها ساحرا. وكانت أسارير "ماري" تنم عن ذكاء وقاد وجمال أخاذ، بيد أن حديثها كان يتسم بحب السيطرة والعزيمة. وقالت ديانا لي:

– أن مكانك في حجرة الجلوس.. لأنك زائرة.. فماذا تفعلين هنا..؟

– أنني مغتبطة هنا..

– وهل يتفق ما تقولين مع ثرثرة "حنة" ودقيقها المتناثر!؟

وقالت "ماري":

– أن وهج نار الفرن أشد من أن تحتمليه..

فأردفت "ديانا":

– هذا صحيح.. هيا انهضي وكوني مطيعة..

وجذبتني بيدها فأنهضتني، ثم ذهبت بي إلى حجرة داخلية فأجلستني على أريكة وقالت:

– سنتركك لحظة ريثما نبدل ثيابنا ونعد الشاي.. يروق لنا أن نهيئ وجباتنا بأنفسنا، ونحن هنا حين تكون "حنة" مشغولة بأعمالها..

وغادرت الحجرة، وأغلقت الباب، لتتركني وحدي مع مستر "سانت جون"، وكان يجلس في مواجهتي وقد انصرف إلى كتاب في يده. فأخذت أتأمل الحجرة، ثم أخذت أتأمله. كانت حجرة نظيفة تزينها صور قديمة من عهود سالفة، وبها بعض الرياش القديمة البسطية وبساط وستائر.

وكان مستر "سانت جون" ساكنا، وقد استقرت عيناه على الصفحة التي يقرأ فيها، فأمكنني أن أتفحص ملامحه.. كان شابا في نهاية العقد الثالث، نحيل الجسم، فارع القامة، عيناه واسعتان صافيتان، تتدلى بعض خصلات من شعره على جبينه. ولاح لي أن ثمة شيئاً به يوحي بالقلق والتلهف، بيد أنه لم يوجه إلي كلمة أو نظرة..

وعادت الشقيقتان.. وجاءتني "ديانا" بكعكة، وقالت:

– كلي هذه، فلا شك أنك جائعة..

ولم أرفض، فقد كانت بي شهية للطعام.. واقترب مني مستر "سانت جون" بعد أن أغلق الكتاب وأخذ يتفرس في، ثم قال:

– أنك جد جوعانة..

– نعم يا سيدي..

– كان أحرى بك أن تمتنعي عن الأكل لبضعة أيام بسبب حالتك الصحية.. ثم تأكلي في اعتدال!

– لن أرهقك بطعامي طويلا يا سيدي..!

رد ناب ولا شك، ولكنه قابله ببرود، وقال:

– سوف نكتب إلى معارفك عندما تدلينا عنهم.. لتعودي إلى منزلك..

– يؤسفني أن أنهي إليك يا سيدي أنني بلا صديق وبلا منزل..!

وتطلع الثلاثة غير مصدقين، وقد أخذتهم الدهشة. وبدا لي أن مستر "سانت جون" يسبر أغواري بنظراته، إذا امتزجت الحدة فيها بالتحفظ.. مما جعلني أرتبك حين سألني:

– أتعنين أن ليس لك أقارب على الإطلاق؟!..

– هو ذلك يا سيدي.. وليس لي منزل يمكن الالتجاء إليه في انجلترا..

– هذا عجيب بالنسبة لفتاة مثلك!..

وعجبت لنظراته المسددة، كما عجبت لأفكاره التي أوضحها بقوله:

– ألم يسبق لك الزواج.. هل أنت عانس؟!

فضحكت "ديانا" وعلقت على سؤاله بقولها:

– أنها صغيرة السن يا "سانت جون"!..

فقلت أنا:

– أنني لم أبلغ العشرين من عمري.. ولم أتزوج..

وشعرت بوجهي يشتعل، لأنه أيقظ ذكرياتي القاسية عن الزواج ولاحظوا ما تولاني من ارتباك، فغضت الأختان من نظرهما.. بينما ظل القسيس يتفرسني حتى تضرج وجهي والتهب وأغرورقت عيناي بالدموع.. فسألني:

– أين كنت تقيمين قبل أن تحضري؟..

فغمغمت "ماري" بصوت خافت:

– أنك لحوح في أسئلتك يا "سانت جون"!

بيد أنه رمقني بنظرة يتعجل بها الرد.. فقلت:

– لا استطيع البوح باسم المكان الذي كنت أقيم فيه، ولا الشخص الذي كنت أقيم معه.. فذلك سر من أسراري..

فقالت "ديانا":

– هذا من حقك..

فبدأ الضيق على وجه القسيس، وقال:

– ولكنني لن استطيع معاونتك ما لم أعرف شيئا عن تاريخ حياتك! الست في حاجة إلى العون؟..

– نعم يا سيدي.. بل أنني أطلب ذلك على يد إنسان يقدر الإنسانية، يدلني على عمل أتعيش من أجره ولو بالكفاف!..

– بي رغبة صادقة في مساعدتك.. فأخبريني ماذا كنت تمارسين من أعمال؟

– لقد غمرتني يا مستر "سانت جون" أنت وشقيقتاك بفضل لن أنساه، فقد أنقذتموني ببعض كرمكم من الهلاك.. ولا أملك إلا أن أشكركم وأشيد

بفضلكم. وأنتم الآن موضع ثقتي إلى حد، لذلك سأسمح لنفسي أن أروي لكم من تاريخ الفتاة التي آويتموها ما أستطيع الإفضاء به دون حرج لي، ودون أن أعرض غيري لخطر أدبي أو مادي.. أنني يتيمة الأبوين ووالدي كان قسيسا. وقد ماتا وأنا طفلة، فنشأت عالة على غيري وتعلمت في معهد خيري سأخبركم عنه. ثم قضيت به سنتين كمعلمة.. أنه معهد "لوود"، وينفق عليه السيد "روبرت بركلهيرت".. فهل سمعت بهما يا سيدي؟

– رأيت المعهد، وسمعت باسم السيد.

– وخرجت من المعهد منذ عام، واشتغلت مربية خاصة. وطابت نفسي بتلك المهنة، بيد أن ظروفا قاهرة اضطرتني إلى تركها منذ أربعة أيام قبل حضوري إلى هنا. أما تلك الظروف، فإنني لا أملك الإفضاء بها حيث أنه لا جدوى من ذلك من ناحية، وتتعلق بغيري من ناحية أخرى. وقد لا تصدقون ذلك، لأن تلك الظروف فريدة في نوعها وباعثة على الأسى. وكان جل همي منصبا على الإسراع والتكتم، حتى أنني رحلت دون أن آخذ شيئا إلا ربطة صغيرة.. وهذه نسيتها لفرط عجلتي وتبلبل أفكاري في العربة التي جئت بها إلى "هوايت روسي" وإلى هذه البقعة الجرداء.. فنمت ليلتين في العراء، وهمت على وجهي نهارين، دون أن أنال شيئا من الطعام إلا مرتين حتى كدت أهلك من الجوع والتعب واليأس. وهداني الله إلى بابك يا سيدي، فأنقذتني من الموت بإيوائك أياي..

وقالت "ديانا" بعد أن أفصحت عن بعض حالي:

– لا تطلب منها مزيدا "يا سانت جون" فسردها لقصتها يزيد انفعالاتها.. اجلسي بجانبي يا مس "اليوت"..

وشملتني رعشة خفيفة لسماع الاسم الذي ابتدعته، ولكن مستر "سانت جون" لاحظ ذلك فتساءل:

– ألم تذكري أن اسمك "جين اليوت"؟

– نعم.. وهذا ما أراه مناسبا في الوقت الحاضر. فليس هو اسمي الحقيقي، ولذا بدأ غريبا على سمعي!..

– ولماذا لا تذكرين الاسم الحقيقي؟

– لكي أتحاشى ما قد يؤدي إليه ذلك من الكشف عن أمري.. وهنا تدخلت "ديانا" مرة أخرى في الحديث فقالت:

– أنها محقة في ذلك.. أرجو أن تدعها في سلام يا أخي..

بيد أن مستر "سانت جون" لم يأبه بما قالته أخته، وعاد يقول:

– مما لا شك فيه أنك لن تسمحي لنفسك أن تركني إلى ضيافتنا طويلا، ويبدو أنك تنزعين إلى التخلص والاستقلال..

– لقد أبديت هذه الرغبة من قبل يا سيدي، وكل ما أرجوه أن تدلني كيف أجد عملا. وبعد ذلك سأرحل، ولكني أتوسل أن لا تطردني قبل أن يتسنى لي ذلك تفاديا من التردي بين أنياب الفاقة والتشرد..

وسمعت صوت "ديانا" الملائكي، وقد وضعت يدها العطوف على رأسي تقول:

– لا يذهبن بك الخوف.. ستبقين ولا شك..

ورددت "ماري" عبارة بنفس المعنى.. فقال مستر "سانت جون":

– ها أنت ترين وتلمسين كيف ترحب شقيقتاي ببقائك. وسأبذل قصارى جهدي لتهيئة العمل المناسب الذي يكفل لك العيش.. بيد أنني قسيس متواضع في منطقة محدودة، لذلك ستكون مساعدتي ضئيلة.. فإذا لم ترقك، لك أن تبحثي عن غيرها..

فقالت "ديانا" معلقة على كلامه:

– لقد قالت أنها تطمع في أي عمل شريف مهما كان متواضعا، وليس المجال متسعا أمامها للاختيار أو المفاضلة.. فهي تقبل العمل كحائكة أو مربية أو خادمة إذا لم تجد خيرا من ذلك..

وبعد ذلك انسحبت، وكنت قد تحدثت طويلا رغم وهني..

***

ازداد تعلقي بالجماعة، فطابت نفسي واستعدت صحتي.. وكنت أتنزه في الخارج أحيانا، وأساعد الأختين فيما تعملان أحيانا أخرى.. وكنت استشعر الراحة في التحدث إليهما لتشابه أذواقنا. وكانت هوايتي قراءة ما يحلو لهما ويطيب، وعرضت "ديانا" أن تعلمني اللغة الألمانية فرحبت بذلك. واكتشفت الشقيقتان أنني أجيد الرسم، وأذهلتهما مهارتي.. فكانت "ماري" تجلس إلى جانبي لتتعلم الرسم على يدي.. وهكذا مرت الأيام تباعا دون أن أشعر..

أما مستر "سانت جون" فلم تتوطد علاقتي به كأختيه لأنه قلما كان يمكث بالمنزل، بل كان يقضي كل وقته في زيارة المرضى والفقراء.. ولم يكن يعوقه أي تبدل في الطقس عن القيام بهذا الواجب، فكان يخرج من الدار حتى والمطر ينهمر يتبعه كلب والده. ولم يتح لي أن أنفذ إلى أغوار أفكاره إلا بعد وقت طويل، بسبب زهده في الاختلاط بالغير. وتجلت لي أفكاره وتساميه عندما

سمعته يعظ في كنيسته، فقد كان لعظته تأثير شديد في نفسي اهتز لها قلبي وأذهلت عقلي..

وانقضى شهر.. واقترب موعد رحيل الأختين لتذهبا إلى حيث عملهما كمربيتين في إحدى المدن بجنوب انجلترا، كل منهما لدى أسرة من أسر السادة الأثرياء الذين يتعالون عليهما. وحتى ذلك الوقت لم يكن مستر "سانت جون" قد حدثني عن العمل الذي وعد بمساعدتي في الحصول عليه. وانتهزت فرصة كنت فيها معه بحجرة الجلوس، وهممت أن أتحدث إليه رغم جموده. ولكنه كفاني مشقة بدء الحديث، وقال:

– هل لديك ما تحبين أن تسألي عنه؟..

– نعم.. أريد أن أعرف هل وفقت إلى العثور على عمل يمكنني أن أتقدم للقيام به؟

– وجدته.. وأن شئت الدقة في التعبير، ابتكرت عملا منذ عشرين يوما. ولكني رأيتك طبت نفسا بمعاشرة أختي.. وكذلك هما، فرأيت من عدم الذوق واللياقة أن أعكر صفوكن حتى يحين موعد رحيلهما إلى حيث عملهما..

– ستسافران بعد ثلاثة أيام..

– وكذلك أنا.. فأعود إلى "مورتون" ومعي "حنة" ويغلق هذا البيت العتيق..

وبعد ذلك رأيت أنه شغل بأفكاره وتأملاته وشرد عني.. فسألته:

– ما نوع العمل يا سيدي؟.. وهل لهذا التأخير تأثير في الحصول عليه؟

– كلا.. لا يحتاج الأمر إلى أكثر من أن أعرضه وأن توافقي..

وارتسمت على وجهي نظرة قلق لم تغب عنه فقال:

– ما هذه اللهفة؟.. دعيني أذكرك أنني سبق أن قلت لك أن معاونتي ستكون ضئيلة، لأنني رجل فقير محدود الدخل بعد أن وفيت ديون أبي.. فلم يتبق لي سوى هذا المنزل المتداعي، وما يحيط به من أرض وأشجار. وأنا– بهذه الحال– لا أملك إلا أن أقدم لك عملا متواضعاً. وقد أراه لا يتناسب مع ما تتصفين به من تهذيب وسمو، لأنك من زمرة المثقفين.. بيد أنني لا أرى غضاضة في أي عمل يتقدم بنا إلى تحسين.

– أرجو أن تزيدني إيضاحا، فإنك تتكلم بالأحاجي يا سيدي..

– مهلا.. لا تتعجلي.. سترين كم هو ضئيل تافه ذلك الذي أعرضه. لن يطول بي البقاء في "مورتون" بعد أن توفي والدي وأصبحت أملك زمام أمري. فربما رحلت عن هذا المكان في غضون سنة، بيد أنني لن أهمله. ولم يكن "بمورتون" عندما وفدت إليها منذ عامين مدرسة، ووجدت الأطفال يخبطون في الجهل دون أمل في تقدم. فأنشأت مدرسة للبنين وأنا بصدد إنشاء مدرسة أخرى للبنات، فاستأجرت مبنى وكوخا يتصل به ذا غرفتين للمعلمة التي رصدت لها ثلاثين جنيها في العام مرتبا لها.. وقمت بتأثيث مسكن المعلمة. وأسهمت في ذلك مس "أوليفر" الابنة الوحيدة لمستر "أوليفر" الثري، وصاحب مصنع الإبر والمسبك القائمين بالوادي. وستتكفل مس "أوليفر" بنفقات فتاة يتيمة تأتي بها من الملجأ لتقوم بالأعمال المنزلية.. فهل يطيب لك أن تكوني معلمة المدرسة؟

نطق بالمقطع الأخير من حديثه بسرعة، وكأنه يخشى أن أرفض.

ولعله لم يدرك حقيقة أفكاري ومشاعري.. وكان العمل متواضعا حقا، بيد أنه يكفل لي المأوى الآمن الذي أنشده. وكان مضنيا في الوقت نفسه إذا قورن بعمل المربية في منزل.. وكنت أخشى أن يثقل على العمل بين أغراب، ولكن لاح أن العمل لا ينطوي على هوان أو امتهان.

فقلت في حزم وعزم:

– أنني أقبل العمل راضية.. فشكرا يا سيدي..

– وماذا تحسين إذا وجدت أن ما ستعلمينه للأطفال مبادئ الحياكة والقراءة والكتابة والحساب أقل من مستوى ثقافتك؟

– سأدخر "ثقافتي" إلى وقت الحاجة يا سيدي..

فابتسم ابتسامة غبطة وارتياح، ثم قال:

– متى تبدأين عملك؟

– سأذهب إلى مسكني غدا.. وإن شئت أبدأ العمل في الأسبوع القادم.

– وهو كذلك..

ونهض عن مقعده، وأخذ يذرع الغرفة.. ثم توقف وراح يتأملني، وهز رأسه فقلت:

– هل هنالك ما لا يروق لك يا سيدي؟..

– تحدثني نفسي أنك لن تمكثي طويلا في "مورتون"!

– ماذا يحملك على هذا الظن؟..

– بل هو واضح قرأته في عينيك.. فإن وميضهما لا يوحي برغبتك في حياة رتيبة..!

ولم يكذب المثل القائل أن المصائب تتوالى ولا تأتي فرادى، لتضيف إلى الكروب هموما.. فقد وقع حادث لم يكن في الحسبان. تلقى مستر "سانت جون" خطابا أخذ يتلوه ثم دخل ليقول:

– لقد توفي الخال "جون"..

فران الأسى على الشقيقتين، وإن لم تروعهما النكبة.. وخيل إليهما أن النبأ خطير أكثر منه محزنا. ونظرت "ديانا" إلى أخيها، وقالت بصوت خافت:

– وما العمل؟.. ماذا بعد..؟

– لا شيء.. اقرئي!

وناولها الخطاب فألقت عليه نظرة خاطفة، ثم ناولته بدورها إلى "ماري" التي راحت تطالعه ثم أعادته إلى أخيها. وراح الأخوة يتبادلون النظرات، وشاعت على وجوههم ابتسامة جامدة كئيبة.. وأخيرا قالت "ديانا":

– هذه إرادة الله.. على كل حال في وسعنا أن نعيش..!

وأردفت "ماري":

– لم تزدد حالنا سوءا عما نحن فيه..

وقال مستر "سانت جون":

– الأمر لا يعدو أن يدفعنا إلى أن تقارن حاضرنا بما كان في الإمكان أن يكون عليه مستقبلنا..

ثم طوى الخطاب وأودعه في درجة وخرج.. ومرت دقائق التفتت بعدها "ديانا" إلي وقالت:

– سيأخذ العجب يا "جين" من أمورنا وأسرارنا.. قد تصفيننا بغلظة القلب.. لا نتأثر لموت أقرب أقربائنا بيد أننا لم نر خالنا ولم نعرفه. أنه شقيق والدتي ولكنه اختلف مع أبي منذ أمد بعيد، فقد أفلس أبي بسبب مشروع أشار به خالي، وافترقا.. بيد أن خالي أصاب نجاحا في مشروعاته من وراء مشورته لأبي، بلغ فيما أعتقد مبلغا يربي على عشرين ألف جنيه. ولم يتزوج هذا الخال، وليس له من هم أقرب منا سوى شخص في مثل رتبة قرابتنا. وتوقع أبي أن يكفر الرجل عن فعلته، فيوصي لنا بممتلكاته.. بيد أن هذا الخطاب يقول أنه وهب ثروته لذلك القريب فيما عدا عشرة جنيهات لكل منا نشتري بها شعارات الحداد عليه!.. وهو بلا شك حر فيما يفعل، وقد أظن أننا– أنا وأختي– سنصبح من الثريات إذا وهب كلا منا ألف جنيه، كما كان لمثل هذا المبلغ قيمة عند أخي.

وانتهى الموضوع عند هذا الحد، فلم يشر إليه أحد منهم بعد ذلك في حديث. وفي اليوم التالي رحلت إلى "مورتون".. وبعد ذلك بيوم رحلت "ديانا" و"ماري". ثم توجه "سانت جون" إلى بيته بعد أسبوع ومعه "حنة" وأغلق المنزل العتيق وأضحى مهجورا..

وكان الكوخ الذي أعد لسكني مكونا من غرفة صغيرة، طليت جدرانها بالجير، وفرشها أرضها بالرمل، وبها بعض الأثاث وأدوات للشاي. وتعلو هذه الحجرة غرفة أخرى مماثلة أعدت لتكون مطبخا.. وجدت بها دولابا، وضعت به ملابسي التي منحتني إياها الشقيقتان.

وإذ حل المساء، صرفت الفتاة اليتيمة التي تقوم على خدمتي، بعد أن نفحتها ثمرة برتقال كأجر لها. واتخذت مجلسي بجانب المدفأة، وكان العمل بالمدرسة قد بدأ في ذلك الصباح. ووجدت ثلاثا فقط من عشرين فتاة تعرفن

القراءة.. وجميعهن لا يعرفن شيئا عن الكتابة أو مبادئ الحساب. ولدى بعضهن إلمام بأشغال الإبرة والحياكة. ووجدت عناء في فهم حديثهن، لأنهن كن يتحدثن بلهجة المقاطعة الغريبة علي. ولاحظت أن بعضهن يفتقرن إلى الأخلاق الحميدة، فكن فوق جهلهن خشنات الطباع جموحات. أما بعضهن الآخر فكن دمثات سلسات القياد، يقبلن على التعليم، ويملن إلى كسب عطفي وإرضائي. وكان من الطبيعي ألا أنظر إليهن نظرة مهانة أو احتقار، لمجرد أنهن فلاحات.. فلا ريب أن فيهن من الرقة والذكاء مثل ما في غيرهن من بنات الطبقة الأعلى. فرأيت من واجبي أن أتعهدهن، وأن أرعاهن. وقد وجدت في ذلك عزاء كبيرا، ومتعة لا تدانيها متعة في حياتي التي تفتحت أمامي. ووطنت نفسي على أن أقنع بما قسم الله لي، وأن لا أبرم بحياتي هذه..

ومن ثم مضيت في عملي بكل ما وسعني من همة ونشاط وتفان وإخلاص. وكان الأمر مرهقا في البداية.. وانقضى وقت طويل قبل أن أعرف طبائع تلميذاتي اللواتي وجدتهن في جهل مطبق، غبيات بغير مواهب. بيد أنني لمست بينهن فروقا وتفاوتا.. وما أن أنست الفتيات إلي، وألفن لغتي ونظامي حتى رأيت فيهن تقدما وذكاء واكتشفت فيهن أدبا حظى بتقديري وإعجابي. فأقبلن على دروسهن، وأدهشتني سرعة تقدمهن، فاستشعرت لذلك زهوا. واستطعن القراءة والكتابة، وتعلمن الحياكة. وكثيراً ما قضيت الساعات ببيوتهن أتسامر مع أهلهن، فأصبحت لي بين أهل القرية مكانة مرموقة. وشعرت أنني غدوت محبوبة، إذ كانت تستقبلني التحيات في كل مكان. وأصبحت حياتي العامة تتسم بالصفاء، ففاض قلبي بالشكر، وقل أن تطوف به الكآبة. بيد أنني كنت أعاني من وطأة أحلام مضطربة في الليل، فإذا بي أتصور أنني أقابل مستر "روشستر" وأنني أراه يقاسي من الضيق، فتتجدد ذكرى تلك الأيام الخوالي التي كنت فيها بين أحضانه أسمع صوته، وأتلقى نظراته الحانية، وألمس يده ووجنته وأتذكر حبنا، والأمل في الحياة معا. وكنت استيقظ فأدرك أين أنا فأرتجف..

الفصل الرابع والعشرون

ابتسامة القدر

لم تكف الزوبعة عن الهبوب بصفيرها المزعج طول الليل.. وبدأ رذاذ الثلج يتساقط، كما هبت في اليوم التالي رياح عاتية تحمل معها الأمطار.. فما أن أرخى الغسق سدوله، حتى بدا الوادي وكأنه فرش ببساط من الثلج الذي كان يرتطم بالنوافذ. فأغلقت نافذتي، ووضعت حاجزا عند عتبة الباب ليحول دون تسرب الثلوج إلى الحجرة.. وأذكيت نار المدفأة، وأخذت أصيخ السمع إلى الطبيعة الغاضبة بعد أن أضأت شمعة وتناولت ديوان شعر..

وفي غمرة المطالعة نسيت العاصفة، بيد أنني ما لبثت أن سمعت أصواتا صاخبة.. فخيل إلي أن الرياح تعبث بالباب. ثم اتضح لي أن مستر "سانت جون" أزاح المزلاج، ثم دلف إلى الحجرة محتميا بها من العاصفة والظلا، ووقف أمامي بقامته الفارعة وثيابه البيضاء. ففوجئت للمباغتة، وشعرت بالهلع، لأنني لم أكن أتوقع قدوم زائر في هذا الطقس، فسألته:

– ماذا تحمل من أنباء؟..

ورأيته يخلع ثيابه المبتلة ويعلقها، وهو يقول:

– لا شيء.. أراك سريعة الخوف!

وأعاد الحصيرة التي كنت قد وضعتها عند عتبة الباب إلى مكانها، ونفض الثلوج عن حذائه، ثم قال:

– أخشى أن ألطخ الأرض.. لقد تعبت كثيرا حتى وصلت... فقد قاسيت من الجليد وإن كان ناعما...

– وماذا حدا بك إلى الحضور؟...

– سؤال غريب.. أردت أن أتحدث إليك قليلا، فقد أضجرتني الكتب الخرساء ومسكني الجامد.. ثم عندي ما أقوله لك. وقبل أن استرسل في الكلام يحسن أن أنبهك إلى أن ما سأرويه سيبدو في أذنيك هراء أو تبذلا. بيد أن التفاصيل تكتسي في الغالب بالجدة إذا جاءت على شفاه جديدة.. فمنذ حوالي عشرين عاما وقع قسيس شاب– لا يهمك معرفة اسمه الآن– في غرام ابنة أحد الأثرياء، كما وقعت هي الأخرى في غرامه. وتوجا حبهما بالزواج رغم معارضة أهل الفتاة الذين تنكروا لها أثر الزفاف. ولم يطل عمر هنائهما أكثر من عامين، قضيا بعدهما، ودفنا جنبا إلى جنب. وقد شاهدت قبرهما الذي يقع إلى جوار كنيسة عتيقة، صبغ جدرانها دخان المصانع المجاورة لها بلون داكن، في مقاطعة (...) وخلفا ابنة تبناها الإحسان الذي يشبه في برودته لفحة الجليد التي دهمتني الليلة. وانتهى مقام الطفلة العزلاء إلى منزل خال لها ثري حيث قامت على رعايتها زوجة الخال، وتدعى مسز "ريد" من "جيتسهيد".. يالله.. ماذا أرى؟.. لماذا تقصك الهلع هكذا؟.. هل سمعت صخبا أزعجك؟.. أنها مجرد هرة تثب فوق سطح المدرسة وراء فأر، فقد كان المبنى مخزنا للحبوب.. ولكن دعينا من ذلك.. لقد تولت مسز "ريد" رعاية الطفلة لعشر سنوات، لا أدري إن كانت الطفلة خلالها سعيدة أم شقية فلم يخبرني أحد بذلك. وقد نقلت بعد ذلك إلى مكان تعرفينه، فهو معهد "لوود" الذي ذكرت أنك قضيت به فترة من الزمن. ويبدو أنها كانت مثالية في خلقها، لأنها لم تلبث أن أصبحت معلمة مثلك.. كم يدهشني ذلك التشابه بين تاريخك وتاريخ تلك الفتاة! وحدث أن غادرت

المعهد والتحقت بوظيفة مربية لفتاة صغيرة يتولى رعايتها رجل اسمه مستر "روشستر".

وإذ وصل إلى هذا الحد، استبدت بي الدهشة فهتفت:

– مستر "ريفرز"!..

– أنني ألمس مشاعرك.. وأرجو أن تهدئي قليلا. لقد اقتربت من نهاية القصة.. فاخلدي إلى الهدوء واستمعي. ليس لدي معلومات عن مستر "روشستر" من الناحية الخلقية. وكل ما أعلمه أنه أراد الزواج من تلك الفتاة، وأنها عرفت– وهي أمام المذبح أنه متزوج من أخرى– وأن تلك الأخرى مجنونة، ولا تزال على قيد الحياة.. ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك. غير أنه تبين أن الفتاة هربت فارة دون أن يدري أحد كيف ومتى تمكنت من ذلك.. وأنها غادرت "ثورنفيلد" ليلا، وضاعت كل الجهود في العثور عليها. فلم يدفع ذلك الباحثين إلى اليأس، بل راحوا ينقبون في كل شبر من الريف دون أن يهتدوا إلى أثر لها.. كما نشرت إعلانات عن هذا الحادث في جميع الصحف، حتى لقد تلقيت أنا رسالة من محام يدعى مستر "بريجز" تضمنت البيانات التي سردتها على مسامعك الآن.. ألا ترين أنها قصة عجيبة حقا؟!..

– أما وأنت تعرف كل هذه المعلومات.. فإنك تستطيع بلا شك أن تنبئني بشيء عن مستر "روشستر".. كيف حاله؟.. وأين هو الآن؟

– لقد أغفلت الرسالة ذكر أي شيء عنه، اللهم إل محاولة الزواج التي ألمعت إليها.. أليس الأحرى أن تسألي عن اسم المربية، وعن الدافع والحادث اللذين يتطلبان العثور عليها؟

– ألم يذهب أحد إلى "ثورنفيلد" ورأى مستر "روشستر"؟

– لا أعتقد..

– ولكنهم كتبوا إليه؟

– يذكر المحامي في رسالته أن الخطاب الذي تلقاه كان من سيدة تدعى "أليس فيرفاكس".. ولعل مستر "روشستر" كان شريراً...

ولم احتمل أن ينعت مستر "روشستر" بهذا الوصف، فصرخت في حدة:

– لا تبد فيه رأيا أيا كان، فإنك لا تعرفه..

– حسنا. تشغل رأسي أمور أخرى.. ثم أنني أريد الانتهاء من قصتي. وما دمت لم تسألي عن اسم المربية، فأذكره من تلقاء نفسي.. لقد ذكر المحامي في رسالته أنها تدعى "جين اير". وطلبت الإعلانات البحث عمن تدعى "جين اير". ولما كنت أعرف من تقول أن اسمها "جين اليوت"، فقد ساورني الشك الذي أصبح حقيقة بعد ظهر الأمس.. أليس اسمك الحقيقي "جين اير"؟

– نعم يا سيدي.. أين مستر "بريجز".. فلديه ولا شك أنباء مستر "روشستر"!

– أن المحامي في لندن.. بيد أنني أشك في أنه يعرف شيئا عن مستر "روشستر" لأن اهتمامه ليس إلى هذه الناحية.. أنك تتجاوزين عن الأمور الهامة، ولا تسألين إلا عن التوافه.. لماذا لا ترغبين في معرفة السبب الذي من أجله يبحث مستر "بريجز" عنك؟

– ماذا يريد مني؟..

– الموضوع باختصار أنه يخبرك بأن عمك مستر "أير" من "ماديرا" قد توفي عن ثروة كبيرة أوصى بها كلها لك.. فأنت الآن ثرية..!

– أنا.. أصبحت ثرية..؟!

– نعم.. وارثة وثرية!

وران الصمت، وساد السكون الذي لم يلبث طويلا حتى قطعة "سانت جون" فجأة:

– على أن ذلك يتطلب إثبات شخصيتك.. ولن تجدي صعوبة في ذلك، تحصلين بعدها على إرثك، فإن الثروة مودعة في المصارف الانجليزية.. ولدى مستر "بريجز" وصية عمك وجميع المستندات.. ولعلك تسألين الآن.. كم ارتفعت قيمتك؟!..

– نعم.. نعم.. كم أساوي أنا الآن؟.. أقصد ما مقدار ثروتي؟

– مبلغ لا يستحق الذكر.. يقولون: عشرون ألف جنيه!

وذهب بلبي هذا الرقم الخيالي.. فقد كنت أتوقع أن الثروة لا تعدو بضعة آلاف، فاحتسبت أنفاسي وبهرني الموقف. فاستغرق مستر "ريفرز" في الضحك على غير عادته وقال:

– أنك ما كنت تبدين هذه الدهشة لو أنك اقترفت جريمة وكشف أمرها!

– أنه مبلغ خيالي.. ألا تعتقد أن هناك خطأ في التقدير.. أو أنك أخطأت في قراءة الأرقام فزدتها صفرا؟!

– كلا.. أن المبلغ مكتوب بالحروف "عشرون ألفا"..

وهنا أحسست بشعور لا عهد لي به.. ثم نهض مستر "ريفرز" وتناول عباءته المعلقة وتدثر بها، وقال:

– تحول العاصفة دون أن أبعث "بحنة" لتكون في رفقتك.. فأنت في حال تستوجب ألا تظلي وحيدة، ويتحتم علي أن أتركك الآن.

وخطرت ببالي فكرة طارئة، وهو يهم بالخروج، فسألته:

– يحيرني أن مستر "بريجز" كتب إليك– هل له بك معرفة، ثم كيف خطر بباله– وأنت تعيش في هذا المكان النائي، أنك تستطيع معاونته في العثور علي؟!

– هل غاب عن ذهنك أنني قسيس.. والقساوسة يلجأ إليهم في الملمات وغوامض الأمور؟! وفضلا عن ذلك فلعلك لا تعلمين أنني احمل لقبك.. وأن اسمي "سانت جون اير ريفرز"!

– آ.. هـ.. أنني أتذكر الآن.. لقد قرأت حرف "أ" على كل كتاب استعرفته منك. بيد أنني لم ألق بالا، ولم أفكر في أن أسألك.. وماذا بعد ذلك؟ لا شك أن.. وتوقفت عن الكلام فقد التبس علي الأمر.

ولم أجد قدرة على التعبير عن الفكرة التي خامرتني بيد أن الأمور عادت فانتظمت بعد أن قال:

– كان "اير" لقب والدتي. وكان لها شقيقان.. احدهما قسيس تزوج مس "جين ريد" من "جيتسهيد". والثاني "جون اير" التاجر "بماديرا". ولما كان مستر "بريجز" محامي مستر "جون اير"، فقد كتب إلينا في شهر أغسطس يخبرنا بوفاة خالنا، وبأنه أوصى بثروته لابنة أخيه القسيس اليتيمة، وأنه لم يخلف لنا شيئا بسبب الخلاف الذي كان بينه وبين أبي. وعاد المحامي فأرسل بعد ذلك يقول أن الوارثة مفقودة، ويستعلم عما إذا كنت أعرف عنها شيئا. وصدفة وقعت عيناي

على اسم مكتوب على ورقة صغيرة.. فإذا بي اهتدي إليها.. والباقي لا يغيب عن فطنتك!

وهم بالخروج.. ولكني حلت دون ذلك، وقلت:

– دعني أستجمع أفكاري واسترد أنفاسي.. إذن فوالدتك شقيقة أبي.. عمتي؟

– نعم..

– وخالك "جون" هو عمي.. فأنت وأختاك أبناء شقيقته كما أنني ابنة أخيه؟

– هو ذلك..

– إذن فنحن جميعا أقارب؟

وتطلعت إليه.. فتراءى لي أنه أخ استطيع أن أفخر به وأحبه. وتراءت لي شقيقتاه أختين لي سمت أخلاقهما ونفساهما في مستهل معرفتي بهما، وقد كنت غريبة عنهما، حتى أثارتا في نفسي عاطفة الحب مقرونة بالإعجاب. وإذن فهؤلاء الأخوة الثلاثة من أهلي الأقربين ومن ذوي رحماي.. يا له من أمر رائع بالنسبة لفتاة بائسة مثلي.. أن ذلك لثروة في حد ذاته.. ثروة للقلب الذي ينبض بالحب.. ونعمة نورانية تفوق الذهب واللآليء. ووجدتني أصفق طربا وأصيح:

– أواه.. كم أنا مبتهجة.. كم أن مغتبطة!

وارتسمت على أسارير ابن عمتي ابتسامة تفيض بشرا وسلاما، وقال:

– ألم أقل لك أنك كنت تسعين وراء التوافه وتهملين الهام من الأمور.. لقد كانت الرزانة رائدك حينما أفضيت إليك بنبأ الثروة. وها أنذا أراك قد اشتدت بك الفرحة عندما عرفت رابطة قرابتنا!.

– قد لا يهمك الأمر أو يعنيك.. فإن لك شقيقتين. أما أنا فقد كنت وحيدة في هذه الدنيا، فوجدت الآن ثلاثة أقرباء.. خبرني بالله.. ترى لو أن الوصية كتبت لصالحك.. أكانت تغريك بالزواج من مس "أوليفر" وتصبح كغيرك من البشر؟

– هذا هراء.. ويخيل إلي أنك اختبلت، لأنني لم أترو في إزجاء النبأ إليك مما أثار انفعالاتك أكثر مما تحتمل قواك!

– ماذا تقول يا مستر "ريفرز".. أنني مكتملة العقل كعهدي به.. وأنت تسيء الفهم أو تتعمد ذلك!..

– هلا زدتني إيضاحا بعض الشيء.. كي أدرك؟

– هل في الأمر غموض يحتاج إلى إيضاح؟ لا أظن أن من العسير أن تفهم أن الثروة التي خلفها لي عمي إذا قسمت علينا بالتساوي، فإنه يصيب كلا منا خمسة آلاف جنيه. فأرجو أن تكتب للشقيقتين وتنبئهما بالثروة التي هبطت عليهما!..

– تعنين الثروة التي أصابتك أنت؟!

– لقد استقر رأيي ولن أحيد عنه.. فأنا لست أنانية، ولا أقبل أن يقع عليكم ظلم عمي. وقد عقدت العزم على حب "مورهاوس" وعلي ألا تنفصم علاقتي "بديانا" و"ماري" اللتين أحبهما، ولذلك سأربط حياتي بحياتهما.. ويكفيني بل ويسعدني خمسة آلاف من الجنيهات. ويعذبني أن انفرد بالثروة

وحدي، لأنني اعتقد أنها ليست من حقي شرعا.. وإن كانت كذلك بحكم القانون. ولذلك سأنزل لكم عما هو ليس من حقي عن طيب خاطر.. ولا داعي للجدل أو النقاش.. ودعنا نتفق!

– أراك تتصرفين تحت تأثير انفعالاتك.. وأحرى بك أن تتريثي في الأمر حتى تسيري على هدى ولا تحيدي عن الصواب!

– إذا كنت تشك في صدق عزمي، فاطمئن من هذه الناحية.. أليس ما أقوله عدلا؟..

– أن فيه بعض العدل، بل أنه ينطوي على العدل.. ولكنه مخالف لما جرى به العرف. فالثروة كلها من حقك، اكتسبها خالي بجهوده وله الحق في أن يوصي بها لمن يشاء.. وقد تركها لك. وهذا لا يتنافى مع العدالة التي تبيح لك أن تستأثري بها.و يجب أن يرتاح ضميرك إذ تعتبرينها ملكا مطلقا.

– أنها بالنسبة لي تتصل بالمشاعر كما تتصل بالضمير.. ولابد لي من أن أرضي مشاعري. ويسعدني أن سنحت لي هذه الفرصة التي أشعر فيها بالسعادة تغمرني، إذ تتيح لي رد جميل طوقني بعرفان بسيط كهذا.. وكفى أنني اكتسبت أصدقاء لي وأقارب مدى الحياة.

– لعلك تقولين ذلك الآن لأنك لم تعرفي بعد متعة التملك أو لذة الثراء.. وهذه ثروة طائلة بالنسبة لأفقك وخيالك. فأنت لا تدركين المكانة التي ترفعك إليها في المجتمع، ولا تعرفين شيئا من الآفاق التي ستتفتح أمامك.. فليس باستطاعتك أن..

فقاطعته قائلة:

– وأنت أيضا ليس باستطاعتك أن تدرك الحنين الذي يستبد بي ويتملكني نحو تلك العاطفة السامية.. حب الأخ وحب الأخت... لم يكن لي منزل في يوم من الأيام، ولا كان لي أخوة ولا أخوات، فيجب ** الآن بما حرمت منه.. أيضيرك أن تقبلني أختا؟!

– بل سأكون أخا لك حقا يا "جين".. وكذلك ستكون شقيقتاي شقيقتيك، من غير أن يكون هناك داع إلى التضحية بحقوقك التي منحها إياك القدر.

– أخ؟.. نعم.. على آلاف الأميال مني.. وشقيقتان.. تكدان وتغتربان في خدمة الأغراب.. أأكون أنا ثرية تثقلني أكداس ذهب لم اكتسبه وليس من حقي شرعا.. واستشعر الهناء أو السعادة وأنتم فقراء معدمون؟!.. هل هذه مساواة، وهل ذلك أخاء ينطوي على عدل..؟!

***

أصبحنا على أبواب موسم العطلات لاقتراب عيد الميلاد، فأغلقت المدرسة. وكان قد تم الاتفاق وعملت التسوية.. وحرصت على أن يكون رحيلي محفوفا بأكرم المشاعر لأن الحظ إذا أشرق يصل إلى اليد فيجعلها كريمة. والإنسان إذا سنحت له الفرصة لرد الجميل، تفيض نفسه بالسعادة. وسرني بل وملأني غبطة أن تلميذاتي أحببنني، وقد تجلى ذلك مما أبدينه حينما قدر لنا أن نفترق.. إذ تبينت لي مكانتي وحبهن النابع من قلوبهن الساذجة الطاهرة، مما جعلني أعدهن بأنني سأزورهن في المستقبل.

ويعلم الله مبلغ استمتاعي بالسعادة واغتباطي بالرضا في "مورهاوس" مما جعلني أقبل على عملي في إخلاص حدا "بحنة" إلى الإعجاب بي، إذ فتنها ما

رأته من جدي وهي ترقبني وأنا أدأب على العمل في مثابرة حتى تبدلت الفوضى إلى نظام. وسمح لي أبناء عمتي أن استحدث ما أراه من التحسينات، فذهبت إلى إحدى المدن واشتريت منها بعض الأثاث الجديد. بيد أننا احتفظنا لبعض الغرف بطابعها القديم الذي كان يروق للأختين، فيريانه أروع مما هو مستحدث. وانتقيت نخبة من التحف الطريفة للزينة، فأضفى ذلك على "مورهاوس" رونقا وبهاء.

وجاء اليوم الذي ستصل فيه الفتاتان عند غروبه، فأوقدت نيران المدافئ، وارتديت أنا "وحنة" أبهى ثيابنا كما بدا المنزل مكتمل الرونق. وكان "سانت جون" أول من طرق الباب، فألفاني في المطبخ أشرف على إعداد الكعك والشاي، ودعوته أن يجول بأنحاء المنزل ليشاهد ما استحدث به. وكان يكتفي بإلقاء نظرة عابرة خلال الأبواب. وأبدى دهشته مما رأى، وحدثني أنني لابد كابدت كثيرا من العناء لإتمام هذه التغييرات في فترة قصيرة. بيد أنه لم يفصح عن اغتباطه لما حظيت به غرفته، وحدست أنه ربما لم يرتح لتغيير معالم كان يعتز بها، بيد أنه نفى ذلك وذكر أنني أوليت تلك الغرفة من العناية أكثر مما تستحق. وإذ بلغنا حجرة الجلوس، أبدى دهشته لما رأى وسألني فجأة:

– أين الكتاب الذي كان هنا؟

– فأشرت إلى رف في الحجرة وقلت له:

– ها هو ذا..

فتناول الكتاب.. وجلس عند حافة النافذة كسابق عهده وشرع يتصفحه.

وطالعتنا "حنة" عند باب الحجرة وهي تصيح:

– لقد أقبلتا.. بعد لحظة تكونان هنا..

ونبح الكلب العجوز معبرا عن ابتهاجه. فهرعت إلى خارج الدار، وكان الظلام قد أرخى سدوله، فلم أتبين شيئا. بيد أنني سمعت جلبة عجلات، وأوقدت "حنة" المصباح. وفي هذه اللحظة وقفت غربة أمام الباب الخارجي.. فهبطتا منها، وما هي إلا لحظة حتى كنا ثلاثتنا نتبادل القبلات، ثم عانقتا "حنة" وربتتا الكلب الذي أخذ يرقص من الفرح وأسرعتا إلى الداخل.

وكان قد نال منهما التعب لطول شقة السفر وبرودة الطقس، وسرعان ما دب فيهما النشاط وانبسطت أساريرهما بعد أن استشعرا الدفء. وسألتا عن أخيهما، وقد أخذت "حنة" والحوذي ينقلان المتاع. وأقبل القس في تلك اللحظة فاندفعتا إليه في وقت واحد، فبطع قبلة على جبين كل منهما ورحب بقدومهما. ثم عاد إلى حجرة الجلوس، وهو يرجوهما أن تلحقا به هناك.. فصعدتا في سرعة، واغتبطتا للتحسينات التي أدخلت على غرفتهما، ودهشتا لما رأتاه من تحف للزينة وأوعية للزهور فأعربتا عن اغتباطهما وشكرهما فأشاع ذلك السرور في نفسي.

وكانت ليلة من ليالي العمر.. أفاضت فيها ابنتا عمتي في الحديث وقد استخفهما الطرب. فطغت ثرثرتهما على جمود أخيهما الذي ابتهج برؤيتهما، ولكن في صمته المعهود دون أن يجاريهما. وسرته عودتهما وإن ضاق بثرثرتهما، فكان يقطع الوقت بصبر نافد. ومرت فترة من الوقت بعد تناول الشاي، وإذا بطرقات على الباب وأقبلت "حنة" تقول:

- بالباب صبي مسكين ينشد سيدي لأمة أمه تحتضر..

فسألها القس:

- وأين تسكن يا "حنة"؟

– قريبا من "هوايت كروس" على بعد أربعة أميال في ذلك الطريق المملوء بالمستنقعات..

– أخبري الصبي أنني في طريقي إليه..

– لعل من الخير ألا تذهب يا سيدي.. فالطريق غير مأمونة بعد الغروب، تضيع معالمها خلال المستنقعات والريح زمهرير والليل حالك، وأحرى أن تخبر الصبي أنك ستذهب عند انبلاج الصبح.

بيد أنه لم يعر كلامها اهتماما.. وكان قد بلغ الردهة وقد تدثر بعباءته.. فرحل دون ما كلمة. وكانت الساعة حينذاك التاسعة، ولم يعد إلا في منتصف الليل وقد استبد به التعب والجوع. ولكنه بدا سعيدا إذ أدى عملا إنسانيا من واجباته الدينية، وضرب أروع المثل على إنكار الذات، وطابت نفسه بذلك.

وخيل إلي أن صبره قد نفد في الأسبوع التالي، وكان أسبوع عيد الميلاد. وقد قضيناه في مرح منزلي. وقد استردت "ديانا" و"ماري" حيويتهما ونشاطهما من أثر التحرر والهواء وفجر الشتاء المشرق. فكانتا لا تكفان عن المرح أو الكلام طول النهار، وقد أذهلتني بديهتهما وفطنتهما حتى أنني كنت أوثر الإنصات إلى مناقشاتهما على الاشتراك فيها. ولم يبد على "سانت جون" أنه كان يبرم بذلك الصخب، بل كان يكتفي بأن يفر منه، فكان يغادر الدار متنقلا بين أرجاء ابرشيته، يقضي الوقت في زيارة المرضى والمحتاجين.

وذات صباح، وكانت "ديانا" قد استغرقت في التفكير.. سألت أخاها عما إذا كان قد بدل مشروعاته، فأجابها في حزم:

– لم تتبدل يا عزيزتي.. ليس هناك ما يدعو إلى تبديلها..

وأنهى إلينا أنه قرر بصفة نهائية أن يرحل عن انجلترا خلال العام التالي...

والتففنا أنا والأختان حول "سانت جون" في موعد النوم ذات مساء لنحييه متمنيات له ليلا طيبا.. فطبع قبلة على جبين كل من أختيه كعادته، وبسط لي يده، وكانت "ديانا" في أوج مرحها إذ كان قد استعصى عليه أن يسلس قيادها، فهتفت فجأة:

– اعتدت يا عزيزي أن تدعو "جين" شقيقتك الثالثة.. فمن عجب أن لا تعاملها مثلما تعاملنا.. لماذا لا تقبلها هي الأخرى؟..

ثم دفعتني نحوه، فشملني الضيق وشعرت باستياء شديد. وبينما أنا في غمرة ذلك الشعور، إذا "بسانت جون" وقد حني رأسه وقرب وجهه الدقيق التقاطيع من وجهي، وأخذت عيناه تخاطبان عيني بنظرة حالمة... ثم قبلني...!

وما دار بخلدي في يوم من الأيام أن هناك قبلات جامدة باردة كالثلج، فقد كانت قبلته من هذا النوع. ولعلها كانت اختبارية.. قد أخذ بعدها ينظر إلي مليا ليستشف أثرها الذي لم يكن رائعا. فلم يتضرج وجهي حياء، وإن كان قد علاه امتقاع خفيف لأنني أحسست أنها رباط يؤكد أغلالي. وصارت هذه عادته، ولعله كان يستشعر إحساسا خاصا بالفتنة للرزانة التي كنت أقابل بها قبلاته.

ولا يذهبن بك الظن أنني نسيت مستر "روشستر" في غمرة هذه التطورات، فقد ظل ماثلا في خيالي ولم أنسه لحظة واحدة لأنه لم يكن أثرا على رمل يطيح به الهواء، وإنما كان رمزا حفر بين ثنايا قلبي ليبقى ما بقى ذلك القلب نابضا. فكانت اللهفة إلى ما آل إليه أمره تلاحقني وتلازمني...

وأثناء مراسلتي لمستر "بريجز" في أمور تتعلق بالوصية، كنت أسأله أن يوافيني بأنباء مستر "روشستر" وصحته. واتضح لي كما ذكر "سانت جون" أنه

يجهل كل شيء عنه. فاتجهت إلى مسز "فيرفاكس" أتوسل إليها أن توافيني بأنباء مستر "روشستر" يحدوني الأمل في أنها لابد ستبعث إلي بما أطلب. وكم كنت أشعر بالألم والدهشة حتى ينقضي الأسبوع تلو الأسبوع دون أن أتلقى رداً، ثم تمر الشهور يرد خلالها البريد وليس فيه الرسالة التي أنشدها. وكتبت مرة أخرى ظنا مني أن رسالتي الأولى ربما تكون قد فقدت. وجدد ذلك الأمل في نفسي. وعندما انقضى نصف عام دون طائل، أخذ الأمل يتضاءل ويخبو حتى ضاع، فانطويت على نفسي في مرارة قاتلة.

وذات يوم دعاني "سانت جون" للنزهة معه وجدنا. وكان النسيم عليلا يحمل إلينا شذى الزهور، والسماء صافية.. ومياه الجدول تتهادى وتنعكس عليها أشعة الشمس. ورحنا نسير فوق أرض سندسية خضراء، ترصعها زهور بيضاء وورود مختلفة الألوان كأنها نجوم. وطوقتنا التلال فحجبتنا عن العالم، وبلغنا بعض الصخور. فقال:

– ألا نستريح هنا قليلا؟..

وجلسنا.. ومرت فترة طويلة من الزمن دون أن يتكلم أحدنا. وأخيرا قال:

– سأرحل بعد أقل من شهرين يا "جين". وقد حجرت لي مكانا على الباخرة التي تقلع في منتصف شهر يونيه...

– ترعاك عناية الله ما دمت تضطلع برسالته المقدسة...

– نعم.. ففي ذلك مجدي في الدنيا والآخرة، لأنني في خدمة الرب وليس تحت نفوذ إنسان. فأنا أبعد عن القوانين المبتورة، ولن أكون تحت سيطرة بشرية ضعيفة.. فربي الذي اتتبع خطاه وأسير على وصاياه هو الكمال المطلق.. وكم يدهشني ألا أرى من حولي، من يتحرقون شوقا إلى أن يحذوا حذوي..! أنني

موقن أن الله والطبيعة قد أعداك لتكوني زوجة رجل من رجال الدين.. فلم يخلعا عليك ميزات الجسد، وأثراك بمواهب العقل، فأنت خلقت للعمل لا للحب.. فلابد لك من ذلك.. ستكونين زوجتي.. وإن كنت أطلب ذلك فليس للمتعة الفانية، ولكن لغرض أسمى هو خدمة الرب..

– يؤسفني أن أصارحك أنني لا أصلح لذلك..

وكأنه كان قد رتب الأمر، ووضع في الاعتبار اعتراضاتي.. فقد ظل ثابتا لا يضطرب، واسند ظهره إلى الصخرة، ثم عقد ذراعيه على صدره، وتشبث بجموده. ففهمت أنه أعد نفسه لشتى فنون المعارضة، وتزود من الصبر بذخيرة، ووطن العزم على أن ينتصر، مهما كان الأمر. فقال:

– "جين".. أن التواضع من أهم دعائم الفضائل المسيحية. فلا يدهشني أن تصاريحيني أنك لا تصلحين للعمل.. ومنذا يصلح له.. بل منذا كان يرى في نفسه الجدارة للقيام بالرسالة عندما دعى لأدائها.. فأنا– مثلا– كيان مصيره إلى زوال، وعندما قارنت نفسي بالقديس بطرس.. اعترفت بأنني خاطئ. بيد أن هذا الشعور لا يعذبني إلى الحد الذي ينأى بي عن العمل.. أنني مؤمن بربي.. وهو عادل وجبار. وإذا كان قد اختارني– وأنا ضعيف– لهذه المهمة الجليلة، فإنه ولا شك يمنحني عونا من لدنه وحكمته.. ففكري كما أفكر يا "جين"!

– أنني أجهل تماما هذه الأعمال.. فما درستها يوما من الأيام..

– يمنح الله ضعفي قوة فأقدم لك العون.. باستطاعتي أن أبصرك بالمهمة وأقف إلى جوارك. وسرعان ما تكتسبين قوة وكفاءة.. فأنا أعرف مدى عزمك ومقدرتك!

– ماذا تقول؟.. مقدرتي.. أين هي من مثل هذه المهمة؟.. أنني لا أكاد أحس بها. أنني لا أشعر بهاتف، ولا تتأثر أعماقي لما تقول.. ولا استشعر قبسا من نور ينبثق في نفسي أو تدافعا وإقبالا.. بودي أن أصارحك أن أفكاري مشتتة يحيط بها سياج من الخوف.. فأنا أخشى أن أضعف أمام إغرائك، فأتخبط فيما لا استطيع تحقيقه..!

– اسمعيني.. لقد راقبتك جيدا، وجعلتك موضوعا لدراستي لعدة أشهر، فلمست استعدادك بعد طول اختبار. ووجدتك تؤدين في إخلاص ودأب عملا لا يتلاءم مع ميولك، ومع ذلك أديته في براعة فائقة وأمكنك أن تكسبي قلوب الجميع. وفي الهدوء الذي تلقيت به نبأ الثروة التي آلت إليك، رأيت منك زهدا في الذهب وبريقه. فأيقنت أن ليس لعرض الدنيا الزائل سلطان عليك، وأكد ذلك مبادرتك إلى التضحية وتقسيم الإرث بحيث ينالك الربع وأن تعطي الباقي لمن رأيت أنهم يستحقونه شرعا. ورايتك تتعشين وتطيب نفسك بذلك.. هذه هي الخصال التي أنشدها.. فأنت وادعة كالحمامة، مثابرة في الواجب والحق، لا تجتذبك مصلحة دنيوية.. فأنت أهل لخدمة الرب، فانزعي عن نفسك عدم الثقة بها، وثقتي فيك لا حد لها، وأنا انتظر منك جليل الأعمال كمرشدة في المدارس الهندية، ومعاونتي في نشر رسالتي هناك..!

– إنني لا أمانع في الذهاب إلى الهند، إذا قدر لي أن أبقى حرة من أي قيد.

– هذا كلام فيه غموض يحتاج إلى مزيد من إيضاح..

– أنك تعتبرني أختك كما أنني اعتبرك أخي.. فلنستمر على هذا الوضع، ومن الخير لنا ألا نرتبط برابطة الزوجية.

– هناك اعتراض على ما تقولين، فلو أنك كنت أختا شقيقة لما احتاج الأمر إلى أن أبحث عن زوجة. أما بوضعنا هذا فلابد أن ندشن علاقتنا بصبغة شرعية، وإلا فلن يكون لصلتنا وجود.. فكري يا "جين" وسوف يرشدك إدراكك وفطنتك..

– قلت أنني اعتبرك أخي.. وكذلك تنزلني أنت من نفسك منزلة الأخت.. فمن الخير أن نبقى كذلك..!

– كلا.. كلا.. لا نستطيع.. ستذهبين معي إلى الهند.. فتذكر هذا جيدا..

– لقد ذكرت لك أنني على استعداد.. بمحض إرادتي وطائعة لأن أذهب معك كزميلة.. وليس كزوجة.. وأنا أكرر ذلك لأنه ليس باستطاعتي أن أغدو زوجتك..! وجزءا منك..!

– بل أنني رأيت ذلك.. وإلا.. فكيف ينظر الناس إلي– وأنا شاب– وأنا أصحب فتاة شابة إلى تلك البلاد دون أن تربطنا رابطة الزوجية؟.. وكيف نستسيغ عشرتنا التي لا تخلو أحيانا من خلوة والتعلل بأنك أختي بعيد عن الواقع، فضلا عن أنه قد يثير الأقاويل فأنت أولا وأخرا امرأة..

– حقا أنني أراه.. ولكن قلبي بمنأى عن الأنوثة، وستربطنا رابطة زمالة ويمكنك أن تقول أخوة..

فقال وقد شرد بفكره:

– لن يكون زواجنا مبعث ندم لك يا "جين"، واعتقد أن ليس أمامنا سوى هذا السبيل، وستجعلك الأيام ترضين..

فنهض، وقد استبد بي الضيق، وقلت:

– أنني لا استسيغ حبا تفرضه مثل هذه الظروف، واشعر بالازدراء للعاطفة غير الطبيعية التي تعرضها.. بل أنني أنكر عليك أن تعرضها..!

فرشقني بنظرة ثاقبة، وجز على شفتيه.. ولا أدري إن كان قد فعل ذلك ضيقا أو يأسا أو أنه أخذ بما قلت. وبعد فترة صمت أجاب:

– أنني لم أفعل ما استحق عليه الازدراء، ولم يخطر ببالي قط أن تكلميني بهذا الأسلوب وعلى ذلك النحو.

قال ذلك بلهجة تفيض عذوبة أثرت في نفسي، فقلت:

– معذرة لما نطق به لساني، بيد أنك اضطررتني إلى ذلك بعرضك أمرا لا يتفق مع طبيعتي.. وأرجو أن يكون الآن آخر عهدنا بالخوض فيه. فالحديث عن عاطفة الحب ينفرني، فاطرح جانبا فكرة الزواج..

– بل أنني فكرت مليا في ذلك، ووجدت أنه أهم دعائم رسالتي.. ويمكنني أن أقول أنني لا أتعجلك في ذلك. فسأقضي أسبوعين في "كمبردج" لأودع بعض الأصدقاء، وهي فرصة متاحة تفكرين فيها على ضوء أنك في رفضك تتمردين على إرادة الله التي تشاء لك الحياة العليا والتي لا سبيل إليها إلا عن طريق الرباط المقدس.

وانتهى حديثه عند هذا الحد، فلاذ بالصمت الذي تبينت فيه ما يخالجه من أحاسيس نحوي.. استياء من رفضي فكرة الزواج حيث كان يأمل ويتوقع ترحيبي. وعرفت أنه تقبل أعراضي بجلد لأنه خالص في تقواه.. ولم يقبلني في تلك الليلة كما قبل شقيقتيه، وحتى لم يصافحني.. بل غادر الحجرة في وجوم، فتألمت لهذه الجفوة بالرغم من أن قلبي يكن له الصفاء، فجاشت نفسي بالألم وطفرت الدموع من عيني. ولاحظت "ديانا" ذلك فقالت:

– لعلكما تشاحنتما أثناء النزهة.. أرى أن تلحقي به فإن يتعمد السير في بطء. انتظارا لذلك كي يصفو الجو بينكما..

ولم تدفعني كبريائي على رفض الفكرة، فهرولت في أثره ولحقت به عند أول الدرج وقلت له:

– طابت ليلتك يا "سانت جون"..

فأجاب في وداعة الملائكة:

– طابت ليلتك يا "جين"..

– هلا تصافحنا..؟

فشد على يدي بقبضة في برودة الثلج متراخية لأنه كان يعاني مما حدث ضيقا شديدا. ولم تتحرك شفتاه بابتسامة أو كلمة، فقد قابل الصدمة صابرا. وسألته عما إذا كان قد صفا قلبه وعفا.. أجاب:

– أن التجارب لا تعلق بذهني.. وكذلك أثرها.. ليس هناك ما يستوجب الصفح، فلم تلحقني إهانة..!

فكان في رده أقسى مما لو كان صفعني أو لطمني.. ثم غادرني وسار في طريقه..

الفصل الخامس والعشرون

أيام هانئة

اتضح لي أن لا جدوى من التشبث بوسيلة الخطابات والمراسلات بعدما ضاع أملي في ورود رد.. فلا مناص لي من التماس نشاط آخر، فعولت على أمر، وفاجأت الأختين ونحن على مائدة الفطور بقولي: "سأتغيب في رحلة لبضعة أيام..".

فأخذتهما الدهشة وسألتاني معا: "ترحلين وحدك يا "جين"؟!

– لا ضير في ذلك، فلي صديق أقلقني عدم ورود أنباء عنه.

وأذهلها تصريحي بوجود صديق لي لأنني كثيرا ما رددت على مسامعهما أن ليس لي أصدقاء.. بيد أن دماثتهما لم تسمح لهما بالتعقيب، إلا من الناحية الصحية حيث ذكرت "ديانا" أنها تستشف من شحوبي أنني بحاجة إلى الراحة، فقلت لها:

– أنني لا أعاني إلا من القلق!

ورحلت بعد الظهر.. وبعد ساعة بلغت "هوايت كروس" عند إشارة الطريق، ووقفت انتظر العربة التي أستقلها إلي "ثورنفيلد". ولم ألبث طويلا حتى تناهى إلى سمعي صوت العربة وهي تقترب.. وإذا بها نفس العربة التي أقلتني منذ عام. كنت وقتها بلا هدف، فإذا بها الآن تنقلني إلى "ثورنفيلد" وكأنني حمامة تعود إلى موطنها.

وظللت ستا وثلاثين ساعة.. قضتها العربة في المسير خلال حقول ومروج وتلال ليست غريبة عن عيني. وتوقفت العربة عند أحد الفنادق كي ترتوي الخيل. وقد عرفت من صاحب الفندق أن ليس بيني وبين "ثورنفيلد" سوى ميلين. وتركت بالفندق حقيبة أمانة استردها عند عودتي.. فنقدت الحوذي أجرا سخيا..

وأخذت أسير على قدمي.. ووقع نظري على لافتة الفندق، فإذا مكتوب عليها: "فندق ضيعة روشستر" فخفق قلبي.. بيد أن هاتفا أهاب بي:

– لعل السيد خارج انجلترا الآن..! وبفرض أنه بالقصر وأنت تحثين السير إليه.. ترى من تكون معه الآن؟.. زوجته المخبولة؟ وهل من حقي أن أعود إلى حياته؟ أحرى بي أن أتريث، وأن أتسقط الأنباء من الفندق أولا.. حتى أسير على هدى من أمري..

وطابت نفسي بالفكرة، بيد أنني توجست من تنفيذها، فقد خشيت أن تصدم آمالي.. وفي الأمل تعلق بالحياة على كل حال. ومن ثم فقد سرت حثيثا في تفكيري حتى أنني كنت أركض في بعض الأحيان، وقد انتشيت برؤية الغابات الحبيبة إلى نفسي، وجاش قلبي بشتى المشاعر والعواطف. وأخذت أزيد من سرعتي كي أتعجل رؤية القصر وأنا أحدث نفسي:

– لسوف تطالعني نافذة سيدي، وربما وجدته مطلا منها.. فمن عادته أن ينهض مبكرا، أو لعله يتمشى الآن في الحديقة، لو كان مقدرا لي أن أراه.. أنني أخشى على نفسي من الهوس فأندفع إليه.. وماذا يكون الأمر عندئذ؟! حماه الله.. ماذا لو سعدت بالحياة أنهل منها في فيض حنانه؟.. آ..ه أنني أهذي، فربما هو الآن فوق قمة أحد الجبال أو عند بحار الجنوب!

وأردت أن استفسر من صاحب الفندق، حين قدم لي الطعام، عن أنباء السيد، ولكنني خشيت أن أصدم في آمالي. وارتبكت.. ثم هدأت من جيشاني وسألته: "هل تعرف "ثورنفيلد"؟..".

– طبعا يا سيدي.. فقد قضيت فيها فترة من الزمن، كنت فيها ساقيا للمرحوم مستر "روشستر"..

وكأنما وقعت كلمة "المرحوم" كوقع اللطمة ذهبت برشدي، فهتفت وأنا أشهق: "المرحوم..؟!".

– أنني أعني مستر "روشستر" الكبير.. والد السيد الحالي مستر "ادوارد"..

وكأنما انزاح عن صدري عبء ثقيل، فتنفست الصعداء، وجرى الدم في شراييني بعد أن كاد يتوقف.. واستشعرت بردا وسلاما عندما قال مستر "ادوارد".. إذن فأعز إنسان لدي، وأقرب شخص إلى قلبي لا يزال حيا. وشعرت بالطمأنينة، بل تاقت نفسي وتلهفت إلى سماع ما يلي ذلك.. مهما كان الأمر. وعدت أسأله وإن كنت أعرف جوابه مقدما:

– هل يقيم مستر "روشستر" في قصره الآن؟..

– كلا يا سيدتي.. فالقصر خاو على عروشه، ويبدو أنك غريبة، وإلا لكان قد بلغك ما حدث في الخريف الماضي.. فقد احترق القصر وتحول إلى أطلال.. وكانت الكارثة تعز على الوصف. فقد اندلعت النيران ليلا، فأتت على القصر قبل أن تدركه عربات المطافئ.

ووجدتني أغمم دون وعي: "في بهيم الليل.."

وسألته عن سبب الحريق وعن الفاعل فقال:

– لعلك لا تعلمين أنه كانت بالقصر سيدة مجنونة.. حبيسة تحت حراسة ورقابة شديدتين، وكتم خبرها حتى عن سكان القصر.. وتناقلت الشائعات أن السيد جاء بها من الخارج، وفي رواية أخرى أنها خليلته.. ولكن أمرا عجيبا حدث.. منذ عام!

وجال بخاطري أنني سأسمع عن نفسي وما تخلل حياتي بالقصر.. وصدق ظني، إذ استطرد الرجل يقول:

– اتضح أن المرأة كانت زوجة مستر "روشستر"..

وقاطعته كي أحول بينه وبين الاسترسال وكي أحوله عن هذا الموضوع، فسألته عن الحريق. ولكنه استرسل يروي كيف أن السيد هام حبا بمربية شابة في قصره. وقد ظل يهيم بها حتى بعد أن هجرته. ويذكر الخدم أنه كان يعيش في ذكراها، مع أنها– على حد قولهم– لم تكن جميلة، ولكنه كان بها مفتونا!

وأردت أن أحوله عن هذا الحديث مرة أخرى، فسألته:

– هل حامت شبهة الحريق حول السيدة المجنونة؟

– أن هذا مؤكد يا سيدتي.. فإنها دون غيرها التي أشعلت النار. قامت على حراستها امرأة متيقظة اسمها "جريس بول" كانت تدأب على معاقرة الخمر طول الليل. وحين تنام مخمورة، تغادر السيدة المجنونة غرفتها.. وكانت شديدة المكر، فتجوس في أرجاء القصر فترتكب أي جرم يخطر لها. وقد أشعلت النار مرة بالغرفة المجاورة لها، ثم هبطت إلى غرفة المربية.. وكأنها أدركت قصة غرام السيد بها، فحقدت على الفتاة وأشعلت في فراشها النار، بيد أن صاحبته لم تكن فيه لحسن حظها، إذ كانت قد غادرت القصر منذ شهرين. وبذل مستر "روشستر" جهودا مضنية في البحث عنها وكأنه فقد جوهرة نادرة.. ومنيت

جهوده بالفشل، فاستبد به اليأس وتحولت دماثته إلى شراسة وأصبح يخلد إلى الوحدة.. فسرح مسز "فيرفاكس" بعد أن رتب لها معاشا سنويا وأرسل الطفلة "أديلا" إلى إحدى المدارس، ونأى عن جميع معارفه وركن إلى العزلة كالمتعبد. ولم يكن يخرج إلا في الليل يضرب في الخلاء، وكأنه روح هائمة أو شخص مسه خبل..!

– أفهم من ذلك أنه لم يكن داخل القصر حين اشتعلت النار!

– بل كان به، وصعد إلى الطابق العلوي والنار تحيط به.. فأيقظ الخدم ونبههم إلى الخطر وحثهم على النجاة. ثم ذهب إلى حجرة المخبولة– زوجته– وسمع صراخا عرف منه أنها فوق السطح، تلوح بذراعيها وتصيح في صخب، فصعد إليها وراح يناديها "بيرتا" وهو يقترب منها، فإذا بها تجفل ثم تصرخ مولولة.. ثم تقفز في اللحظة التالية وتقع على إفريز القصر وقد تهشم جسدها!

– هل تعني أنها ماتت؟..

– أصبحت جثة هامدة كالصخر الذي وقعت عليه، فقد تناثر مخها وانبثق دمها..

وكأنما بعثت الذكرى في الرجل رهبة، فارتجف.. وسألته عما حدث بعد ذلك فقال

– أتت النار على القصر.. ولم يمت سوى السيدة المجنونة. وليت السيد قد قضى إذ ذاك، فقد قال البعض أنه نال جزاء محاولته الزواج بينما له امرأة على قيد الحياة.. ولكني أرثي له يا سيدتي!

– ألا يزال حيا؟..

– نعم يا سيدتي، وإن كان كثيرون يفضلون لو أنه قضى..!

وشعرت بالدم ينبض باردا في شراييني.. فسألته في لهفة:

– لماذا؟.. وأين هو الآن؟.. هل غادر انجلترا؟

– كلا يا سيدتي.. أنه في انجلترا وليس باستطاعته أن يغادرها.. فهو الآن كفيف..!

وهصر الحزن قلبي.. وزاد الرجل من لهفتي بصمته قبل أن يستطرد ليقول:

– لقد فقد بصره.. وكنت أخشى أن يكون قد فقد عقله..

ونال مني الموقف فسألته في لهث ووهن عن سر نكبته، فقال:

– أبت شهامته كما أبت مروءته أن يفر من القصر قبل أن يبرحه كل فرد فيه. وإذ كان له ذلك هبط عن طريق السلم الرئيسي، بيد أن كل شبر في القصر كان قد انهار. فأنقذوه حيا من تحت الأنقاض، ولكن في حال يرثى لها.. رأف به القدر، فسقط فوقه لوح من السقف ووقاه النار والأنقاض، ولكنه أصاب إحدى عينيه فأفقدها البصر، وأصاب إحدى يديه حتى اضطر الطبيب إلى بترها فورا. وكانت النيران قد أودت بعينه الثانية.. وهو الآن كفيف.. عاجز!

وسألته في لهفة شديدة: "وأين يقيم الآن؟.."

– في دار صغيرة بضيعة يملكها في "فرندين" على بعد عدة أميال من هنا.. في بقعة منعزلة بعيدة عن العمران..

– وهل يقيم معه أحد؟..

– لقد اصطفى "جون" العجوز وزوجته، فأبى أن يعيش معه سواهما.. ويقال أنه قد أصبح محطما..

وإذ ذاك طلبت إلى الرجل أن يسرع في إعداد عربة تحملني إلى "فرندين" في التو، وضاعفت الأجر له ولحوذيه..

***

كان المنزل الذي أقام به مستر "روشستر" صغيرا عتيقا ليس فيه إبداع هندسي، قال في بطن الغابة. وسبق أن حدثني عنه السيد في معرض أحاديثنا، وذكر فيما ذكر أنه مجهور، وغير صحي، وليس به إلا قليل من الأثاث..

وبلغت البيت عند غروب يوم ممطر شديد الرياح. وكنت قد صرفت الحوذي قبل أن أبلغ البيت. وكانت الغابة متشابكة تحول دون رؤيته.. وصادفتني بوابات حديدية مررت خلالها، فإذا بي في طريق تكسوه الحشائش وتقوم على جانبيه أشجار، ظننتها الطريق إلى المنزل.. ولكن خاب ظني، فقد امتدت وتشعبت دون أن ألمح أثرا له. وخيل إلي أنني ضللت الطريق.. وتكاثفت على الظلمة. ولكني تابعت سيري.. وأخيرا لاح لناظري. ثم بلغت الباب، وكان السكون يخيم على المكان فيما عدا صوت المطر وهو يتساقط. وشككت في أن يكون في هذا المكان أحياء، حتى سمعت أزيز باب يفتح ثم برز منه شخص وقف عند عتبته. وتبينت فيه رجلا يبسط ذراعيه ليتحسس انهمار المطر، وعرفت فيه سيدي "ادوارد روشستر"!

وغمرني الأسى وأنا أرقبه دون أن يراني، وشل الموقف حركتي وأمسكت أنفاسي. لقد فوجئت برؤيته، فجاشت نفسي بالعواطف، وأحسست أن ليس باستطاعي أن أنطق بكلمة. وكانت قامته فارعة كعهدي بها، بيد أنني حين

اقتربت قليلا تبينت تغيرا في أساريره ينم عن هم قاتل وألم دفين مضن. وآثرت ألا أفاجئه، فأخذت أرقبه، ووجدته يسير على مهل نحو مكان مخضر في الساحة، ثم وقف حائرا، وكشف عن حدقة عينيه من بين أجفانه.. وتطلع إلى السماء كمن يراها.. ثم تلمس طريقه عائدا إلى البيت فدخله..

وطرقت الباب برفق، ففتحته زوجة "جون" فقلت لها:

– أنني لا أصدق أني أراك يا "ماري".. كيف حالك يا عزيزيت؟

وأخذتها المباغتة فأجفلت وكان أمامها شبحا.. وهدأ روعها بعد لحظة فهتفت: "كيف جئت وحيدة إلى هنا في هذه الساعة؟!"

وقادتني إلى المطبخ حيث وجدت "جون" بجوار المدفأة.. وأوضحت لهما في إيجاز كل ما بلغني من أحداث منذ رحيلي، وأنني جئت لأرى مستر "روشستر". ورجوت "جون" أن يذهب ويعود بحقيبتي التي تركتها في كوخ عندما بارحت العربة..

وفيما أنا وماري نتبادل الحديث، وأنا أسألها عما إذا كان في الإمكان أن أقضي الليلة هنا.. سمعت رنين جرس حجرة الجلوس، خفت "ماري" على أثر سماعه، فرجوتها أن تخبر السيد أن ثمة إنسانا يرغب في لقائه دون أن توضح له اسمي.. فقالت:

– أعتقد أنه لن يقبل.. لأنه يرفض مقابلة أي شخص..

وعادت بعد لحظة لتقول:

– أنه يطلب أن تكتبي له اسمك والسبب الذي من أجله قدمت.. ثم راحت تعد كوب ماء، وتضعه على صينية مع بعض الشموع، وهي تقول: "أنه يحب أن تضاء الغرفة بالشموع رغم أنه كفيف.."

– إلي بالصينية يا عزيزتي.. سأحملها أنا إليه..

وأرشدتني إلى باب الغرفة التي بدت كئيبة.. وقد مال السيد على المدفأة وأسند رأسه على حافتها، بينما قبع كلبه "بايلوت" بعيدا في أحد أركان الغرفة كأنما لكيلا تتعثر به قدما سيده. وتنبه الكلب لدخولي، فقفز وأرسل نباحا خافتا وهو يقترب مني.. ووضعت الصينية على المنضدة، وربت على رأس "بايلوت" وهمست إليه ليستكين ويعود. والتفت مستر "روشستر" بحرك لا إرادية كمن يريد أن "يبصر" ما يجرى.. ثم تنهد وقال:

– ناوليني الكوب يا "ماري"..

فقدمتها له، فتبعني "بايلوت" وهو يزوم، وفطن السيد لذلك فقال: "ماذا؟.."

وعدت أهمس للكلب أن يهدأ، فامسك السيد بالكوب ثم قال:

– ماري..!

فأجبت في صوت سكبت فيه كل مشاعر الحنان:

– أن "ماري" في المطبخ يا سيدي..

وبسط ذراعه في حركة سريعة.. ولم يمسني لأنه لم يكن يراني، وصاح وهو يحاول أن يرى:

– من أنت إذن؟.. أجيبي؟..

هل تريد كوبا أخرى يا سيدي.. فقد سكبت معظم الماء؟ فصاح مزمجرا: "من تتكلم..؟"

– عرفني "بايلوت".. و"جون وماري" يعلمان بوجودي.. لقد وصلت الآن..

– أفي حلم أنا.. أم حقيقة عذبة؟

– لا حلم ولا وهم.. أن عقلك أمنع من أن يغشاه وهم..

– أين أنت؟.. أم هو مجرد صوت أسمعه؟.. أواه!... لقد فقدت حاسة البصر فلابد لي أن ألمس، وإلا توقف قلبي وانفجر مخي.. وفقدت الحياة..!

وبسط يده يتلمس، فأخذتها في حنان بين راحتي.. فصاح:

– رباه.. أنها نفس أناملها الدقيقة.. لابد أنها هنا..!

وسحب يده ثم أمسك بذراعي وخصري، وضمني إلى صدره وهتف: "نعم أنها "جين"!.."

– بصوتها ولحمها ودمها.. وقلبها أيضا.. لقد افتقدتك.. وعدت إليك...

– أحقا ما أسمع.. أحقا أنت "جين اير"؟!

– ها أنت ذا تلمسني يا سيدي.. وتضمني.. فما أنا شبح بل حقيقة ماثلة أمامك..!

– حقا.. هذه قسماتك يا حبيبتي. أقدر لي النعم بعد تعاسة؟. لا أكاد أصدق! فلعله حلم من الأحلام التي طالما راودتني.. هل أصدق أنك لن تفارقيني؟ قبليني يا "جين"..

– سيكون لك ذلك.. ولن أفارقك بعد اليوم.

وقبلت عينيه اللتين زايلهما النور بعد تألق.. ثم قبلت جبينه، فوجدته ينهض كأنما أدرك أنه ليس في حلم وهتف:

– أنت حقا "جين".. ولقد عدت إلي.. ولست هائمة في الدنيا!

– اطمئن يا سيدي.. أنني أملك زمام نفسي.. فقد مات خالي وخلف لي خمسة آلاف جنيه.

– إذن أنت الآن ثرية.. فماذا يدفعك إلى البقاء بجانبي؟.. أكاد لا أصدق..!

– لا شيء غير ذلك.. إذا لم يكن يضيرك.. سأكون أنيستك وممرضتك.. وسأكون العين التي تقرأ بها وتسير معها.. فاطرح عنك الحزن، فلن تكون وحيدا ما دام في نفس يتردد..!

واسترسل في خياله وبدا شارد الفكر، ولم يجب.. فأخذت اسحب نفسي من أحضانه، ولكنه تشبث بي وقال:

– لا تتركيني يا "جين" لقد أسعدني مجيئك وأسرني نبيل شعورك، فأنت بالنسبة لي بمثابة الروح من الجسد.. أن قلبي يناديك.. وروحي تهفو إليك..

– سأظل معك يا حبيبي..!

– ولكن الوضع الآن يختلف عن ذي قبل.. تقولين أنك ستكونين لي ممرضة حنونا، وفي هذا ما يرضيني.. ولكن أحرى بي الآن أن أقف منك موقف الأب. ولا يستسيغ العقل أن تكرسي حياتك على تمريضي.. أنك زهرة متفتحة يا "جين".. تنتظر القطوف!

– ليس الزواج بذي بال لدي..

– بل يجب أن يكون في الاعتبار.. ها أنذا الآن جسد واهن مشوه.. وكفيف أيضا..

وانطبعت على أساريره معالم الأسى.. أما أنا فقد فهمت ما يرمي إليه، فاغتبط قلبي وقلت: "لا عليك مما ذكرت.."

ثم بسط ذراعه التي بترت يدها، وكأنما يؤيد كلامه بالبرهان، فقلت:

– أنني استشعر الأسى لما آلت إليه حالك.. ولكن أخشى أن أصارحك أنها تحفزني على مضاعفة حبي..!

– ظننت أنها ستنفرك يا "جين"!

– لا تقل هذا وإلا طعنت في حكمة آرائك.. هل تراني..؟

– كلا يا عصفوري الصغير.. شكرا لله الذي أبقى لي القدرة على أن أسمعك وألمسك.. ويكفيني ذلك.

وأعددت له عشاء شهيا، وانتشت روحي فأخذت أتجاذب معه الحديث في غبطة. وشعرت في قرارة نفسي أنني ما زلت أثيرته، كما شعرت بأنني استعدت حياتي التي كنت افتقدتها.. فإذا حياة كل منا في وجود الآخر بجانبه، وكأننا روح واحدة تتقمص جسدين. وراح يمطرني بالأسئلة، فكنت أجيب في اقتضاب خشية إرهاقه بالسهر.. وكثيرا ما كان يتحدث إلي وكأنه طيف أو روح سمت إلى الملأ الأعلى قائلا:

– ما أرحم القدر.. هل عدت حقا يا "جين"..؟ كم كانت حياتي مقفرة مقبضة كئيبة؟.. وكان وقتي فراغا مملا.. لا أدري متى جاء الليل ومتى طلع النهار.. وكنت أتحرق شوقا إلى "جين".. كنت أتلهف على عودتها أكثر مما أتوق إلى استرداد نور عيني.. هل أنت معي حقا يا "جين"؟.. وأنني أسمعك ترددين ميثاق حبك لي..؟!

واستيقظ مبكرا في الصباح التالي، ودب فيه النشاط والحيوية.. فرح يسأل عني، فدلفت إلى غرفته في خفة ورحت أتأمله دون أن يفطن إلى وجودي، واستشعرت الأسى وأنا أرى تلك الروح العالية وقد قبعت في هيكل جسدي عاجز. وشقت تجاعيد الألم الدفين خطوطها على أساريره، فكان أشبه بتمثال جامد لبطل من أبطال السيف والقتال.. فتألمت للقوة التي تحولت إلى استكانة، وبذلت مجهودا كبيرا كي أكون مرحة في أحاديثي، وطلبت إليه أن نخرج للنزهة.. فأشرقت أساريره، وقضينا النهار في الهواء الطلق، ورحت أصف له جمال الخضرة وصفاء السماء. وجلسنا على جذع شجرة، فأجلسني على ركبتيه.. وصاح فجأة:

– يا لك من قاسية.. أنك لا تدركين ما تركه فرارك في نفسي.. ثم عندما عز علي العثور عليك، وبخاصة عندما تبينت أنك لم تأخذي معك نقودا أو متاعا..

فأخذت أروي له أمري.. حتى إذا انتهيت جعل يلاحقني بالأسئلة عن "سانت جون" بطريقة تدل على الغيرة. فلما ذكرته بالخير، أفلت زمام غضبه فرحت أهدئه وأؤكد له أن قلبي لم يعلق بأحد سواه.. فارتجفت يداه، وهو يشد بهما على ذراعي وسألني:

– هل تقبلين الزواج من رجل كفيف في ضعف عمرك تنقطعين لخدمته؟..

– ليس لي أمنية سواها يا سيدي.. فأنت اليوم أحب إلي من ذي قبل!..

– إذن فليبرك الله حبيبتي.. وليبارك زواجنا منذ هذه اللحظة وبعد ثلاثة أيام، تم زواجنا بالفعل في هدوء تام فلم يحضر العقد غير الشهود. ونعمت بسعادة لم أكن أحسبها تتاح لأهل هذه الدنيا.

وعلى الفور أرسلت إلى "هورهاوس" و"كمبريدج" ينبأ زواجي موضحة دواعي تصرفي هذا، ففرحت ديانا وماري.. ولكن سانت جون لم يبعث برد، فلم أدر ماذا كان وقع النبأ في نفسه. وبعد عدة شعور، بعث برسالة لم ينوه بها عن زواجي أو عن مستر "روشستر".. وصار يكتب لي بين الحين والحين متمنيا لي الهناء في حياتي..

وطلبت ذات يوم من زوجي أن يسمح لي بزيارة "أديلا" التي طارت فرحا بلقائي. وقد وجدتها هزيلة تحت وطأة الإرهاق من الدراسة، فعدت بها معي وألحقتها بمدرسة قريبة. وكنت أذهب إلى المدرسة لأراها كما كانت تحضر إلينا في أيام العطلة.

ومرت سنوات عشر، ذقت فيها حلاوة الشعور حين يكرس الإنسان حياته من أجل أحب الناس إليه. ويعجز لساني عن وصف مبلغ سعادتي وسعادة زوجي مستر "روشستر".. وما أظن واحدة بلغت ذروة السعادة مثلما بلغت. أن حبي له يزداد يوما بعد يوم وكذلك حبه.. فالرباط الذي ربط بين قلبينا أقوى من أن تؤثر فيه الأحداث مهما بلغت من الشدة والقسوة..

وظل مستر "روشستر" عامين دون أن يبصر، فكنت أنا العين التي يرى بها ويقرأ. ولم يضجرني ذلك لشدة حبي، كما كان هو يشعر بالراحة لخدمتي إياه مدفوعة بذلك الحب..

وحدث بعد انقضاء عامين على زواجنا– صباح ذات يوم– وأنا أسطر خطابا كان يمليه علي، أن سألني عما إذا كنت أتزين بحلية براقة– وكانت بعنقي سلسلة ذهبية– فأجبته "بنعم" فسأل:

– وهل ترتدين ثوبا أزرق هفهافا؟

– هو ذلك يا عزيزي..

– أنني شعرت منذ زمن أن نور عيني يرتد إلي رويدا..

أخذنا طريقنا إلى لندن حيث فحصه الأطباء.. فاستعاد أبصار العين وإن كان ضعيفا.. واستطاع أن يرى أبنه البكر عندما استقبله عند ولادته، وجاءت عينا الابن صورة طبق الأصل من عيني والده في عهدهما.. واسعتين متألقتين. وهكذا آمن مستر "روشستر" أن الله قد شمله برحمته..

وسارت أيامي سعيدة هانئة.. كما سعد أيضا أحب الناس إلي، فقد تزوجت "ديانا، وماري" أما "سانت جون" فقد اختار لنفسه الطريق التي آثرها.. فسافر إلى الهند بعزيمة لا تعرف الكلل ولا تهاب الأخطار، مكرسا حياته في خدمة الله والدعوة إلى الخير.

الفهرس